

تسویاسا

تسوياسا

آية عبد الرحمن

تصميم الغلاف: أحمد الصبّاغ

المراجعة اللغوية: آية عبد الرحمن

رقم الإيداع: 2017/5428

I.S.B.N: 978- 977- 85348- 2-5

الطبعة الأولى 2017م



للنشر والتوزيع

الإدارة: 17 ش عزت باشا المطرية، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

هاتف: 01147633268 - 01099387500

E – mail: zeinpublish2017@gmail.com

Facebook: Zein Publish

جميع الحقوق محفوظة ©

آية عبد الرحمن

تسوياسا

رواية



إهداء

إلى ندى علاء النجيجي

البعيدة القريبة، الأثيرة، الطيف الذي لا يفارقني، ولا يخفت دفاء وجوده مهما
اتسعت المسافات..

لله در المسافات يا ندى، ففيها جمالٌ لا يُرى عند الاقتراب.

تشو.. سايا.. تاكومي.. نانا.. داكي..

انفجرت الأسماء الخمسة في مسرح أوكيناوا المفتوح، تشكلها الألعاب النارية،
وفي مركز انفجارها كتبت آلاف النجوم الدقيقة اسمنا الأول.. تسوباسا.

علا صراخ الجمهور حتى بلغ النجوم، ولمس اسمنا المكتوب على صفحة
السماء، وحملته نسائم المحيط الباردة ليجوب العالم مع موسيقانا. كنت أركض
مع سايا لنضع لحن النهاية، ونانا وداكي يتنافسان أيهما يبلغ أسرع نقطة من
الإيقاع أولاً، وصوت تشو السلس يعلو ويعلو، ويبلغ ذروةً من الكمال خلاصة.

عقارب الساعة شاركتنا السياق بدورها، وسبقتنا، وارتفعت الدقات البعيدة
تعلن منتصف الليل، ونحن نضرب النغمة الأخيرة ونتوقف جميعاً في اللحظة
نفسها.

ومض اسم تسوباسا في السماء بضوء أزرق كهربائي، وبدأ يخبو، ثم يتألق
مجدداً بإيقاع ثابت لاحقه الجمهور بصياح موسيقي منتظم مثير، ترافقه أيادهم
المرفوعة، وقد اتخذت أصابعهم وضعية قبضة موسيقي الروك..

تسو.. با.. سا..

تسو.. با.. سا..

تسو.. با.. سا..

بدأت أضواء المسرح في الانطفاء التدريجي ونحن نلوح لهم، حتى اقتصر الضوء
على خمس بقع مختلفة الألوان. لوّحت سايا بكفٍ اتخذت وضعية أكف الجمهور
نفسها، ثم انطفأت بقعة الضوء البنفسجي المسلطة عليها، بعدها انطفأت بقعة
الضوء الأزرق الشاحب المسلطة عليّ، ولوحت نانا ثم انطفأ الضوء الأصفر فوقها،

ورفع داكي عصبويه عن الطبول ليدق فوق رأسه بتحية أخيرة، وانطفأ الضوء الأخضر القادم من خلفه، وأخيرًا تشو التي أرسلت بقبلاها في الهواء، ثم انطفأ الضوء الأحمر المسلط عليها.

حين ساد الظلام شعرت بكيانٍ شاحبٍ يتجسّد أمامي، يسبح في الفراغ الذي يفصل خشبة المسرح عن الجمهور.. فتحت عيني عن آخرهما لكنني لم أبصر شيئًا.. شبح أبيض خفيف غير مرئي لكنه موجود.. أكاد أقسم أنه أمامي مباشرة، لكنني واثق أنه غير موجود.

مادت أرض المسرح تحت قدمي، وشعرت بالغثيان يفور في معدتي، لكنني لم أكن متوترًا.. يبدو الأمر غريبًا حين تصف الوقوف أمام فوهة بندقية توشك أن تقتلك بالتوتر.. كنت أموت ميتة صغرى، في ظلام حالك على مسرح مرتفع يعج بالآلاف المهوسين.

تنفست بقوة، وحاولت ألا أدخل في نوبة هلع، وتدرّجًا بدأ جسدي يستجيب فتحرّكت، انسحبْتُ إلى الممر المؤدي إلى الكواليس وصياح الجمهور يلاحقني، وإن لم يمح خوفي. جرّيت في الممر المظلم وأنا لا أكاد أبصر شيئًا، واستشعرت طول المسافة التي قطعتها بقلبي واجفٍ. كنت بحاجة إلى رؤية أي شخص قبل أن يتجسد الشبح حقًا ويسحبني معه، وأخيرًا بلغت الكواليس ودفعت الباب فاستقبلني صياح آخر.

ناولت أحد العاملين جيتاري، وتركته ينزع السماعة المثبتة في أذني، ومكبر الصوت الذي يزلق منها نحو شفّتي، ثم أقبلت عليّ منسقة ملابسي حاملة المناديل المعطرة، وجففت العرق عن جبيني وعنقي، ثم خرج داكي من الباب الآخر تتبعه تشو، ثم نانا، وبصيحات مرحة طفقوا يتعانقون مبتهجين.

ثم خرجت سايا من حيث خرجت، ووجهها يلمع بابتسامة ناعمة وحمرة إجهاد.. حيّت الجميع بعبارة كررتها آلاف المرات: "شكرًا لعلكم الشاق، أحسنتم عملاً اليوم، شيرو، يجب أن أقول إنك أروع مصمم أزياء في العالم".

احمر وجهه مساعدتها الأثير، وسحب منها جيتارها ملقيًا به إلى أحد العاملين، وبتعجل شابه الارتباك ساعدها على خلع سترتها البيضاء اللامعة، وبدأ في تجفيف وجهها وعنقها، وعندما انتهى شكرته واستدارت إليّ تهتف: "تاكومي.. لقد كنت عظيمًا، أنا أحبك".

ولفت ذراعها حولي في عناق مبتهج، حينها هبطت عليّ السكينة فأغمضت عينيّ، ورغم أن ذراعيّ بقيتا إلى جوارِي إلا أنني غصت بأنفي في شعرها، راغبًا في الاختفاء التام، لكن الثلاثة الآخرين هجموا علينا مشركين إيانا في عناقهم، فاضطرت للابتعاد مضطربًا.

نادتني سايا: "تاكومي، أئمة خطب ما؟"

- "لا".

ويممت وجهي شطر غرفة تبديل الملابس. قلت: "سأفقد وعي لو لم نأكل الآن".

- "بعد قليل ستأكل كل ما تحب".

نادانا مدير أعمالنا منبها فتوقفت دون أن أستدير..

- "أحسنتم عملاً يا تسوباسا، والآن بدلوا ملابسكم سريعاً حتى ننطلق.. طائرتكم ستقلع بعد ثلاث ساعات".

استدردت إليه: "هل سنعود الليلة؟"

- "نعم، سايا ونانا لديهما جلسة تصوير في الثامنة صباحاً...".

صحتُ في سايا: "قلتِ إننا سنأكل بعد الحفل!!"

- "بالتأكيد، في مطعم المطار".

- "لقد قلتِ إننا سنأكل بعد الحفل".

رنتُ صرختي بعنف لتفزج الجميع، وتطلعت الأعين جميعها إليّ وسط صمت قلق ساد المكان. بعد لحظة واحدة استرددت شعوري بنفسي وأجفلتُ لما فعلت، وإذ رأيت ذلك الجزع الأخرس في عيني سايا هممت بالاعتذار، لكن دايمي تدخل وسحبني من ذراعي، وبابتسامة حمقاء قال بصوت عالٍ: "لا تقلق يا تاكويا سان، سنبدل ملابسنا سريعاً".

وجرجرتني إلى غرفة ملابسنا ليلقيني داخلها، وأغلق الباب خلفنا وأستند إليه..

- "واااه!! انظر إلى نفسك حين تجوع، أنت تغدو مجنوناً!".

لم يحمل صوته أي لمحة من الدعابة التي حاول ضخها في كلماته، كان قلقًا ومترقبًا. قلت له دون أن ألتفت: "لا تنظر إليّ هكذا".

- "أنظر إليك كيف؟"

انفجر غضبي مجددًا فركلت المقعد الأقرب إليّ، وجعلني ألم أصابعي أتنفس للسيطرة على نفسي. استدرت أنظر إلى المرأة، وفتحت عيني عن آخرهما..

- "تاكومي، أأنت بخير؟"

تجاهلته كي لا نتشاجر..

خلعت سترتي وقميصي وألقيتهما جانبًا، وحدقت إلى نفسي في المرأة باحثًا عن أي أثر للشبح المحيط بي، فلم أجد إلا نظرة قلقة تعلو وجهي وتخبرني أنني أتجاوز خطأ لا رجعة عنه. تنفست بعسر. ثم اتجهت إلى الحمام، وألقيت نفسي تحت ماء ساخن كان له مفعول السحر في إيقاف رأسي عن العمل.

رفعت وجهي إلى أعلى، وهززت شعري، فشعرت بالماء يتسرب من أطرافه إلى عنقي فظهر، ثم استندت بذراعي المفرودين إلى الحائط المواجه لي. خفضت رأسي، وزفرت ملء رئتي، وفي تلك اللحظة المسروقة من السكون شعرت باحترق في عيني.. اختنق حلقي وضاق صدري بألم فاق الحد، ولم أقاوم شعوري بالدوار فجلست أرضًا، رفعت يديّ أمامي وفردت أصابعي عن آخرها.. بدتا وكأنهما تنتميان إلى شخص آخر، فشعرت وكأنني سجنيت في جسد لا أعرفه.

وسط البخار الكثيف لفني اختناق طاع، نظرتُ حولي محاولًا البحث عن مخرج، عن مهرب، لكنني كنت واثقًا أن لا نهاية لما أشعر به. تساءلت بصوتٍ عالي: "ماذا يحدث لي؟"

ناداني دايمي متحققًا مما أقول: "تاكومي؟"

لم أجبه؛ كنت عاجزًا عن الرد، راغبًا في التمدد بلا حراك حتى أنتقل بسلاسة إلى عالم آخر بعيد..

نبهني دايمي بعد قليل: "تاكومي، نحن متأخران".

كان يرتدي قميصه حين خرجت إليه، ونظر إليّ نظرة طويلة ثم أشاح بوجهه عني، وقال بشكل عابر: "لديّ أخبار سيئة".

- "احتفظ بها لنفسك".

- "أسماك القرش بالخارج، جهّز نفسك للقاء قصير".

سحبت بعض الشماعات من حامل الملابس، لكنه أوقفني وأنا أنتقي ستري مقترحًا: "الألوان الشاحبة لا تناسبك الآن، انتقي شيئاً آخر".

قلت بسأم: "وكأن هذا يهم".

- "أنت عازف في أشهر فرق اليابان.. بالطبع مظهرك يهم".

ابتسمت ساخراً، ثم اتجهت إلى البارافان العريض، والدوار لا يفارقي. أسرعت في ارتداء ملابس، وخرجت بكنزة صوفية كريمية اللون، فدفع داكي في وجبي سترة خضراء داكنة. وبعد قليل من تنسيقها مع الإكسسوارات أصبح مظهري خلابة وفقاً للقواعد التي يتبعها (الأخرون)، لكنني لم أشعر بأي اختلاف.

تمتت بحكم العادة: "ليس شيئاً".

كان منهمكاً في تجفيف شعره، لكنه أطلق صوتاً ساخراً حين سمعني. جلست أمام المرأة بدوري متناولاً المجفف الآخر، ورششت مستحضرات التثبيت ثم مشطت شعري، وجمع داكي شعره في ذيل حصان طويل، ورش المثبت عشوائياً، وبدأ وضع لمسة من الماكياج مخفياً الهالات السوداء حول عينيه، ومرطباً للشفاه، ثم استدار لي.

أعرضت عن دعوته الصامتة: "إياك أن تفكر، لن يلمس أحد وجهي إلا توموكو".

- "إنها مشغولة مع الفتيات، امنحني الفرصة...".

- "قلت: لا.. أخبرني فقط كيف أبدو".

- "مجهداً".

- "ممممم...".

- "وستقتلك سايا شر قتلة لو خرجت إلى الصحفيين بهذا الشكل".

كان من الممكن أن يواصل إلحاحه حتى الصباح، لولا أن منسقة الملابس دخلت راكضة، واعتذرت: "أسفة للتأخير.. تشو تشان⁽¹⁾ كانت تبدو مجهدة للغاية، واقتضت العناية بها وقتًا".

ودفعتني لأجلس، ولبمسة واحدة خربت تصفيفة شعري، فقلبت خصلاتته على الناحية الأخرى، وكشفت الخصلات الشقراء المعدودة على جانب رأسي الأيسر، سحبتها بمشط رفيع لتظهرها بأناقة، وكومت شعري كله خلف رأسي، ودفعته قليلاً إلى الأمام، ثم رشّت مستحضر التثبيت مجدداً، كانت النتيجة النهائية عظيمة.

عبر داكي عن إعجابه بتهيدة: "واو يا توموكو! كيف تفعلين هذا؟!"

ابتسمت، وبضربتين سحريتين أخفت الهالات السوداء حول عينيّ كأنها لم تكن، وحين انتهت نظرت إلى المرأة دون أن أشعر بشبح ما يسكنني.. كنت مفعماً بالحياة.

انعكس جمال مظهري على مشاعري، فابتسمت وتبدد بعض اضطرابي. شكرتها، وراقبتها تحرر شعر داكي وتطلق مشطها السحري فيه، وخلال ثوانٍ فرقت ثلاثة أرباع شعره من اليسار إلى اليمين، ونثرته بفوضوية أنيقة، منحته تصفيفة أفضل، وهيئة مفعمة بالحياة بدوره، ثم أوقفته ونزعت سترته قائلة: "هذه ليست مناسبة".

ووضعت عليه سترة أخرى داكنة بلون النبيذ، توافقت مع لون عينيه بشكل لافت، فأطلق صوتاً مهوراً آخر. قال: "أنا مغرم بك يا توموكو".

دفعته نحو الباب، واستدارت لي تنسق ملابسي بسرعة، ثم أخرجت من جيبيها هاتفني المحمول..

- "وجدته في الحافلة كالعادة، أرجوك احتس وإلا ستفقدته يوماً".

خرجنا في لحظة خروج تشو وسايا وأنا نفسيهما، ومعهن مدير أعمالنا، فأفسح لنا الطريق للنضم معاً، ونتقدم في طريقنا إلى الخارج... كانت تشو في المنتصف تتقدمنا كالعادة، وسارت نانا إلى جوار داكي، وانضمت سايا إليّ.

(1) تشان: لقب ياباني للتدليل، يلحق بأسماء الفتيات عادة، أو الأطفال، أو الأصدقاء المقربين جداً، أو الحيوانات الأليفة المدللة.

همست لها: "آسف".

ابتسمت ولكرتني بخفة في ذراعي.

وإلى القاعة الرئيسية للمسرح خرجنا، فتلقفنا الصحفيون والمصورون، ووقفنا نتألق أمام وميض الكاميرات، والأسئلة تنهال علينا كشلال أعمى، فهتف مدير أعمالنا: "لن يمكنهم الإجابة إذا تحدثتم جميعاً في الوقت نفسه، فلنكن منظمين".

أسرعت إحدى الصحفيات بالسؤال: "ماذا نتوقع من تسوباسا قبل الانطلاق في جولتهم الأسبوعية التي ستبدأ الشهر المقبل؟"

أجابتها تشو: "سنبداً خلال أيام تصوير أغنيتنا الجديدة (همس النجمات)، وستعرض في الكريسماس كهدية لجمهورنا، بعدها سنتفرغ للتدريبات النهائية الخاصة بجولتنا الأسبوعية والتي ستبدأ في الحادي والعشرين من نوفمبر، لمدة شهر".

- "ترددت بعض الشائعات مؤخراً حول اعتزام أحد أفراد الفريق تقديم دراما تلفزيونية، فهل الأمر صحيح؟"

- "لقد ترددت الشائعة نفسها مراراً من قبل، لكنها صحيحة هذه المرة.. نعم، لقد عرض عمل درامي على سايا، ودرسته خلال الأسبوع الماضي، ثم أعلنت قبوله صباح اليوم".

تركز وميض الكاميرات على سايا فواجهتها بابتسامة ساحرة..

- "إنه عمل درامي مغربي، وأنا أتطلع للتمثيل منذ زمن طويل، لهذا لم أستطع رفضه.. لكنني أعددكم أنه لن يؤثر أبداً على أداء تسوباسا، وأتمنى أن تدعموني".

استمر اللقاء الصحفي ربع ساعة، بعدها بدأ الحراس في الإحاطة بنا تمهيداً لخروجنا، لكن تنظيمهم وجهدهم الكبير لم يساعد كثيراً في تخطي المعجبين الذين أحاطوا بنا، وأعاقوا وصولنا إلى الحافلة.. كنا نغرق في طوفان من الحب.

الحب البغيض الأعمى الذي لا أطيعه.

صعدت إلى الحافلة وتنفس الصعداء، واتجهت إلى آخرها لأرتمي على الأريكة الواسعة. مددت ساقي وأغمضت عيني، ولكم وددت لو استطعت إغماض أذني عن

سماع الضجيج بالخارج، وتعليمات مدير أعمالنا، وضحك دايمي، وعبث تشو ونانا، وسايا التي....

فتحت عينيّ أبحث عنها، فوجدتها على المقعد الذي يسبقني مباشرة، وقد ارتمت نصف نائمة وهي تتنفس بإرهاق. للحظة أشفقت عليها وكدت أتهض لأجلس جوارها، لولا أن أوقفني وسواسي المعتاد: "توقف.. اهتمامك لن يعني شيئاً لأي شخص".

دمدمتُ حانقاً بيني وبين نفسي، واستسلمت للأمر الصارم، لكن الصوت الطفولي الكامن في جزء آخر مني اعترض: "العناية بالأصدقاء ليست مضیعة للوقت".

- "اعتني بنفسك وحسب؛ لن تكسب شيئاً من بذل مشاعرك للآخرين".
- "حسناً".

واختلست النظر إلى سايا ثانية فرأيت رأسها يميل بوضع مؤلم، وإن ظلت ثابتة.. لقد نامت.

أغمضت عينيّ بدوري، ولم أدرك مدى إرهاقي وتعبي إلا حين أيقظتني توموكو.. بمشقة شديدة استطعت الاعتدال، وكنت في حالة من التذمر تقترب من الثورة، حتى أنني أزحت يدها التي تحاول ضبط هندامي وتعديل شعري.. نظرت إليها بغضب جعلها تتراجع مبتعدة. قالت بقلق: "أسفة يا تاكومي سان، ولكن الصحفيين...".

- "فليذهبوا إلى...".

قاطعتني سايا: "لقد وصلنا يا تاكومي".

صوتها كان منذراً، فنظرت إليها زامناً شفتي غير راغب في الصدام معها، لذت بصمت غاضب جعل توموكو تختصر عملها، بينما شيرو يعتني بسايا متحدثاً معها بكلمات خافتة تتخللها ابتسامات. استغرق نحو دقيقتين ما جعل غضبي يشتعل مجدداً، إلا أنني لم أنطق؛ كان بوسعي رؤية مدى شحوبها رغم الماكياج.

في أحد مطاعم المطار استرددت بعض هدوئي، وجلست أفتح أنفي وصدري ومعدتي وحواسي كلها للرائحة الشبيهة. وابتسمت من قلبي، ثم تحولت ابتسامتي لدموع فرحة وشيكة عندما وضعت البيئزا أمامنا، فانقضضت عليها دون تمهل.

قال دايكي كأنما يوبخ طفلاً: "انظروا إلى هذا الشره!! ستكسب وزنًا يفقدك معجباتك إذا استمرت في الأكل بهذا الشكل".

صحت أماً وكورت شفتي ونفخت، فانبعث البخار الساخن مع أنفاسي، ولوحت بيدي أمام فمي محاولاً تخفيف حرارة البييتزا التي خرجت من مخبزها للتو، فضحكوا ضحكات مرحة.

أكلت بشهية وكأنني حرمت الطعام أعوامًا، وبرغم أنني أكره فقدان أعصابي بسبب الجوع، إلا أنني استمتعت بشعور الشبع التام بعد جوع طويل، وهو شعور طالما افتقدته في ليالي طوكيو الباردة، التي أمضيها وحدي متنقلًا من غرفة إلى غرفة في بيتي، أو من حانة إلى حانة في الضاحية القريبة، أو في سيارتي منطلقًا على غير هدى، معذبًا بشعور من الفراغ لا يستطيع شيء أن يملأه.. لا الصبحية، ولا النساء، ولا الطعام، ولا حتى الخمر. في أوقات الضياع تلك، كنت أتمنى لو أنني من هؤلاء الذين يستعينون بأصناف الطعام المميزة على وحدتهم، أو تبديل مزاجهم من النقيض إلى النقيض.

وقد بدّل طعام اليوم مزاجي من النقيض إلى النقيض، ثم أخذنا بعض المشروبات رشفناها على مهل خلال انتظارنا، وعندما صعدنا إلى الطائرة كنت الوحيد المنتعش بينهم، بل إنني أخرجت مشغل الموسيقى، وتأهبت للاستماع لتسجيلات اللحن الأخير.

وبشيء من الابتهاج قلت: "ستكون جولتنا القادمة خرافية، أروع مما يتوقع الجميع، أليس كذلك يا سايا؟"

كانت تجلس جوارِي لكنها لم تجب، وانتهت لي فقط عندما نظرت إليها..

"عذراً يا تاكمي. ماذا قلت؟"

"أأنت بخير؟"

كانت شاحبة بشكل يفوق العادة..

"أنا دومًا بخير.. أخبرني ماذا كنت تقول؟"

تخلت عن كذبتها في الحال، ودفعت رأسها للخلف لتغوص في مسند المقعد. انتهت لحركة الطائرة الوليدة، وتذكرت خوفها غير المبرر من الطائرات، الذي يسبب لها المتاعب عادة خلال السفر.

ربت على معصمها لأطمئنها فابتسمت، ثم تخلت عن الابتسامة كما تخلت عن كذبتها، وأغمضت عينها بقوة، وانحدرت قطرات العرق على جبينها ببطء، يلاحق بعضها بعضاً، وبلغ شحوبها أقصى مدى، ولم تتنفس حتى استقرت الطائرة تماماً في السماء.

- "أنا آسفة، كان يجب أن أجلس جوار داكي".

- "لا تمنحي الأمر أكثر مما يستحق، لكل منا فوبيا".

- "حتى أنت؟"

- "بالتأكيد".

- "لكنك تتصرف دوماً كما لو أن لا شيء يقدر على إخافتك يا تاكومي".

قطبت قليلاً، ثم تجاهلت الذكرى التي ألحت عليّ..

- "أنتِ تبدين كذلك بالنسبة إليّ أيضاً، لكن البشر يحملون في أعماقهم هشاشة توازي ما يتظاهرون به من قوة يا سايا".

فور نطق عبارتي شعرت وكأنني أوقعت نفسي في فخ، فلم أتركها تتأمل ما قلته، وأسرعت أمرها: "نامي وإلا ستفقدين وعيك خلال التصوير".

أغمضت عينها وسكنت، فعدت أصغي إلى الموسيقى حتى نمت بدوري، واستيقظت والطائرة تستعد للهبوط.. لم تكن سايا جوارى بل تشو، وكانت تقرأ رواية إنجليزية ضخمة كعادتها.

استقبلتني بابتسامة حماسية: "هل راقت لك الموسيقى التي اخترتها لك؟"

نظرت حولي دون تركيز، فأجابت السؤال الذي لم يولد في عقلي بعد: "سايا في مقعدي، داكي سيساعدها".

داكي؟

شعرت بالضيق لوهلة، ثم استعدت الأمر الصارم وأطعته، أومأت برأسي لها، ورفعت سماعات الموسيقى عن أذني، أمضيت لحظات الهبوط أنظر للسقف، وعندما نهضت رأيت داكي يميل على المقعد المجاور له، لم أنظر، تجاوزته وهبطت من الطائرة أولاً، وأسرعت إلى حافلة المطار دون مبالاة.

عندما لحقوا بي أحاطوني بجو من الاستياء الصامت، ولما تحركت الحافلة استدار نحونا مدير أعمالنا. هتف: "مرحبًا بعودتكم يا تسوباسا، استريحوا اليوم لأن الأيام القادمة ستكون مجهدة".

صفق دايكي متحمسًا: "بعد أسابيع سنكون في كوريا، وهذا يكفي لأخضع لكل تدريبات العالم".

سخرت منه ببرود: "وكانك لم تزرها من قبل!"

نظر إليّ بخبث مبتسمًا، ورفع حاجبه الأيسر موجهاً لي نظرة عجيبة، فتأهيت للشجار معه إذا أزعجني بتعليق غبي، لكنه قال بحماس: "تاكومي، لنمض اليوم معًا؛ سايا وانا ستذهبان للتصوير، وتشو ستوجه إلى منتجع صحي، دعنا نمضي الوقت معًا".

- "لست مهتمًا بالبقاء معك".

قلت هذا ببرود، وتجاهلت انزعاج جزء مني يحب مرافقته حقًا، وأشحت بوجهي نحو النافذة. سألتني مدير الأعمال: "هل من شيء تحتاجه يا تاكومي سان؟" - "سيارتي".

- "سائقك وحارسك الخاص بانتظارك خارج المطار منذ نصف ساعة".

لم أتكلم مجددًا، وأنهيينا إجراءات الوصول سريعًا، ولحسن الحظ أن عودتنا لم تكن معلقة، فلم يحط بنا في المطار إلا عدد ضئيل من العابرين، تسابقوا على التقاط الصور، وبعضهم طلب توقيع تشو وانا. كنت أختنق، لكنني ابتسمت والتقطت صورة مع فتاتين مراهقتين، لفتت إحداهما يدها حول خصري بتملك أخافني، وحين تلمصت من هذا الإزعاج ركضت إلى السيارة دون تحية.. لم أنعمد هذا، لكن اضطراب مزجي أعماني عن التصرف بأدب.

ارتميت في مقعد السيارة الخلفي، وألقيت حقيبتي بعنف جانبا. أمرت السائق: "المنزل".

ونزعت سترتي شاعرًا بغصة حادة في حلقي، ثم فتحت النافذة لأسمح لهواء الصباح بتبريد وجهي، ومشاعري المشتعلة إلى درجة الألم.. لم أعرف لماذا توهج الألم في قلبي مجددًا بهذه الحدة، وساهم جهلي بسبب ألمي في إثارة المزيد منه.

أمرت السائق مجدداً: "قُدْ بأقصى سرعة".

فعل كما أمرته دون أن ينبس بكلمة، وعندما وقفت أمام الفيلا طرقت بعيني: شعرت بشيء من الصدمة، وبأنني لم أرغب في العودة حقاً، وللحظة فكرت في الرجوع إليهم، لكن الوسواس الأمر في أعماقي دفعني لتجاهل الفكرة. سحبت نفسي بتثاقل وهبطت، وبمجرد دخولي صفقت الباب خلفي واستندت إليه، وهبطت تدريجياً حتى جلست في وضع القرفصاء وأنا أنظر حولي.

شعرت بالجدران البيضاء باردة، غير مرحبة، تفتقر إلى الحياة، وتقطر جفاءً ثلجياً أشعروني بالبرد، فوضعت رأسي على ركبتيّ وضممت ذراعيّ من حولي.

"لا أحد هنا".. كذا رد الوسواس الأمر مراراً، وكلما ردها فقد بعض تسلطه، حتى خَفَّت تدريجياً، واكتسب رنة مذعورة أخافتني. شعرت أن شيئاً ما أكرهه يوشك أن يتحرر مني، وأنا لا أريده أن يتحرر، لأنني لا أعرف ماذا سيفعل بي إذا فعل.

تحاملت على نفسي لأقف، وألقيت سترتي على أقرب أريكة، وخلعت قميصي، فكرت في الاستحمام ثم النوم، لكن ساقّي سحبني إلى البار، وأخرجت يداي زجاجة من التاكولا، ثم صببت كأساً مترعة، حاول عقلي إيقافي عن ارتكاب هذه الحماقة، لكن يدي كانت صاحبة القرار، وهكذا رفعت الكأس إلى شفتي، فأنتهى كل شيء.

أفقت على صوت رنين الهاتف، تدمرت قليلاً ثم استسلمت وفتحت عينيّ، ووجدت نفسي مستلقياً على الأرض فوق البساط السميك، وكل بوصة مني تؤلمني. جلست فمال حجر هائل الحجم داخل جمجمتي إلى جهة اليمين، فسقط رأسي وجسدي كله بتأثير ثقله. تأوهت وتقلبت على البساط مراراً، وصحت غاضباً، لكن رنين الهاتف استمر عالياً، خرق معي وعذبني لدرجة أنني تهالكت عندما توقف، وكأنني غادرت مقعداً كهربائياً.

مرت ساعة على الأقل قبل أن أعتدل، وجدت زجاجة التاكولا محطمة جوار الحائط، وقليل من المشروب يلوث الجدار، وقد انكسرت كأسي الأثرية بدورها فوق طاولة البار الرخامية. وكالعادة لم أتذكر ما حدث، ستمر أيام وتراودني أحلام عدة حتى أتبين طيقاً مما فعلت، وأتذكر السبب الذي دعاني لتحطيم هذه

الأشياء، وهل نمت من فرط الإجهاد، أم فقدت الوعي كما يحدث عادة في نهاية نوبات السكر العنيفة التي أغرق فيها نفسي.

بدأ الهاتف يرن مجدداً، وجاءني صوت دايكي: "آه! ها هو أكثر رجال اليابان إثارة يجيب اتصالي أخيراً".

"ماذا تريد؟"

"يا لتحياتك الدافئة! ماذا ستفعل إذن لو توجت كأكثر الرجال إثارة على مستوى العالم؟"

"هل تتصل لتضايقي؟"

"ومن أنا لأضايق أكثر رجال اليابان إثارة؟"

استفزني مرحة: بدا وكأنه يسخر مني، لكنني لم أجد إشارة واضحة لتلك السخرية حتى أتشاجر معه..

"لقد أزعجت نومي، والآن لا تكف عن تكرار هذا الهراء! لماذا تتصل؟"

"نومك؟ لا بد أنك شربت في الصباح الباكر كالحمقى، ثم انقلبت نائمًا. واو! ستكون أمامك ليلة أرق طويلة، ونهار شاق بالغد أيها المثير. معاناة ممتعة".

"مادمت لن تجيب فسوف...".

"إياك أن تقطع المكالمة يا تسوباسا تاكومي وإلا قتلتك. لقد اختارتك مجلة The Best صباح اليوم كأكثر رجال اليابان إثارة، في استطلاع للنساء من سن عشرين عامًا إلى أربعين".

لم أستطع منع ابتسامتي، لكنني اجتمدت لأحتفظ بصوتي البارد: "ليس سيئًا".

"لن تفقد ساقًا لو عبّرت عن ابتهاجك يا رجل!"

هزمني مرحة فقلت وصوتي يبتسم: "ماذا عنك في هذا الاستطلاع؟"

"في المركز الثاني أيها الوغد، سأسترن تفوقي في الاستطلاع القادم. لا تظن أنك أفضل مني".

"أنا أفضل منك".

ونفضت لأرتمي على الأريكة. ومددت ساقَيَّ على المسند المرتفع مستمعاً إليه..

- "هيروماسا كينجي احتل المركز الثاني كأكثر الرجال أناقة، أما هيبكي ساما فجاء في المركز الأول في هذا الاستطلاع بالذات، وحافظ على المركز الثالث في جميع الاستطلاعات الأخرى بعدي وبعذك. اتصلت بنانا لأخبرها فأغلقت الهاتف في وجهي".

اتسعت ابتسامتي، فشعرت وكأن بشرة وجهي تُشَدُّ بعد طول وجومي..

- "عليها أن تقبل بحقيقة تفوقنا على هذا الطاووس المتباهي، إنه حتى لا يقدم موسيقى (فيجوال كيه) حقيقية. بحق السماء! أتساءل عن سبب إعجابها به! بل عن سبب إعجاب الجميع به! لو أن الأمر بيدي..."

- "نسيت إخبارك أنه احتل المركز الأول في قائمة النجوم المحبوبين، في حين نأتي نحن في المركز الثالث".

- "حتى ولو كان الأول على مستوى العالم، فلن أفهم أبداً سبب شهرته هذه، إنه مجرد متباهٍ مدعٍ.. هيبكي ساما الطاووس العظيم".

ثم انتهت بضيق لشيء آخر وسألته: "من جاء في المركز الثاني إذن؟"

- "فريق Vanity".

قطبت جبيني عاجزاً عن معرفة ما يجب أن أشعر به، فقرأ دايكي أفكاره: "هل تفكر في سايا؟ إنها ساخطة على الدوام ما لم تحصل على المركز الأول، لا تنزعج، سوف تنخرط في رثاء الذات قليلاً ثم تطحن نفسها في العمل".

- "وتطحننا معها".

قلت له ما قلت ببرود وجفاء، وتبدل مزاجي إلى الأسوأ في الحال..

- "هذا يجعلنا الأفضل على كل حال، فلا يمكننا الشكوى".

- "ربما".

وكاد عقلي يسرح لكنه انتشلي سريعاً: "هيروماسا كينجي اتصل بي قائلاً إن فريقه سيحتفل الليلة بعيد ميلاد الفوكاليس، وقد وجهوا إلينا الدعوة".

- "لتسوبا سا كلهم؟"

سخر مني بضحكة هائلة: "لا تمزح! أنت تعرف كيف تكون احتفالات Vanity، إنها ليلة للرجال فقط".
- "حسنًا".

ثم انقلب مزاجي لما هو أسوأ من الأسوأ فقلت: "لا، تذكرت أن لدي بعض الارتباطات".

كذبت على دايمي، فلم أكن أملك شيئًا يمكنني عمله، أو شيئًا يمكنني التفكير في عمله، فقط أنهيت المكالمات عائدًا إلى خوائي البارد الصامت. نهضت ألمم شظايا الزجاج المحطم، ولم أفكر بشيء أفضل من الاستحمام، ثم الارتداء على فراشي محدقًا إلى السقف لساعة أو أكثر، ثم النهوض وارتداء شيء جديد من الملابس التي وصلت منذ أسبوع من كوريا، ثم الانطلاق بسيارتي على غير هدى في الضاحية القريبة.

وهكذا مضيت أجول في الشوارع شاردًا، توقفت عند أحد المطاعم فلم أجد شبهة للأكل، ثم قدت إلى أحد البارات، لكن صداد السُّكَّر لم يكن قد فارقتي بعد، فأشفقت على نفسي من المزيد. وبعد حيرة طالت توقفت في ساحة انتظار مركز التسوق المفضل لي. فتحت النافذة ليأتيني الهواء المعطر المألوف، فاستنشقتها بعمق وأغمضت عيني، وأخذتني الذكريات بعيدًا، حتى نسيت ما حولي.

في سيارتي طلبت قهوتي بالمذاق القديم، وبمجرد تذوقها شعرت بالشبح الذي يطاردني دومًا يتجسد إلى جوارِي، ينظر إليّ في صمت نظرة ثابتة لا أريد رؤيتها، لكن توقي للشعور بها قد بلغ مداه. رحت أرشف القهوة ناظرًا إلى الأمام دون تركيز على شيء محدد، مكتفياً برؤية الشبح بطرف عيني؛ لا يمكنني رؤيته إلا هكذا، مجرد شعور خاطف خارج مجال رؤيتي، لأنني لو نظرت إليه مباشرة فلن أراه، وسيختفي شعوري به هنا أيضًا، كما اختفى في البيت الواسع البارد.

احتشد وجعي في كلمات هممت بالنطق بها ثم ابتلعتها، حاولت أن ألقمها ببطء وجفاء لكن كل جهدي ذهب سدى، وخرج صوتي مبجوحًا: "لا أزال عاجزًا عن إيجاد إجابة".

ندت حركة خفيفة للغاية من شبجي المرافق، لكن الصمت ظل يلفني، لم تعد تلك الإجابات الخفيفة غير المنقعة تأتيني.. يبدو أنه سيختفي قريبًا إلى الأبد.

- "أريد إجابة، أريد أي إجابة".

لكن الإجابة لم تأت.

ازدادت الغشاوة التي تغطي عينيَّ سُمْكًا فانحنيت، أسندت رأسي إلى مقود السيارة سامحًا لدموعي بالتساقط، ومع تساقطها اشتعل الغضب المألوف في صدري، الغضب الذي يلتهمني ليلاً ونهارًا دون كلال أو ملال، ودون رحمة.

غادرت سيارتي، ومضيت أجول في مركز التسوق دون أن تتوقف عيناى عند شيء معين، ثم اجتذبتني صوت عزف غاية في الانسيابية من أحد محلات الأجهزة الموسيقية. كان الصوت رائعًا، سحبي من عنقي فركضت، وبمجرد دخول المحل توقفت، واعتراى شعور بالسعادة وخيبة الأمل في آن واحد.

كان الرجال الموجودون في المحل مسحورين، يحدقون إلى العازفة بنظرات مبهورة، لا تتعلق فقط بتقنية عزفها واللحن الجميل، بل لأنها كانت ساىا، قائدة فريقى، الساحرة الشريرة التي تستنزفنا في العمل حتى الموت، وقد تألفت الآن واستعارت هيئة ملائكية، بفستان أبيض قصير بسيط، وشعرها البنى الدافئ ينسدل في خصلات مجعدة حتى منتصف صدرها، ووجه هائم مع الألحان.

تهتدت وكدت أعود أدراجى، لكن اللحن توقف وسمعتها تنادىنى، استدردت فقالت ضاحكة: "ما خيبة الأمل التي تبدو على وجهك هذه؟!!"

- "ظننتى اكتشفت موهبة لا يعرفها أحد، فإذا بى أمام الساحرة الشريرة".

قهقهت مرخًا كطفلة، وبدأت النظرات تنتقل بيننا، والابتسامات تنتقل لجميع الوجوه فابتسمت. اقتربت منها فناولتني الجيتار بحماس: "انظر، إنه أحدث إصدارات ياماها فى الأكوستىك، لن تصدق روعته".

- "لقد سمعت".

- "ما سمعته لا يقارن بالعزف عليه، جربه".

أخذنى الجيتار إلى عالم آخر وأنا أجربه، راحت أناملى تنتقل من وتر إلى آخر بلطف، والصوت يتردد كأصفى ما يكون، أسر قلبي تمامًا رغم عدم اهتمامى بالأكوستىك عامة.

كانت سايا تجرب الآن أحد الجيتارات الكهربائية، وقد أوصلته بمعدات الصوت فتردد عزفها بصوت هائل، وتسرب إلى خارج المحل بوضوح دلني عليه عدد من ينظرون عبر الزجاج نحونا، وهؤلاء الذين يلتقطون الصور بابتسامات فرحة.

اقتربت منها وحذرتها: "لو كنت تصنعين دعاية للمحل فقد نجحت نجاحًا باهرًا، ولكننا لن نستطيع الخروج من هنا".

ناولتي الجيتار بابتسامة مشاغبة، فلم أتمالك نفسي من تجربته، وفي الوقت نفسه بدأت هي تجربة أحد جيتارات البيز، فصنع الصوتان معًا مزيجًا رائعًا، كالعادة.

عندما ناولت البائع ما ستأخذه من جيتارات كنت أبتسم، تنفست بعمق وزفرت ببطء متأملًا إياها، واعترفت لنفسي بوضوح: حين أكون مع سايا أنسى تمامًا أمر شبحي المرافق، وبرودة بيتي، وكل شيء إلا بهجة وجودها.

كانت تتحدث إلى البائع عن شحن ما اختارته من آلات، وهو يومئ مستعدًا لتنفيذ أي شيء تطلبه، لا بد أنه سيكرر "كما تأمرين" حتى لو طلبت منه قطع رأسه. سألتها: "هل أرسل الاليتين التوأمين أيضًا يا سيدتي؟"

- "بل سأأخذهما اليوم، شكرًا لك".

- "أرجو ألا تخذلا توقعاتك".

- "أنت لم تخذل توقعاتي أبدًا على مدار أربع سنوات يا نوبو، بالتأكيد ستكونان أروع مما أردت".

والتفتت إليّ بابتسامة مشعة: "أنا سعيدة لأنك هنا يا تاكومي، هل أنت بخير؟"

سألتها: "التان توأمان؟"

توهجت ابتسامتها: "نعم، تحفتان عبقريتان تجسدتا في صورة ألتّي هارمونيكا".

- "أين؟"

- "لا، هذه هدية، ولا أحد يرى الهدية قبل صاحبها".

هززت رأسي ودعكت جبتي بقوة، فقلت: "تبدو وكأنك أسرفت في الشراب، هل أنا محقة؟"

- "أفقت منذ ساعتين، لكنني بخير".

لوت شفتيها مويخة وإن كانت تبتسم، فسمعت تأوهات انبهار من خلفي..

- "دعنا نأكل معاً، هل تمانع؟"

- "لا".

خرجنا من المحل تلاحقنا التحيات، فابتسمنا ولوحنا للجميع، ولم نبد انزعاجاً لالتقاط صورنا؛ نحن في مكان عام، وأمام محل للأجهزة الموسيقية، ولا نتجنب الصور، فلا يمكن أن تطاردنا شائعة غيبية بأننا نتواعد.. لقاءنا طبيعي تماماً، لقاء صديقين.

همس لي وسواسي: "أمازلت تهتم بما يظن العالم عنك؟ لا تكن ضعيفاً يا هارونو تاكومي".

انفض الزحام المحدود من حولنا سريعاً، وهذه سمة عامة لمراكز التسوق شديدة الرقي هذه، فمضينا نسير في صمت نتأمل المعروضات. كانت سايا هادئة، وإن راحت تسير بخطوات استعراضية مبتهجة، وتدور حول نفسها كل ثلاثة أمتار، كانت كراقصة الباليه بملابسها البسيطة وحذاءها المنخفض المرن.

- "لماذا أنت هنا؟ كان يجب أن تعودني إلى البيت وتنامي بعد جلسة التصوير".

- "رغبتي في النوم تتلاشى عندما أعمل، وقد عملت بجدة اليوم، لكنني جائعة للغاية، ولم أكل شيئاً منذ الإفطار".

- "والجيتارات؟"

دارت حول نفسها وتقاشرت وهي تصفق بكفيها..

- "أليس جميلاً أن نغير أدواتنا الموسيقية قبل جولتنا القادمة؟ أريد أن تخرج أغنيتنا الجديدة كأجمل ما يكون".

ابتسمت لمرحها المبالغ..

- "أنتِ على وشك فقد عقلك منذ عرفتِ بأمر هذا المسلسل".

ضحكت ضحكة طويلة، ثم تقافزت وهي تضم يديها أمام وجهها..

- "أليس كذلك؟ أنا أطيّر فرحاً منذ أعلنت قبولي، وأنتظر بدء تصويره بفارغ الصبر".

- "متى تبدئين؟"

- "عندما يختارون بطل المسلسل".

- "من؟"

- "الشائعات تقول إنهم بصدد اختيار ياماتو من فريق Close، أو دايسكي من فريق Orange".

- "لا بد أن يكون عازفاً.. هه؟"

- "نعم، بطل المسلسل عازف، والشخصية التي أقدمها كذلك، والسيناريو فيه كثير من الحفلات الحية".

- "ومن منهما تفضلين؟"

- "أعتقد ياماتو ودايسكي؟ كلاهما رائع، سأحب العزف مع أيهما".

- "أهااا".

لكزتي بمرح: "ولكن ليس بمقدار حيي للعزف معك".

- "طبعاً".

- "أتمنى لو كانوا!..."

- "لا تطرحي الفكرة، فحتى لو كنت الأخير في هذا العالم، فلن أقبل الانتحار هكذا".

عارضتي بحرارة: "تاكومي! التمثيل شيء رائع".

- "لكنه ليس موهبتي، ولو كنت أملك بعض الموهبة، فلن أنخرط في شيء كهذا قبل جولتنا القادمة".

- "أه! لن نعود إلى هذا الجدال مجدداً".

"بالتأكيد، فقد ضربتِ بآراء أربعتنا عرض الحائط، وقررت الانخراط في حرب على جميع الجبهات في الوقت نفسه، وقد تعبت من إخبارك أنك معتوهة".

"لن يقلل هذا من كونك شريك عزيزي المفضل".

كادت ابتسامتها العابثة تهزني، لكنني تمسكت بوجوهي باستماتة...

"أين ستأكلين؟"

"في مطعم البيتزاً طبعاً. وكف عن محاولة إخفاء ابتساماتك أيها المتعجرف، أتدري كم رجل في اليابان يقبل بالموت كي أخبره أنني أحب العمل معه؟"

لكرتها بدوري بخفة فضحكت.. وابتسمت معها دون أن أكابر.

جلسنا في مطعم البيتزاً ننظر عبر الزجاج إلى الخارج، حيث الليل الخريفي الصافي الذي يزداد برودة يوماً بعد يوم. سألتني بعد صمت طويل: "تاكومي، هل تحب أن أتركك وحدك؟"

قال لي وسواسي: "لو كنت تملك بعض القوة اذهب الآن.. أنت لست بحاجة لوجودها معك".

أغمضت عيني متجاهلاً الصوت الرنان في رأسي، وتجاهلت سؤال سايا وألقيت عليها آخر: "هل اطلعت على إحصائية مجلة The Best؟"

"أه، نعم، جاء هيروماسا سينبائي⁽¹⁾ في المركز الثاني كأكثر الرجال أناقة، وجاء فريقه في المركز نفسه في إحصائية أكثر النجوم المحبوبين".

دهشت لابتسامتها الصافية، ونظرت لها حيث جلست تسند ذقنها ليديها المعقودتين، وعيناها تلمعان بسعادة.

"توقعت أنك ستقلبين الدنيا، وتتوحشين كالعادة ثم تقتليننا في العمل!"

"سنقتل جميعاً بدءاً من الغد، لن أتعجل الأمر".

أسعدتني سعادتها، وتوارى الوسواس الأمر في أعماقي تماماً.

¹ سينبائي: أحد ألقاب التشريف اليابانية، يستعمل مع من يفوقون المرء درجة في مجال ما، مثل طالب في الصف الأول يخاطب به زميله في الصف الثالث.. إلخ.

- "... كما أنني لن أَعِدّ الأمور ما دام هيروماسا سينبأي هو مَنْ سبقنا، إنه أعز أصدقائي".

وضحكت وأكملت: "حتى نانا ابتهجت لأجله، رغم ضيقها بمراكز هيبكي ساما المتأخرة".

- "أنتم أشخاص ميئوس منكم".

وابتسمت، عقدت يديّ مثلها ونظرت في عينيها مباشرة، وشردت.

لعل هذا ما جعل الفريق على القمة، لأن سايا لا تقبل أبدًا إلا بالمركز الأول، المركز الثاني بالنسبة لها كالمركز الأخير بالضبط، لا فائدة له، وقد نقلت عدوى تلك الفكرة الممعة في غطرستها إلى الآخرين، نانا، وتشو، ودايكي، وأنا.

وبعد عامين من العزف إلى جوارها، أصبحت أرى مثلما ترى.. يجب أن أكون الأول، يجب أن أكون الأفضل، الأكثر إثارة، الأكثر وسامة، الأكثر مهارة، الأعلى أجرًا، أصبح التفوق بالنسبة إليّ هوسًا، ثم استحال مرضًا لا شفاء منه، تمامًا كما أخبرني في أسبوعنا الأول من العمل معًا.

كانت تأكل باستمتاع، وأنا أفكر أن هذا المرض الذي نقلته إليّ قد شتت عقلي فترة طويلة. شتتني بعيدًا عن نفسي وعن شبحي المطارد، لكنني الآن أنسحب رغمًا عني إلى الخلف، وأشعر بما كنت أشعر به في طفولتي عندما أقف على شاطئ المحيط، أراقب الأمواج مستمتعًا بكوني على الشاطئ، وأن ماء البحر يمس قدمي بالكاد، وبعد عدة موجات متلاحقات أجد الرمل قد غطى قدمي، ثم دفنهما، ثم ثَبَّتني في الأرض بقوة تقتضي مني جهدًا كي أتحرر. في طفولتي كنت أستمع بهذا الشعور، لكنني الآن خائف، لا أعرف ماذا يحدث لي؟ لماذا أنغرس في الرمل بعدما ظننت أنني ابتعدت عن المحيط إلى الأبد؟

في صدي ألم شديد، أعرف مصدره، وأعرف أنه لا يجدر بي الألم، وبرغم هذا أتألم، أستمّر في الألم طوال الوقت، وأستمّر في الهرب طوال الوقت، ولا ينتهي الألم. هل يجدر بي طلب مساعدتها؟

تألمتها وهي تأكل مستمتعة وترفع كتفيها كأنها توشك على الطيران، وقلت بلا تفكير: "سايا، لديّ مشكلة".

توقفت عن الأكل، وعن الاستمتاع، ورأيت في عينيها نظرة قائدة الفريق التي تقلق بشأن كل صغيرة وكبيرة، وتجهد نفسها حتى الانهيار إذا ما اعترضنا مأزق يمكنها حله، القائدة المتسلطة المَهوَّسة بالسيطرة، والتي لا يفلت شيء من بين يديها، سواء يخصها أو يخص أحدنا.

- "أخبرني".

واتسعت عيناها بانتباه..

- "لا تكوني جدية إلى هذا الحد، أريد سؤالك عن جدول تصوير المسلسل. ألن يتعارض مع جدولنا الأساسي؟"

هكذا كذبتُ لكنها لم تنخدع، ازدادت عيناها اتساعًا فقلت مبتسمًا: "بحق السماء يا سايا! أنتِ تبدين مربعة".

- "وأنتِ تبدو كاذبًا".

ومدت يدها وأمسكت بيدي، خفضتها حتى لامست المائدة وربتت عليها، وبإبهامها راحت تفرك ظهر كفي. قالت بقلق: "أنت لست على ما يرام، منذ فترة وأنت لست بخير، يمكنني رؤية هذا مهما أخفيت به يا تاكومي، وأنا قلقة بشأنك كثيرًا، لكنني لن أتدخل في خصوصياتك ما لم تطلب ذلك بوضوح، نحن أصدقاء بالدرجة الكافية لتطلب مساعدتي صراحة دون أن تخشى حرجًا، أليس كذلك؟"

شعرت بدفع في صدري رافقه ألم غير متوقع، وقطبت قليلاً ونظرت إلى أسفل، فرأيت على صدرها تلك السلسلة التي تقيع أختها تحت قميصي، ويحملها الثلاثة الآخرون بدورهم، والتي تمثل شعار فريقنا المجنح.. ازداد الدفع، وتضاعف الألم، فقبضت على أصابعها، ولم أتكلم.

- "تاكومي، أنا أحبك، كلنا نحبك، فلا تعزل نفسك بعيدًا، ولا تفعل شيئًا بنفسك، أرجوك. اطلب مساعدتنا في أي وقت، لا تعاني وحدك يا تاكومي، أنا هنا".

هزرت رأسي وابتسمت، لقد غسلت آلامي كلها بكلمة واحدة.

ابتسمت لي وسألتني: "هل أنت واثق أنني سأكون معك دائمًا؟"

- "بالتأكيد".

- "إذن، فأنا مطمئنة".

وتركت يدي، وناولتني قطعة من البيتزا تقول: "هيا، دعنا نستمتع بطعامنا".

أخذت المثلث الشهي منها وقضمته، ولم أتوقف عن الابتسام.

بعدما انتهينا خرجنا إلى المكتبة المجاورة، دخلتُ ووقفتُ عند ركن الروايات الإنجليزية، ناقلًا عيني على العناوين المكتوبة بخط مزخرف تستحيل قراءته، اعتمدته أحقق ما كخطٍ رسمي للروايات الرومانسية. فكرت في شراء رواية لتشو، بما أنها تهوى هذا النوع الأحمق من الروايات، وهكذا رحت أقلب الكتب باحثًا عن رواية يحمل غلافها صورة مرسومة، تمثل فتاة نصف عارية بين ذراعي رجل مفتول العضلات ينافسها في التعري، فنوعية الروايات هذه تروق لتشو، وقد كادت تسبب لنا فضيحة بسبب رواية مماثلة.

انتقيت رواية وردية الغلاف، مرسوم عليها فتاة عارية الظهر والساقين، ويحملها رجل نصف عارٍ على كتفه ملوحًا بسيفٍ بتار، وتتناثر حولهما مجموعة من القلوب الرقيقة، والشفاه المضمومة في قبلات. ابتسمت متأكدًا أنها كافية لاستفزاز تشو. اقتربت مني سايا وألقت نظرة خاوية على الرواية، سألتني: "أأنت واثق أنها ليست رواية إباحية؟"

- "لغتي الإنجليزية لا تؤهلني للجزم بهذا".

- "إذن ما مبرر شراء هذا الهراء؟"

- "لتشو بالطبع. من وضع في رأسك فكرة أنني مهتم بهذه التفاهات؟"

ونظرت إلى ما تحمله ففسرت لي بمرح: "اشتريت دفترين موسيقيين لدروس الهارمونيكا".

- "دفتران؟!"

- "واحد لي والآخر لهيروماسا سينباي؛ إنه يشاركني الدراسة، وسيحل عيد ميلاده قريبًا".

- "يا لها من هدية!"

لوت شفتها تدمرًا ووبختني: "ليس الدفتر فقط، هل نسيت الهارمونيكا؟ لقد صممتها بنفسني، وهي تحفة ستجعلك تبكي إعجابًا".

- "حسنًا، ستجدين شريكًا غيري يُكملك في شيء آخر غير الجيتار".

نقرت جبيني بسبابتها وهي تبتسم، وتركتني متجهة إلى ركن المجلات، أما أنا فاستدردت نحو ركن الهدايا. قَلَبْتُ الأَقْلَامَ وحافظات الأوراق مبتكرة الأشكال، ثم بدأت أتفحص الأقداح المخصصة للقهوة، والتي نحتت عليها بالرموز الصينية عبارات حب مؤثرة، وأخرى مضحكة.

"إلى أن يفرق الموت بيننا"

اقتحمت العبارة عينيّ، ونفذت منهما إلى قلبي، قطبت محاولاً التنفس، لكن الشيخ الأبيض المطارد ظهر، شعرت به أقرب ما يكون إليّ، ولفني البرد المصاحب له. أغمضت عينيّ هاربًا منه، واستدردت محاولاً اللحاق بسايا، لكنه لحق بي أولاً، أخذني، احتواني أو سكتني، وألقاني من عليّ، من أعلى عليين. أفلت الكأس الصغيرة فسقطت محطمة تحت قدميّ، ومددت يدي أتشبث بالرّف المواجه لي، تشبّثت بقوة وأنا أحاول التماسك وتصفية أفكاري، والهرب من ذلك الوجود المفاجئ المخيف، ولكن سُدى، انزلق الرّف كاملاً، وتردد دوي تحطم باقي الأقداح.

بصعوبة انتزعت نفسي من نفسي، خطوات مبتعدًا، وقبل أن أخرج من ذلك الركن رأيت سايا قادمة بوجه مضطرب، وعندما رأني ازدادت اضطرابًا، مررت بها وقلت: "سأذهب".

وركضت، وخرجت ليتحول ركضي إلى عدو، ثم إلى انطلاق لا تعقل فيه، كنت أهرب، من الشيخ المطارد، ومن الشيء الساكن في أعماقي، والذي أخشاه كل الخشية، ومن كل شيء آخر.

جريت حتى تقطعت أنفاسي، وبلغت سيارتي والعرق ينبت على جبيني، ثم انطلقت بأقصى سرعة، انطلقت وتلك الأمنية القديمة تبعث في قلبي على استحياء، الأمنية في ألا أصل إلى بيتي أبدًا، وأن ينتهي كل شيء في لمح البصر، ودون ألم.

دون ألم.. هذه هي المشكلة.

عدت إلى البيت ودخلت كمجنون، صفقت الباب خلفي ناسيًا أنه زجاجي، وتوقعت للحظة أن ينهار فوق رأسي محطّمًا، ثم جريت إلى الطابق العلوي، إلى غرفتي القديمة التي أتنجّنها، أردت دخولها والصباح: "لم يحدث شيء، أنا بخير،

لن أدعك تدمرين حياتي، أنتِ اخترتِ خيانتِي، وأنا الآن أختار أن ألقىك من عقلي إلى الأبد".

لكنني لم أستطع، عجزت حتى عن إدارة المقبض والدخول، رأيت بعين الخيال المشهد الأخير الذي لا ينفك يطاردني، وجعلني أعيش ميتاً ثلاث سنوات كالجحيم. لا أريد هذا بعد الآن.. لا أريد.

تركت مقبض الباب وتوجهت إلى الحمام المجاور، دخلت في ظلام تبده الأضواء القادمة من الخارج قليلاً، وقفت أمام المرأة أنظر إلى ملامحي الغارقة في الظلال، فقال لي الوجه الذي أكره: "إنها مسؤوليتك، ويجب أن تتحملها".

رددت الكلمة، وتراجعت ببطء وجلست على حافة حوض الاستحمام، ملت للخلف حتى لامس رأسي الحائط البارد، ومن ثم سمحت لجسدي بالانزلاق.. انزلقت حتى لفتني ظلمة تامة، تبدو وكأن النور لن يقدر على تبديدها.

كنت نصف ممدد في حوض الاستحمام عندما أجاب داكي مكالمتي: "هل قررت المجيء؟ الحفل رائع هنا...".

"أنا... أنا في حال سيئة...".

"ماذا تقول؟ انتظر لحظة".

كان صبري ينفد، وحرب طاحنة تدور بين جانبيين في عقلي، وقلبي يقترب من نقطة الاستسلام التي لا عودة منها، لم يكن ثمة شيء يجعلني أتصل به اللهم إلا هذا الجزء الضئيل الخائف الكامن في صدري، الجزء الجبان الذي يخشى الظلمة والوحدة والألم.

"تحدث يا تاكومي، أنا أسمعك".

الهدوء من حوله شجّع الجزء الخائف مني...

"أنا...".

"هل أنت بخير؟"

شعرت أنني أوشك على الغرق، تنفست بقوة، وتردد صوت أنفاسي عاليًا، بدا غريبًا للغاية، وكأنه خطأ يجب أن أصححه بأسرع وقت...

- "لا شيء يا دايكي، سأتصل بك لاحقاً".

حاول استيقافي بقلق: "انتظر..."

لكنني أغلقت الهاتف وتركته يزلق من بين أصابعي، وانزلقت بدوري في حوض الاستحمام.. وفي أعماق الظلمة غرقت تمامًا في بحرٍ كئيب، كنت أستمع لصوت أنفاسي شاعرًا بمدى غرابتها، وقلبي يتمزق ما بين شعور وحشي يريد تصحيح هذا الخطأ، وشعور آخر أكثر توحشًا بالخوف من هذا التصحيح الذي لا تصحيح له. تمزقت، حقًا لا مجازًا، وكاد عقلي ينفجر فصرخت، تمنيت لو يأتي أي شخص ينتزعي رغماً عني ويأخذني بعيداً.. أين هم؟ أين الجميع؟ سائقي والطباخ والخادم وحارسي الخاص؟

"لا أحد هنا"

كذا همس الوسواس المدمر الذي يسكنني، ففتحت عيني عن آخرهما وحدقت إلى السقف، صارت أنفاسي في سباق رهيب، وكأنها ستتهار فوراً وأموت، هذا مستحيل، مستحيل، لا يمكن أن يكون فراغي متسعاً إلى هذا الحد، لا يمكن أن تستمر هذه الجحيم إلى الأبد، هذا لا يعقل، هذا غير عادل بالمرّة.

شيء ما جعلني أقاوم نفسي لأنتشلها من غرقى المخيف، أسقطت أشياء عدة حتى وقفت، وتعثرت في أشياءٍ آخر حتى غادرت الحمام، فالطابق الثاني، فالمنزل كله. ركضت وكأنني أهرب من شبح حتى ارتميت في سيارتي، حللت الوشاح الملتف حول عنقي، وأغمضت عينيّ فشعرت بنفسني أغرق من جديد.

- "تاكومي سان، هل أنت بخير؟"

انتزعتني صوت حارسي الخاص، ففتحت عينيّ وأمرته: "افتح البوابة".

- "تاكومي سان....".

- "افتح البوابة الآن".

انتفض إثر صرختي لكنني لم أهتم، أدت المحرك، وحالما فتح البوابة انطلقت بسرعة جنونية، كنت أطرف بعينيّ محاولاً التركيز، جزء مني يريد أن ينتهي كل شيء في لمح البصر ودون ألم، وجزء آخر يريد نجدة، نجدة كنت أعرف أنني لن أجدها إلا في مكان واحد.

لو لم أطلب هذه النجدة الآن، فلن تتاح لي فرصة طلبها في المستقبل؛ لن يوجد مستقبل لو أنني استسلمت الآن.

هذه هي الليلة الأخيرة، الفرصة الأخيرة.. كلي ثقة في هذا.

كلما اقتربت من هدفي، كان شعورٌ بالنجاة ينمو في صدري، حتى ليكاد يتحول إلى شعلة دفاء تبدد بعض الظلام المطبق عليّ، فأسرعت لدرجة أنني لم أرا السيارة الضخمة المندفعة من أحد التقاطعات، وتفاديتني بصعوبة في آخر لحظة قبل الاصطدام، وبفرلة هائلة لا بد أن صوتها بلغ المحيط.

كنت مذعورًا وسيارتي تدور بي بعنف بعدما تفاديت الاصطدام بدوري، ثم ارتيمت على مقود السيارة محاولًا التنفس، وبلغ الألم في صدري حدًا محسوسًا مزعجًا، ولم أجد في نفسي من الشجاعة ما يؤهلني للتحدث مع السائق الآخر، أبقيت رأسي منخفضة، واختلست النظر أطمئن لسلامة السيارة الأخرى، ثم أدت المحرك وانطلقت بأسرع ما أمكنني.

كانت يداي ترتجفان، وقلبي يوشك على التوقف من عنف خفقانه.. الموت ليس بالسهولة التي يصورها لي الجانب المتوحش مني، هذا الألم ليس سهلًا، ولا يمكنني المرور به.

أنا لا أريد الموت أبدًا.. ليس الآن، وليس بعد ألف عام.

بلغت هدفي وروحي تكاد تبلغ الحلقوم، نظر إليّ رجل الحراسة متحققًا ثم أشار للآخرين بفتح البوابة الضخمة، فانزحت كاشفة الطرق الصاعد بميل بسيط، والمنتهي بالمنزل العزيز.. أسرعت بسيارتي إليه، ورأيت أضواء تعد بالصحبة والدفع، والأمان والحماية.

توقفت أخيرًا، بحثت عن هاتفي لكنه لم يكن معي، فغادرت السيارة مقاومًا تشوش الرؤية، وصعوبة التنفس، واقترابي السريع من الغرق التام.

كان الصداح يحطمني، لكنني تماكنت نفسي حتى بلغت الباب، رننت الجرس مرتين، ثم مرتين أخريين، ثم وضعت إصبعي عليه ولم أرفعه.. كنت راغبًا في أن أعود أدراجي، لكنني كنت أعرف أنني لو فعلت فلن أهرب من نفسي ثانية أبدًا.

سمعت سبائًا، وصيحة غضب، ثم انفتح الباب بعنف، وصاحت تشو بوجهي: "هل جننت؟ أهذه طريقة تطرق بها الباب في التاسعة مساء؟ أنتت معتوه؟"

- "تشو...".

واصليت صياحها: "ماذا تريد؟"

التقطت نفساً عاليًا، وحاولت النظر إليها لكنني لم أرها، فهزرت رأسي محاولاً الرؤية بوضوح..

- "سايا.. قالت لي...".

امتدت يدها تمسك بيدي فتشبثت بها بجنون، كانت حركتي مفاجئة لدرجة أنها أجفلت وشبهقت، صاحبت بي: "ما.. ماذا أصابك يا تاكومي؟!"

- "لا تركيني وحدي، أنا لا أعرف ماذا سأفعل بنفسني".

أدخلتني وهي لا تفلت يدي، وأجلستني على الأريكة، فلفني دفء آمن، إلا أن صوتي بقي مهتزاً ومضطرباً..

- "لا أريد أن أبقى وحدي الليلة، أشعر أنني سأفعل أشياءً مجنونة".

- "حسنًا، أنت معنا الآن، لا تخف".

ابتسمت في شيء من السخريّة، لأن صوتها الذي تحاول به طمأنيتي كان خائفاً أيما خوف. حاولت أن تترك يدي، لكنني ازدددت تشبثاً بها.

- "اتركني يا تاكومي، سوف أوقظ نانا وأتصل بالآخرين".

- "لا، ابقى معي فقط".

شعرت أنها خائفة مني، كدت أخبرها أنني حتى لا أراها من عنف الصداق الأخذ بناصية دماغي، لكن لساني تثاقل، وبقيت الكلمات معلقة على طرفه.

بعد قليل دفعتني لأرقد، وتخلصت من يدي بلطفٍ وتركتني، عندها بدا كل شيء واضحًا.. صفا عقلي ورؤيتي تمام الصفاء، وملأتني رغبة في النوم، والاستسلام لدوامة سوداء لا رجعة منها. بشعور أقرب إلى الوحشية عرفت أنني سأموت إذا استسلمت للنوم الآن، وتأهبّت لرمي نفسي إليه، لكن لساني الثقيل استغاث..

- "لا تركيني يا تشو، أنا حقًا لا...".

أنا حقًا لا أريد الغرق، لا أريد الهرب، لا أريد الموت..

هذا ما أردت قوله، ولا أعرف إن كنت قلته أم لا؛ فقدت نفسي قبل أن أدرك ما قلت أو فعلت، وكأني كومة رمل أطاحت بها رياح عاصفة، لم أعرف أين ذهب

كل جزء مني، لكنني كنت أتألم، كل جزء مني تألم، حاولت التشبث بأي شيء يحفظ كياني ويشعري بنفسي فلم أفجح، لم يكن ثمة شيء يمكنني التشبث به.
- "تاكومي..."

هكذا ناداني صوت لا أعرفه، وأمسكت بي يد لم أتعرفها، لكنني تشبثت بها، تشبثت بأي شيء يجعلني أحتفظ بنفسي..

رأيت وجه سايا يميل عليّ، تهبط لتجلس جواري، فأدّرت رأسي أتابعها، وأنا أتمنى لو كانت قادرة على استشفاف الحرب الدائرة داخلي. شعرت بلمسة أصابعها على خدي، وانحدارها على عنقي ثم صدري، وشعرت بيدها الأخرى تحتضن أصابعي المرخاة الباردة.

همست لي بوجوم من يرمق جثة ممزقة: "يا صغييري! ماذا حدث لك؟"
سمعت شخصاً يتحدث، لكنني لم أميز صوته، ولم أفهم ما يقول، وربما كنت أتخيل هذا، لأن سايا لم تبعد عينيها عني.

- "اتركها يا تاكومي، أطلق سراحها وامض بعيداً، هذا يكفي."
أغمضت عينيّ، فضّلت الضياع خلف شعبي المطارد عن الثبات والاتزان المشعين من كلماتها.. لكن يد سايا تشبثت بي أكثر، ازدادت قوة، واكتسبت قسوة..

- "أطلق سراحها، إلى متى ستعذب نفسك؟ كل هذا بلا فائدة."
لكن العذاب لم يكن كاملاً في ضياعي، كان كاملاً في اعترافي بأن هذا الضياع لا جدوى منه، لن يصحح أخطاء الماضي، ولن يسترد ما فقدته...
لا جدوى، لا جدوى من أي شيء، لا جدوى...

اعترفت بهذا، ولم أعرف في حياتي قط ألماً كالذي شعرت به وأنا أقر بهذا الاعتراف..

التفت يد سايا حول خدي، أمالت رأسي نحوها، وشعرت بجيبيني يلتصق ببشرتها الباردة، همست لي بأن أهدأ، عندها أدركت أنني أشعر بالبرد، وأني أرتعش وجعاً..

دار العالم وانقلب رأساً على عقب، وهب إعصار هائج أطاح بكل شيء، وحملني إلى حيث لم أدرك حتى أنني موجود.

تسوياسا..

الاسم الذي يلمع في سماء اليابان منذ خمسة أعوام، واحتل مرتبة أفضل فريق لموسيقى الفيچوال كيه لعامين متتاليين، والآن يتأهب للفوز باللقب للعام الثالث، ليفرد ذراعيه ويخلق، ويتسيد سماء الموسيقى أبد الدهر⁽¹⁾.

تسوياسا..

سمعت الاسم للمرة الأولى بعد انطلاقتهم بأشهر، لكنني لم أهتم بسماع أي شيء يخصهم، رغم ما قيل لي عن تميز أغانيهم، والطابع السحري الذي يغلف كلماتهم. كانت أغانيهم تحكي قصصاً أسطورية، قصة عن جنبة تائهة في ضوء القمر، وعن حورية أضناها البحث عن جناحيها المفقودين، وقصة عن ثلاث زهرات بنفسجية وقعت في حب الأمير ذاته، وتفانت كل منهن في إبراز جمالها لتلفت نظره، عله يقع في حبها ويستأثر بها عن سواها أبد الدهر، فما كان من الأمير إلا أن اجتثهن معاً، وسجنهن في صندوق زجاجي ليعرضهن على حبيبته، فلما رفضته تلك الحبيبة أحرقهن الأمير، لأن لونهن كان شؤماً عليه.

سخرت من أسماء أغانيهم حتى قادني فراغ حياتي إلى الاستماع لأحد ألبوماتهم في ليلة باردة، عندها سحرت بالإلهام المشع من أحرفهم ونغماتهم، ومنذ ذلك الحين رحت أتسلل إلى عالمهم الخيالي عندما يضيق بي عالمي. ثم التقيتهم قبل عامين، وكان لقاءنا صدفة غير مرتب لها، لكنها صدفة مقدرة كما تقول أغنيهم الأولى. التقينا في مهرجان فرق الفيچوال كيه الذي كرمهم على آخر أغنية قدموها.

¹ كلمة (تسوياسا) باللغة اليابانية تعني (جناحين).

وكانت سايا أول من تحدثت إليها فبادرتني: "أحب عزفك يا تاكومي سان، سيكون شيئاً جميلاً لو عزفنا معاً ذات يوم".

وأطلقت في وجهي ابتسامة باهرة جعلتني لأسبوع تالي أشعر أنني وقعت في حبها.

اسمها سايا، عازفة الجيتار الكهربائي الأولى، وقائدة الفريق، وصاحبة الصوت الثعباني الذي يتردد أحياناً خلف تشو في همسٍ مغري. تكتب الأغاني أحياناً، لكنها تؤلف الموسيقى أغلب الوقت. تفتخر سايا بانتمائها إلى برج الدلو، وبشحوب وجهها وشفافية بشرتها، تعشق الأحذية العالية والملابس الناعمة، وتاكل البيتز بطريقة مستحيلة التصديق، ومغرمة بسلسلة أفلام الشفق. كل من يعرفها يقول إنها شخص بارد غريب الأطوار وسريع الشعور بالملل، ومن المستحيل أن تكسب اهتمامها، لكنها قادرة على أن تصبح لطيفة وبلهاء وقتما أحببت.

ثم تأتي تشو، فوكاليسست الفريق، المهووسة بالقطط والكلاب الصغيرة، مدمنة الشيكولاتة. إنها فتاة بلهاء لا تكف عن المواء، ومعانقة سايا والتمايل معها كلما حدث أمر مفرح، صوتها رائع لكنها لا تكف عن إجهاده بالصراخ. عصبية للغاية، وفي أثناء كلامها تنفعل لدرجة أنها تبدأ بالتلويح بشكل يخدع من يراقبها من بعيد، ويعطي انطباعاً بأنها في شجار أبدي، لكنها الأطيب قلباً.

ثم نانا، عازفة البيز جيتار، الفتاة الأكثر جاذبية رغم هدوء جمالها، والمشهورة بطبخها المميز، ولعب دور الأم في عالم سايا وتشو. في مدونتها على الموقع الرسمي للفريق نشرت أكثر من مرة صوراً لغرفة سايا المهملة، والمائدة التي تركت عليها تشواكوأما من أكياس حلواها المفضلة الفارغة.

وبخلاف حياتها مع الفريق، تعيش نانا حياتها ككوكب يسبح في مدار نجم يدعى هيببكي، أعظم مطربي الفيچوال كيه روك على مر العصور على حد وصفها، وهي معلومة لا يعرفها عنها سوى تسوباسا، أو بعبارة أخرى (العائلة).

وأخيراً ذلك الأحمق داكي، قارع الطبول، لقد انضم إلهم بعد انطلاقيهم بأشهر قليلة، لكن سايا في ذلك الوقت أعلنت أنه جزء من العائلة أعاقته الظروف عن البدء معهم، ومن يومها وأربعتهم لا يفترقون.

كرهت داكي من النظرة الأولى، لا أدري السبب، ما أدريه هو أنني لن أحبه أبداً مهما فعل. ولكن في نطاق العمل كان شخصاً يعتمد عليه، صحيح أنه يثير الشغب

أغلب الوقت، ولا تكف سايا عن الشجار معه وتعنيفه، لكنه موضع ثقة مطلقة، وعلى قدر علمي لم يتسبب قط في مشكلات كتعطيل التصوير أو إفساد حفل أو التخلف عن برنامج. داكي عازف بارع، ومشهور بطبخه الممتاز، وصفحته على الإنترنت تُحدّث دائماً بصور وجبات اخترعها، ما جعلها أشبه بصفحة طبّاخ منها بصفحة عازف. القهوة هوسه في الحياة، بجميع أنواعها ومصادرها، وأظنه سافر إلى عدة بلاد ليأتي بأنواع جديدة تثير جنون من يشاركه شربها.

لكنني لا أحب القهوة، ولا أحب داكي أيضاً، بالنسبة إليّ أرى أن تسوباسا سيكونون أفضل بدونه، لكنني أعلم أنهم لن يتقبلوا هذا أبداً.
تسوباسا عائلة..

أول ما تلتقطه العين بشأن تسوباسا هو ترابطهم، وهوسهم بفكرة العائلة، وتعاملهم مع تلك الرابطة النادرة التي تجمعهم وكأنها مسألة حياة أو موت. عندما أصبحت معهم، صرت مجبراً على مجازاة بعض قواعدهم الغريبة، فهم لا يأكلون إلا معاً، ويخرجون معاً، ولا يبيت أحدهم خارج المنزل أبداً. من سمع من قبل عن فريق موسيقي يعيش أفراداه معاً؟ لا أحد، هذا مستحيل، لكن تسوباسا حققوا هذا المستحيل.

حتى اسمهم.. تسوباسا.. يشتركون جميعاً في الاسم نفسه، وجعلوه لقباً لعائلتهم.
تسوباسا..

لا أحد يعرف عنهم شيئاً. من هم؟ من أين أتوا؟ أين عائلاتهم الحقيقية؟ ملامحهم الأجنبية لم تخدع أحداً منذ ظهوروا، رغم المسحة اليابانية التي يمنحهم إياها الماكياج، أحاطهم الفضول زمناً ولا يزال، لكن أحداً لم يكتشف شيئاً عنهم.

وحدها نانا تبدو آسيوية إلى حد ما، ميل عينيها الخفيف مع الماكياج يمنحني هذا الشعور، رغم بشرتها ذات اللون البرونزي. أما تشوفكل شيء فيها يصرخ بأنها أجنبية تماماً، ببشرتها البيضاء الناصعة، وشعرها الذهبي، وعينيها العسليتين الضاربتين إلى الخضرة، تبدو أقرب إلى التركيات أو الإيطاليات. أما سايا فملاحها الأكثر غموضاً، لا يمكنني أبداً أن أحدد إلى أي مكان قد تنتمي، فشعرها داكن كنانا، لكن بشرتها بيضاء ناصعة مثل تشو وإن كانت أشد شحوباً وشفافية،

وعندما تجهد نفسها وتحيط بعينها الهالات السوداء تبدو كشبح ضل طريقه إلى موطن السلام الأبدي، بعكس تشو المفعمة دوماً بالحياة.

دايكي هو الأقرب إلى سايا في الملامح، له شعر أسود طويل يغطي عنقه وكتفيه، وبشرة بيضاء، وعينين يتغير لونهما بانتظام بعدسات مختلفة الألوان، لكن لونهما الحقيقي بني متوسط، يبدو في الشمس ضارباً إلى حمرة داكنة، فتثير الانزعاج إذا ما خالط أهدابه الكحل الكثيف الذي يهواه.

حياتهم مغلقة، ماضيهم مجهول، فريق غامض ظهر فجأة في سماء اليابان قبل أربع سنوات، حققوا نجاحاً مهولاً وحصدوا عشرات الجوائز، لكنهم لا يهدئون أبداً ولا يشبعون، سايا بالذات تبدو كوحش متعطش للنجاح الذي لا تعكر صفوه أقل الأخطاء، مهووسة بالكمال إلى درجة يصعب على أي إنسان تحملها. في العام الماضي تسببت في دخول نانا المستشفى إذ أجبرتها على العمل وهي مريضة. وفي العام الأسبق ظلت تعمل حتى المرض لأجل إنجاز الألبوم الأخير، وكان هذا بعد انضمامي بشهور قليلة.

أذكر وجهها الشاحب وهي راقدة في المستشفى عندما سألتها: "ماذا يجبرك على كل هذا؟ كان بوسعنا استكمال التدريب غداً!"

- "ليس بوسع النجوم أن تنطفئ قليلاً لتستريح يا تاكومي سان".

كنت حديث العهد بالفريق، فأثار حماسها للعمل احترامي وإعجابي، وفسر لي أسباب نجاحهم المدهون، ولكن بعد فترة بدأ يثير ذعري، وأدركت سبب فرار العازفين الذين عملوا مع الفريق فترات قصيرة قبل انضمامي. كانت شخصاً لا يطاق في نطاق العمل، حتى تشو تنشب أنيابها فيها أحياناً، ويعلو صوتهما بالشجار، أما نانا فتكبت غضبها وتختفي في أول غرفة، لتظهر بعد دقائق بابتسامة متألقة تثير من القلق أضعاف ما تثير من الراحة.

وحده دايكي يتحمل سايا كما هي، علاقتها عميقة لدرجة تجعله يتصرف وكأن صراخها فيه موجه إلى غيره، وعندما تأتي لتعتذر يلعب بشعرها مواسياً. في البداية ظننتهما متحابين، ولكن الطريقة التي يجلسان بها ويتلامسان بها منحني شعوراً بأنهما أخوان، فمن المحال أن يكون ابناً، وكانت مشاعر سايا نحو دايكي أقرب إلى مشاعر الأمومة، تدلله وتلاعبه وتطعمه بيدها، وتضربه بشراسة إذا أغضبها.. إنها تعامله وكأنه عائلتها الخاصة، بل عالمها الخاص الذي لا يجب أن

يقترّب منه أحد، وهذا يضيف إلى حنقي عليه فضولاً لا يُشبع، وأكاد أصرخ بها: ماذا به يستحق كل هذا التعلق والحب؟

لكن الأسئلة غير مسموح بها، سايا لا تجيب أي سؤال في العالم، وتقنيتهما الشهيرة هي النظر باهتمام إلى محدثها، ثم الابتسام والانخراط في حديث بعيد كل البعد عن سؤاله، وكأنها لم تسمع شيئاً، أسلوب يجعلك تتشكك في إقائك سؤالاً من الأساس، وقد أخبرتي نانا يوماً أن هذه طريقة سايا لقول "ليس هذا من شأنك".

أما لو تكرمت وأجابت، فهي تجيب السؤال بأخريعبّر عن دهشتها من طرحه ثم تتجاهل الإجابة تماماً، ولكن إذا حاول شخص ما فعل هذا معها فبالتأكيد سينتهي به الأمر في مستشفى ما برأس مشجوج.

سايا، الفتاة الأكثر أنانية في هذا العالم، الأكثر تقلباً، لكنها شريكة عزفي الأقرب إلى قلبي، ولعلها الشخص الوحيد الذي أنق فيه، لعلها أيضاً الشخص الوحيد الذي أتمنى أن يبقى...

- "تاكومي.. تاكومي..."

سمعت اسمي بصوتها المتلف فور فتح عيني، فأجفلت..

نظرت حولي فلم أعرف المكان، إلا أن التوتر لم يداهمني بقدر ما شعرت بالراحة: كانت سايا معي، أيّاً كان المكان فيكفي أن سايا كانت إلى جوارِي، ترعاني وتحميني.

غمغم الوسواس اللعين في أعماقي بكلمات خافتة ترثي افتقاري التام إلى القوة، وحاول نسج خيوطه ليغلفني كالشرنقة، لكن يد سايا امتدت نحو وجهي، ضغطت بسبابتها تلك التقطبية بين حاجبي، فمزقت بعض الخيوط التي تربطني بأسوأ ما فيّ. سألتني: "أأنت بخير؟"

لم أجب، كنت مضطرباً ولا أدرك الإجابة.

لكن سايا قالت بلهجة من يقرر أمراً واقعاً: "أنت بخير".

اكتسب صوتها سمناً طفولياً جعلني فجأة أبتسم، فقطعت ابتسامتي بضع خيوط أخرى. تمتعت: "أظن هذا".

وجلست، نظرت حولي مستكشفًا الغرفة الواسعة الغارقة في اللون الأبيض والأخضر الزرعي اللطيف، وبدأت أفقي، وارتعشت وأنا أتذكر الجزء الأخير من شريط ذكرياتي، والجنون الذي كاد يتحكم بي.

نادتني سايا لأنظر إليها، ولا أعرف ماذا رأيت في وجبي ليعلوها القلق، وضعت يدها على رأسي وسألتني: "أنا هنا، فيم تفكر؟"

لم أرد إخبارها بما كنت أفكر في فعله بنفسي أمس، ولم أجروء على الاعتراف بأنني خطر شديد عليّ.. بقيت صامتًا أصارع شعورًا قاهرًا بالضعف والعجز، لم أشعر من قبل قط أنني بهذا التهاون.. كيف لا أتحمل أخطائي؟ كيف لا أضع حدًا لكل الخطايا التي اقترفتها؟ كيف أستمر في الحياة مع كل هذا الخزي؟ كيف لا أمتلك الشجاعة للحظات قليلة تنهي كل شيء؟

وكانها قرأت أفكاري نهرتني بصوت خالطت غضبه صرامة: "لا تفكر في أشياء حمقاء يا هارونو تاكومي"⁽¹⁾.

هارونو تاكومي؟ لماذا تناديني باسمي الحقيقي وتجلب معه ما لا يجب أن يجلب من ذكريات؟

نقرت سايا جيبني بقوة فكشرت مزعجًا، ونظرت إليها لكنها عاجلتني بحضن قوي، أخذتني بين ذراعيها وأسندت رأسي إلى كتفها، وأسندت خدها إلى جيبني، راحت تمسح بيدها على ظهري من أعلى إلى أسفل والعكس، أحاطتني تمامًا، احتوتني تمامًا، ووعدتني: "لن يمسك سوء يا تاكومي، فلا تخف، لا تخف". تنفست بثقل، فأمرتني: "إليك".

كنت أريد هذا، احترقت عينايا برغبة في البكاء لم تتملكني من قبل، لكنني لم أستطع، شيء ما وقف حاجزًا بيني وبين رغبتني في الانفجار، وأحالي حجرًا يتنفس بعسر أنفاسًا ثقيلة مكتومة.

سألتني وقد نفذ صبرها: "تكلم يا تاكومي، أخبرني فيم تفكر".

- "أنا جائع".

¹ في اليابان يُذكر اسم العائلة أولاً، يليه اسم الشخص نفسه.

كان صوتي حين تكلمت غريبًا وكأنه لشخص آخر، ولعل هذا ما جعل سايا تحديقًا ليّ طويلًا، ثم تنفج أساربرها ببطء، وتعلو شفتيها ابتسامة.

"الطعام على وشك النضج بالفعل، انهض واستحم وسناكل معًا".

"نأكل؟"

"طبعًا، لقد انتظرنا استيقاظك فترة طويلة، هيا، هيا".

حين وقفت تحت الماء الساخن بدأت شذرات الذكرى تتطاير أمامي، منذ حطمت زجاجة التاكيل في الصباح، وحتى وصلت إلى هنا. تذكرت الأحداث وكأنها لشخص آخر، ولم يبد أن المشاعر الكثيبة التي أسترجعها قادرة على التأثير فيّ الآن، كان قلبي خاويًا كصندوق قديم منتهب، وبدا أن كل شيء بداخلي قد اختفى إلى غير رجعة.

كنت بعد منفصلاً عن العالم وأنا أنضم إليهم في المطبخ المفتوح على غرفة المعيشة، استقبلي البيت بضجة تشع حياةً وبهجةً، كانت تشو تغني وهي تنقل الأطباق إلى المائدة، ودايكي يصدعني بصوت نشاز، ونانا تقرع الأواني بإيقاع منتظم، أما سايا فكانت مسترخية كالعادة على أقرب أريكة في حجرة الاستقبال، تقلب مجلة ميكي بانتظار إعداد الطعام، ولا تكاد عينها تبرحان وجهي.. حاولت الابتسام لها لكنني فشلت، وبقي ذهني شاردًا في عدم تأم وأنا أتابعهم.

التفطنا حول مائدة الطعام، حينها ساد صمت حرج قليلًا، ثم وضعت نانا أمامي طبقًا به أنواع مختلفة من الجبن، ابتسمت لي فأومأت لها عاجزًا عن رد الابتسامة، وشردت متابعًا دايكي وهو يقطع الخبز الفرنسي الضخم بسكين كبيرة، وينقل قطعًا منه إلى أطباقنا. تخيلت نصل السكين يمزق شرايبي، وتساءلت عن أنسب وقت ومكان بحيث لا ينتبه إليّ أحد، وشكرت الأقدار التي جعلتني أعيش وحدي. لكن جزءًا مني اشمز من هول الألم الذي سأشعر به، فلمعت في ذهني فكرة أخرى.

فرقع دايكي إصبعيه أمام وجهي فأفقت، كانت نظرته حادة وجادة، انتهت له، ثم للفتيات الثلاث، وشعرت بقلق غامض يسبح في الجو، فقلت بابتسامة مفاجئة: "هذا الخبز شهّي".

ووضعت عينيّ في طبق هاربا منهم، ثم قلت دون وعي: "أريد بييرة".

ازداد القلق الغامض السابح في الجو ثقلًا، وقالت تشو: "نحن نفطر يا تاكومي!"

نهض دايكي إلى الثلاجة وناولني علبة بييرة، فأخذتها مبلبل الذهن، وأفقت قليلًا حين اندفعت الرغبة الشهية إلى جوفي، فأنعشت برودتها قلبي وكأنها تبعثني بعد موتٍ طال، وحين خفضت العلبة فارغة رأيهم يحدقون إليَّ بانتباه، فتولاني الحذر وسألتهم: "ماذا تريدون؟"

قال دايكي: "أنت لن تعود إلى بيتك، ستبقى معنا حتى نعود من جولتنا".

للحظة كدت أقاوم، لكن صيغة الكلام الأمرة لم تترك لي فرصة للتفكير، فلم أجادل؛ لم أكن راغبًا في الانفراد بنفسي على أي حال..

لكن الجنون الذي كنت أهرب منه لم يكن بحاجة إلى الوحدة ليسيطر عليّ؛ ففي وسط تناولنا الطعام توقفت، شعرت أن العالم كله يعتم، ويضيق بي، وأطبق ألم بالغ على روحي، وجعل أفكاري المشتتة تستقر عند قرار واحد: "يجب أن أموت اليوم".

انسحبت بعد الطعام إلى غرفتي، جلست طويلًا على الفراش أحرق عبر النافذة إلى الخارج دون أن أرى شيئًا، كنت محاطًا بجمال لم يتسرب إلى داخلي، وبعد صمت احتوى عقلي نهضت إلى الحمام. كان شخص آخر يحتل جسدي في تلك اللحظة، ووقفت أمام المرأة أطبل النظر إليه، بعدها مددت يدي إلى الصيدلية الصغيرة، وأخرجت زجاجة كبيرة امتلأت بكبسولات الدواء، رفعتها أمامي وتأملتُها في الضوء.

وهنا مدت نانا يدها تسحب الزجاجة مني، انتهت إليه مجفلًا، وانتفضت حين صفعتني صفقة دار لها رأسي.

سألتني وهي أدنى إلى الغضب: "فيم تفكر؟"

- "نانا!"

هوت على خدي الآخر بصفعة أخرى أشد قوة، فشعرت أنني أفيق من حلم طويل بكوب ماء انسكب على وجهي، واشتعل غضب جامح في صدري.

- "هل جننت؟ لماذا تصفيعيني؟"

أعادت زجاجة الدواء إلى مكانها، وسحبتي من تلايبي لتجلسني على حافة حوض الاستحمام، وويختي بعنف: "اسمع، لو كنت تريد الانتحار فلن أمنعك، ولكن يجب عليك أولاً أن تدرك هول الأذى الذي ستلحقه بنا جميعاً. أنت دون كل البشر تدرك ماذا يعني موت الأصدقاء، أم أنك نسيت فريقك القديم؟"

صفعتني الذكري فخفضت رأسي، لكن نانا رفعت ذقني، وكانت أصابعها قاسية وكأنها تتعمد إيلاي..

"فكر فيما سيصيبنا، فيما سيصيب تسوياسا، وقدر الأذى الذي سأشعر به أنا وتشو، ودايكي الذي لن يجد من يزعجه بعدك، أما سايا... تبّاً لك من أحق! سايا سيدمرها موتك تدميراً، لو فعلت بها هذا يا تاكومي سألحق بك إلى الجحيم وأقتلك".

ضحكتُ بشكل مفاجئ فمالت عليّ، لان وجهها واكتسب تعبيراً متعاطفاً ضحوكاً وهي تنظر في عيني مباشرة، لا أعرف ماذا كانت ستقول، إذ لمحت بطرف عيني حركة عند باب الحمام، ونظرت لأجد سايا جامدة هناك، وأكاد أقسم أن وجهها خلا من الدماء في لحظة.. بدت وكأن قلبها قد انترع من مكانه.

أثار تغير ملامحها ذعراً ما في قلبي، فناديتها، وما زاد الأمر سوءاً أن نانا اضطربت حال رؤيتها اضطراباً غير مبرر، لكن مشاعر سايا ووجومها اختفيا في أقل من لحظة، وأشرق وجهها بضحكة..

"أنتما معاً؟ حسناً، كنت أخشى أن تكون وحدك".

شيء ما فيها أشعرنني بالبرد، وكأنها ضبطتني في وضعٍ مخلٍ، فهضت وقلت: "لا شيء يحدث، إن نانا...".

ركبت نانا قصبه ساقى فتأوهت، فاستغلت الفرصة لتقول: "أردتُ إخباره بشيء".

"حسناً، سنبدأ بروفات (همس النجمات) في قاعة الموسيقى بعد ربع ساعة".

وتركتنا، نظرت لنانا غاضباً، فحذرتني: "إياك أن تخبرها بفعلتك الحمقاء".

نبض قلبي هلعاً وأنا ألحق بسايا، أمسكت بيدها قبل أن تهبط السلم، عجزت عن النطق، لكنها نظرت لي باسمه، كان وجهها مشرقاً لدرجة تجعل من المستحيل

تصديق الصدمة التي علتة قبل قليل، حتى أنني شككت في نفسي لولا أصابعها الباردة.

- "سايا، لم يحدث شيء، نانا كانت..."

- "أنا لا أحاسبك على ما تفعله في غرفتك".

- "لا، ولكن..."

أزاحت يدي بلطفٍ وقالت: "التدريب سيبدأ بعد قليل".

تمسكت بها: "انتظري، لا تسيئي الفهم..."

- "لا شيء يجعلني أسئ الفهم أو أحسنه يا تاكومي، لم أنت قلق هكذا؟"

وضحكت في وجهي وكررت: "سنبدأ التدريب، لا تتأخر".

وهبطت في خفة تاركة إياي أعلى السلم، غارقاً في ارتباكٍ غيبي، لكن بهجة غامضة تسربت إلى قلبي، وأنا أستعيد وجهها الشاحب المصدوم، سرعان ما طردتها عني شاعراً بالذنب.

بدأنا تدريباتنا وغرقنا فيها، وعزّلني الانشغال عن أفكارِ المجنونة. وبعد أسبوع من دخولي بيّتهم وأنا مشوش الرأس يراودني هاجس الانتحار، أصبحت قادراً على استيعاب ما فكرت فيه في أمسية الجنون الأولى، وتساءلت: ما الذي أوشكت على فعله بنفسي بحق السماء؟!

لم أستوعب فداحة ما كدت أقدم عليه إلا وأنا منغمس تماماً في حياتي التي أحبها، الحياة التي تدفعني سايا دفْعاً للغوص فيها، والتي يبقيني غائصاً في تفاصيلها باقي أفراد الفريق..

أو باقي أفراد العائلة.

لم أدرك إلى أي درجة صدقوا في وصف أنفسهم بالعائلة إلا حين عشت معهم، ولقد أحببت هذا، أحببت الحياة معهم، وأحببت بيّتهم بحديقته الناضرة، وممراته مضيفة الأرضيات، والسطح المظلم، حيث تزهو النجوم بصورة بهية لم أعدها من قبل.. عندها عرفت سر عشق سايا للسماء، وسر التليسكوب الذي انتصب في أبعد ركن من السطح، مواجهاً الأفق الواسع، يحميه غلاف جلدي سميك، وتظلله مظلة واسعة شفافة، وقد أحاطه سور منخفض ذو باب مغلق يؤكد خصوصيته.

عندما رأيته أول مرة أسر أنفاسي، لكن نانا حذرتني: "لا تحاول، سايا لا تسمح لأحد بلمسه".

"حتى أنا؟"

"ولا حتى أنا، لا يدخل هذه المنطقة أحد إلا سايا وميساو".

"ميساو؟"

رددت الاسم وذهني سارح؛ ترى ماذا سأرى إذا ما حددت عبر عدسة هذا التليسكوب إلى السموات البعيدة؟

كررت نانا ضاحكة: "لا تحاول يا تاكومي".

فلم أحاول.

سارت الحياة بوتيرة متسارعة، أنهينا تدريبات أغنية (همس النجمات)، وأتممنا تسجيلها خلال أسبوعين، ثم بدأنا تصويرها. كانت الأغنية تحكي عن شخص ولد بين أناس يخشون أن تسرق الشمس أعينهم، فعاشوا برؤوس محنية، حتى ولد بينهم طفل مولع بضياء الشمس العظيم، فعاقبوه بقسوة ليصبح مثلهم، ولما يأس من مقاتلتهم اعتاد مراقبة النجوم، تلك الشموس البعيدة غير القادرة على سرقة عينيه.

ثم التقطت النجوم افتتاحه وحبه لها، فأرسلت إليه جنية تهمس له بأسرار عوالم أخرى لا نهاية له، تخبره قصصاً فانتة عن أراضي الجن حراس الكنوز، وأراضي حوريات البحر اللاني يُغرَقن الغادرين بمن يحبون، وحوريات الشجر اللاني يحققن الأمنيات الصادقة. ظلت جنية النجوم تهمس له طويلاً طويلاً في أثناء نومه، حتى قرر ألا يستيقظ، وأن يتبع صوت جنيته إلى أبد الأبد.

كنت بطل الأغنية، وأمضيت ساعات التصوير مستلقياً على الأرض متظاهراً بالنوم، مفكراً في الأشخاص الذين قد تلهمهم تلك الأغنية بشيء ما، فيما يستند رأسي إلى ساقَي سايا، وهي ترتدي فستاناً أزرق عظيماً، يغطي الأرض كلها، مرصعاً بفصوص الماس كالنجوم. كان المشهد يبدو وكأنني واقع تماماً في حبال همساتها، هي.. جنية النجوم التي سأقرر أن أنام إلى الأبد في حضنها.

ظلت تهمس لي طوال التصوير، لا أذكر ماذا كانت تقول، هل تسرد سيناريو محدداً؟ أم تتظاهر بالهمس؟ أم تقول كلاماً عاماً؟ أم تحدثني؟ لا فكرة لدي، لكنني

أحببت تلك اللحظة حين فتحت عيني ونظرت لها نظرة تائهة فابتسمت لي، لم أكن أمثل، كنت تائهًا وأتبع صوتها حقًا، لكن الكاميرا التي تصورنا من أعلى خرقت شعوري بخيالية اللحظة. "كل هذا خيال يا تاكومي، لا أحد معك حقًا".. قلت هذا لنفسي.

بفستانها الأزرق العظيم علقت سايا معي في تصوير البوسترات، كانت تقف إلى جواني، كتفها في كتفي، ولكن في الاتجاه المعاكس، ويدها اليمنى نائمة فوق كتفي اليسرى، ويدها اليسرى موضوعة على منتصف صدري، وبزاوية عسيرة أدارت رأسها نحو الكاميرا وفي عينها نظرة تحدٍ وتملك تام. أحببت تلك الصورة كثيرًا، ولم أقبل بإعادة التقاطها.. أحببت تلك النظرة.

كانت الصورة الأجمل بالوضع نفسه، لكنني أدت ذراعي حول خصرها وقربتها إلي.. تلامس أنفانا وشفاهنا منفرجة في كلماتٍ لن نُقال. حين رأيت الصورة عرفت أنها ستثير جنون الجميع.

لاحظت أولى رياح التغيير في حياتنا في آخر أيام التصوير، إذ جاءنا مدير أعمالنا يزف خبرًا: "سايا، أخبار رائعة، لقد اختاروا أخيرًا بطل الدراما التي تشاركون فيها، خميني من".

قال دايفي بسرعة: "ياماتو من فريق Close، أكاد أقسم...".

ضحك وقاطعه: "لا تقسم، لقد وقع الاختيار على هيروماسا كينجي".

بعد برهة من الصمت انطلق دايفي في الضحك: "يا للهول! قل إنك تمزح!"

ضحكت تشومعه: "كينجي مع سايا في عمل واحد! إنها الحرب".

أما سايا فأشرقت كالشمس، ونبض خداهما بحمرة لامعة، ولم تزد على قولها: "واو!"

شجعتهما نانا: "إنه خبر يستحق احتفالًا، ابتهجي".

قال مدير أعمالنا: "تهانِي يا سايا.. والآن تأهبي لتوقيع العقد مساء الغد، واستعدي لبداء التصوير الأسبوع المقبل، سيكون جدولك مضغوطًا جدًا لأنك ستصورين أغلب مشاهدك قبل السفر".

- "أنا متأهبة".

عملت سايا معنا في ذلك اليوم وهي تتفجر بالطاقة، لكنني لم أكن مستريحًا لسعادتها باختيار كينجي؛ كان صديقنا بالتأكيد، وصديقها قبلنا، لكنه لم يكف يومًا عن الشجار معها، كلاهما كان قائدًا بالفطرة. وقد باعد هذا بينهما ولم يصنع تفاهمًا يجعلني مطمئنًا لقضائهما وقتًا طويلاً معًا.

صارحتها بهذا في المساء، فقالت لي: "لكننا لا نتشاجر بجدية!"
- "ربما أنت، لكن كينجي يفعل".

ضحكت دون أن تأخذ مخاوي على محمل الجد، فترددت قليلًا قبل التصريح بفكرة ما: "نانا تبدو غريبة منذ عرفت باختياره لبطولة المسلسل".
- "لا بد أنها قلقة مثلك".

ترددت ثانية ثم استسلمت: "إنك بالغة البراءة يا سايا".
ضحكت، ولكمتمي في كتفي: "إنه أعز أصدقائي يا تاكومي، لا تجعلني أزداد قلقًا".

- "أنت قلقة؟"

- "طبعًا، التمثيل أمامه سيكون صعبًا".

- "آه، نعم، نسيت أنك ستقتلين جميع الشخصيات في المسلسل".
انفجرت ضاحكة: "أيها الوغد! لا تسخر مني أنت أيضًا، القصة تقول...".
- "لا تحكي شيئًا، أنا سأحضر التصوير بنفسي".

- "هل ستفعل؟"

- "طبعًا، لن أفوت رؤية تحولك إلى سفاحة".
لكمتمي ثانية وضحكت قائلة: "أيها الوغد".

لم يخيب هيروماسا كينجي ظني فيه، منذ أول أيام التصوير..

حين وصلنا كانت سايا مشتبكة معه في شجار حاد، وكان صوتهما مرتفعًا إلى حد جعلهما محاطين بنظرات العاملين المستاءة، ووقف المخرج بينهما محاولًا حسم معركتهما. ولما رأنا رفع يده مستسلمًا، معلنًا يأسره، وابتعد عنها تاركًا المخرج يتحدث إليها.

جاء يحيينا فقلت له: "لم لا أشعر بالاستغراب؟"

أشار بيده بطريقة مهمة قائلاً: "ستظل ساحرة شريرة تتدخل في جميع التفاصيل إلى الأبد".

سألته تشو: "ماذا فعلت؟"

- "إنها معترضة على ردود فعل الشخصية التي تجسدها؛ تقول إنها تبدو خرقاء بطريقة مبالغ، ويفترض أن تكون أقل مودة مع الآخرين. عن أي مودة نتحدث بحق الجحيم! إنها شخصية سوداء كالليل الحالك!!"

ضحك دايمي وحاول مواساته: "لا تتوقع أقل من ذلك، لقد كانت تحلم طيلة حياتها بتجسيد شخصية شريرة".

تذمر هيروماسا كينجي: "ما لا أتوقعه هو أن تكون أقل تسلطاً".

شجعت نانا: "ستجد وسيلة للانسجام معها، لا تقلق".

ارتفع صوت المخرج معلناً: "سنمنح سايا تشان فرصة لإثبات وجهة نظرها".

صاح كينجي: "اللعنة! لا تقل...".

- "سنتركها تؤدي الشخصية كما تراها، إذا كانت مصرة على أنها تستطيع أداءها بطريقة توضح المزيد من تعقيدها، دون إضافة كلمة إلى السيناريو، فسنتركها تفعل".

كانت في صوته نبرة حاسمة، لكن روحاً من السخرية سرت بين الجميع، والذين كانوا أميل إلى الرفض مثل كينجي.

أصبح التصوير جاهزاً، فتمتم كينجي: "سنرى هذه الملهة الآن".

صاح المخرج: "أكشن".

كانت الممثلة أيانو هيكاري جالسة على فراشها مستغرقة في تفحص بعض الأوراق، حين انخفضت الأضواء وخيم ظلام نسي على المكان.

صاحت هيكاري بصوت قلق: "من؟ ماذا يحدث؟"

ونفضت تتلفت حولها، والظلام يغلفها، ثم انتفضت وارتدت للخلف حيث غمرها ضوء شاحب، وأظهر ملامح رعبها الصادق. ومن الظلام خرجت سايا،

وجهاً بارداً ونظراتها ثلجية، سارت بعرض الغرفة وهي لا تنظر إليها، لا تنظر إلى أحد، لكن حضورها كان طاغياً، وساد المكان صمت رهيب.

قالت بصوت ناعم: "لا تزال غارقة في هذه الألعاب السخيفة، يوميكو".

ارتدت هيكاري للخلف خطوات أخرى، خف الرعب في ملامحها واستحال ترقباً ثقيلاً، وأجابت بصوت متقطع: "لا شأن لك بما يحدث يا أكي، لقد أخبرناك بهذا".

"تقولون ما تريدون، وأفعل ما أريد يا يوميكو، لا تنسي هذا".

ودارت حول نفسها، ومشّت مجدداً بعرض الغرفة في الاتجاه المعاكس.

"هذا الرجل فريستي، فهل ظننتموني أمزح حين قلت إنني لن أتنازل عنه؟"

"ولكن....".

"أخري".

كانت الصبيحة حادة، تتناقض وصوتها البارد المستخف الذي تحدثت به من قبل.

انتفض كينجي وهمس: "يا للهول!"

تابعت سايا تمثيلها الرهيب: "لقد قلت هذا بوضوح، فلماذا تتعاملون وكأنني لست جادة؟ ألا أبدو جادة يا يوميكو؟"

واستدارت بعدما وصلت إلى نهاية الغرفة، وهنا أصبحنا قادرين على رؤية ملامحها، ولم أكن لأستغرب لو كان الهلع على وجه هيكاري حقيقياً..

"لقد قلت هذا، ألم أقل؟"

تراجعت هيكاري مرعوبة، عندها مدت سايا يدها نحوها، كان المشهد جديراً بتجسيد الشيطان وهو يطلب روح إنسان تعس الحظ...

"هاتي هذا الورق".

"لا".

"أحقاً؟"

وابتسمت، كان نصف وجهها غارقاً في الظل، فبدت الابتسامة التي ظهرت على النصف الآخر وكأنها تولد من الجحيم..

رفعت حاجبها وأمالت رأسها ساخرة تتساءل: "إذن، هل أخذه بعد موتك يا يوميكو؟"

وخفضت يدها، سارت إليها بخطوات بطيئة وهياري تتراجع أكثر، حتى اصطدمت بحافة فراشها وسقطت فوقه، عندها تحركت سايا ووثبت عليها، مالت فوقها ووثبتت ذراعها إلى جوارها وحدقت إلى عينيها، كانت نظرتها ثابتة وباردة، وفي انحناءة شفيتها لأعلى كراهية عظيمة.

رددت هياري مراراً: "توقفي".

قالت سايا بنعومة وهي تسحب خصلة من شعرها: "أعلم أنك تكرميني، وأريدك أن تعلمي أنني أكرهك أكثر".

وشدت خصلة الشعر بعنف وفي وجهها كراهية صارخة، فأطلقت هياري صرخة مدوية، وكتمت أنفاسها بذعر مترقبة مزيداً من الإيذاء..

دافعت عن نفسها ببؤس: "توقفي يا أي...".

مالت سايا والتقطت الأوراق المنثورة خلف رأسها، وطبقها بغير عناية ودستها في جيب معطفها، وسحبت خصلة شعر جديدة، وقالت بنعومة: "هذا تحذيري الأخير، فاحرصي على حياتك".

وسحبت خصلة الشعر عن آخرها، وحين توقعت صرخة الألم أطلقت سايا سراح شعر غريمها، وقالت بصوت أنعم: "لا أريد قتل صديقة طفولتي الوحيدة".

ومالت على هياري متسعة العينين، وأمالت رأسها جانباً بطريقة مثيرة، وتمتمت بما لم نسمع.

تمتم كينجي ساخطاً: "يليق بك هذا المشهد بالذات".

صاح المخرج: "اقطع".

عادت الحركة إلى موقع التصوير، أضيء المكان، وتحرك العاملون لمساعدة الممثلتين، وكانت آيانو هياري بعد متأثرة بما تعرضت له من تمثيل غير متوقع،

ردت انحناءة سايا مقطبة، ثم انصرفت، مرت بجواري ونظرت إليّ، ثم أشاحت بوجهها وكأنها تهرب.

استردت سايا شخصيتها المرحية البهاء، راحت تدعك رأسها بحركة طفولية وهي تنظر للمخرج بوجه خجول سعيد فيه لمحة من الطفولة، فأيقنت أنه يمتدحها، والتف حولها الآخرون مهئين فتألفت بثقة الماسات، حتى تعليقات هيروماسا كينجي الساخطة والساخرة زادتها تألقًا.

طال بي الوقت في انزواني عن الجميع، كنت أراقب ما يحدث، ثم أصبحت عيناى تستقبلان المشاهد دون أن يحللها عقلي أو يستوعبها، شردت في عوالم أبصرها ولا أدركها.. عوالم أبعد مما يحيط بي بكثير.

وفجأة، شعرت بوجود شبحي جواري، هنا وسط الزحام والعشرات الذين يمرون بي، سَجَبْتُ بغتةً وعنوةً إلى الخلف، إلى الشعور بالغرق والرغبة الجنونية في الذهاب بعيدًا، سَجَبْتُ على حين غرة لدرجة أنني ترنحت، ومددت يدي أتشبث بأقرب ما تطوله، فاستندت إلى مائدة كادت تهرب من ثقلي وتنزق.

أمسك كينجي كتفي قبل أن يغمرني الشعور الثقيل تمامًا، وسألني: "أأنت بخير؟"

تجاهلت السؤال وسألته: "كم من المشاهد تبقى؟"

"ليس الكثير، سننتهي خلال ساعتين".

"إذن سأراك لاحقًا".

وتركته، ابتعدت عنه شاعرًا بمدى وقاحة تصرفي، حتى بالنسبة إلى صديق.

كان الشبح يرافقي، يحدجني بنظرات لا أراها، لكن برودتها تخترقني وتصيبني بالغثيان.. ارتيمت في سيارتي وتنفست كالغارق إذ ينتشل نفسه من الأمواج، ثم أُلقيت رأسي على المقود، وغرقت في أحلام يقظة يلاحق بعضها بعضًا.

عندما بدأت أسترده نفسي أدت السيارة، وانطلقت بأقصى سرعة، رافقني شبحي رغم سرعتي، وازدادت نظراته برودة، وحضوره قوة، فصرخت: "أذهبي".

لم يهتم الشبح بكلماتي، ففار غضبي كحمم بركان، وأدرت المقود بجدة إلى أقصى اليمين، فارتمت بي السيارة إلى جانب الطريق، وصوت الفرامل يدوي عاليًا.

استدردت ونظرت جانبًا، تمنيت رؤية تلكما العينين الباردتين بوضوح، والنظرة الثابتة الحادة، لكنها اختفت، كل شيء اختفى، والسيارة الفضية المرتمية على جانب الطريق خلت إلا من عازف جيتار يوشك أن يفقد عقله من شدة البكاء.

غرقت زمنًا في ألمي، ثم شعرت بمن يفتح باب السيارة، أجفلت، لكنها كانت سايا، نظرت لي غير قادرة على الكلام، ثم أمرتني: "ادخل".

انتقلت إلى المقعد المجاور، وانحنيت على ركبتي محيطًا رأسي بذراعي، حاولت أن أتماسك لكنني عجزت، كنت منهأًا، ولا أستطيع أن أتذكر يومًا بكيت فيه أكثر من ذلك اليوم.

قادت سايا السيارة دون أن تحاول قول شيء، ولشد ما كنت ممتنًا لهذا، لم أكن راغبًا في شيء قدر رغبتي في ترك عنان ألمي، وأن أكون وحدي ولا أكون وحدي في آن معًا، وقد وفرت لي ما أردت. بكيت حتى انفطر قلبي، وخلت أنفاسي على وشك التوقف من شدة الاضطراب، كنت أهتز وكأن البرق ضربني، لكن الدمع غسلني، وراح الألم ينسحب كلما خفت حدة بكائي، وعندما ألقيت رأسي على مسند المقعد كنت خاويًا تمامًا، وقلبي -مجددًا- كصندوق قديم منتهب.

توقفت سايا في نقطة آمنة من الطريق السريع، لم تحاول لمسي أو نطق كلمة، وعندما هدأتُ ربطت حزام مقعدي، وانطلقت بالسيارة. لم أكن أحب قيادتها، لأنها تدور حول المدينة كلها قبل أن نصل إلى أي مكان، لكنني لم أعترض هذه المرة، كنت أنعم بخواء طال توقي إليه.

وصلنا البيت سريعًا، وهبطت سايا أولًا وبسرعة مبالغية، ودارت حول السيارة لتستقبلني حال خروجي، أمسكت معصمي بحرص وقادتني إلى الداخل.

بمجرد دخول البيت شعرت بتفكك كياني، ارتيمت على أقرب أريكة، حدقت إلى السقف وقد بدت لي المشاهد شاحبة، باهتة الألوان، وتملكني شعور غريب بأنني حيٌّ وميتٌ في الوقت نفسه. تساءلتُ بيني وبين نفسي: أأنا ميت منح فرصة للحياة فعاد شبحًا؟ أم حي انتزعت روحه وألقيت حيث لا يمكنه رؤيتها أو الحصول عليها؟

شدت سايا معصمي وأنهضتني لأجلس، رددت اسمي وهي تضع يدها على خدي، عندها انتهت لكوني أبكي ثانية، الدمع يزلق من عيني دون وعي مني، وفي

صمت تام كتسرب الروح من محتضر. أبعدتُ يدها وسألتها: "لماذا جئت خلفي؟ قال كينجي إن التصوير ينتهي بعد ساعتين. فلماذا تزعجين طاقم عملك؟ أنا لم أكن بحاجة إليك لتأتي خلفي، هل تطارديني؟"

كنت حادًا، وكأنني أوبخها بدلًا من توبيخ نفسي، لكنها أجابت ببساطة: "أه".

وركعت أمامي، وأمسكت يديّ معًا...

"طالما طاردتك، وستطول مطاردتي لك حتى الموت يا تاكومي، ألا تعلم هذا؟"

"اذهي يا سايا".

"الشخص الذي يجب أن يذهب ليس أنا".

بظهر يدي مسحت وجهي في غير عناية، وهضبت مغادرًا غير عابئ بندائهما، لكنني تفككت حقًا بعد خطوات، وكأن كل أجزاء جسدي انتثرت في آلاف الشظايا، شعرت بزلزال مهزني، يقتلع قلبي من مكانه ويبعثره إلى أشلاء، سقطت أرضًا مفتتًا إلى ملايين الأجزاء، وانقلب العالم بي.. تكورت حول نفسي كقط محتضر وتركت الأنين الحبيس في صدري يتحرر، لعله يأخذ الوجد معه، لعله يأخذ روحي ويحررني دون مزيد من الألم.

كان الشيخ موجودًا وغير موجود. وبشكل مشوش رأيت يدًا تمتد إليّ، تستقر على بعد بوصات مني ولا تقترب أبدًا مهما حاولت لمسها، كسراب يتوهمه مسافر ضل الطريق، أو كحلم نجاة يراود قاتلاً يعتلي المشنقة.

أنا وحدي...

طعني هذا اليقين حد الموت، بلغ أنيني عنان السماء، لعله بلغ موطن شبحي وأخبره كم أتعذب، وكيف أحييا بغير حياة.

رفعت سايا رأسي بين يديها ونادتنني، وامتلأ نداؤها ذعرًا لما رأت كيف غمرت الرمال ساقَيَّ حتى الكاحلين، وصارت تحرري مستحيلًا.

كعازف جيتار تهز شهرته العالم، اعتدت الفوضى والأكاذيب والشائعات التي تنتثر خلفي لأتفه الأسباب، وتحرف أبسط الحقائق إلى أساطير يشيب لهولها الزيف نفسه. اعتدت هذا منذ المدرسة الثانوية، عندما خاصمتني صديقتي المفضلة لأنني أضعت كتابها، فامتألت المدرسة بشائعات عن خيانتني لتلك الصديقة، واتضح أنني كنت أواعدها دون أدري!

كانت هذه هي البداية، ولم تكن النهاية مع الشائعة المدمرة التي لاحقتني لأشهر بسبب شركة تركتها لشروط تعاقدها المجحفة، فامتلاً مجتمع الموسيقى الياباني بالشائعات عن مثلث الحب الذي يجمعني بزميل من فرقة أخرى، وعارضة أزياء رأيتها في حياتي مرة واحدة، وهكذا ترسب داخلي يقين بأنني سأعاني إلى الأبد بسبب أغبياء بلا حصر.

لكن هذه المرة، فاق الأمر كل الحدود. كنت في المستشفى أقلب صفحات الأخبار على الإنترنت، وأتساءل من أي مكان نبتت كل هذه العناوين المستفزة:

"نقل تسوباسا تاكومي إلى المستشفى بعد انهياره خلال التصوير"

"الإرهاق يطيح بعازف الجيتار الكهربائي في تسوباسا"

"الساحرة الشريرة تتسبب في انهيار شرك عزمها"

وعندما دخلت إلى نوادي معجبينا كان الاستفزاز أقدح:

"سايا اللعينة لا تكف عن الضغط على أفراد الفريق، في العام الماضي انهارت نانا، والآن تاكومي يسقط".

"هل تتوقعون أن يؤثر انهيار تاكومي على الجولة القادمة؟ لن أتحمل هذا، أنا أنتظرهم منذ أشهر".

"هل سيكون تاكومي بخير؟ سايا اللعينة هذه!!"

"هل هي إنسانة من الأساس؟ إنها وحش"

خفضت هاتف دايمي اللوحي والضيق ينخر أستار التبلد المحيطة بمشاعري.
قلت له: "قل لي سببًا واحدًا يجعلها تتحمل اللوم فيما أصابي".

انتبه لي وابتسم، فسحب الجهاز وأغلقه..

"لا ترهق أعصابك، أنت تعلم كم الأكاذيب التي تلاحقنا، فلن يزيد شيئًا أو ينقص إذا ما ازدادت الشائعات واحدة".

"لكن هذا ظلم!"

"حقًا؟ أخبرني عن شيء واحد عادل في عالمنا هذا".

هزرت رأسي، وجدت صعوبة في التعليق وسط خواء عقلي التام بتأثير الأدوية،
وتساءلت عن الشعور الذي يجب أن يراودني الآن. لو كنت في ظروف طبيعية
لأغضبني الأمر بلا شك، فهل يجب أن أفتعل الغضب الآن لأبدو طبيعيًا؟

توقعت أن ينيثق الوسواس المدمر في رأسي ليخبرني أنني لست طبيعيًا، أو
بمعنى أدق يحتفي بكوني لست طبيعيًا ويحرضني على الاستمرار فيما أنا فيه،
ويزين لي جمال تجاهل ما تتعرض له صديقتي بسبي. لا ريب أن جزءًا مني كان
ليقول: "ولماذا تريد أن تبدو طبيعيًا؟ أنت يائس إلى هذا الحد ليقبلك الآخرون؟
لشد ما أنت ضعيف وتافه يا هارونو تاكومي. لا تبالي بهم.. نعم، كان جنوني
ليقول هذا لولا الأدوية.

فرقع دايمي إصبعيه أمام عيني ليلفت انتباهي. قال: "لا تأبه للأمر، سايا لا
تبالي، وكلنا لا نبالي، المهم أنك بخير الآن".

"لو عدت إلى جيتاري لأصبحت أفضل".

مضى أسبوعان تقريبًا منذ احتجرت في المستشفى؛ هزمني الاكتئاب الذي
حاولت التغلب عليه وحدي، أو تجاهله ليمضي بعيدًا عني.. صرعتي بضربة
قاضية، لكنني على الأقل سقطت قبل أن يقودني إلى الانتحار. وبعد استيعاب ما

حدث -واقضى الأمر مني أيامًا لأفهم ما أصابي - بدأ القلق يرادني بسبب العمل المتراكم عليّ، وضيق الوقت قبل سفرنا، إلا أن تسوأسا استمروا في التأكيد أن كل شيء على ما يرام رغم الضجيج المحيط بهم في الخارج، فعندما جاءت بي سايا إلى المستشفى فور انهيارى، تصادف وجود أحد الصحفيين في الاستقبال، صحفي عنيد تجاهل ساقه المكسورة والتقط صورة واحدة تسببت في فيضان من الشائعات والسباب واللعنات أغرق سايا، التي كانت تحاول -أصلاً- إنقاذى.

لم أشعر بكل هذا بطبيعة الحال، أخبرني داكي أنني قضيت ثلاثة أيام نائمًا أتقلب تحت تأثير المهدئات، ويومًا آخر أترجح بين الوعي واللاوعي، ثم استيقظت بسلام مع صباح اليوم الخامس.. ولكن بالنسبة إليّ كان الأمر أشبه بإغلاق الضوء ثم فتحه، انطفأ الضوء وأنا أرى سايا، ثم أضيء لأرى نانا تبتسم لي، وما بين اللحظتين لا شيء، كأنني أغمضت عينيّ وفتحتهما، مع اختلاف هائل في المشاعر.

لقد بلغت أخيرًا الهدوء الذي تقت إليه طويلًا، لم يعد في عقلي شيء.. فراغ تام وشعور بالتبذل مريح، ولو أنني كنت أعلم أن المساعدة الطبية ستريحني إلى هذا الحد ما عذبت نفسي، وقاتلت جنوني كل هذا الوقت. كل شيء أصبح الآن أفضل باستثناء ما يحدث لسايا.

قرأ داكي أفكاري وأجاب: "الأمر تحتاج شخصًا يتحمل مسؤوليتها، وأنت لا تستطيع تحمل هذه المسؤولية الآن، فلو عرفوا بأزمته النفسية ستقلب الشركة رأسًا على عقب، ونوادي المعجيين ستسجل أرقامًا قياسية في عدد الشائعات المؤذية، وفي النهاية سنتضرر جميعًا، ولكن إذا اعتقدوا أنك سقطت تحت وطأة الإرهاق، فسيصبون غضبهم على سايا قليلًا، ثم يمتدحون نتيجة عملنا الشاق عندما تعرض أغنيتنا الجديدة، وبعدها جولتنا الأسبوعية القادمة.. لا تقلق".

لم أتقبل منطقهم رغم إحكامه، لكنني تجاهلت فكرة التفكير في الأمر.. فليحدث ما يحدث.

- "لو فكرت في الأمر بشكل عملي فستجد سايا المستفيدة.. بعد أسابيع سترى الجميع يمتدحون قيادتها للفريق ويتناسون ما أصابك".

هزرت رأسي غير مبالي.

بعد صمت طويل قلت: "ولكنني أريد جيتاري، هذا سيجعلني بخير".

- "بالتأكيد يا صغيري، أنا أصدقك".

- "لا تسخر مني".

- "أنت تسخر من نفسك، فلو أن انغماسك في العمل يساعدك ما كنت هنا الآن، لهذا ستستسلم للراحة وتخرس".

- "والجولة الـ...".

- "أنت أهم".

ونظر إلى ساعته بتململ فقلت: "يمكنك أن تذهب، البقاء وحدي لا يضايقي".

- "لا، إن تشو على وشك الوصول".

لم أعلق لأنني أعرف مواعيد تشو التي تنافس الروايات البلياء التي تهواها
سوءاً، فظللنا الصمت اللهم إلا من صوت خافت يصدره دايمي في سره وهو شارد
يقلب في هاتفه، كان يردد إيقاع أغنيتنا الأخيرة، لكنه كان مختلفاً عما تدريبنا
عليه، فتساءلت إن كان يجري تعديلات عليه أم يسعى لضبط جزء منه.

لم يطل الصمت إذ طُرق الباب ثم دخلت سايا، حيثنا بابتسامة مجعدة من
خلف نظارتها الداكنة. قلت لها: "يبدو أن البرامج الفنية ستعلن خبراً عن انهيار
آخر قريباً".

وضعت حقيبة ضخمة إلى جوارتي وارتمت جالسة على طرف فراشي وزفرت
بإرهاق.. تدمرت: "لا تتحدث حتى عن الأمر، إن رأسي يدور لدرجة أنني أظن نفسي
في حلم".

- "لماذا جئت؟"

- "أعاني الفراغ ولا أجد ما أفعله في حياتي، لهذا أقطع نصف طوكيو لزيارتك".

وكشرت في وجبي معلنة سخافة السؤال الذي أكرره على مسامعها يومياً، وهي
تزورني بعد انتهاءها من تصوير مشاهدتها بالمسلسل، وقبل انطلاقها إلى تدريبات
جولتنا القادمة.

قالت لدايكي: "لدينا ترتيبات خاصة اليوم يا مومو، تشو تنتظرك في السيارة بالخارج وستخبرك بالأمر".

نقل عينيه بيننا، ثم ظهرت فيهما لمحة فهم لأمر ما لم أفهمه أنا، فاستدار وحياني ثم ذهب بابتسامة كبيرة مريبة. سألتها بعد خروجه: "لأي شيء تخططون؟ لا تقولي إنني سأبقى هنا فترة أطول".

خلعت نظارتها ثم استدارت في جلستها لتواجهني، أسندت ذراعها على جانبي جسدي ومالت علي.. كانت حركة مفاجئة حركت مشاعري المتبلدة وأشعرتني بالارتباك، فأجفلت وحدقت إلى عينها مترقبًا، إلا أنها أبقت عينها مثبتتين في عيني، وعلى وجهها طفت ابتسامة صغيرة، ابتسامة راحة وسعادة واعتزاز، ونثرت ابتسامتها تلك صفاء رائعًا في الجو لم يحجبه عني تأثير المهدئات، وصنعت هدوءًا ينافس ذلك الذي سأشعر به إذا تسنى لي الاستلقاء على سطح القمر، ومراقبة النجوم في عمق الفضاء.

- "تاكومي...".

كان صوتها مشعًا بالسعادة، ولم تكن ترجو من النداء شيئًا إلا نطق اسمي وحسب.. جعلتني سعادتها أدرك مدى حبها لي، ومدى الألم الذي عانته وأنا أنهار أمامها، وأعاني، وأبتعد عنهم وأنعزل، ويقتصر وجودي في الفريق على الاجتماعات والتدريبات. أردت الاعتذار لولا أن مشاعري لم تطاوعني، وكان ما نطقه لساني: "هذا الماكياج الشرير يناسبك".

اتسعت ابتسامتها، وبعد صمت طال سألتني: "بم تشعر الآن؟"

- "بأنني جهاز فُصل عن مصدر طاقته".

قطبت جبينها محتارة فقلت: "لا أستطيع الإحساس بشيء معين".

لم أزد لها إلا حيرة، وشيئًا من القلق، فأضفت: "هذا أفضل من جنون الأسابيع الماضية على أي حال".

هزت رأسها وابتسمت، فبادرتُ بهجوم سريع: "أريد العودة، لا داعي لبقائي هنا أكثر يا سايا".

- "لهذا أنا هنا اليوم".

- "كلي أذان مصغية".

وكان الحماس أول شعور يراودني منذ دخلت المستشفى. اعتدلت بانتباه ونظرت إلى سايا. قالت بصوتٍ متزن: "لقد انتهينا من أغلب تدريبات الرقص الخاصة بنا، وفي حالة خروجك سيكون لديك أسبوع لتتدرب معنا، ولكن في الوقت الحالي نحن بحاجة لتسجيل أغنيتنا الجديدة، وغيابك يقتضي أحد أمرين".

هممت بالرد لكنها لم تمنحني الفرصة...

- "إما أن تغادر المستشفى حالاً، وإما أن تبقى لتستريح، وعندها سأسجل الأغنية معهم، ثم أسجل الجزء بك وحدي ونضيفه. لو أردت البقاء ابق، وسأجتهد لتخرج الأغنية بأفضل شكل ممكن، ولكن إذا رغبت في الخروج من المستشفى فعليك إتباع تعليمات الطبيب بكل حرص. أيمكنك هذا؟"

- "موا...".

قاطعتني بنفاد صبر: "تمهل قبل أن توافق؛ يجب أن تعديني بالالتزم بعلاجك، والأدوية التي يصفونها لك مهما طالت مدة تعاطيها، وبمتابعة حالتك مع طبيبك مهما كنت مشغولاً، ومهما أنهكك العمل، ومهما طال وقت سفرنا".

- "موافق. متى أخرج إذن؟"

- "قلت لك: تمهل. وصولك إلى هذه الحالة مجدداً سيكون خطراً فعلياً على حياتك، لهذا تحتاج فترة تعافي طويلة، وعلاجاً نفسياً مكثفاً، وإلا ستعود كما كنت أو أسوأ، وأنا لن أسمع....".

- "أعرف، الآن فقط أدرك كم كان الأمر خطيراً، وأنا آسف للقلق الذي كان عليك تحمله بسببي. سأجتهد للحفاظ على صفاء عقلي وإداركي لما أفعل".

نظرت إلى عيني مطوّلاً ثم قالت: "لقد كنت أراقبك منذ تلك الليلة، أعلم ماذا كنت أرى؟"

- "شخصاً مجنوناً".

- "لا، كنت أترقب متى تقرر الانتحار. في ذلك الصباح الذي لحقت بك نانا فيه اتصلت بالطبيب وأخبرتّه، كان يجب أن تحتجز في المستشفى منذ ذلك اليوم،

لكنني اخترت أن أثق فيك وأمنحك فرصة، لعل وجودك بيننا يغير من أمرك شيئاً.
كان هذا خطأ بالطبع".

- "أنا آسف".

- "أنا للأسفة هنا يا تاكومي، ولن أغفر لنفسي أنني خاطرت بك، لكن هذا لن يتكرر، عند أي بادرة لانتكاسك سأعيك إلى هنا دون نقاش".

وعدها بصدق: "لا تقلقي، لو حدث هذا فسأعود بنفسني".

- "عدني إذن يا تاكومي، عدني بصدق".

- "أعدك، سألتزم بما يقوله الطبيب".

رفعت يديها معاً ووضعتهما حول وجهي، وأبقت عينيها في عيني وقالت بإصرار:
"ستحافظ على نفسك إلى الأبد، ولن تفكر في أمور لا يجدي التفكير فيها، ولن تستسلم لرغبتك في الانتحار أبداً، مهما كانت الضغوط، ومهما كان الألم.. هل تعديني؟"

- "أعدك".

- "... وستعرف أنني دائماً إلى جوارك، وأن عليك اللجوء إليّ إذا احتجت شيئاً،
وتمنحني الفرصة لإنقاذك، ولا تتصرف وحدك أبداً، هل تعديني؟"

- "أعدك يا سايا".

هزت رأسها بامتنان، ومررت إبهاميها تحت عينيّ كأنما تمسح دمعاً خفياً،
ورببت على خديّ برفق. شجعتني بابتسامة حنون: "أنا أثق فيك، وأعرف أنك لن تخذلني أبداً يا تاكومي".

أومأت برأسي ولم أجد ما أقول، ولكن في قلبي انبعث شعاع وهاج سحبني
سحباً نحو شيء لا أراه، ولا أدركه، لكنني أنتمي إليه، ولم أكن شعرت بشيء كهذا
قط من قبل إلا عندما أدركت من أعماق قلبي أنني أرغب في أن أصبح عازف
جيتار.. فقط عازف جيتار.

سألتني بابتسامة مشاغبة: "ما تلك النظرة الغربية؟"

ابتسمت لأول مرة: "أعتقد أن مفعول الدواء يبدأ أخيراً بعد كل هذا التبدل".

طُرق الباب ثم دخل طبيبي، ونظر حوله مرتبكاً إذ رأى سايا بهذا القرب الحميم مني، فاعتدلتُ وابتعدتُ عني. حدثته بلطف: "لقد أخبرته بما اتفقنا عليه، هل يمكنني بدء إجراءات خروجه الآن؟"

- "بالتأكيد، يمكنك البدء فيها ريثما أتحدث مع السيد هارونو قليلاً قبل مغادرته".

غادرنا المستشفى بعد ساعة وأنا أرتدي الملابس التي جاءت بها، دون أن تخطئ في مقاييس قطعة منها! سألتها: "كيف تفعلين هذا؟"

- "أفعل ماذا؟"

- "لا تعبئي معي يا سايا".

ضحكت، وتأبطت ذراعي وطوحت بحقيبتها في الهواء، أجابتي: "ستصاب بالخوف إذا أدركت إلى أي درجة أعرفك".

- "أشك في هذا".

- "هل تجربيني؟"

- "افعلي إذن، ولوربحتِ فأنا... سأفعل لك أي شيء تريد".

- "سأستغل هذا في الوقت المناسب".

وأخذتني إلى مطعمنا المفضل، وحين دخلنا إلى مقصورتنا المعتادة انطلقت في وجهي المفرقعات وخيوط الزينة، وتصايح باقي الفريق بابتهاج.. وفي وجوههم سعادة حركت شيئاً من مشاعري المتبلدة.

حيثني تشو برقعة: "تبدو حياً أخيراً بعد الذعر الذي سببته لها".

وتهكمت عليّ نانا: "يا للغرابة! هذا الرجل الأنيق يشبه شيخاً يرقد في المستشفى دون حراك".

احتضنت سايا ذراعي وقالت: "توقفا عن مهاجمة تاكومي الخاص بي.. اليوم نحفل به وغداً يدفع ثمن قلعنا عليه".

حاولت الابتسام: "حسناً، أي عقاب سيكون أفضل من المستشفى".

جاءت أطباق الطعام الشهى يتصاعد منها البخار، فانقضت سايا ودايكي عليها في صراع مصيري، ثم وصل هيروماسا كينجي فجمده المشهد في مكانه، حتى أشارت له سايا: "انضم إلينا.. ماذا تنتظر؟"

كان بعد مذهباً وهو يحييني، ثم وبخها: "تركنتي وذهبت بعدما انتهيت من تصويرك، رغم أنني أخبرتك بأنني أريد التحدث معك".

بدت طريفة وقد تحول خدها الأيمن إلى بالون عملاق وهي تأكل بشهية.. أشارت نحوي بعصويها وقالت بصوت مضحك: "كان يجب أن أخرجها من المستشفى".

جلس جوارها ولكزها بشيء من القوة يقول: "انظري إلى نفسك! لم تغيري ماكياجك بعد التصوير، وتبدين شاحبة كالشيخ التائه! وتأكلين مثل الناجين من مجاعة! لو أن معجبك هنا...".

ابتلعت ما بفمها وضحكت، والتقطت بعصويها قطعة من اللحم المشوي ودستها في فمها قائلة: "جرب أن تذوق أولاً وبعدها تحدث عن المجاعات".

- "وتتصرفين كأجنبية طائشة كالعادة".

بنظرة لعب سألتها: "أليست الحقيقة؟"

احمر وجهه كما توقعت، لكن سايا لم تنتبه وهي تمد لي عصويها بقطعة من اللحم المشوي، في حين راح دايكي وتشويتهما مسان بجدية لم تناسب وجهيهما، وهما يختلسان النظر نحونا، كانت نانا هي الوحيدة التي تتناول طعامها بهدوء وابتسامة لطيفة.. ربما كانت ستبدو طبيعية لو لم تحدد إلى طبقها وكأنما أقسمت ألا تبارحه عيناها.

قال كينجي: "أريد أن أتحدث معك يا سايا".

- "لقد اتفقنا يا سينباي، دروس الهارمونيكا مساء الأربعاء والخميس.. لا مشكلة لدي في الموعد".

- "لدي أمر آخر"

- "احتفظ به الآن إذن، نحن نحتفل بتاكومي".

- "يجب أن نتحدث الليلة يا سايا".

توقفت عن مرحها وحاولت سبر غوره بنظرة جدية، ولما فشلت قالت: "حسنًا، ستأتي معنا إلى البيت إذن وسنتحدث كما تشاء".

ثم لمعت فكرةً بعقلها فقالت لي: "آه، تاكومي.. ها هو جدول عملنا خلال اليومين القادمين، سنبدأ تسجيل الأغنية بعد غد".

لن أنسى ما حييت تلك الليلة، كانت المهدئات بعد تسيطر عليّ، ومشاعري متبلدة إلى درجة الموت، لكنني كنت قادرًا على استشفاف السعادة السابحة في الجو، والتي أحسوها بها بصدقي من أجلي. إلا أن تلك البهجة غير المشروطة تبددت جزئيًا عندما عدنا إلى البيت، واستحالت إلى جو غريب من الترقب، فلذت بالصمت أراقهم. وحدها سايا بقيت لاهية، تمزح دون توقف احتفالًا بي، ولم يكف داكي وتشو عن التهامس، أما نانا فبقيت هادئة، وكيئجي ظل متأهبًا، ثم انفجر.

ناداها فسخرت من جدية صوته بقولها: "يبدو أنه حوار مصيري بالفعل.. تفضل بالثرثرة".

وفتحت علبة بيرة فاندفعت الرغبة الذهبية بشكل شهبي، فضحكت وكررت: "هلم بالحديث".

- "دعينا نتحدث وحدنا إذن".

تذمرت سايا: "سينبأاي.. لا نتحدث عن العمل الآن، أنا في مزاج رائع حقًا".

- "هذا ليس بخصوص العمل".

- "إذن تحدث".

- "سايا....".

- "تحدث، ما دام الأمر لا يخص العمل فلا شيء يخفى على العائلة".

مرت لحظة من الصمت المتردد، فتساءلت إذا كان يجدر بي الانصراف، وحسم ترددي نظرة اختلسها كيئجي إليّ، لكن سايا قرأت أفكاري قبل أن أتحرّك، ومدت يدها تمسك معصمي.

حسم كيئجي الموقف: "إذن، أريد أن أبدأ مواعدة نانا رسميًا".

انقبضت يد سايا اليميني حول يدي حتى خلتها ستحطمها، وسقطت علبة البيرة من يدها اليسرى إلى الأرض فتردد صوت الارتطام بين جنيات السكون الغريب الذي لفنا. أحنّت سايا رأسها تتابع اللعبة بتركيز مفرط، وقد ارتفع حاجبها حتى لامسا السقف، واتسعت عيناها وطرفتا مرارًا دون أن تبدو فيهما لمحة فهم لما قيل.

تخلت يدها عن معصمي ببطء...

ناداها كينجي قلقًا من تعبير وجهها، فنظرت إليه وفي عينيها بريق غضب لا يخفى، وبصوت غريب قالت: "أتمزح؟! قل إنك تمزح".

"لا، أنا لم أكن جادًا في حياتي كما أنا الآن".

"قل إنك تسخر مني إذن".

"سايا...".

ظلت محدقة إليه برهة، ثم نظرت نحو نانا، وفي عينيها انزعاج وقلق: "قولي إنه يمزح يا نانا".

تبدى قلق نانا بوضوح وهي تنظر إلى كينجي، ثم وهي تتحاشى نظرات سايا بالنظر إلى أظافرهما، ثم أجابت: "نحن نتحدث بجدية يا سايا".

"نحن؟"

قالتها مستفهمة، ومستغربة، فقال كينجي: "أنا أحبها، وأريد أن نتواعد رسميًا".

رفعت سايا يدها وأغمضت عينيها، بدت كمن يقاوم انفجارًا...

"ال لحظة واحدة، دعوني أفكر بهدوء. نانا".

انتهت لها نانا وأصغت السمع، فقالت سايا بصبر: "أنتِ تواعدين كثيرًا، بل لا تكفين عن المواعدة، وفي كل مرة واعدتَ فيها أحدًا لم تستأذني أو تشركينا في قرارك. ما الجديد الآن؟"

همهمت نانا: "هذه المرة تختلف".

"في أي شيء تختلف؟"

نظرت نانا إلى كيني فاجاب نيابة عنها: "ربما نعلن خطبتنا قريباً".

طرفت سايا بعينيها ونظرت إليه، طالت نظرتها الصامتة المترقبة، وكأنها تختبره بجهاز خاص لكشف الكذب، وفي عينيها لمعة جعلتني أتمنى لو كنت قادراً على قراءة أفكارها. عقدت ذراعها ووضعت ساقاً على ساق، وتراجعت في مقعدها، ثم تنفست بعمق وسألته بصبر: "أتدرك الكارثة التي تتفوه بها؟"

- "لن تحدث كارثة إذا وثقت فيّ".

بطريقتها المتعجرفة قالت: "لن أنتظر أي كوارث. أنت تعلم جيداً أن العقد المبرم بيننا وبين شركتنا يمنعنا الارتباط الجدي بأي شخص لمدة خمس سنوات، ألا تعلم هذا؟"

- "أعلم، ولكنني...".

- "قد يتهاونون معنا إذا واعدنا على سبيل المرح، أو قضاء الوقت، لكننا لا نستطيع الدخول في علاقات جديدة، هيروماسا سينباي".

- "لن أعرضكم لأي خطر، سنتواعد سرّاً، وإذا سارت الأمور على ما يرام حتى مايو القادم يمكننا إعلان خطبتنا في وقت مناسب".

بجفاء جابته سايا: "أتظن شيئاً سيتغير حينها؟ ستقلب الدنيا على رؤوسنا دون إنذار".

وحولت عينيها عنه، فاستبقتها نانا: "أعرف ما تفكرين فيه يا سايا".

ابتسمت سايا بسخريّة وهزت رأسها: "لا، أنت لا تعرفين شيئاً، لو كنت تعرفين ما فكرت في تعريضنا لخطر كهذا".

واجهتها نانا بوضوح: "أنا أحبه".

طرفت عينا سايا...

- "أنا أحبه، أكثر مما أحببت أي شخص في هذا العالم، وأكثر من قلقي مما سيحدث، وكل ما أعرفه أنني لا أستطيع البقاء دونه".

حاول دايمي تخفيف حدة الجو بعبارة مرحة: "أوووهه!"

نظرتا إليه معًا بحدة فخرس، ثم عادتا لتبادل النظرات، سكنتا فترة وأعينهما معلقة ببعضهما، ثم استدارت نانا إلى كينجي واستأذنته: "أسفة يا كينجي، ربما يجب أن تغادرنا الآن".

هم بالاعتراض، ثم انصاع لأفكار لا أعرفها جعلته يتردد، وفي النهاية استسلم ونهض مغادرًا، ولم يلق تحية وهو ينصرف.

تكلمت سايا: "نحن لا نستطيع خوض ارتباطات جدية يا نانا، الشركة لن تسمح بهذا".

- "ثم ماذا؟ هل سنبقى هكذا إلى الأبد؟"

- "ماذا تعنين؟"

قالت نانا بحرارة: "لقد جرفتنا الموسيقى معها أكثر من نصف عمرنا يا سايا، وقد تخطينا الآن الثلاثين. بعد سنوات قليلة سنخفض شعبيتنا، وستحل محلنا فرق أخرى أصغر سنًا وأكثر مهارة، وسنزوي وحدنا. لقد حان الوقت لنبدأ التفكير في تأسيس عائلة حقيقية، ونؤمن مستقبلًا لا يعتمد على الموسيقى وحدها".

باستنكار صاحت سايا: "ونحن؟ ألسنا عائلة حقيقية؟ لقد كنا معًا منذ ستة عشر عامًا أو أكثر، كنا معًا دائمًا، فلماذا ترين الآن أن تأمين المستقبل سيكون أفضل مع شخص آخر؟"

- "ليس أي شخص، ليس مجرد شخص، إنه رجل يا سايا، تأمين المستقبل مع رجل تحبينه يختلف".

كانت لطيفة ورقيقة للغاية، بعكس سايا المتحفزة الغاضبة..

- "وأنت تحبينه؟"

- "نعم".

- "وماذا عن هيببكي ساما؟ قلت دائمًا إن حلم حياتك هو الوصول إليه، فلماذا تراجعين الآن؟"

زمت نانا شفتيها، ثم ابتسمت بلطف. بعد قليل من الصمت قالت: "أنا لا أراجع، أنا أنصح، أخبرتك يا سايا أننا تخطينا الثلاثين".

"فلننخط السبعين أو المئة، ما علاقة العمر بالأحلام؟ لماذا تتنازلين عن حلم كان هو السبب الأول في وصولنا إلى هذا المكان؟"

صمتت نانا وفقدت ابتسامتها، وقطبت سايا ويذا في ملامحها ألم عابر، وفقدت كثيرًا من عصبيتها. قالت وكأنها تشجعها: "نانا، لقد كان هذا الرجل حلمك، حلمت به أكثر من نصف حياتك، فلماذا تتخلين عنه الآن؟"

"لأنني لن أبلغ نجوم السماء مهما قفزت إلى أعلى".

"أيها ال...".

كانت غاضبة حقًا، وتساءلت إن كانت ستسيها، لكن نانا قاطعتها: "أنا أريد كينجي الآن، نحن معًا منذ فترة، وقد بدأ قلبي أخيرًا يستقر قليلًا إلى جواره. أنا أحبه، وأظنني...".

نهرتها سايا: "كفي عن خداع نفسك، هذا ليس حبًا بأي معنى من المعاني".

"حتى ولو كنت أخدع نفسي، فأني أطالبك باحترام هذا الآن يا سايا".

"نانا....".

"أنا أريده. أعرف أن البقاء معه قد يسبب المشكلات، لكنني أعرف أكثر أنني لا أستطيع التخلي عنه، على الأقل الآن".

"وماذا عن الشركة؟ سوف....".

بمنتى الإصرار قالت نانا: "أعلم أن العالم سينهار فوق رؤوسنا إذا تسرب الخبر، لهذا سأعذك بتكتم الأمر أشد الكتمان، حتى يحين مايو القادم، وعندها سنبدأ في تعديل تعاقدنا مع الشركة".

سألها سايا ببرود: "وماذا لو رفضوا؟"

"سيوافقون، نحن لم نعد أطفالًا ليجبرونا على العيش بهذا الشكل. لماذا لا

ترين إلى أي حد نحن مقيدون يا سايا؟"

طرفت سايا بعينها ونظرت بعيدًا، فأجابت نانا سؤالها بنفسها: "لأنك لا ترين سوى الموسيقى، أنت لا تحلمين بشيء سوى البقاء على المسرح إلى الأبد تعزفين، وتكتبين النوات وتكدهسينها، لهذا أنت الأفضل، ولهذا نجحنا، لقد أصبحنا أفضل

فريق لموسيقى الفيجوال كيه في اليابان، لكننا نفتقر إلى الكثير مما يحتاجه البشر."

صاحت بها سايا: "لدينا كل شيء يحلم به البشر، نحن ناجحون ومتألقون، ولدينا شعب من المعجبين في كل بلاد العالم يكفي لملاء قارة، وعندنا من المال ما لن ينضب ولو أنفقنا منه مليارين يوميًا، وقد زرنا كل بلاد العالم تقريبًا، و...".

- "ونفتقر إلى الحب، ولا نعرف سوى أنفسنا، ولا أحد يدخل حياتنا، ليس لدينا أصدقاء تقريبًا، ولا نستطيع السير في الشارع دون أن نحاصر لساعات، ونتنكر أكثر مما نخرج على طبيعتنا لتنفادي المعجبين. نحن لا نملك عائلة بالدم، لا نملك سوى أنفسنا يا سايا."

- "كان هذا ما أردنا حين تركنا كل شيء وجئنا إلى اليابان.. أليس كذلك؟"

بيأس وإرهاق قالت نانا: "بلى، لكن هذا متعب، لقد عشنا لسنوات كأجانب في كل مكان نذهب إليه، وكنا وحيدين جدًا. أنا مكتفية بكم عن عائلتي التي لا أعرف عنها شيئًا، لكنني أريد تكوين عائلة جديدة حقيقية الآن يا سايا، أريد رجلًا يرافقني باقي سنوات حياتي، يدعمني ويثق بي ويحبي، وأريد أطفالًا، وأريد ضمانًا بأنني لن أبقى وحيدة في المستقبل، وأني حين أبلغ السبعين سأكون جالسة في شرفة بيت واسع، وجواري رجل أحبي طيلة حياته، وحولنا أطفالنا وأحفادنا."

التقطت سايا علبة مشروب أخرى، وجرعت جرعة كبيرة، وحدقت إلى الحائط بنظرة خاوية. ثم تمتمت: "وهذا الرجل هو هيروماسا كينجي، يا للسخرية!"

وعبر صوتها عن الانزعاج، لكن وجهها بقي تلجئيًا شاحبًا كعادته. ترففت بها نانا وهي تجيب: "لقد اخترته ليكون كذلك، ألا يمكنك الثقة في اختياري؟"

بجفاء مطلق قالت سايا: "بل لا يمكنني الثقة فيه."

- "لقد حاول مرارًا تجاهل مشاعره نحوي، أو تغييرها، أو تحييدها، لكنه لم يعد يملك القوة لكبح نفسه أكثر، وأنا أعلم هذا. إنه يحبيني يا سايا، ولا يقبل بقضاء يوم آخر دوني، وإذا ما تواعدنا فأنا أعلم أنه سيعاني، سيحبيني ويحترمني ويخلص لي ما حييت، وهذا ما أريده."

بدأت ابتسامة خفيفة تظهر في وجه سايا: "أنتِ لا تحبينه، ولو ظهر رجل آخر يحمل لك المشاعر نفسها فستختارينه عوضًا عنه."

- "سايا...".

ألقت سايا عليه مشروبها بحدة، بدت يائسة كأنها تكافح موثًا محققًا، وصاحت: "لماذا هذا الرجل دون كل رجال العالم؟ لقد حرصنا دائمًا ألا نقع في حب صديقٍ مقربٍ منا، لو أن علاقتكما لم تكتمل فلسوف نخسره جميعًا إلى الأبد".

راقبت نانا عليه المشروب وهي تنزلق أسفل أحد المقاعد، ثم نظرت إليها وأجابت: "سأقاتل كي لا يحدث هذا".

بمرارة قالت سايا: "لا ترهقي نفسك، لقد حدثت الكارثة وانتهى الأمر". وعلى خلاف عاداتها بدأت في ثني سلاميات أصابعها واحدًا واحدًا، فاستمعت بجسد يقشعر لصوت القرقعة المزعج. بقيت فترة ساهمة صامتة، ثم ابتسمت بسخرة، بعدها نظرت إلى تشو ودايكي..

- "تحدثنا، هذه العائلة لا تخصني وحدي".

أجابت تشو بتململ: "لقد وصلنا لقرارنا منذ زمن بالفعل". وأعلن دايكي: "نحن لا نستطيع اعتراض طريق نانا، ما دامت سعيدة فلا شيء آخر بهم".

لبثت سايا صامتة قليلًا ثم انفجرت فيهما: "كنتما تعرفان؟!". ونظرت إلى نانا بنظرة اتهام رهيبية، فدافعت هذه عن نفسها: "أنا لم أخبر أحدًا يا سايا، هذه أول مرة أتحدث فيها عن الأمر".

قالت تشو: "هذا صحيح، لقد خمننا الأمر لا أكثر، وقد صدق تخميننا".

استنكرت سايا قولها: "تخمين؟".

أجاب دايكي: "نعم، كان الأمر واضحًا جدًا".

زمجرت سايا: "كف عن المزاح".

استنجد بي بنظرة قلقية: "حتى تاكومي لاحظ الأمر، أليس كذلك يا تاكومي؟". لم أستطع التهرب من نظرة سايا النارية، وقاومت لأتكلم: "لقد راودني الشك عدة مرات، لكنني لم أكن متأكدًا".

أسقط في يد سايا، تهدل كتفها وأحنت رأسها: "إذن فأنا الحمقاء الوحيدة في هذا البيت، وآخر من يعلم بأمر هام تفكر العائلة كلها بشأنه".

سخر منها دايمي: "أنت لا تلاحظين شيئاً عاطفياً عادة ما لم يكن متعلقاً بالعمل".

- "آه".

عبرت آهتها عن الألم بأكثر مما عبرت عن موافقتها على ما قال، وأبقت رأسها منحنيًا، فوضعت يدي على ذراعها وقلت: "لا تتضايقي، يحدث أحياناً أن نكون أقل ملاحظة من سوانا".

- "ليس مع أقرب الأصدقاء يا تاكومي".

أومأت لي تشو لأصمت، ففعلت.

بعد لحظات رفعت سايا رأسها. قالت: "أنت تخاطرين يا نانا، لكنني لن أعترض، ما دمت سعيدة فلا شيء آخرهم".

- "حقاً؟"

- "حقاً، ولكن قبل أن تندفعي في هذا الأمر دعيني أذكرك بشيء".

- "ماذا؟"

- "قبل سنوات طويلة قطعْتُ لك وعداً بشأن أحلامنا، أتذكرينه؟"

- "نعم".

- "سأحافظ على هذا الوعد يا نانا".

أومأت نانا برأسها ببطء شديد جعلني أتساءل إن كانت تذكر الوعد بالفعل أم لا..

كررت سايا مؤكدة: "سأحافظ على هذا الوعد مهما كان مؤثماً لك، أو محطماً لي، حتى لو بلغت حافة الدمار الكامل، سوف أحفظ هذا الوعد بلا شك. لا تنسي هذا".

- "هذا ما أرجوه".

عبرت وجوه الجميع عن جهلهم بهذا الوعد، فقط كان وجه نانا سعيداً مرتاحاً، وكأنها أنهت للتو حرباً ضروساً، ظلت سايا تتأملها قليلاً ثم ابتسمت، ابتسامة لا يمكنني وصفها إلا بكونها متسامحة. رغم تناقض هذا الانطباع مع ما قالت: "لكنني أعرف كينجي أكثر منك يا نانا، إنه أعز أصدقائي، عرفته لسنوات قبل أن تصبحي صديقته، لهذا أنا واثقة أنه لم يتخط فتاته السابقة بعد، وأعرف أنك لن تكوني في أمانٍ معه على الأرجح، ولهذا أخبرك منذ الآن أنني لن أسامح معه إذا أساء إليك.. سألقي بأي شيء خلف ظهري وسأفعل به ما لم يراوده في أسوأ كوابيسه.. فهل تقبلين هذا؟"

- "إنه لن يفعل".

- "هل تقبلين بهذا يا نانا؟ لو أساء إليك فأنا لن أسامح معه حتى ولو وقفت بيننا".

- "إنه لن يفعل".

- "إذا فعل.. إذا.. فهل تقبلين؟"

تقطعية عابرة مرت بين حاجبي نانا قبل أن يسترخي وجهها بمنتهى الثقة..

- "نعم".

- "ليكن إذن.. افعلي ما تريد".

تبادلوا جميعاً نظرات حذرة، فقالت سايا ووجومها ينصهر في ابتسامة: "تهانٍ يا فتاتي.. لقد فزتِ برجلي رائع".

هتف دايكي بصوت يعلن الاحتفال: "أوووه! لقد رَقَّ قلبُ الساحرة الشريرة".

وانتقل إلى جوار نانا، عانقها وتشو تحيط بكليهما معاً، أما سايا فنظرت بعيداً عنهم.. أدارت وجهها بعيداً تاركة بعض مشاعرها يطفو عليه، دون أن تلاحظ أنها أراها.. أو لا لعلها لا تبالي بأني أراها.

لم تبالي سايا وأنا أرى ابتسامتها تهت، ودفع عينيها يتبدد سريعاً.

في لحظة تعارفي بسايا، عرفت أنها قد تقبل الموت لأجل أحد اثنين.. تسوباسا، أو هيروماسا كينجي.

كان كينجي صديقها الأول منذ جاءت إلى اليابان، وطالما اعتزت بالعلاقة التي تربطهما رغم أن الأقدار - شكرًا للرب - فرقتهما في العمل، فالتحق هو بشركة أخرى مكونًا فريق Vanity قبل عام من انطلاق تسوباسا، وسرعان ما اندلعت بين الفريقين حرب التفوق التي سُحق فيها فريقها سحقًا مرات عديدة، قبل أن يخضع له الفيچوال كيه روك الياباني ويتسبد سماءه مطيحًا بـVanity إلى المركز الثاني في جميع الاستطلاعات. حين انضمت إلى تسوباسا استغربت العلاقة التي تربطهم بكينجي، وصادقتهم التي صمدت أمام المنافسة التي تطعنهم في العمل، وخلال العامين اللذين عملت خلالهما معهم رأيت مدى ارتباطهم، وخصوصًا سايا، حتى أنني شككت لفترة أنها تكن له مشاعر أكبر من مشاعر الصديقة.

أذكر ذلك اليوم حين سألتها: "أتحبينه؟"، فما كان منها إلا أن نظرت إليّ بحاجبين مرفوعين استغرابًا، ثم ابتسمت ساخرة..

"-هذه الأشياء ليست لي يا تاكومي، فلا تسخر مني".

وناولتني نوتة موسيقية قاطعة الحديث بمقصي بارد.

هذه سايا التي أعرفها، الحب ليس لها، تلك قناعة تؤمن بها كل الإيمان.. لا شيء يعنيتها إلا العمل، وأن نصير الأفضل وحسب. أحيانًا أشعر أن في عينها كاميرا تركز الموسيقى في بورتها، وفيما عدا الموسيقى لا ترى سايا شيئًا، لا ترى أي شيء آخر على الإطلاق، كل شيء آخر تراه يأتيها مشوشًا ضبابيًا مختلطًا، مجردًا من البريق والإغراء.

لا تملك سايا أي مشاعر، وفي بعض الأوقات يبلغ برودها ذروة تجعلني أتساءل: أهى إنسان من لحم ودم؟ وكيف - بحق الجحيم - تكتب كل تلك الأغنيات الحارة بقلب بارد كقلبيها؟ بل كيف تضع ألحانها تلك؟ أتسرقها من جنينة ما وتنسبها إلى نفسها؟!

سألتها يوماً عن سبب رفضها لمواعدة عارض أزياء ألح عليها بحبه زمناً، فقالت: "لكل إنسان حظه من الحياة يا تاكومي، وأنا عرفت حظي منها، إنه الموسيقى، لا شيء سوى الموسيقى يستطيع إبقاء مشاعري مشتعلة".

-والرجال؟-

-لن أضحي بموسيقاي أبداً لأجل مواعدة رجل".

-والحب؟-

-لديّ الحب يا تاكومي، لديّ عائلة، و لديّ أنت وهيروماسا سينباي، هل سأحب أي شخص أكثر مما أحب عائتي والصديقين الوحيدين اللذين أملك؟"

-ماذا لو وجدت العائلة الحب الذي أعنيه وتركوك وحدك يا سايا؟"

-هذا لن يحدث".

-ماذا لو حدث؟"

-قلت لك إن هذا لن يحدث، مستحيل".

وابتسمت بمنتهى الثقة.

-جاريني فحسب، ماذا لو حدث يا سايا؟"

-سأفكر في هذا في حينه، إذا حدث".

كان هذا قبل عام، فمن كان يتخيل أن يحين الحين سريعاً هكذا؟

سايا كانت آخر من يتخيل هذا، ظنّت أنها ستظل تكتب وتلحن وتعزف معنا إلى الأبد، وأنا على يقين قاطع أنها لم تتخيل قط أي مستقبل آخر بخلاف حاضرتنا، وكان الزمن سيتمدد في لحظة طويلة أبدية، لكن نانا وكينجي ظهرا بيدين متشابكتين لهددا هذا الحلم أو ذاك الطموح.. ولا ريب أن وقع الأمر عليها كان قاتلاً.

كنت أفهمها.. أفهم أنها تملك طموحًا مهلًا أجهل كُنه الجمرة التي تغذيه، وأدرك كل ما في قلبها من خوف من فقدان السبيل إلى تحقيقه، لكنني أخذت جانب نانا، لأنني أفهم أكثر تلك الحاجة الشاقة لوجود شخص ما إلى جوارِي، ولكتف أكتئ عليها، وذراع تلتف حولي، والاطمئنان إلى شخص لن يتركني أبدًا.

قد تكون سايا صديقة مثالية، تقدسنا كأصدقاء بلغوا مرتبة العائلة، لكنها لا تعرف مشاعر الاحتياج إلى حبيب، لا تكثر لها وتسخر منها؛ إنها كاملة تمامًا وحدها، قادرة على كل شيء وحدها، ولعل المشكلة تنبع من كونها تدرك هذا تمام الإدراك.. لم أرها يومًا تبكي، ولم أرها قط تهتز أو تتأثر بأي شيء إلا القلق من نتائج الحفلات والاستطلاعات والبرامج التي تتناول أعمالنا، ولو أن الفريق استسلم لها لبقوا إلى الأبد يعزفون، يعزفون حتى الموت دون أن يعيشوا كالبشر ولول يوم واحد.

ترى ما سر تلك المشاعر الجموح؟ كذا تساءلت طوال الليل وأنا راقد على فراشي في غرفة لا تبعد عنها إلا أمتارًا، أحاول فهم تلك الاستماتة التي لا جدوى منها، ثمة خيط فاصل بين الطموح المطلق والجنون المطبق، لكن سايا تتأرجح بينهما غير قادرة على رؤية ذلك الخيط الدقيق.. أترأها غير قادرة على رؤيته حقًا أم تتعامى؟

تذكرت نفسي يوم كنت مثلها فشعرت ببرد في صدري. أي خسارة سيكون عليك المرور بها يا سايا لتفيقي؟ وإلى أي مدى ستأخذك تلك الإفاقة؟ أنا لا أزال محطماً حتى بعد سنوات ثلاث، وأفقت من إفاقتي بالكاد وأنا أوشك على قتل نفسي.

حرميني التفكير فيها النوم، لاسيما وأنا أسترجع وجهها إذ تغادر معي غرفة المعيشة، وتمضي شاردة إلى غرفتها غافلة عن إلقاء تحية المساء عليّ، وفي عينيها خطر يصعب تفسيره.. لم يبد وجهها أشبه بوجوه الأشباح في شحوبه منه في تلك اللحظة.

ولكن في صباح اليوم التالي أطلت سايا من غرفتها مشرقة كشمس الصيف، وفي ابتهاج وسعادة لم أرها عليهما من قبل عانقت نانا في المطبخ، وظلت تميل متراقصة بها وهي تهنيها وتغني، ولم يبد أن نانا قد دهشت ولو قليلاً لهذا التقلب المعتاد في مزج الساحرة الشريرة، والذي لا يمكن التنبؤ به أبدًا.. جعلني هذا أشعر بالراحة.. ربما لن يكون عليها المرور بخسارة عظمى لتفيق.

قالت سايا وهي تحتضنها بقوة حيث وقفت تعد بيضًا مقلًا: "نانا تشان، انعمي بحب لم ينعم به أحد من قبل".

أجابتها نانا بطريقة لاذعة: "بال تأكيد يا سايا، لن أنتظر إذنك لأفعل".

تظاهرت ببكاء كوميدي، وعوّث شاكية: "نانا تشان قاسية، تتجاهل حيي وغيرتي".

وطبعت قبلة على عنق نانا، فصاحت تلك صيحة متفاجئة وتلوت منفلة منها، فأنفجرت سايا في الضحك، وارتمت على مائدة الطعام تمسك معدتها وتقهقه.. قضينا وقتًا سعيدًا خصوصًا عندما بدأ داكي وتشو يستجوبان نانا عن الأمر، ويسردان تاريخ ملاحظتهما لتلك العلاقة، ومتى بدأ يشكان فيها، ونانا تضحك بوجه محمر وتجبب أسئلتهما، وتويع داكي الذي يتعمد إثارة خجلها. كنت أتابع ما يقال دون شعور محدد، ثم التفتُ إلى سايا، ورأيتها على بعد مقعدين من نانا تجلس وتنظر إليها نظرة ساهمة، وفي عينيها سؤالًا صعقي حين ترجمته: "هل ستركنا نانا إذا اضطرت لهذا؟"

نظرتها الممتني، ودب الخوف في قلبي إذ انتهيت لشيء أغفلته: هل ستمسك نانا بكينجي حتى إذا اضطرتنا لفسخ تعاقدنا مع الشركة؟ ماذا سيحدث بعدها؟ هل سننتقل إلى شركة أخرى؟ أم نبقى ونستبدل بها عازفًا آخر؟ أم ستكون هذه نهاية تسوباسا؟

شعرت بوجع ينتك صدرتي إذ جالت الفكرة برأسي: لا أريد لتسوباسا أن ينتهوا قريبًا، لا أريد أن تنتهي أبدًا، لو أنني أصبحت بدونهم فكيف ستكون حياتي؟ كيف سأصبح وأنا محروم من تلك الصبغة، والعمل المتناغم، واجتماعنا في هذا البيت الذي أنساني برودة بيتي الآخر، وجفاء جدرانها غير المرجبة بي؟

ولكن.. أنا لن أمنع نانا من السعي خلف العائلة التي تريد، ولا أحد منّا سيفعل أبدًا، فهل سيأتي وقت لن نقدر فيه على تحقيق الأمرين معًا؟

وضعت سايا عصا الطعام ونهضت، وغلفت وجهها بابتسامة براقية متقنة وهي تلقي التحية، ثم تهرول مغادرة البيت في مزاج عاصف المرح. لم تنظر في وجهي، ولم تلحظ حتى وجودي، وأشعرني هذا بالألم، لعل ما ألمني أنها لم تكن سايا التي أعرفها.

بعد مغادرتها صب لنا داكي الشاي، وأحضر كعكًا هشًا رائع المذاق، وبدأ اليوم كعطلة تشبه ما يقضيه الآخرون الذين يملكون عائلة حقيقية.. مر الخاطر بعقلي فأوشكت أن أبتهج، لكنني تذكرت إجازاتي القديمة، فانقض طائر جراح على بهجتي الوليدة، وانتزعها وهي تنزف من بين أصابعي. ماتت بهجتي في الحال، ولم تفارق نظرة سايا الساهمة الخائفة خيالي.

اعتذرت منهم ونهضت، اعتزلتهم في غرفتي، وارتميت على فراشي متكورًا حول نفسي، ووددت الاختفاء.. تلك الأمنية التي لم تفارق قلبي قط إلا حين أصبحت "تسوياسا".. أو بمعنى أدق، حين أصبحت مع سايا.

أغمضت عيني وتذكرت صباح ذلك اليوم الثلجي البارد البعيد في مدينة ناغويا، حين أصبحنا معًا.. كانت جميلة كصباح العيد، لامعة كالثلج، حادة مثله، حادة إلى حد أنها قطعت الحبل الذي يخنق أنفاسي، وأخذتني بعيدًا عن نفسي كما لو كنت بالوئًا انقطعت الخيوط التي تربطه إلى الأرض فحلّق، وظننت هذا سيدوم أبدًا، ولا أفهم الآن لماذا يلتف الحبل مجددًا حول عنقي رغم أنها لا تزال بجواري؟

خشيت أن تغمرني أفكارني فأعود إلى نقطة الصفر التي حذرني منها الطبيب، وقاومت لألتقط أدويتي، وقاومت رغبتني في مقاومة مقاومتي. شعرت بالفراش يدور بي، العالم كله يدور بي، أغمضت عيني متمنيًا أن أهرب سريعًا، أن يبدأ مفعول الدواء سريعًا، وأن أغيب عن الشعور المमित بالرغبة في الاختفاء.

ناداني داكي وهو يطرق الباب: "تاكومي، أنت مستيقظ؟"

جاء صوته لينتشلني من بحيرة ثلجية، ناديته ليدخل ففعل، وفي وجهه رأيت قلقًا لا يخفى.. وبادرتني قائلاً: "أنت لاحظت سايا هذا الصباح، ألم تفعل؟"

- "ماذا عنها؟"

- "إنها لم تكن على ما يرام، أليس كذلك؟"

- "بلى، كانت تفتعل البهجة".

- "تلك الحمقاء! لا تزال الكاذبة الأبرع في هذا البلد. حسنًا، شكرًا يا تاكومي".

- "هل أتيت لتسألني هذا فحسب؟!!"

"نعم، فأنا أبالغ في قلقي عادة، وأحيانًا أتخيل ما لم يحدث.. وفي هذه الحالة عينان أفضل من واحدة".

"توجد عينان تجلسان معك بالأسفل!"

"لكن عينيك أنت لا تفارقان سايا".

"ماذا تقصد بهذا؟"

تحفزت لما قال حتى أوشكت أن أغضب، لكنه نظر إليّ مستغربًا وكأنني أعترض على أبسط بديهيات الحياة...

"أليس الأمر واضحًا؟"

"هل تعبت بي الآن!"

تنهد متململاً وقال: "يا للرب! أتساءل عن السبب الذي يجعلني محاطًا بالأغبياء دائمًا".

جابهته بعنف: "ربما لأن الطيور على أشكالها تقع".

بعد لحظة صمت قال: "حسنًا، ليس لدي الوقت للشجار معك الآن.. سألحق بسايا إلى موقع التصوير؛ أنا قلق عليها".

"انتظري إذن".

"هذا ما توقعته".

شابت لهجته لمحة سخرية خفيفة، وقبل أن أشتبك معه غادر الغرفة.

لحقنا بسايا إلى موقع التصوير بعد ساعة أو أكثر قليلًا، كان المكان هادئًا، يقع في ضاحية بعيدة ذات طبيعة خاصة على أطراف طوكيو، وبين العاملين سرت موجة نشاط حماسية، حتى أن أحدًا لم يعرنا أي اهتمام. بحثنا عن المخرج فلم نجد إلا مقعده، ولبثنا تائمين وسط خلية النحل هذه حتى أبصرنا سايا وكينجي يتبادلان أوراقهما مع أيانو هيكاري. كانوا في حالة تركيز أثلجت صدري كما أثلجت صدردايكي. قال لي: "هذا مطمئن، إنها غارقة في العمل تمامًا".

"حتى لو لم تكن على ما يرام فستغرق في العمل أيضًا".

أيقظت بكلماتي بعض قلقه، لبث صامتًا قليلًا ثم قال: "دعنا نراقبها إذن.. من يدري؟ ربما أنقذنا كينجي من سكين مخفية في ملابسها".

أومأت برأسي وابتسمت.. رأيت سايا تشرق خاطفة الأبصار، وتقف بمعطف قصير أزرق والهواء يغري شعرها الطويل بالتحرر، فتخضع خصلاته البنية الكثيفة للغواية، وتتمرد منطلقة في كل اتجاه. كيف تبدو جميلة جدًا بشعر مشوش هكذا؟!

ظهر المخرج أخيرًا مرددًا تعليماته على فريق التصوير، وحين رأنا هز رأسه، لكن دايكي بادر بالتقدم نحوه ملقيًا تحية أشد حرارة، أما أنا فبقيت أتابع سايا وهي تتحدث مع كينجي، والحدة تطل من عينها وهي تشير إلى الأوراق تحاول إقناعه بشيء ما يرفضه بإصرار. كانا يتشاجران أمام عيني هيكاري المتعجبتين، ثم انتبه الجميع إليهما، وهكذا عاد المخرج أدراجة ليتدخل محاولاً فض الشجار، والذي انتهى بابتعاد كينجي والسخط يجلل وجهه.

أشرت إليه فجاء ليجلس بجوارنا، تنفس بعمق وأطلق زفرات مشتعلة، وتحدث إلينا بعداء: "كيف تتحملان البقاء معها طوال اليوم؟"

سخر منه دايكي بضحكة: "كما يتحكمك فريقك بالضبط".

- "أتحدث بجدية يا دايكي، كيف تتحملها؟ أنا أتحمل ساعات التصوير معها بالكاد".

ضحك مهوئًا عليه: "كف عن العناد الذي لا جدوى منه وستجد كل شيء يسير بسلاسة".

- "لا شيء يسير بسلاسة مع متسلطة تتدخل في كل شيء.. إنها تثير غضبي بكل شيء تقوله أو تفعله".

- "ماذا حدث؟"

- "إنها ترى رد فعل الشخصية غير مناسب للموقف، وترفض الالتزام بالسيناريو كما نفعل جميعًا، تريد أن تضع بصمتها على كل شيء".

- "كينجي...".

- "ماذا؟"

تحولت لهجة دايكي إلى الحدة بخلاف العادة، وكأنه يحاول تنبيهه لأمر ما...

- "لقد أخبرتك نانا أنها لن تندفع في علاقتكما قبل أن نخبرنا جميعاً، وخصوصاً سايا.. أليس كذلك؟"

قطب كينجي جبينه وعلاه الضيق، فقال داياكي بلهجة حسم: "نحن نفهم بعضنا الآن، أليس كذلك؟ أنت تشعر أن سايا هي صاحبة الكلمة العليا في أمر يخلصك ولا يخصها، وبرغم أن هذا غير حقيقي، إلا أنني أنصحك بعدم خلط العمل بالمشكلات الشخصية. يمكنك حل هذه المشكلة مع سايا لاحقاً".

قال ببرود: "ليس إذا واصلت استفزازي".

- "كينجي...."

- "لا أريد التحدث عنها الآن.. اصمت يا داياكي".

وانشغل بأوراقه حتى انتهى تصوير المشهدين اللذين يجمعان سايا وهيكاري، وجاءت مساعدته تعيد ضبط شعره وماكياجه، ومن خلفها المخرج يعلن رفض تعديل سايا المقترح على المشهد، كان هذا ما جعله يسترد بعضاً من نفسه المتعجرفة التي أعرفها، ومرت بوجهه ابتسامة صغيرة سرعان ما أخفاها.

ثم ظهرت سايا في ملابس بانسة صادمة.. قميص ممزق الكتف والأكمام، وبنطلون تمزقت ركبتاه، وحذاء في قدمها اليمنى فقط، بينما تجعد شعرها، وتلطخت ملابسها بالدم والتراب، وفي وجهها كان ماكياج متقن لجرح عميق يمتد من صدغها الأيسر حتى ذقنها، وفي يدها مسدس تقطر الدماء من معصمها إليه.. انتفضت لرؤيتها وكأنني أرى أعجوبة الأعاجيب، لكن داياكي قال بانتعاش: "أوه! هذه الملابس الممزقة تبدو رائعة عليها".

كبحت غيظي بصعوبة، ورميته بالكلمة كأنني أسبته: "منحرف".

بدأ المخرج يلقي تعليماته الأخيرة، وأحاطت الكاميرات بالديكور الذي يمثل سيارة مقلوبة، ووقف كينجي في مواجهة سايا وسط ساحة معركتهما، ورأيت في أعينهما تحدياً سافراً.. فقال داياكي: "أه! من منهما سيبدأ بقتل الآخر يا ترى؟"

انخفضت مصابيح الإضاءة إلى مواقعها، وعاد المخرج إلى مقعده خلف الكاميرات، واختفت سايا بين أنقاض السيارة، ومن حولهما اشتعلت النيران بضراوة فهمت سببها حين انهمرت المياه فجأة في سيل أمطار شديد، وصاح المخرج: "أكشن".

تحرك كينجي متجهًا نحو السيارة المقلوبة المشتعلة. توحش الغضب في ملامحه حتى غدا جنونًا، ورفع يده إلى أعلى ضاغظًا زناد مسدسه.

- "اخرجي يا آكي.. سينتهي اليوم وأحدنا ميت لا محالة".

شقت طريقها خارجة من السيارة المشتعلة، وخرجت والدم يغرقها تحاول التماسك. وبعد محاولات عدة وقفت وهي تترج، صويت مسدسها نحوه وأغمضت عينها للحظة، ثم أطلقت النار، لكنها أخطأته، بعدها سقط المسدس من يدها وهي تسقط على ركبتيها محيطة صدرها بذراعيها، ووشى تنفسها السريع المتثاقل بإصابة ضلوعها العنيفة، لكن عينها لم تفقد كراهيتها له.. يا للبراعة! إنها حقًا بارعة!

تقدم كينجي منها فقالت بصوت مرتعش: "لن يحملك مني شيء اليوم".

لم يتكلم، انتزعها من عنقها ليجريها على الوقوف، حدق إلى عينها قائلاً: "لا يجب أن تواصلني تعقي يا آكي، أنتِ تبحثين عن الرجل الخطأ".

تقلص وجهها ألمًا وهي تواصل محاولاتها للتملص منه، لكنه شدد يده حولها..

- "أنت لا تعرفين شيئًا عما أصاب يوكي، وقد فات أوان إنقاذها، ابتعدي عني لإنقاذ نفسك".

- "لا تنطق اسمها...".

حركت نغمتها شيئًا في قلبه، وبدأ عليه ألم عميق توارى سريعًا. قال: "أنت غبية.. ليتك تدركين إلى أي حد أكرهك".

مست كراهيته شيئًا في قلبي، كانت محسوسة حتى أنها صنعت غصة ما في حلقي، ولم أستغرب التعبير المضطرب في وجهها، والذي سرعان ما انقلب بغضًا أعمى وهي تحرر يدها التي تمسك ضلوعها لتنتزع مسدسًا آخر من ظهرها، فصاح كينجي: "لا".

وطوح بها جانبًا فسقطت عند الجانب البعيد الذي تحجبه عنًا السيارة. هنا خيم صمت مرعب مفاجئ، ووقف كينجي جامدًا محدقًا نحوها، بينما هب المخرج يصيح بالعاملين ليوقفوا التصوير، وركض إلى سايا، فلحقت به مع دايكي ونحن لا نفهم سر هلهة. توقفت الأمطار الاصطناعية ونيران الديكور الخادعة، ووسط

المعدات شققنا طريقنا حتى رأيناها ملقاة أرضاً جوار السيارة وسط المياه، تنظر إلى السماء وتطرف بعينها محاولة استجماع تركيزها، فركعت إلى جوارها وأمسكت كتفها، لكنها لم تبتد استجابة.

دافع كينجي عن نفسه: "لم أتعمد هذا، فقدت تركيزي ودفعتها في الاتجاه الخاطئ بعيداً عن المرتبة الواقية..."

هزّزتها ببعض القوة أنبهها لي: "سايا، قولي لي بم تشعرين الآن؟ حركي رأسك على الأقل".

ركع دايمي جوارها من الناحية الأخرى وأخذ يدها بين يديه، شدها برفق حتى أجلسها، ورفع وجهها ليطمئنها: "أنت بأمان يا سايا.. انتهضي معي الآن".

أبعدت سايا يديه، ورفعت يدها تتحسس مؤخرة رأسها، ثم صاحت بصوت نافذ الصبر: "منشفة".

استجابت لها إحدى العاملات وألقت على ظهرها منشفة كبيرة، ومعتمدة على يد دايمي نهضت سايا واقفة، وأبقت رأسها محنيّاً وشعرها ينسدل حول وجهها مخفياً منه الكثير. قالت للمخرج: "أعتقد أنني لست على ما يرام اليوم، هل يمكنني الاعتذار؟"

- "اذهي أرجوك، استريحي بقدر ما تشائي".

شقت طريقها بين المتحلقين حولنا سائرة كالشبح، بخطوات بالغة الخفة وكأنها تتسلل إلى مكان محرم، لا أعلم ماذا في مشيتها أوقفنا جميعاً متجمدين في أماكننا، لكننا وقفنا طويلاً لا نفعل شيئاً، حتى تحرك كينجي ليلحق بها، إلا أن دايمي اعترض طريقه. قال: "صدقني حين أخبرك أن تجنبها الآن هو أفضل ما يمكنك عمله يا هيروماسا كينجي".

كانت لهجته تحذيرية منعت كينجي من متابعة خطواته، بينما لحقنا بها إلى غرفتها. وجدناها جالسة أمام المرأة بكتفٍ محنية تحديق إلى يدها، فوقفت لا أعرف ماذا يجب أن أفعل، أما دايمي فسار إليها، وقف خلفها ساحباً خصلات شعرها جانباً، وتحسس رأسها، فأغمضت سايا عينيها.

بعد قليل أمرتنا بصوتٍ خاوٍ: "اذهبا الآن".

تبادلت ودايكي النظرات ولم نجب...

كررت سايا: "اذهب.. أريد أن أكون وحدي الآن".

قال دايكي: "لن أذهب".

"لا أريدك هنا.. من فضلك اذهب".

"أنا باقى".

ضمت يدها وازداد إغماض عينيها قوة، سرت موجة غضب في وجهها واختفت في لمح البصر. قالت: "اخرج.. يجب أن أستحم قبل أن أصاب بالبرد".

"سأبقى حتى تنتهين".

لم تجب، نهضت واقفة وألقت المنشفة عنها، ثم رفعت أطراف قميصها الممزق وخلعته، وسحبت أطراف بلوزتها الداخلية من البنطلون، وب نظرة باردة قالت: "هل ستنتظر لتراقبني وأنا أتعري يا تسوباسا دايكي؟ لماذا لا تلحق بي وأنا أستحم إذن؟"

وقف صامتاً ولم يحرك ساكناً، وحدّث إليه في المقابل بنظرات باردة وإن كان الغضب يشع منها كالجحيم، ثم صرخت به: "اخرج يا دايكي".

علا وجهه قلق صارم خالطه شيء من التردد، استحثّته: "هيا يا دايكي".

لكنه قال بصوت صارم: "تسوباسا سايا، انظري في عيني وقولي لي إنك لست واقعة في حب هيروماسا كينجي".

انتفضتُ لهلاً ونظرت إليه، تمنيت لو أنه يمزح أو يحاول مضايقتها، لكنه كان جاداً. نظرت إليها متوقفاً رؤيتها تستل سكيناً لطعنه، لكنها كانت على ثابتة في مكانها. بتعبير هو مزيج من استنكار واستهجان واشمئز، وسألته مجازية حماقاته بنبرة مسطحة: "هل تمزح؟"

"لا، أنا لا أمزح، لقد شعرت دوماً بشيء ما مختلف فيك كلما تعاملت معه، والآن لا أستطيع التفكير في أي سبب مقنع لتصرفك بهذا العداء حياله. هل تحببته يا سايا؟"

"أنت فقدت عقلك ولا ريب. إنه صديقي المقرب، يجب أن أكون مختلفة معه، تماماً كما أنا مختلفة مع تاكومي".

بنبرة مختلفة ردد بحذر: "إذن فهو مثل تاكومي؟"

صاحت بنفاد صبر: "لا تخلق أفكارًا حمقاء من لا شيء، الأمر مختلف عما كان عليه أمر تاكومي".

شعرت بالتشتت.. لماذا أجد نفسي محشورًا في هذا الصراع دون سبب الآن؟

تساءلت متذمرا: "ما شأن تاكومي بهذا الأمر؟"

انتبهت فجأة لوجودي، وجعل هذا سايا تشتعل جنونا. أشارت نحو الباب وصاحت: "اخرج الآن".

تركتها وغادرت الغرفة، ولحق بي دايمي بعد ثواني بوجه محمر..

قال بصوت متردد: "توجد أشياء أنت لا تعرفها عن سايا، وأنا أحاول أن أفهم".

قلت ببرود: "لم أطلب تفسيرًا".

تراجع تردده إلى نبرة هجومية: "وأنا لا أمنتك واحدًا".

استعملت لهجته المستفزة ضده: "هذا واضح".

أغضبته.. رأيت هذا في وجهه وأثار في شعورًا بالراحة. لكنني تظاهرت باللامبالاة. كان المخرج يتشاجر مع كينجي، على بعد خطوة من قتل بعضهما بعضًا، وازداد شجارهما حدة وألحنا حتى أننا لم ننتبه لسايا وهي تغادر الموقع. لم ينتبه أحد لها.. غافلت الجميع وذهبت، اختفت تاركة خلفها سيارة الشركة والسائق، وأغلقت هاتفها، وظللنا ندور حول أنفسنا نبحث عنها لساعات دون جدوى.

قالت تشو وهي تذرع البيت جيئة وذهابًا: "إنها حتمًا بخير.. لا رب أنها غاضبة وتسعى لهدم الدنيا فوق رأس كينجي الآن. لن تفعل ما هو أكثر فلا داعي للقلق".

قال لها دايمي بعصبية: "اجلسي واهدئي إذن ما دمت واثقة إلى هذا الحد".

صاحت به بصوت بلغ السحاب: "لولم تضغط عليها وتضايقها وتركتها وحدها ما كانت لتذهب بعيدًا، لكنك لن تكف أبدًا عن إلحاحك الممل اللعين هذا، لهذا أكره رجال برج الأسد".

سخر منها بعصبية وغضب: "آه، المفترض أن أرى صديقتي مجروحة وأمتثل لرغبتها في تركها وحدها بدلاً من إشعارها باهتمامي وأني سأحميها. في المرة القادمة سأتركها تحترق".

صرخت فيه: "في المرة القادمة امنحها بعض المساحة لتسيطر على أعصابها أو لتبكي، لو لم تكن تدرك كيف تشعر سايا فهذه مصيبة، وإذا كنت تعرف وتتجاهل الأمر لترضي رغبتك في الظهور أمام نفسك بمظهر الصديق المثالي فأنت...".

صرخ بدوره: "هل أخبرك ماذا أنا حقًا يا تشو؟ أنا برج الأسد اللوح الذي يهتم بالبقاء معكن في أوقاتكن المظلمة، ويتلقى في المقابل تأنيبًا ولومًا، وفي النهاية يتضح أنني كنت محققًا. هل كنت تعلمين أنها...".

صرخت بهما نانا: "هلا كففتما عن الصراخ، سأصاب بالصمم بسببكما".

صرخ بها داكي: "انظري إلى نفسك أولاً، صوتك هذا لا...".

قاطعت تشو صراخه بصرخة أحد: "هل اهتممت بالذهاب لتقريع فارس أحلامك أيتها الأميرة؟ أم أنك ترين ما حدث بسيطًا يترك لسايا وحدها حسم أمر؟"

لم أقحم نفسي في شجارهم، ولم أمتثل لرغبتني في إخبار نانا وتشو بما قاله داكي ليغضب سايا إلى هذا الحد. فقط رفعت يدي لأضعهما فوق أذني، وتسارعت أنفاسي وأعصابي تكاد تنفث بدورها، شعرت أنني سأجن من تكرار المشاجرة نفسها للمرة الثالثة خلال ست ساعات. بدا الأمر وكأنني أشاهد الفيلم نفسه مرارًا وتكرارًا، ولكن قبل أن يتطور الشجار إلى حد الاشتباك الفعلي بالأيدي، وهو ما كنت أتوقعه بشدة، سمعت صوت ضحك عالٍ، ونظرت لأرى سايا واقفة بالباب، تنظر إلينا وتضحك ضحكة عالية مبتهجة منفصلة عن الواقع، وإلى جوارها يقف هيروماسا كينجي يلف ذراعه حول وسطها، وييده الأخرى يمسك يدها الملتفة حول كتفه، ويسندها كي لا تقع من فرط سُكرها.

للمرة الأولى في حياتي أراها ثملة! كان المشهد غريبًا حتى أنني شدهت، ثم داهمني القلق الذي رفضت الاعتراف به لنفسي طوال الساعات الماضية. ركضت نحوهما فحررت يديها بعيدًا عن كينجي لتستقبلني، فتحت ذراعها عن آخرهما وصاحت: "ناكومي.. تعال هنا وقبلي".

وكادت تنكفئ على وجهها لولا أنني أسرعت بإمساكها. اعتدلت ونظرت في وجهي بنظرة هيام تامة، وقالت بابتهاج: "لا فائدة مما أفعله لأجل الفريق، أليس كذلك؟ صديقتي الأقرب ستتركنا لتواعد هيروماسا سينباي. وبعد قليل ستجدهما يتحدثان عن الزواج.. هل تراهني على هذا؟"

- "سايا...."

كانت رائحة الكحول تفوح من أنفاسها لدرجة غير محتملة، حتى أنني تساءلت كيف تكون حالي حين أفيق من نوبات سُكْرِي العنيفة؟ أمسكتُ كتفيها مجيلاً النظر في تفاصيل ملامحها، واستشعرت بهجة غريبة تتسرب إلى صدري من نظرتها العاشقة.. بدت صادقة إلى درجة ساحرة.

وضعت سايا يدها على شعري، وانحدرت بها على وجهي، ثم إلى عنقي...

- "طالما أحببتك يا هارونو تاكومي، طالما أحببتك، كنت الأقرب إلى قلبي، وما كان يخطر لي ببال أنني ساكون إلى جوارك يوماً، ولو أنني كنت أعلم هذا لما اقترفت شيئاً من الخطايا التي غمرتني، ولا تنتظرتك. ولكن أعلم؟ لقد انتظرتك بالفعل، انتظرتك طويلاً جداً حتى يئست من أن يترك ذلك الشبح قلبك. كنت أراها في عينيك طوال الوقت، طوال الوقت كانت ها هنا، تفكر فيها حين ترى شيئاً يذكرك بماضيك، وتفكر فيها حين ترى شيئاً وتتساءل: هل كانت لتحبه لو رآته هي الأخرى؟ وتفكر فيها في لقاءات المعجبين، وعلى المسرح، وتتساءل عن رأيها في حفلاتك، ولا تكف أبداً عن الشعور بالذنب.. لكنك لست مسؤولاً عما حدث، حتى لو قالت لك الدنيا كلها العكس، فأنا سأخبرك أنك...".

وسقطت على صدري فتشبتت بها وصحت قلقاً، نظرت إلى كينيجي فدافع عن نفسه ثانية: "لم أفعل لها شيئاً.. عندما أخبرتي نانا أنها مفقودة ذهبت للبحث عنها في بار لا يعرفه سوانا، وكانت ثملة تماماً في حينها، ولم تتحدث بكلمة معي".

صاحت سايا بعصبية السكاري: "أنا لن أتحدث معه قطعاً.. هذا الأحمق الذي ينسى أنني صديقته. تاكومي، غداً سيتحدثان عن الزواج، تذكر هذا جيداً، لأنه سيعمد إلى إغواء نانا بالأمر، سيخطط لتملكها تماماً، سيأخذها مني، وسيهجر الفريق الذي بنيناه معاً على مدار عشر سنوات. سيأخذها مني يا تاكومي ولن أستطيع قول شيء لأن من حقها أن تفعل ما تريد، وليس من حقي أن أتمسك

بفريقي ضد الهراء الذي يسمونه سنة الحياة. أي حياة تلك التي تجعلني أستنزف نفسي لأجل نجاح لا يرغب فيه الآخرون؟ بحق السماء.. هل تفهم شيئاً مما أقول!"

وشرعت تضحك من جديد، وكست صوتها سخرية بألسة..

"غداً سيتحدثان عن الزواج، وسيرميان بكل شيء خلف ظهرهما. لقد بدأ هو برمي اليوم خلف ظهره، ألقاني وسط النار لمجرد أنه غاضب، وكان من الممكن أن أموت أو أتشوه أو أصاب ببشاعة، وغداً ستبعب نانا غضبه وتتركنا بدورها. تسوباسا على وشك التحطم يا تاكومي، وإذا ما حاولت الدفاع عنه سيقولون إني مجنونة. هل ترى المهزلة؟ سأصبح أنا المجنونة، وسأشكل معك ثنائياً ممتازاً.. سنبقى معاً، أليس كذلك؟"

"بلى".

نطقت بالكلمة لأهدئها، لكن حالما غادرت شفّتي شعرت أنني أعنيها حقاً. رفعت رأسها ونظرت إليّ النظرة العاشقة نفسها، واكتست فجأة بإغراء مضحك، وألقت ذراعها حول عنقي، وألصقت نفسها بي حتى أنني شعرت بحرارة غادرة تنقد في صدري.

"أنا لا أمانع هذا، فأنت نموذج الجمال الرجولي كما حلمت به دوماً، كل شيء فيك مثالي يا تاكومي، هذا الشعر، وتلكما العينان، وشفّتك، وعنقك، وصدرك، وساقاك.. أنت جميل جداً، أنت أجمل رجل رأيته في حياتي".

"حسنًا.. تعالي معي الآن".

"أوه! أنت تتعجل الأمور، لكنني...".

وشهقت، فأمسكت بها وأدريتها بسرعة في اللحظة التي انفجرت فيها تقيء. وسمعت أهة صدمة وتقرز من كينجي فشعرت بالرضا، وقلت وأنا لا أكتف شعوري هذا: "أوه! يبدو أنها بالغت في الشرب".

"هذه الغيبة لا تتحمل الشرب أصلاً، ماذا يجعلها...".

نظرت إليه ببرود وسحبت سايا بين يدي وقد تحولت إلى وسادة هشة، مررت بتمائيل ثلاثة تحدد إلينا بجمود تام، وصعدت بها إلى حجرتها وأرقدها في فراشها،

وخلعت عنها سترتها وقميصها الثقيل، ثم دثرتها بلحاف بارد جعلها تنكمش قبل أن تستر: دفا جسدها على استحياء.

همهمت بكلمات لم أفهمها، وتقلبـت مراژا، مرت بها رـعشة ثقيلة فجلست جوارها، ترددت، لكن ما قالته من كلماتٍ شجعتني حتى وإن كنت أعلم أنها ثملة.. وببطء مددت ذراعي ليستند فوق رأسها وملت عليها، وببيدي الأخرى طوقت جسدها. سألني جزء مني: لماذا تفعل هذا؟ فلم أجـد صدى إجابة يتردد في صدري.

مرت لحظة قبل أن ترجع سايا رأسها إلى الخلف نحوي وتناديني. لا أعرف كيف عرفت أنني من يحتضنها، لكن الفكرة أثارت في صدري وجعاً ووهجاً، فازددت اقتراباً منها، احتويتها تماماً، وتدثرت بها تماماً، وتركت رأسي يستريح فوق رأسها، فسمعت كلمات أخرى مضطربة بلغة لا أعرفها.

أمسكت أصابعها الصغيرة صلبة الأنامل، التي وسمتها أوتار الجيتار بخشونة تثير في قلبي حباً من نوع خاص، وهمست لها لتهداً وتنام. انبثقت في قلبي رغبة صادقة في أن تنام سايا بين ذراعي مطمئنة، وأن أبقى جوارها لأحميها، ولكن لم تمر دقائق حتى بدأت الحمى تسري في جسدها، وبحلول الفجر ساءت حالتها حتى اضطررنا لحملها إلى أقرب مستشفى.. وتحت درجة حرارة تقترب من الأربعين غابت سايا عن وعيها حتى عصر اليوم التالي.

كل شيء اختفى عندما استيقظت سايا من غيبوبتها..

السخرية والألم ولمحة الجنون التي تحدثت بها ملقية في وجوهنا ما تخشاه، كل هذا تلاشى. أفاقت من غيبوبتها بوجه مشوش سرعان ما كساه الوجوم، ودام وجومها أيامًا لم تتحدث فيها إلى أحدنا إلا في نطاق العمل. أصرت على مغادرة المستشفى فور إفاقتها.. كالعادة، واكتفت نانا وتشو بتبادل النظرات المتسائلة والساخطة والقلقة.. كالعادة، في حين ظل داكي يتابعها باهتمامه اللزج الذي يبلغ حد التطفل.. كالعادة، وبقيت وحدي منزويًا في ركن بعيد أراقبهم، لكنها لم تعد بذات التركيز الذي يسمح لها بمتابعة انعزلي وانتشالي منه.. الآن أصبحت أنا في وضع المراقب.. وحدي.. كالعادة.

وفي نهاية اليوم، حين ننتمي من بروفاتنا، يصبح الوضع متوترًا، الكل ينظر إلى الكل، وسايا تنظر إلى الفراغ. لسبب ما لم يناقشها أحد فيما قالت، لم نخبرها نانا أن مخاوفها لا صحة لها، ولم يؤكد لها داكي أنها متشائمة أكثر مما يحتمل الأمر، ولم تعديها تشو ببعض ابتهاجها الدائم المريب، وبدورها لم تتحدث سايا، حتى أنني تساءلت إذا كانت تتذكر ما قالته أم لا.. أما كينجي فقد اختفى مع فريقه في بروفاتٍ ما.

أنهينا العمل على ألبومنا الجديد أخيرًا، وانتهى أربعتهم من تدريبات الرقص وانهمكت أنا في تدريبات إضافية لتعويض ما فاتني وأنا في المستشفى، فاعتدت قضاء المساء في الشركة أتدرب حتى صرت على وشك الرقص وأنا نائم. كنت أنغمس في حياتي من جديد ببطء، خفيًا من حمل التفكير في أمر شبجي المطارد. بالطبع كان التفكير فيه يتسلل إليّ في اللحظات التي ينسحب فيها تأثير العقاقير من

دمي - أو هكذا أتخيل - إلا أنني كنت أبادر بتناول أدويتي، حتى حينما سيطر عليّ ذات ليلة كالوسواس، اتصلت بطبيبي النفسي، فألهاني عن التفكير في الأمر بحيلٍ بدت لي تافهة، ولكنها كانت فعالة.

لم يعد شبحي ها هنا؛ لم أعد أموت شوقًا لوجوده معي كما كنت طوال سنوات ثلاث، وكأنّ تشبّثي به سيكفّر عن ذنبي العظيم. الآن أدرك أنني أقتل نفسي رويدًا رويدًا لو فعلت، وجزء كبير مني لا يريد أن يموت، ولعل هذا الجزء ما أنقذني حقًا، وإن كنت لا أدري كيف لم يهزمه شعوري بالذنب الذي لم يخفت قط.

لن أسمح للاكتئاب بأن يقتلني، ولن أدع تلك السحابة المظلمة تحتوي حياتي بعد الآن، لأن سايا هنا، لأنني اكتشفت وجودها بشعور الأكّمة إذ يفارق ظلمته الألفية ناظرًا إلى قرص الشمس الوهاج. بعدما أنقذتني سايا فتفتحت عيني عليها، ولا أعلم كيف لم أكن قد رأيتهما من قبل بجلاء كالذي أراها به الآن.

رغم انعزالها بعيدًا عني، ورغم شدة احتياجي لتطلعها الدائم إليّ، وقراءتها للملحمة وسؤالها عمّا بي، ورغم الانكسار الضئيل الذي أشعر به إذ أدرك أنني وحدي دونها، كنت أتحمس وجودها في كل ركن من البيت الذي لم تسمح لي بمغادرته. اعتدت العودة من تدريباتي لأجلس في ركن من غرفة الموسيقى ألعب بجيتاري بخفية، وأود لو تستدير إليّ إذ جلست إلى البيانو الكبير وانهمكت في كتابة الألحان وتعديلها، حتى إذا ما انتهت حيثني بابتسامة متكلفة، وسألتني عن أحوالي بغير عميق اهتمام، ثم تركتني ومضت إلى غرفتها، ليخيم عليّ ثقل الوحدة يدفعني إلى الهرب والنوم.

غير أنني أدركت ذات ليلة أن سايا تتحطم في صمت..

ليلتها عدت إلى البيت واتجهت من فوري إلى غرفة الموسيقى، واستغربت وجود دايفي جالسًا جوار الباب من الخارج، يحدق إلى السقف بنظرة مهمومة. وحين رأيته قال بلا مقدمات: "إنها لا تتحدث إليّ".

هوّنت عليه: "إنها لا تكاد تتحدث إلى أحد".

حدق إليّ بثبات أقلقي، صبرت دقيقة ليتكلم لكنه لم يفعل، ووشت نظراته بأنني شاشة عرض لأفكاره؛ كان ينظر عبري كزجاج شفاف تتلوى خلفه الأفكار.

أرعبتني نظرة دايكي الشبيهة بنظرة سايا، كان يشبهها إلى حد رهيب، رغم أنني لم أجد تفصيلاً في وجهه تشي برابطة دم بينهما.

قال لي مهموماً: "حين أنظر إليك أستطيع إدراك شعورها نحو كينجي".

هممت بسؤاله عما يعنيه، لولا أن انقض عليّ الصوت القادم من غرفة الموسيقى..

لوهلة توقف قلبي، وشعرت بتسرب الحياة مني.. غشاوة سوداء أحالت عالمي كله ظلاماً، وعدمٌ وهميٌ سخيفٌ استولى عليّ منبئاً إياي بكل الحقائق المريرة التي أخفيها عن نفسي لأستطيع الاستمرار. انبعث الألم، كل ألم شعرت به خلال عمري، ليطفو على السطح، أغرقني، جرجرني إلى أعماقٍ سحيقة لم أعرف بوجودها، مزقني تمزيقاً وكسّرني إلى آلاف القطع، ثم ألقى بي في الفراغ غير قادر على استرجاع نفسي التي أعرفها مجدداً، غير قادر على رؤيتها أو حتى تذكرها، غير قادر على الشعور بشيء سوى ذلك الألم المحض الجهنمي.

مررت بدايكي فلم تصدر منه كلمة وكأنما سلبه الصوت القادم إرادته، وفتحت الباب فسحبني الدخان الأزرق الكثيف للدخل. سرت مخدراً متجهاً إلى مقعد سايا الذي لا أراه، حتى بدأت تتبدى لي من بين سحب الدخان، جالسة على مقعدٍ مرتفع، أمامه حامل نوتة موسيقية لا تراها، إذ أغمضت عينيها وغابت عن العالم، وهي تتمايل مع النغمات التي يبوح بها كمانها.

لم أعرف من قبل أنها قادرة على عزف الكمان بهذه البراعة، وكانت المقطوعة التي تعزفها هي الأكثر سوداوية بين كل الموسيقى التي سمعتها خلال حياتي، الأكثر إثارة للألم، والأشد وجعاً. رأيت هذا الوجع في ملامحها الساكنة الغائبة عن الوعي، في حركة أصابعها، في تمايلها البطيء أحياناً والعنيف أحياناً، سمعته في صرخات الأوتار المترددة بين الخفوت الأقرب إلى سكون الموت، والصراخ المعبر عن احتراق لا أمل في الخلاص منه. نعم.. الاحتراق، هكذا شعوري وأنا أسمعها.

جلست غير قادر على النطق، ومرت دقائق وأنا أحترق معها، أو لعلني أحلق في عالم لا يراه غيرها، ثم انفرج جفناها لسبب ما ووقعت عيناها عليّ، كانت نظرتها غريبة قادمة من خارج حدود هذا العالم، وظلت تنظر إليّ قليلاً ثم عادت سايا التي أعرفها، رأيت نظرتها المألوفة، ثم سمعت نشاراً خفيفاً يشف عن المفاجأة، وتوقفت سايا عن العزف.

فور أن فعلت أخذت نفساً عميقاً شاعراً بالتححرر، وسعلت بعده لهول كمية الدخان التي فتحت لها صدري دون حذر. حيتني بصوتٍ لطيف: "مرحبًا يا تاكومي، في المرة القادمة نهيّ قبل دخولك، لقد أفرزعتي".

وسمعت صوت قداحتها، سألتها وأنا أسعل: "منذ متى تدخين؟!"

أطلقت صوتًا باسمًا وسمعتها تتحرك، ثم انقشع الدخان خلال دقيقة، وقبل أن أنتبه للإضاءة الزرقاء بدّلت سايا الضوء فسبحت الغرفة في ضوء أبيض ساطع، وأراحي هذا فتنفست بحرية مجددًا، ولم يؤلمني الهواء إذ إن جهاز التنقية جعله صالحًا للمخلوقات البشرية.

عندما عادت إليّ كنت أدلك ذراعيّ اللتين اقشعرتا، محاولًا إخفاء الإحساس المرعب الذي أصابني به عزفها.

قلت لها مبهورًا: "أخبرتني أنك تعزفين الكمان أحيانًا، ولم تخبريني أنك تفعلين هذه البراعة! إنك أفضل من كاتسوكي سايكا".

مررت أصابعها فوق الكمان بعشقي، ولمست أوتاره بشفتيها في قبلة جميلة، وقالت: "الكمان كان أول آلة لعبتها في حياتي، وأكثر آلة أحببتها".

- "لكنك احترفتِ الجيتار!!!"

- "لأن تكلفة تعليمه كانت أقل بكثير من الكمان، وكان بإمكانني التقدم فيه أسرع، كان هذا أنسب لنا لأننا كنا مرتبطين بموعد للرحيل".

- "رحيل؟!"

- "الرحيل عن الأرض التي ولدنا فيها".

- "ولماذا رحلتم؟"

ابتسمت ولم تجب، وعرفت من نظرتها الثابتة لي أنها لن تجيب تساؤلي.

كبحت فضولي وسألتها: "والجيتار، كيف نجحت فيه إلى هذا الحد دون أن تحببيه؟"

- "أحبيته، طالما أحببت الجيتار، وسأحبه طوال حياتي".

ونفضت إلى جيتار كلاسيكي يزين ركنًا من الحائط والتقطته. كان صغيرًا وبدائيًا تمامًا مقارنة بما نستخدمه، لكنه في حالة جيدة تشف عن العناية المستمرة به. رفعته سايا واحتضنته، وواجهتني به وقالت: "هذا سوو، جيتارنا الأول، أول جيتار امتلكته العائلة، وبسببه أحببت الجيتارات".

- "كيف؟"

بابتسامة حنون قالت: "كان يخص نانا.. قبل عشر سنوات فقط لم أكن أعرف عن الموسيقى شيئًا، ولم تكن لدي أي طموحات خاصة بهذا المجال، لكن نانا كانت تملك هوسًا بالأمر، وقالت إنها تود لو نكوّن فرقة كفرق الفيچوال كيه روك اليابانية، لكنني لم أأخذ كلامها على محمل الجد، وددت فقط لو أستطيع عزف الكمان لنفسني، وتعلمت أساسياته من صديقة لنا، حتى ظهر سوو في حياتنا".

شفّ وجهها عن شيء من الحزن رغم ابتسامتها، تابعت: "كانت نانا في عطلة وعادت به، لم أعر الأمر اهتمامًا حتى أخبرتني بعد أشهر أنها كانت تفكر في الانتحار؛ حياتها كانت محطمة وبلا معنى، ولم يبد لها أي مخرج أو سبيل فقررت إنهاءها. منحت نفسها ثلاثة أيام لتودع كل شيء، وتفعل أي شيء رغبت فيه، وكان أول ما فعلته أنها اشترت سوو".

شعرتُ اضطرب قلبي إذ فكرت في انتحار نانا الجميلة المشعة دفنًا ولطفًا، وبذلت جهدًا كي لا أنظر بعيدًا عن سايا وأشعرها بتلاحق أنفاسي والوجع الذي شعرت به في معدتي. لا يجب أن تتحدثي عن الانتحار أمامي يا سايا.

وبدورها نظرت سايا في عيني مباشرة، وكانت ابتسامتها براءة تتناقض تمامًا واللمعة الجدية في عينيها إذ قالت: "هذا الجيتار أهم شيء في العالم بالنسبة إليّ يا تاكومي، إنه الشيء الوحيد الذي تمنته نانا بعمق ورغبت في امتلاكه ولو ليومين فقط قبل أن تموت، أنا لا أستطيع التنازل عن سوو أبدًا. تشاجرت مع نانا مرارًا لأنها رغبت في بيعه بعدما قررت أن تعزف اليبز جيتار، وكى أمنعها من هذا بدأت العزف عليه، أصبح صديقي، ومن أعماق قلبي قررت أن نحقق حلمها حتى لا تفكر في الموت ثانية. في ذلك الوقت لم نكن نعيش معًا، وكنت أتقلب كالنائمة على الجمر بسبب شعوري بالوحدة، لكن سوو منحني الإحساس بوجودها معي حتى وإن كنت في غرفتي المغلقة. كنت فتاة وحيدة وبائسة ولا يبدو لحياتي معنى، لكن

سوو كان معي، وبالتالي كانت نانا معي، ثم أصبح سوو يعني وجود العائلة كلها بالقرب مني".

أين كانت سايا في ذلك الوقت؟ أوجعني السؤال وإن كنت أعرف أنها لن تجيبه أبداً، لن تجعلني أعرف شيئاً عن ماضيهن البائس أكثر مما تقول الآن.

كانت بعد تنظر في عيني حين رفعت ركبتيها وأسندت الجيتار وعزفت.. بسرعة يتعذر وصفها ضربت أصابعها الأوتار في معزوفة شديدة الصعوبة، ثم خفضت ركبتيها ورفعته بين ذراعيها مجدداً، وبصوت محب بدا شديد الغرابة من بين شفتيها قالت: "أعرف سوو كما أعرف وجبي في المرأة، ويمكنني العزف عليه عشر سنوات وأنا معصوبة العينين. تمزقت أصابعي عليه مراراً، وألمتني غضاريفي بسببه حتى تحجرت، لن أعزف ببراعة على أي جيتار كما أعزف عليه".

-والكمان؟ هل تخلّيت عنه؟-

ضحكت لأول مرة منذ أيام وقالت: "لقد سمعت كيف أعزف، فهل يبدو لك الأمر وكأنني استسلمت؟"

جف حلقي إذ تذكرت تلك المقطوعة الجهنمية، وسألتها: "لمن تلك الموسيقى التي كنت تعزفين؟"
-إنها لي.-

كذا أجابتي ببساطة وهي تعيد سوو إلى صندوقه، لكن إجابتي أزعجتني، ورأت هي انزعاجي عندما نظرت إليّ من جديد، وقالت برفق: "الأمر على ما يرام، لقد كتبها منذ زمن طويل".

رغم أي شيء شعرت بالسعادة لأنها فهمتني، وأدركت انزعاجي من كونها عانت شيئاً مؤلماً يجعلها قادرة على كتابة شيء كهذا..

-أتعرف يا تاكومي، ذات يوم قرأت كلمة لأديب فرنسي يقول: "لا يجعلنا عظماء إلا ألم عظيم".. عندها قررت عقد معاهدة سلام مع كل ألامي، وبدأت من جديد. كتبت تلك المقطوعة تخليداً لكل أيامي وذكرايتي القديمة الموجعة، وضعت فيها كل مشاعري، ثم أخفيتها، ويوم أموت ستكون شاهدة على أنني بلغت قمة في الإبداع لم يبلغها سواي".

- "أوقمة في الألم يا سايا".

للحظة جمدت، ثم هزت كتفها بغير اكتراث، وقالت: "ربما، لكنني لا أشكو على كل حال، لو عرضت عليّ أفضل حياة في هذا العالم لرفضتها واخترت حياتي بكل ما فيها، أتعلم لماذا؟"

لم أستطع التفكير في شيء معين، انتظرت إجابتها لكنها ابتسمت نفس الابتسامة التي تركني معلقاً بين جبليّ الحيرة والفضول، كبرومثيوس سارق النار من آلهة الأوليمب.

أشعلت سايا سيجارة وقالت: "لا أحد منهم يحب هذه المقطوعة، لهذا لا أعزفها أمامهم، حتى دايفي يبتعد عني ريثما أنتهي".

ونفثت الدخان بعمق، وتأملت الجمرة الصغيرة في طرف سيجارتها، فسألتها: "لماذا تعزفيتها الآن؟"

- "للسبب الذي كتبها لأجله.. لأوقات الحزن العظيم".

- "ماذا أفعل كي لا تكوني حزينة؟"

توقفت عن التدخين ونظرت في عيني وابتسمت، قالت لي برفق: "أنا لست حزينة بعد الآن.. لقد عزفت مقطوعتي للمرة الأخيرة".

- "سايا...".

واقتربت منها، وسحبت من بين أصابعها السيجارة لأخنقها في منفضة قريبة. سألتها: "أتدركين الفارق بين الحب وجنون الامتلاك؟"

اضطربت ملامحها وكأنها بوغت بخيانة غير متوقعة، كانت نظرتها لي لائمة وهي تجيبني: "نانا صديقتي، وليس لي الحق في امتلاكها يا تاكومي.. هذه ليست المشكلة".

- "أنت تشعرين أنك تمتلكينها بالفعل، لهذا جن جنونك بسبب كينجي، لأنه سيأخذها منك".

- "الأمر ليس كذلك".

- "كيف هو إذن؟ أنا لا أستطيع تحمل رؤيتك هكذا.. أو رؤيتكم جميعاً هكذا".

ابتسمت بنعومة: "أنا أسفة.. لا ريب أن أعصابك تحملت الكثير".

- "تجاهلي أعصابي وأخبريني لماذا كل هذا؟"

عادت تدخن ونظرت إلى السقف، وهمست كمن يستجلب ذكرى بعيدة: "لقد قطعت عهدًا على نفسي أمام نانا منذ سنوات، والآن حان وقت الوفاء به، لكن تنفيذي مرير، ولا أظني قدرة على احتمال ثمنه".

- "أي عهد؟"

تابعت شاردة: "ظننت أن الوفاء به سيكون سهلًا، ولكنني كنت حمقاء. للمرة الألف كنت حمقاء".

- "أي عهد؟"

- "وعدها أنني سأحميها وأدعمها حتى تبلغ حلمها، حتى وإن كرمتني لهذا، حتى وإن عارضتني، حتى وإن طلبت مني أن أخرج من حياتها إلى الأبد، وأنا سأنفذ وعدي حتمًا يا تاكومي، ليس فقط لأنني لست من هؤلاء الذين يتراجعون في وعودهم أو يحنثون بها، بل لأنني أنظر إلى نانا وكأنها نصفي الآخر، ولن أقبل أبدًا بتركها تستسلم وتنخرط في حياة لا تريدتها مئة بالمئة، وترحل تاركة أحلامها خلفها، لن أدعها تفعل هذا حتى ولو أذيت هيروماسا سينباي آلاف المرات، حتى لو اضطررت للموت، أو اضطررت لقتلها.. أن أراها ميتة أهون عليّ من رؤيتها تعيش كآلاف الغيبات".

قلت بضيق: "أنت الغيبة".

- "غبية؟! أظن إيداه سهلًا بالنسبة إليّ؟ إنه صديقي الأول يا تاكومي، وأحبه أكثر مما أحب نفسي".

ونفث دخان سيجارتها في زفرة صادقة، موجعة، ثم سعلت وطفرت من عينها قطرات من الدموع دقيقة. قلت لها متعاطفًا: "تركهما إذن".

- "ربما أتركه هو.. لكنني لن أترك نانا، لأنني أعرف جيدًا أنها لا ترغب فيه بالشكل الذي تظنه".

- "لا تكوني غبية يا سايا، هل تظنين أننا سنبقى هكذا إلى الأبد؟ لا بد أن يطرأ تغيير ما في يوم ما، وستتوقف عن كل شيء".

صاحت بي: "ليس هذا.. لا شيء يجبرنا على قبول ما تعاهد عليه البشر العاديون المملون من قواعد غيبية.. ليس نحن يا تاكومي".

أجفلت لحدثها غير المنتظرة، وذعرت إذ انقلب وجهها وتبدلت ملامحها لشراسة كفيلة بهجرة كينجي من المجموعة الشمسية كلها لورأها الآن..

دافعت عن وجهة نظري: "نحن بشريا سايا، لن نبق تحت الأضواء إلى الأبد".

رفعت أنفها لأعلى، وعبر وجهها عن درجة من الاحتقار صدمتني، وشاعت حولها هالة من المشاعر السوداء، وكانت تبث برذاً بكلماتها الثلجية: "لا، لا تقل إننا مجرد بشر.. نحن نختلف، نحن مميزت، لا مثيل لنا، موهوبات بالطموح وملعونات به. كان بإمكاننا منذ سنوات أن نقنع بحياة تافهة مترفة كآلاف الغيبات الراضيات، ونصير زوجات وأمهات، ونفقد ذواتنا في بوتقة الأسرة والعائلة، ونهدر شبابنا وجمالنا وصحتنا لأجل آخرين نجتهد ليكونوا أفضل منا، وشريك لاه عنا، على أمل أن نُقدر أفعالنا ذات يوم، وبعد سنوات نموت وتبقى منا ذكرى دافئة في قلوب أطفالنا، وطيف باهت عند أحفادنا. كان بإمكاننا أن نسلك هذه الطريق الآمنة لكننا اخترنا طريقاً أخرى، تركنا كل ما نملك وألقيناه خلف ظهورنا، كافحنا وقاتلنا وتعذبنا بين ألف فشل وفشل، ثم نجحنا وتآلقنا وبلغنا عنان السماء، وكنا معاً دائماً، قطعنا طريقنا بكل ثقة دون أن نفكر قط في التراجع، والآن لا يحق لأحد أن يدفع أحداً للتراجع، لا يحق لأحد أن يفرقنا ويأخذ واحدة منا ليحجب ضوءها بعيداً عن الجميع، نحن نجما لامعات يا تاكومي، ولا يحق للبشر امتلاك النجوم".

شيء ما في صوتها أجمني، ثم سألتها: "وإن كان يحبها يا سايا؟ وإن كانت تحبه؟ هل...؟".

- "إنها لا تحبه.. لن أقضي عمري أكرر هذا".

- "من أدراك؟"

أكدت بلهجة قاطعة: "أنا أعرف، إنها بالتأكيد لا تحبه، لقد أمضيت مع نانا سبعة عشر عاماً تقريباً حتى بت أعرفها كما أعرف نفسي، إنها لا تحبه.. هي فقط تستند إليه، تستظل به، ولحسن حظه أنه تصيدها في فترة من الإرهاق والفراغ، ولو أنه تصيدها في وقت آخر لسخرت منه، ثم ماذا عن هيروماسا سينباي نفسه،

هل يبدو لك وكأنه تخطى خطيبته السابقة بشكل يسمح له بأن يحظى بحبيبة جديدة؟"

"لقد انفصلا منذ أشهر".

"تقصد أن هيتومي هجرته قبل أشهر، ولو أنك تعرف هيروماسا سينباي كما أعرفه لأدركت ماذا تعني فكرة أن تهجر، حبيبته.. إنه لم يتخط هذا، ولا أريد أن يتخطاه مع نانا".

"ولم لا؟"

"هل قرأت مسرحية روميو وجولييت؟ لقد قال شكسبير إن "لا يشفي لسع النار سوى نار أخرى.. ويخفف من بعض الآلام عذاب سواها". لا أريد أن يتخذ هيروماسا سينباي من صديقي الأقرب نازًا أخرى تنسيه النار القديمة التي أحرقتة".

بقيت صامتًا أحرق إليها فابتسمت كأنها موقنة من أنني لا أفهم، لكنها لم تعلق...

بنفاد صبر قلت: "امنحهما الفرصة..."

"الفرصة لماذا؟ لتحطيم الفريق؟ لهجر أحلامها؟ نحن لم نبغ أحلامنا بعد، قطعنا شوطًا كبيرًا لكننا لم نمسك بنجومنا الخاصة التي نسعى خلفها بعد، ولن أسمح لها بالتراجع الآن".

"قلت منذ قليل إن البشر لا يحق لهم امتلاك النجوم..."

"وقلت أيضًا إننا مختلفات، كما أننا أحد هذه النجوم يا تاكومي".

وأشعلت سيجارة ثالثة تشاغل بها عن النظر في وجهي.. كانت لا تزال تشع برودًا جعلها بغیضة للغاية، وحتى أنا وجدت عسرًا حقيقياً في تحملها. واصلت التمسك بهدوني: "اسمعي يا سايا، أنا لا أفهم حتى اليوم سر الطموح المدمر الذي تملكينه، لكنني امتلكت طموحًا مماثلاً ذات يوم، وكان عليّ أن أدفع ثمنًا فادحًا لأفريق منه. أرجوك.. أرجوك أفيقي قبل أن تدفعي هذا الثمن، أنتِ لن تتحملي أبدًا دفع ما دفعته أنا".

سحبت أنفاس سيجارتها بقوة شديدة فاحتقن وجهها، ثم نفثت الدخان في خيط طويل رفيع، وسعلت، ومع سعالها تناثرت قطرات دمع غزيرة من عينيها، فسببت ساخطة: "سحقًا!"

وخنقت سيجارتها في المنفضة والتقطت مندبلاً تمسح به دموعها، إلا أن قطرات أخرى انحدرت متتابعة، فأشاحت بوجهها بعيداً، وأمرتني: "اخرج الآن".

كان صوتها بعد باردًا، لكنه بث في الهواء أسى عميقًا..

- "سايا...".

- "اخرج".

تركتها وابتعدت، وقبل أن أخرج قالت لي: "(قبل أن نلتقي)...".

عدت أنظر إليها، فاستدارت لي وقالت: "تلك المقطوعة.. لقد أسميتها (قبل أن نلتقي).. يجب أن تعرف هذا ما دامت قد أعجبتك".

- "لم أقل إنها تعجبني".

قالت بلهجة قاطعة: "لقد أعجبتك".

بقيت أهدق إليها فترة، ثم قلت: "أنتِ الكاذبة الأبرع في هذا العالم، لهذا تظنين أن أحدًا لن يرى ما تخفينه".

- "أنا لا أخفي شيئًا".

- "تخفين أشياء، لكنني أرجوك ألا تخفيها عن نفسك أيضًا".

عدت إلى غرفتي، ولم أسمع سايا وهي تعود إلى غرفتها في تلك الليلة، ولم أستشعر وجودها الذي يرسل إليّ دفنًا يرافقني إلى عالم الأحلام.. فقط غلبي التفكير حتى غيَّبني عن العالم، ولم أنتبه لهذا الغياب إلا وأنا أفارقه بهزة قوية فنضبت النوم عن عيني نفضًا، وأمامي وقف دايمي يسألني قلقًا: "أأنت بخير؟"

التعب كان يهذي فحبس الكلمات في ركن من حنجرتي، وتمايلت شفتاي في حركة ثقيلة كسكير يترنح، فهزني مجددًا نافضًا الغبار عن جمر غضبي، وسمعت صوت نانا يسألني: "ماذا بك؟ هل أسرفت في تناول أدويةك؟"

سألها دايمي: "هل نطلب المستشفى؟ ربما حاول أن..".

صار الغضب شيطانًا يحركني، ووحده أطلق الكلمات من أحبال الصوتية المشلولة: "ماذا تريدان؟ أكثر شيء لا أطيعه في العالم هو أن يوقظني أحد".

"هل جاءت سايا إليك الليلة أو اتصلت بك؟"

"لا".

قالت لي نانا: "إنها غير موجودة، وكذلك سيارتها، وهاتفها مغلق".

صوتها المشحون بالقلق لم يكن كافيًا لينفض عني التعب والإحساس بأنني منزل ضربه زلزال في مقتل.. سألتها بتعب: "ألا تفعل هذا كثيرًا؟"

"لا يا تاكومي، لا أحد منا يغادر المنزل في الفجر دون أن يخبر الآخرين".

من ركن ذاكرتي انبعث دخان أزرق تشكل خلف جفني المطبقين ليكون صورة سايا وهي تدخن سيجارتها الأخيرة وتبكي.. هزني نافضًا ركام تعبي إلا كثيرًا، فجلست بعسر ملقيًا نظرة على الساعة لأجدها تشير إلى الخامسة والنصف فجراً.

تساءل دايمي قللاً: "هل نبغ الشرطة؟"

قالت نانا ما أوشتكت على قوله: "لا تكن أحمق، لا رب أنها في مكان ما...".

"إلى أين قد تذهب في هذه الساعة المتأخرة؟"

قلت له والضيق لا يفارقي: "إلى أحد أصدقائها".

قالت نانا: "ليس لديها أصدقاء سواك وكينجي، وأنت هنا الآن، وهي لن تزور كينجي في هذا الوقت أبداً".

"أليس لها أي أصدقاء آخرين؟"

قال دايمي موبخاً: "أنت تتحدث عن سايا يا رجل".

قالت نانا: "المشكلة أنها أخذت السيارة...".

سألتها والتعب يجنح بي إلى حدود الغيظ: "ماذا عن السيارة؟ سايا تجيد القيادة".

"لكنها ترهب المرتفعات، وأخشى أن تكون عالقة فوق أحد الكباري عاجزة عن التحرك بسيارتها".

- "ترهب المرتفعات!"

كان هذا ما نفّض ركام التعب عني، ورفعت عيني أحديق إلى نانا شاعرًا أنها عرّتني تمامًا على مسرح ممتلئ عن آخره، كانت صدمتي بتلك المعلومة الجديدة التي تبدو بديهيّة تمامًا عن صديقتي الأقرب وكأنها كهرباء سرت في أطرافي.

سألني دايمي باستياء: "لماذا تظنها تمضي ساعات عصبية في الطائرة؟"

بصوتٍ خفيض وجِلّ تمتمت: "ظننتها تتجنب الأماكن المغلقة".

هزت نانا رأسها تنفي أفكار الغيبة، وهضت معهما إلى غرفة المعيشة وقد جافانا النوم، ولذنا بصمت ثقيل عاجز، تقطعه محاولاتنا للاتصال بها كل عشر دقائق. لم يكن بيدنا ما نفعله إلا انتظار عودة الأميرة المدللة، والتي فتحت الباب في تمام الساعة والربع وتسع ثوانٍ...

كان الغضب قد بلغ مني كل مبلغ، وحين رأيت دهشتها لرؤية ثلاثتنا جلوس في غرفة الاستقبال فار جنوني.. هضت إليها واستجوبتها بلهجة قائد عسكري: "أين كنت؟"

- "لماذا استيقظتم في هذه الساعة المبكرة؟!"

وشت لهجتها المدهوشة المرحّة بأن يوم أمس انمى من ذاكرتها.. وكأنها لم تكن مجنونة بالغضب منذ ساعات، وكأنها لم تبك دون سبب مفهوم!

كررت استجوابي وأنا لا أدري هل أنا سعيد بعودتها أم غاضب: "أين كنت حتى الآن؟"

وانتهيت إلى أنني أجبت سؤالها بسؤال، وتوقعت أن يثور جنونها، لكنها لم تجد وقتًا لأن نانا أسرعت إليها واحتضنتها، وبصوت متوتر وبختها: "أيتها البلهاء! لقد كدت أموت قلقًا".

باستغراب سألتها سايا: "لماذا؟!"

صحت فيها: "لأننا - ويا للصدفة - نعيش مع شخص لم يكلف نفسه عناء إخبار عائلته أنه سيبيت في الخارج، صاحبًا معه سيارة لا يستعملها إلا نادرًا".

أصابها الذعر وصاحت: "أأنتم مستيقظون لأجل هذا؟! يا إلهي! أنا أسفة، ولكن كيف اكتشفتم الأمر مبكرًا؟ لقد وضعت لكم ملاحظة على مائدة الطعام لتنتبهوا وقت الإفطار".

قالت نانا: "استيقظت فجراً لأتحدث معك فلم أجذك".

- "آه، كان يجب أن أضع هذا في اعتباري، أنا أسفة، في المرة القادمة سأترك لكم الملاحظات على فراشي".

ضربتها نانا فوق رأسها قائلة: "لا تغادري البيت متأخراً هكذا أصلاً".

سألته مجدداً: "أين كنت؟"

- "في السينما".

تهتت نانا بصوت عالٍ ورفعت يدها تمسك برأسها تمالك غيظاً اختزله اعتياد الحماقات في تهيدة، أما أنا فشعرت أن قطاعاً من عقلي قد نُسف. رددت كلمتها متأهّباً لقتلها: "سينما؟ سينما في الرابعة فجراً!"

بلهجة مرحة أجابتي: "بل في الثالثة، ألم تجرب من قبل الذهاب إلى السينما في الثالثة صباحاً؟"

- "لا أحد يذهب إلى السينما وحيداً في الثالثة صباحاً إلا لو فقد عقله، هل أنت مجنونة؟"

- "ألم تكن تعلم؟!"

واتجهت إليّ، أطلقت ابتسامتها الباهرة في وجهي كسلاح لا رادع له: "لا تزعج نفسك لأسباب تافهة، أنا بخير ولن يتكرر هذا".

ونظرتُ نحو دايمي، وقالت: "ارتد نظارتك مادمت في المنزل، لو لم تكن ترتدي هذه العدسات الفاشلة لرأيت ورقة الملاحظات بسهولة على مائدة الطعام".

نظرتُ إلى دايمي متمعنًا، وشعرت بتوتر آخر يلسعني كما الكهرباء، أدركت للمرة الأولى أن عدساته اللاصقة المتغيرة باستمرار طبيّة.. ومن جديد شعرت أنني عارٍ تمامًا ومجرد من كل شيء.

أنا لم أنتبه لعدسات عينيه من قبل، تمامًا كما لم أنتبه لخوف سايا من المرتفعات، فجأة رأيت المسافة بيني وبينهم أكبر بكثير مما حسبت، وجعلني هذا أتوقف متسائلًا: هل المسافة التي تفصلني عنهم مسؤوليتهم وحدهم؟ أم هي مسؤوليتهم أصلًا؟

طعني السؤال، وكرد فعل غريزي غادرتهم إلى حجرتي، نادتي سايا مرارًا لكنني تجاهلتهما، وصفقت باب حجرتي وانهرت خلفه جالسًا.. وداهمتني فجأة رغبة في التفكير العميق في كل شيء.

شعرت أنني وحيدٌ جدًّا، وأن ثقبًا عظيمًا في عالمي يمتص سعادتي ويلقي بها بعيدًا.. كنت في تعاسة مطلقة لا أفهم لماذا شعرت بها بتلك القوة والوضوح عندما عرفت أن سايا ترهب المرتفعات، وأن نظر داكي ضعيف يستدعي ارتداء عدسات طبية.. تلك التفاصيل الصغيرة التافهة عن فريقتي لم أكن أعلم عنها شيئًا، وكأنني ميت ومحبوس في تابوت تحت أطنان من التربة.

جعلني هذا أدرك إلى أي مدى أنا بائس، بدت لي حياتي أسوأ وأسخف كثيرًا مما أعتقد، مجرد عازف جيتار يمضي حياته في فراغ مطلق يمتلئ عندما يقف على خشبة المسرح، ويلقي بتحيةة لآلاف البشر الذين تسعدهم الألحان المصنوعة بوحده وبؤسه.

لقد كنت وحدي منذ زمن، عندما انفصلت عن عائلتي وجئت إلى طوكيو متبعًا حلمي. في ذلك الوقت تقاسمت السكن مع شاب لطيف كان يدرس الرسم، اعتدنا الخروج معًا أيام الأحاد والسهرة في أحد البارات أو الذهاب للغناء بصوت صاحب في غرف الكارaoke، تسكعنا مع فتيات كثيرات، لكنني بقيت دائمًا في معزل عن الاندماج تمامًا في هذا الجو. كنت أعود إلى البيت بعد سهرة صاحبة ورغم دوامات السكر كان يتبقى لي من الوعي ما يكفي لأسأل نفسي: هل استمتعت؟ فتكون الإجابة الفورية: لا، لكنني لم أقرر التوقف، لم يكن ثمة سبب يدعوني لأفعل، علاوة على ذلك، أنا لم أكن أعرف ماذا يجب عليّ أن أفعل بالضبط، كنت بشكلٍ ما تائمًا، أردت عزف الجيتار أكثر من أي شيء في حياتي، كانت هذه أقوى رغباتي، وإلى جوارها لم أملك شيئًا يمكنه التأثير فيّ بما يكفي لأهتم، وفي الأوقات التي لا يكون فيها معي جيتاري كنت أشعر بالتيه، وكأنني راكب وجد نفسه في

محطة لا تؤدي إلى أي مكان يريد. سيان إن استقل قطارًا إلى هوغايديو أو إلى أوكينوا، سيان.

أعتقد أنني كنت أمارس الحياة بهذا الشكل لأنها العادة. لم أحيها بما يكفي لأستمتع بها، بل أمارسها كعادات مملّة. بقيت في تلك الدوامة حتى استطعت شق طريقي، والتحول من عازف هاو في النوادي الليلية إلى عازف نصف محترف يتدرب في إحدى شركات صناعة الترفيه الكبرى في طوكيو، استمر هذا الحال لمدة عام اجتهدت فيه في عملي الجزئي وتدريباتي في الوقت نفسه، وتكلل إرهافي بالنجاح إذ تكون فريقتي الأول وانطلقنا. هنا فقط وجدت نفسي. وشعرت لأول مرة في حياتي أنني أحياء. أنني على قيد الحياة وملء السمع والبصر. في المرة الأولى التي اعتليت فيها المسرح واستقبلني التصفيق المجنون تنفست، وكان هذا أقوى شهييق تنفسته في حياتي وأعمقه، وقتها أدركت أنني لن أعود أبدًا إلى الظل كما كنت، لن أعود إلى الكفاح المضني حتى أبلغ الأضواء، كنت الآن تحت الأضواء، وصار هدف وجودي أن أبقى جزءًا منها إلى الأبد. أردت أن أجعل للأضواء قيمة بموسيقاي لا العكس، أن تصير الأضواء باهرة لأنها مسطرة عليّ لا العكس، مهما استلزم الأمر من تضحيات، حتى لو اقتضى الأمر أن أتخطى عشرات الأعناق.

لا أعرف أين كانت سايا في ذلك الوقت، حدث هذا قبل سبع سنوات أو ثمان، أي قبل ظهورها وفريقها بثلاث سنوات أو أربع، وقتها كانت في مكان ما من هذا العالم لا تعلم - ولا أعلم - أننا سنكون معًا بعد قليل.

استمر فريقتي في الانطلاق ثلاث سنوات هي الأروع والأهم في حياتي، كنا خمسة رجال، ولم يكن شائعًا وقتها أن نرى فتيات في فرق الفيجوال كيه روك، ولعل عدم شيوع الأمر هو ما جذبني لناومي من النظرة الأولى.

رأيتها وأنا أتولى التحكيم في أولى تجارب الأداء التي تقام بعد انضمامي إلى الشركة كعازف محترف، وكانت هي مجرد فتاة تسعى بحماس قاتل إلى الانضمام إلى شركتنا، والوحيدة وسط مئات العازفين الرجال القادمين لخوض حرب إثبات الذات التي مررت بها من قبل، لأجتازها مظفرًا كفائد أسطوري يرهبه الإخفاق. عندما رأيته أول مرة كانت توليني ظهرها، وتعبث بأوتار الجيتار وتضبط مفاتيحه، شعرها الطويل كان يتمايل بشكل ناعم مع حركاتها، لكن شيئًا ما فيها وشى بعجرفة غير مفهومة، وعندما انتهت للجنة التحكيم بدت عجرفتها أوضح.. كانت

شيئاً لافتاً ومزعجاً ومستفزاً وإن لم يكن واضحاً بما فيه الكفاية. لكن الشعور به ضائقي، وكأنني أتعامل مع شخص له أنف بينوكيو الطويل.

لكن ناومي وقفت أمام لجنة التحكيم وابتسمت، فأخفت ابتسامتها أنف بينوكيو إلى الأبد، بعدها بدأت بالعزف، ولشد ما كانت بارعة! كانت لها تقنية لا خطأ فيها، ولكن بشكل ما كان عزفها ميئاً، عزف يمكن الحصول عليه بواسطة برنامج متطور أو رجل آلي، عزف بارد، مسطح، غير إنساني، لم أتردد في سحق أحلام صاحبهته.

لم تصر ناومي عازفة في شركتنا، لكنها صارت صديقتي، واعدتها عاماً كان حقلاً متصللاً غيَّب الجنون عقلينا فيه، ثم تزوجنا لأن ابتعادي عنها أياً ما كان يحرمي جلاء ألحاني وجموحها. امتلكت ناومي إلى الأبد بحلقة ذهبية وضعها حول إصبعها، في كنيسة كساها اللون الأبيض كفستانها، وزيتها أزهاراً قرنفلية اللون كإكليلها، وبقينا معاً عاماً آخر، ثم استيقظت يوماً لأجدها شنقت نفسها.

تلك اللحظة التي شلت عالمي إلى الأبد، وكأنني كوكب توقف عن الدوران، ليستحيل أحد نصفه صحراء جليدية دمغها الموتُ بخاتمٍ لا يُمحي، والنصف الآخر يواجه نجمًا لاهباً يصهره في جحيم لا فرار منها.

كنا على ما يرام، أحب أهدنا الآخر كل الحب، تشاركنا العزف والرقص والشرب على مدى عامين، تقاسمنا الأحلام والفراش وخطط المستقبل، وحتى اليوم لا أستطيع فهم ما دعاها لفعل ما فعلت.. كانت بيننا بعض المشاجرات، وطالما رددت علي أنها جائعة إلى وجودي معها، لكنني كنت مرتبطاً بالآلاف الرحلات والأعمال من تدريبات وجولات غنائية وإعلانات. شجارها المشوب بالحب سرعان ما استحال طوقاً أجاهد كي لا أعترف أنه يخنقي، وغيبتها من الفريق الذي تعرف أنه شطر حياتي صارت ثقلاً أرزح تحته وأهرب منه قدر استطاعتي.. كانت تحبني حد الجنون كما أحببتها، ولم أجد قط مبرراً يجعلها تهجرني بهذا الشكل.

يلفني البرد كلما تذكرت لحظة استيقاظي ورؤيتها أمامي مشنوقة، للحظة ظننتها تداعبي دعابة سخيفة، ولم أفهم أنها فعلت ما فعلته حقاً، حتى بعدما أنزلتها وأسجيتها على فراشنا. بقيت فترة محدداً إلى عينيها الجاحظتين، ولسانها المذلّ، ووجها المزرق.. بدت غريبة تماماً، مشوهة تماماً، لم أستطع استيعاب أنها المرأة نفسها التي شاركتني حياتي، وعاهدتني على البقاء معي إلى الأبد.

لم أبلك من أجل ناومي قط؛ لم تعد في قلبي ذرة حب لها منذ أغمضت عينيها الجاحظتين، أيا كان السبب الذي دعاها لتركي فأنا لا أهتم به، لقد خانتني، أن تجرحني بهذا الشكل وتهجرني إلى الأبد دون تفسير أمر لا يغتفر، سيان عندي إن كانت هجرتي لأجل رجل آخر أو لأجل جنون طارئ ألم بها، لقد هجرتي وكفى.

بقيت في دوامة صمت استمرت أسبوعًا، انعزلت في بيتي وتجاهلت الجميع، استمررت في البقاء على قيد الحياة بدافع الاعتياد لا أكثر. ثم استيقظت ذات صباح وتوجهت إلى إستديو الفريق، وأمسكت جيتاري، ولم أتركه قط لشهور تالية.. كنت أحيأ وأنا أعرف أنني لا أملك سواه في حياتي كلها. رحلت أعزف في الإستديو، وفي السيارة، وفي البيت، حتى قبل نومي كنت أعبت بالأوتار، وألتقط نوتة قريبة وأدون بها ما يأتي من ألحان.. أصبح العزف حامي مستمرة أدارت رأسي، ثم توقفت الحمى والعالم كله بموت هيساو.. كان زميلي الأقرب وصديقي المفضل في الفريق، ويشغل الموقع الذي تشغله سايا الآن.

مات هيساو جراء حادث سيارة انتزعه مني بعد ليلة طويلة قضائها محاولًا مواساتي، يومها رفض المبيت معي، وقاد سيارته ثملًا لينحرف في أثناء قيادتها انحرافًا بسيطًا، فلمس إطار سيارته رصيفًا طائشًا ظهر من عدم، وانقلبت السيارة الغادرة رأسًا على عقب قاذفة به عبر زجاجها الأمامي، ليطيّر جسد صديقي الأقرب حاملًا شريحة كبيرة من الزجاج. شقت طريقها صوب قلب أحاطته ضلوع انكسر نصفها. كم من الوقت ظل يتزف على قارعة الطريق؟ كم من الألم تحمل حتى اجتاز الستار الأسود الذي مزقته ناومي قبله وألقت بنفسها خلفه؟ هل حاول الاستغاثة بي يا ترى؟ لا أعرف.. أكره أن أعرف، وأكره أنه نسي هاتفه ليلتها عندي، ولولا هذا لذهبت إليه، ولفعلت أي شيء لأنقذه قبل أن يتركني وحدي. لولا هذا لفعلت أي شيء أكثر جدوى من الاستلقاء كجثة صرعها الخمر نهارةً كاملاً، ولكنت أول من يبقى إلى جواره بدلاً من أكون آخر من يعلم بموته، وآخر من يتم إبلاغه بموعد جنازته.. بعد استيقاظي مباشرة.

ومن ذلك الحين صرت أقود سيارتي كمجنون حين يقتلني الحزن، وصرت أتعمد ترك هاتفني بعيدًا، حتى إذا وانتني الفرصة للموت لا أستغيث بأحد ولو أردت.. صارت تلك العادة هي الشيء الوحيد والأخير الذي أملكه من هيساو.

بموت هيساو توقفت حياتي، وأنشطة الفريق، وقدرتي على الصمود.. لشهور طويلة بعدها بقيت حبس البيت مستلقياً على فراشي أنظر إلى السقف، أغرقت

نفسي في الشرب لأمنع عقلي من تأمل المصير اللعين الذي انتزع زوجتي ثم صديقي، وخيم على حياتي ظل كنيب لأجنحة الموت وهي تضرب فوق رأسي، وتثري كل ركن مني خوفًا مجهولًا.

كل شيء كان في طريقه للنهاية، حاولت الشركة بعث الحياة في فريقنا بشت الطرق.. ولكن لا.. انكسر شيء ما لم يكن أي منا مستعدًا لإصلاحه، وخلال شهور انفصل المطرب عنا مكونًا فريقًا جديدًا، وانضم قارع الطبول إلى فريق آخر.. وحدي وعازف البيز جيتار كنا محطمين حقًا، كل منا عرف أن الخسارة أفدح من قدرتنا على الاستمرار، كل منا عرف أن الآخر مثله، لكن عجزنا بلغ من العمق درجة لم نفهم معها شدة احتياج أحدهنا إلى الآخر، ثم اختفى هذا العازف ولم أسمع عنه شيئًا بعدها، وعدت أنا إلى العزلة التي استمرت شهرًا أخرى.

ثم استيقظت ذات يوم ممتلئًا بالرغبة في مواصلة حياتي، ولم يكن ثمة سبب معين يقف خلف ذلك الشعور الكاسح، والذي اجتاحني كالإعصار غارسًا في يقينا بأنني سأخطئ ما أنا فيه. خرجت من عزلتي وبدأت من فوري تكوين فريق جديد، ولكن سرعان ما انتكست أمام شعور مضاد بعبثية ما أفعل. توقفت، ثم انضمت إلى فريق انفصل عنه أحد أفراده وبقيت معهم عامًا، كانوا لطافًا ويصنعون موسيقى جيدة، لكنني لم أستطع أن أحهم أو أعتبرهم فريقتي كما كان فريقي الأول، انفصلت عنهم واكتفيت لفترة بكتابة الموسيقى في انتظار شيء ما لا أعرفه.

كانت سايا هي ما أنتظر لأجله.

لقاؤنا الأول كان في مهرجان فرق الفيچوال كيه، كان فريقها قد بدأ للتو وحصد جوائز عدة على أغنياته الأولى.. عندما سمعت عزفها للمرة بدا لي خاطفًا يسلب الأنفاس، كانت الأغنية التي عزفتها هي "صدفة مقدرة"، وبدا لي أن هذه الأغنية تصف بالضبط ما شعرت به حال رؤيتها.

فتاة ساحرة، بل عازفة ساحرة، الطريقة التي تمسك بها الجيتار وتتمايل بها معه كانت قادرة على تنويعي مغناطيسيًا، لم أستطع رفع عيني عنها بأي حال.

عندما قدمني لها أحد مديري الأعمال مدت يدها تصافحي وبلهجة دافئة حيتني: "مرحبًا، أنا أعرفك بالطبع، وأحب عزفك كثيرًا يا تاكومي سان، سيكون شيئًا رائعًا لو عزفنا معًا ذات يوم".

وأطلقت في وجهي الابتسامة الباهرة التي عصفت بعالمي فترة، قبل أن أستر: عقلي وأتناساها، غابت في ركنٍ ما من عقلي وأهلت فوقها ركامًا من تفاصيل حياتي اليومية التي لا شيء حقيقي فيها، ثم التقيتها مجددًا بعد أشهر في ناغويا، وكان لقاءنا الثاني في أسبوع الكريسماس. كنت مسافرًا لزيارة أختي، ولكن بمجرد وصولي إلى المدينة التي ولدت بها سيطر عليَّ شعور بالضيق، وكأنني عدت إلى نقطة الصفر. نزلت في فندق ولم أذهب لزيارة عائلتي، اعتذرت بأنني لا أستطيع مغادرة طوكيو، وبقيت في غرفتي طوال النهار أنظر إلى الأفق البعيد، وفي الليل أنزل إلى البار وأظل أحتسي الشراب حتى الصباح، كنت أفكر: لماذا أنا هنا؟ لماذا لا أذهب إلى عائلتي أو أعود إلى طوكيو؟ ما الذي أفعله بالبقاء هنا وحدي كمشرذم بأئس لا يملك من الحياة سوى جيتاره؟

وفي الليلة التي تسبق الكريسماس قررت أن أكسر الهالة الكئيبة التي تخيم على حياتي، نزلت للتسوق في ناغويا صباحًا وعزمت على زيارة عائلتي، وعند الظهر كنت في مطعم ما أطلب غدائي حين لمحت شاشة حاسوب على المائدة المجاورة تعرض مقطعًا من إحدى حفلات فريقتي القديم. صوت المطرب الذي كان صديقي حمل إليَّ ألمًا لا أستطيع وصفه، وذكرى البهجة التي خيمت علينا ونحن ننسج كلمات هذه الأغنية ونضع ألحانها ونتدرب عليها، استحالت إلى دقات من الوجد غير محتملة. كنت في الفيديو أعزف بمرح من لا يشغله العالم بأسره ولا يعنيه، وبالقرب مني هيساو يعزف ملاحقًا ألحاني بألحانه، فتنبعث نشوة الكون وسعادته.

لكن الآن ما عادت في عالمي نشوة ولا سعادة، وما عاد هيساو ولا ناومي في هذه الحياة، كنت وحدي، عاجزًا عن تغيير هذه الحقيقة، ويأسًا من إمكانية هذا التغيير.

انتهى الحفل فأغلقت الفتاة حاسوبها، وراحت تطرق بأصابعها على المائدة، ثم استدارت تبحث بعينيها عن النادل، وعندها رأيتي ورأيتهما.. كانت سايا.

ابتسامتها الرائعة أشرقت مجددًا في وجهي، وأومأت برأسها.. كانت حركة لطيفة تمنحني الإذن بالاقتراب أو الحرية في الاكتفاء بتحية مائلة، نهضت فنهضت بدورها، وعندما اقتربت منها مدت يدها بالمصافحة، كانت تلك أول مرة

أتساءل فيها: من أي بلد جاءت يا ترى؟ السؤال الذي لم يعرف له أحد إجابة حتى اليوم.

بحرارة وصدق حيتي: "مرحبًا، أنا سعيدة برؤيتك ثانية يا تاكومي سان".

- "إنها صدفة رائعة، كيف حالك؟"

- "بخير.. كنت أفكر فيك للتو".

لم أخبرها أنني أعرف هذا، شكرتها، وقامت لحظة من الصمت الحرج بيننا، ثم قالت سايا بلطف: "لا أريد إزعاجك لو كنت مشغولًا، لكنني أتناول الغداء وحدي، وسيسرني لو انضمت إلي".

جريئة للغاية! هكذا فكرت.

انضمت إليها بالفعل، واستغرقنا في الحديث عن الطقس، ثم انضم إلينا هيروماسا كينجي، وكان هذا لقائي الأول به.

عبارته الأولى لي كانت مبشرة: "أنا سعيد بمقابلة الرجل الذي أسمع ألقانه أكثر من ألقاني.. إن سايا مهووسة بك".

قدمته سايا لي قائلة: "هيروماسا سينباي من فريق Vanity.. إنه أعز أصدقائي".

أحنيت له رأسي بتحية وقلت: "أعرفه بالطبع.. تشرفت بلقائك".

رد التحية بمثلها وصحح عبارة سايا مداعبًا: "سايا تقصد أنني أحد المساكين المجبرين على الخضوع لمزاجها الموسيقي طوال النهار".

لأول مرة منذ أشهر ابتسمت، واعتذرت له: "أنا آسف، يبدو أن عزفي يثير الملل".

- "أنا لم أعن هذا، ستفهمني لو بقيت معها ساعة".

ضحكنا، ثم استدار نحوها وقال بعينين تلمعان حماسًا: "سوف أعود، قلت لك إنهم سيرفضون بقائي أكثر، وقد حُجزت تذاكر الطائرة بالفعل".

- "حسنًا، سوف أستقل حافلة منتصف الليل وألحق بك".

- "ليكن، سأنتظرك في طوكيو. لا أعرف إذا كنا سنلتقي مجددًا قبل الكريسماس أم لا، لكن تحسبًا للأمر دعينا نتعانق للاحتفال".

وأمام عينيّ تعانقا، كانت سايا تبتسم أروع ابتساماتها وهي تتشبث به، قالت وهي تضربه على ظهره بطريقة طفولية: "سوف تكون موجودًا معنا، سواء لحقت بنا قبل الكريسماس أم لا، أنت دائمًا معنا".

شدد عناقه وحرك يده على ظهرها، وابتعدا قليلًا ليتبادلا القبلات على الخدين، وابتعدا أكثر وقد أمسك كل منهما بمعصمي الآخر، حياها هيروماسا سينياي للمرة الأخيرة بـودٍ حار: "سأراك في طوكيو".

هزت رأسها له بالابتسامة الرائعة نفسها، ثم حياني كينجي بانحناءة رددتها بمثلها، وإلى أن اختفى خارج المقهى، بقيت سايا واقفة في نفس المكان تنظر لطيفه المتواري بنظرة سارحة سعيدة.

بعد ثوانٍ أفاق من نشوتها ورفعت يدها اليمنى لتدلك ذراعها اليسرى بالطول، تلك الإيماءة العفوية التي نقوم بها إذا أردنا الاحتفاظ بعناق ما لفترة أطول، ثم جلست وقالت بحماس: "إنه أعز أصدقائي".

- "إنه شخص لطيف".

لم أخبرها إلى أي درجة جريئة هي، ليس لعناقها وقبلاتها التي وشت بحرارة تتجاوز ما يضمهره الأصدقاء، ولكن لأنها فعلت هذا علنًا، فلو أن صورة التقطت لها فستكون مشكلة كبيرة، مشكلة مع شركتها، ومع معجبيها، ومع العالم بأسره، وتساءلت: أتضمر له من المشاعر ما يجعلها تخاطر؟ أم أنها بعد فتاة غريبة في عالم الشهرة لا تفهم المسؤوليات المترتبة على كونها تحت الأضواء طوال 24 ساعة في اليوم؟

الأضواء!

غضضت عقلي عن تأمل الكلمة التي أبغضها، وأبقيت تساؤلاتي في ركن قصيٍّ مني... بالطبع عرفت إجاباتها لاحقًا، ولكن في ذلك اليوم لم أعرف شيئًا سوى إلى أي مدى هذه الفتاة جذابة وطموح.

تحدثنا عن فرق الفيجوال كيه الموجودة على الساحة، عن الأفضل بين الجميع في كل الفرق، وأخبرتني ببساطة مذهشة لأي درجة هي معجبة بعزفي.

- "أنا مهووسة بك، لا أكاد أسمع أحداً غيرك، وأحفظ كل ألكانك عن ظهر قلب".

لماذا قالت تلك الكلمات ببساطة؟ لأنها تتصرف بروح المعجبة المهووسة؟ أم أتراني نذا لها لن يضيرها الاعتراف بإعجابها له دون أن تخشى نظرة استصغار مني؟ أم....

لم أحيّر نفسي بالتفكير مطوّلًا، واكتفيت بإجابة عظيمة: إنها غريبة الأطوار بما يكفي لتفعل كل ما هو غير متوقع، وتصرح بمشاعر يتردد الآلاف في التصريح بها دون تفكير طويل وممل.

أخذنا الحديث مع الطعام والشراب حتى جاء الغروب، بدت سايا مدهوشة بقدر ما هي سعيدة لطول الوقت، قالت وهي تضحك: "كنت دومًا واثقة أنني لن أمل أبدًا الحديث إليك إذا ما التقينا يومًا".

واكتسبت لهجتها امتنانًا عاطفيًا: "شكرًا لك، لقد صنعت يومي، وأنا على يقين أن سعادة لقائك ستصنع عامي القادم كله، إنني أشعر بسعادة لا أستطيع وصفها بكلمات عادية".

- "صفها بكلمات غير عادية إذن".

كسهم لا يحيد صوبت نظراتها إلى أعماق عيني، وقالت: "ربما يبدو الأمر كدعابة بالنسبة إليك، لكنه أحد أحلامي الغالية، انضم إلى فريق يا تاكومي سان، وأعدك أنك ستكون سعيدًا معنا".

نفذت نظراتها إلى قلبي، وأجبتها فورًا: "موافق".

قطبت قليلًا ثم ابتسمت: "إنه ليس الأول من أبريل، أتعرف هذا؟"

مددت يدي إليها مصافحًا وابتسمت: "أنت أجنبية وتصافحين الناس كثيرًا على غير عادتنا، لهذا دعينا نتصافح ونتعاهد على تغيير تاريخ موسيقا الفيچوال كيه".

ظلت تنظر إلى يدي قليلًا ثم مدت يدها وصافحتني، حذرتني بمرح: "ليكن، لكن حتى لو كنت تمزح فأنت قد تورطت إلى الأبد".

كانت ابتسامتها طفولية ولعوب بها من الخبث والبراءة معاً ما أضحكني، لكنني كنت صادقاً في موافقتي.

في ذلك اليوم البارد البعيد، الذي كسا ناغويا بأجمل رداء في ذاكرتي، لم أعرف سبب هذه الموافقة، كنت وحيداً ويائساً وأندفع من ظلامٍ إلى آخر، وكنت عازماً على البقاء هكذا دون أن أسمح لشيء بتحطيم عزلي، فلماذا بدّلت رأيي في لحظات؟!

بعد عام استطعت أن أفهم، كان السر هو تلك الرغبة المجهولة في مواصلة حياتي وتجاوز الظلام المطبق على عالمي.. تحكمت في تلك الرغبة وتغلّبت على يأسِي عندما عثرت على مُنقذ في سايا، في ابتسامة سايا ودفنها الوهاج، في المشاعر التي عاملت بها هيروماسا كينجي لمجرد أنه أحد أعز أصدقائها.

لقد كنت بحاجة إلى صديق، وقد عثرت عليه.

بعد عام عرفت أن لقائي بسايا في هذا اليوم كان هدية سانتا.. أجمل هداياه منذ مولدي.

عندما أطلق الطبيب سراحى من المستشفى، اشترط عليّ ثلاثة أشياء كي لا أعود إليه فاقداً عقلي أو منتحزاً. أولهم ألا أتحمّل فوق طاقتي في العمل، وثانيهم ألا أضغط على أعصابي أو أتوتر، وثالثهم ألا أطيل التفكير في أسئلة لا أجد لها إجابات، ولن تكون لها إجابات. لكنني لم ألتزم بحرف مما قال، ورغم هذا كنت أتحسن، وكأني أعود إلى نقطة الصفر، قبل أن يبدأ أي شيء، قبل لقائي بناومي، وقبل تكوين فريقى الأول. كنت أسترّد نفسي التي اعتادت السهر والعزف قبل الصعود إلى الأضواء.

ولعل الفضل في هذا عائد إلى سايا، ساحرتي الشريرة التي استعبدت تفكيري، وزرعت فيّ ترقباً غامضاً شتتي عن كآبتي، وكأني جنّت لأحيا جوارها لأحميها لا لتحميني. لم تعد سايا تحميني، بل لم تعد تشعر بوجودي اللهم إلا للحظات قصيرة تجعلني أشد جوعاً إلى وجودها. بمرور الوقت أصبح كل شيء في سايا مختلفاً، لم تعد مهتمة بأي شخص، حتى أنا، أصبحت غائبة عني وهي معي، صارت ابتسامتها مختلفة، ونظرتها مختلفة، ولمستها، وضحكتها، وطريقة رقصها، وطريقة تعاملها معنا، حتى عزفها اختلف.. اختلاف يخزني كشوكة في حلقي.

وبين ليلة وضحاها بدأت سايا تدخن، ورحلت أنظر إليها والسجائر لا تفارق أصابعها هي التي لم تكن تطيق المدخنين، وأتساءل عن مزاجها الناري الذي انطفأ فجأة، والشرود الذي جعلها بمعزل عنا. بمرور الوقت بدأت أفقد عصبيتها، وتوبخها على أقل خطأ أو هفوة.

لم تعد سايا معنا، كانت عالقة في صدفة ما لا أعرف كيف أخرجها منها.. انتظرت بصبر أن تخرج وحدها، لكن تلك الصدفة تحطمت على حين غرة في عيد ميلاد هيروماسا كينجي.

أقام كينجي يومها حفلاً اقتصر على أفراد Vanity وتسوياسا، وبعض الأصدقاء القلائل المشتركين. كنا مرهقين إذ أنهينا بروفاتنا وتأهينا للانطلاق في جولتنا الأسبوعية عصر اليوم التالي، لكن الإرهاق لم يمنعنا من الانخراط في الأجواء المرحية التي خلقها فريق كينجي المشهور بعبثه المبالغ، وسط أغنيات أجنبية لم أفهم منها شيئاً إلا أن إيقاعها أسرني.

وفي ركنٍ منزوٍ وقف دايكي وسايا يقرعان كؤوسهما معاً، راقبتهما بعض الوقت قبل أن أتأكد أنهما يسرفان في الشراب إلى حد الجنون. وكأنا يخوضان سباقاً. انسحبت تاركاً تشو غارقة في جدال أقرب إلى الشجار مع فوكاليسـت فريق Vanity، وتوجهت إليهما بنظرات باردة. قلت: "إذن فأكثر شخصين اعتادا لومي على الإسراف في الشراب يسكران معاً.. تلك لحظات جديرة بأن تسجل".

ابتسمت سايا في سخرية، وأشارت بكأسها إلى ما خلف ظهري: "انظر إلى ما يستحق التسجيل بحق".

رأيت نانا في ركن القاعة المقابل وهي غارقة في الضحك مع كينجي، وقد وقفت مستندة بظهرها إلى الحائط، في حين وقف هو أمامها مستنداً إلى الحائط بذراعيه من حولها وهو يميل عليها. لم يحمل المشهد أدنى قدر من البراءة، ولا الصداقة، وبالنسبة إلى أي شخص فقد كانا مربعين أشد الريبة.

قالت سايا في سخرية: "سيحافظ على سرية علاقته بها".

وضحكت، فلفتت ضحكها انتباه نانا، ثم كينجي.. ومن الكدر الذي بدد مزاحهما عرفت أنهما استنتجا ما قيل. صهت سايا كأساً أخرى، وجرعتهما، فوبختها نانا بصوت عالٍ: "سأذكرك بما تفعلين الآن عندما يحطمك الصداغ غداً".

لم تجبها سايا، وصهت كأساً ثالثة، ثم كأساً رابعة، فلم تجد نانا وكينجي بدءاً من الاقتراب منها، وفي أعينهما حذر من يترقب انفجار قنبلة.

نادتها نانا فقالت بجفاء: "أنتم تمنعونني التدخين وهذا يكفي".

قال كينجي بلطف: "لأنه عيد ميلادي يا سايا، ولا أريد أن أموت اليوم".

كان مصاباً بحساسية شديدة، وما كانت سايا لتدخن قربه وإن لم يمنعهما.. لكنها لم تقل له هذا، بل ظلت تشرب في صمت.

حاول كينجي أن يداعبها: "ومعجباتي لن يغفرن لك تعريضني للخطر".

لم تلن ملامحها الباردة رغم أن نانا ضحكت، فواصل كينجي مزاحه باستماتة: "ويكفي أنك لم تأت لي بهدية".

- "لا أعتقد أن هداياي ستسعدك بعد الآن".

- "هناك هدية واحدة قد تفعل".

ومال ليقبل خدما فأشاحت بوجهها تتجنبه، وخطت للخلف خطوة.. توقف كينجي باضطراب وحيرة، أما أنا ففتحت عينيّ أحاول استيعاب تلك الحركة الغريبة التي اتخذتها فجأة، إذ رفعت ذراعها اليسرى بمحاذاة صدرها، وكأنها توشك أن تنظر في ساعتها، ثم ارتخت ذراعها وانخفضت.. إيماء دفاعية موحية بالخوف استغرقت ثوانٍ، وكست وجهها بلمحة من الغضب.

كان جفاؤها نحو كينجي لا لبس فيه، ولم أستغرب غضبه إذ قال: "ما خطبك اليوم؟"

قطرت عيناها ثلجًا وهي تنظر إليه، ووضعت الكأس من يدها والتفتت نحوه بتحفز، لكن نانا استبقتهما ورفعت يدها بينهما تمنع الاشتباك الوشيك.. ووبختهما أنا: "توقفا! لن تتساجرا هنا أيضًا، ليس اليوم، ويكفي ما تفعلانه في التصوير".

ظلّا يحدّقان إلى بعضهما، حتى ابتسمت سايا وأشارت بذقتها خلفه وقالت: "كنت تتحدث عن الهدايا، هناك من أتى لك بهدية كما يبدو".

تبعنا نظرتها حتى باب القاعة، وهناك رأيت هدية ناعمة جاءت ملفوفة في فستان حريري أحمر، وتخطر في مشية أنيقة على ساقين طويلتين شكّل الكعب العالي قاليهما الناعم بديع التكوين. كانت هيتومي، خطيبة كينجي السابقة التي هجرته بفضيحة لا تزال أصدائها تتردد في اليابان، وقد وقفت بمدخل القاعة وهي تحمل باقة زهور لم أرا أكبر منها منذ زواجي.

دق قلبي بقوة من التوتر المفاجئ، ونظرت إلى كينجي فرأيت جامدًا كعمود معبد، وخيل إليّ أنني أرى اندفاع الدم إلى رأسه، حتى صار وجهه لوحة حمراء مقلقة. أما نانا فوضعت على وجهها قناعًا من الجمود كإجراء دفاعي سريع.. وبحركة واحدة نظرًا معًا إلى سايا، وكانت هادئة ظاهريًا بطيف ابتسامة ساخرة، لكن تلك الاختلاجة الخاطفة في عضلة فكها أخبرتني أنها تشتعل غضبًا.

انتبه الباقون لدخول هيتومي، وساد صمت مشوب بالانزعاج والترقب، ثم أخذت سايا الخطوة الأولى، ووضعت كأسها وتقدمت ببرود إلى هيتومي، وفي خطواتها ترنح يسير، وقفت أمامها حتى كادت تلاصقها، وقالت: "ليس مُرحبًا بك هنا".

ابتسمت هيتومي باستهانة، وتجاهلت النظر إلى سايا موجهة عينها إلى كينجي من خلف كتفها.. كانت عينها واسعتين كأنهما سلاحان بعيدا المدى. لم أكن قد رأيتهما منذ سنوات فبدت جميلة إلى درجة الألم، امرأة مثلها لن يكون صعبًا عليها أن تحطم أي رجل متى شاءت، وبأقصى الطرق.

قبضت سايا على معصمها، لتقطع اتصال عينها بكينجي، وقالت بلهجة ناهرة: "أنتِ.. إنني أحذثك، كيف تجددين الجرأة لتدخلي هذا المكان مرة أخرى؟"

سحبت هيتومي يدها بعنف، فاختل توازن سايا لحظة، وبدأ في وجهها تعبير أسوأ من أسوأ أسباب يمكن قوله. وبادرتها هيتومي: "إذن، سايا سان تدافع عن كينجي الآن! طرّف هذا!"

لهجتها المهينة أثارت المزيد من غضب سايا، وصاحت: "أنتِ...".

قاطعتها بحدة باردة: "لا يجب أن تتدخلي في هذا الأمر يا سايا سان، أنتِ غير قادرة على فهم ما يدور بين الرجال والنساء في علاقاتهم، فلا تتظاهري أنك تفهمين كينجي".

خطت سايا للخلف خطوة بعينين متسعيتين متفاجئتين، وأدهشني أنها صمتت دون أن تدميها برد جارح...

وكانما فازت في معركة ما، قال هيتومي بابتسامة متلاعبة: "أظنّين مشاعرك مخفية إلى هذا الحد؟ كينجي يعرف، اليابان كلها تعرف، فلا تتظاهري بفهم شيء يخص علاقتي به.. أنتِ غير مؤهلة لهذا".

أخيرًا تخلى كينجي عن جموده، وعبر القاعة كعاصفة، سحب سايا من كتفها إلى الخلف، ووقف بينها وبين هيتومي.. كان غاضبًا لدرجة ليس بعدها شيء، وقال لهيتومي دون لياقة: "اخرجي".

بنفس الابتسامة قالت هيتومي: "أه! صغيري الجميل لا يزال غاضبًا".

- "اخرجني الآن ولا تعودني أبداً".

وسحب باقة الورد التي تحملها، وعلبة الهدية القطيفية الصغيرة، وطوح بهما صوب سلة المهملات البعيدة، لكنه لم يحسن التصويب، فارتمت الزهورات أرضاً وتبعثرت أوراق بعضها.

وفي حركة مفاجئة، وضعت هيتومي يدها على عنق كينجي وشدته نحوها، أجفلت إذ ظننتها ستقبله، ورأيت سايا تتراجع خطوة بوجه مصدوم وقلق، لكن هيتومي رفعت رأسها نحو أذني كينجي وهمست بشيء لم أستشفه. للحظة بدا المشهد حميماً، لكن كينجي سرعان تراجع مبتعداً، وقد تحول غضبه العارم إلى وجوم تام، بعد لحظات كرر بصوت ميت: "اخرجني ولا تعودني أبداً".

ظلت هيتومي لحظات دون أن تنطق بكلمة، ولم تبدل جهداً في إخفاء مشاعرها، وإن كان من الصعب تفسير التعبير الذي حمله وجهها.. لم أفهم إن كانت حزينة أم مستاءة أم محرجة أم غاضبة، فقط استدارت وغادرت المكان كما جاءت، ببطء ونعومة وعجرفة، وظل الصمت سائداً بعد خروجها، حتى أعلن كينجي بجفاء: "انتهى الحفل".

مرت نانا بجواره مغادرة المكان وكأنها كانت تنتظر الكلمة. وتبعها دايكي بخطوات غير متزنة من أثر الشراب، ثم اقتربت تشو من كينجي بنظرة قلقة، وسألته بحذر: "أتريد التحدث يا كينجي؟"

- "لا".

تسللت خلف نانا ودايكي كقطة خائفة، وتحرك الآخرون وهم يلقون على كينجي التهنئات الوجيهة، ثم فروا من البيت فرارهم من الكوابيس، حتى خلا البيت معلناً أسوأ نهاية ممكنة للحفل.

بمجرد أن خلا المكان استدار كينجي نحو سايا، علاه تعبير لم أفهمه، لكن سايا فهمته رغم أنها لم تكن تنتظر إليه، وعيناها بعد معلقتان بالباب حيث غادرت هيتومي ونانا والآخرون. استدارت وصوبت إليه نظرة باردة وقالت: "أخبرني فيم تفكر الآن. هيروماسا سينبأي".

كانت في عينيها نظرة شك وغضب، وبدأ أنه يمنع نفسه من الانفجار. جفّ حلقي قلماً وخطوط إليها. قلت: "دعينا نذهب يا سايا".

تجاهلت يدي الممدودة وقالت: "اذهب أنت يا تاكومي".

نقلت عينيّ بينهما مترقبًا شيئًا سيئًا لا أدركه يجثم ثقله عليّ، لكن الصمت ظل سائدًا بينهما رغم الغضب المعلق في الجو، مضت دقائق شعرت بها كساعات من التعذيب، حتى سألتها كينجي: "أأنت من جعلها تأتي؟"

شعرت بصدمة وصحت به: "ماذا تقول؟"

سألته سايا: "ولماذا أفعل؟"

سخر منها بغضب: "حقًا.. لماذا؟ ربما لأنك لا تطيقيني منذ أخبرتك بأمر ارتباطي بنانا؟"

"وإن يكن؟"

"ربما تريدان إحراجي لتتأكدي أنني لم أتخط هيتومي بعد؟"

قالت بجفاء تام: "أنا لن أفعل شيئًا لأثبت أمرًا أنا منه واثقة".

هزأ بها: "أرأيت؟"

"لقد أخبرتك بهذا منذ أشهر يا هيروماسا سينباي، وأخبرت بك به قبل أيام من مصارحتك لي بأمر نانا، وسأقوله لك اليوم: أنت لم تتخط هيتومي بعد، ولن تتخطاها بسهولة، لن تتخطاها في المستقبل القريب. لماذا تظنني أعارض ارتباطك بنانا بالدرجة الأولى؟"

"لأجل تسوياسا".

أجفلنا لصيحته الثائرة، واضطربُ حين واصل صياحه: "لأنك تضعين مصلحة الفريق أولًا يا سايا، وفي سبيل هذا لن تري شيئًا آخر، ولن تؤمني إلا بما تريدان أنت تحقيقه".

أسفرت عن غضبها وهي تصيح: "لماذا تسيء الظن بي إلى هذا الحد؟ يفترض أننا أصدقاء يا هيروماسا سينباي، يفترض أننا صديقان مقربان...".

صاح بغلي: "كفي عن خداع نفسك، نحن لسنا مقربين إلى الحد الذي توحين به دومًا للجمع. بريك يا سايا، أنت الوحيدة الحريصة على مناداتي بلقب

سينباي، وباسم عائلتي، ألم تلاحظي من قبل أنك الوحيدة التي تفعل؟ لا أحد يفعل هذا غيرك، وهذا أول حاجز تضعينه بيننا".

انتفضت وكأنها تلقت صدمة لم تتوقعها، ولما استردت روعها سألته: "ثم؟"
- "أنتِ تضعين فريقك قبل أي شيء، ولا تفكرين إلا في الموسيقى، وهذا يؤثر جنوني".

صاحت: "كان هذا أول شيء جمعنا، الموسيقى هي الشيء الذي...".
صرخ بها: "الذي تفضلينه على أي شيء آخر، والذي تضعينه قبل أي شخص آخر. قولي لي بصراحة يا سايا، أنتِ خائفة من أن يؤثر ارتباطي بنانا على تسوباسا، أكثر من خشيتك أن أخرجها.. أليس كذلك؟"
للحظة صمتت ثم قالت: "بلى".

- "ثم تتحدثين عن الصداقة!!"
صرخت به: "نعم، أتحدث عنها، وسأظل أتحدث عنها بشجاعة، نحن عازفون قبل أي شيء".

صرخ بدوره: "تحدثي عن نفسك، أنتِ عازفة قبل أي شيء، أما نحن فبشر قبل أي شيء، وهذا هو الفارق بيننا، ليتك تدركين لمرة واحدة في حياتك لأي مدى أنتِ...".

صرخت: "أنا ماذا أيضًا...؟"
توقف، تسارعت أنفاسه وكأنه أدرك للتو مدى جنونهما، ظل ينظر إليها ثم هز رأسه يمينًا ويسارًا، وتحول غضبه إلى يأس، تراجع بظهره وابتعد ليرتمي على الأريكة مستنزفًا. أما سايا فبقيت في وقفها الجامدة، كانت أمامي لكنها لم ترني، عبرتني عيناها وكأنني لوح من الزجاج الشفاف، ولشد ما ألمني هذا.

قال كينجي بصوت بارد: "أنتِ مثيرة للشفقة يا سايا، متى سترين هذا مثلما يرى الجميع؟"

صحت به: "راقب كلامك يا هيروماسا كينجي".

نظر نحوي وكأنه يكتشف وجودي للمرة الأولى، وارتبك وكأنني جعلته يفيق من غمرة الغضب. توتر، ونظر إليها قلقًا وكأنه استوعب ما قال للمرة الأولى. ثم قهر العناد قلقه، وتملكته الروح المتهورة مرة أخرى، وكأنه قرر أن يستكمل الجنون حتى النهاية.

قال لها: "طموحك لا يميزك كما تتخيلين، إنه يجعلك الأسوأ، ربما كنت العازفة الأبرع، لكنك الأقل إنسانية بيننا كلنا".

حذرته بغضب حقيقي: "كينجي".

استمر في تجاهلي وقال: "ليس بيننا من تسوباسا وVanity وحدهما، أنتِ الأسوأ بين الجميع".

- "كينجي.. أقسم أنني....".

قاطعتني سايا: "هلا توقفت عن الصباح يا تاكومي".

كان في صوتها نبرة ملل واستسخاف، لكنني لم أُدع، كنت واثقًا مما تشعر به خلف ذلك القناع اللامبيالي، لكنها لم تمنحني الفرصة للاشتباك مع كينجي؛ استدارت نحوه وابتسمت ابتسامة براءة، نادته بلطف، وإذ نظر إليها قالت: "إنه السابع عشر من نوفمبر، لا تجعلها تفسد أجمل أيام العام".

طرفت عيناه قليلًا ولم يحرج جوابًا، فالتسعت ابتسامتها، وإذ استدارت لتخرج لاحقًا بقوله: "لن أترك نانا يا سايا".

قالت دون أن تنظر إليه: "عيد ميلاد سعيد، هيروماسا كينجي".

بعد خطوتين مترنحتين استقامت مشيتها، وسحبت معطفها وخرجت، فاستدرت إليه متمالكا أعصابي قدر الإمكان، وقلت: "إنها لن تغفر لك أبدًا ما قلت له الليلة، أتدرك هذا؟"

قال بجفاء: "لا بأس، إذا كان هذا سيجعلها تفيق من طموحها الغبي هذا".

- "أنت لا تقل عنها طموحًا".

- "لكنني لن أجعل حبيبها السابق يأتي في....".

"توقف عن الغباء يا كينجي، أنت تعرف سايا قبلي بسنوات، وتعرف جيدًا أنها لم تفعل، لم تكن لتفعل".

"لقد ابتسمت حين رأيته".

"لقد كانت الوحيدة التي تحركت من أصدقائك، وتقدمت لتطردها من بيتك".

تقلصت شفتاه في ابتسامة هازئة غير مقتنعة، فصاحت به: "هل رأيت كيف عاملتها هيتومي؟ لقد أهانتها. هل تظن سايا المتكبرة ستدبر لإهانة نفسها علنًا؟ حقًا يا كينجي؟"

نظر نحوي مستوعبًا المشهد للمرة الأولى، وانفجرت شفتاه بتعبير من الوجع والخوف، فأدركت أنه أفاق أخيرًا. قلت بضيق: "أنت غبي".

وتناولت معطفي في طريقي للخروج بدوري، ثم تذكرت شيئًا فسألته: "ماذا كانت هيتومي تعني عندما أخبرتها أنك تعرف، وأن اليابان كلها تعرف؟"

اعتدل في جلسته ولاحق في وجهه الدهشة وكأنني أسأله عن ماهية الشمس. أجابني مأخوذًا: "لا أظنني أستطيع إخبارك إذا لم تلحظ الأمر بنفسك يا هارونو تاكومي".

"إذا كانت اليابان كلها تعرف فلم لا...".

قاطعني وكأنه يخشى كلماتي: "لنقل إنني لا أستطيع أن أخبرك وكفى".

حييته ببرود: "ليلة سعيدة".

كانت سايا تنتظر في سيارتي، وقد انخفضت بمقعدها إلى أقصى حد، واستلقت تحدق إلى السماء عبر فتحة السقف. لم تستدر إليّ حين ركبت جوارها، ولكن عندما أغلقت فتحة السقف وأدركت مكيف الهواء الدافئ قالت: "إنني أكره المدن؛ لا أستطيع رؤية أي مجموعة نجمية هنا".

كان في صوتها رنة غريبة وهي تذكر النجوم، فسألته: "هل أنت بخير؟"

بعد صمت قليل أجابت: "لا أظن".

أردت أن أقول لها شيئاً يداوي بعض ضيقها مما قاله كينجي، أن أخبرها أنه غبي أو أنه لم يقصد ما قال، أو أن رؤية هيتومي أطاحت بعقله، لكنني شعرت بكل الكلمات سخيفة ومفتعلة، وأن سايا أذكى من أن تستحق هذه المواساة غير الصادقة. بقينا صامتتين فترة، أدت محرك السيارة، وسرعان ما كنا ننطلق في شوارع طوكيو التي بدأت في الهدوء بعد منتصف الليل بساعة، عندها قالت سايا: "أريد الذهاب إلى كنيسة".

أدركت مقود السيارة عند أقرب تقاطع، وانطلقت في الطريق العكسي، وقلت: "لم أعرف أنك متدينة".

ونظرت إليها بطرف عيني فرأيتهما تبتسم، ولم نتكلم مرة أخرى إلا عندما أنزلتهما أمام أقرب كنيسة. فقالت لي: "شكراً يا تاكومي، والآن قد بأمان إلى البيت".
-"سأنتظرك".

-"لا، لا أريدك هنا".

بشكل غير متوقع شعرت بالغضب منها، وبقيت أصارع هذا الشعور قليلاً بعدما تركتني ودخلت الكنيسة. ترددت بين العودة إلى البيت وبين انتظارها، وفي النهاية قُدت السيارة على غير هدى. اجتذبتني أحد البارات بلافتة مضبوطة ومكان منعزل فتوقفت مشتاقاً لمشروب واحد: لم أكن لمست أي نوع من المشروبات منذ غادرت المستشفى، واكتشفت بإحساس قوي من الاستغراب أن السكر ارتبط في عقلي بتلك الحالة الجنونية التي أصابني قبل انهيارني الأول، حتى صارت رؤية الخمر تورثني انقباضاً في معدتي.

وممزقاً بين الرغبة الشديدة في الشرب، والرغبة الأشد في العودة إلى سايا، التقطت هاتفي واتصلت بدايكي، ظل الرنين يتردد على الجانب الآخر حتى انتهت المكالمة ببريده الصوتي، فأغلقت الهاتف وأعدت الاتصال، وعند الرنين الثالث أجابني تشو. سألتني بصوت متوتر: "هاي تاكومي، هل سايا معك؟"

لسبب ما ارتبكت ثم أجبتها: "نعم، أرادت الذهاب إلى الكنيسة و...".

-"كنيسة!!"

-"نعم. ما المشكلة؟"

- "هذا ليس معتادًا، حاول ألا تتركها يا تاكومي".

- "إنني أنتظرها الآن. فكرت في الحصول على كأس واحدة في بار قريب والعودة إليها".

- "حسنًا".

- "أين دايكى؟"

- "نائم، لقد أسرف في الشراب".

شعرت بإحباط مزدوج وأنا أنني المكاملة؛ كان دايكى نائمًا وغير موجود وأنا بحاجة إليه، وتشو لم تنتبه لما قلته عن الشرب، لم تحاول ردعي عن تلك الكأس الواحدة التي يقول جزء مني إنها قد تكون خطوة تعيدني لجنوني، وتفكيرى فيما لا يجب أن أفكر فيه.

وللغربة فقد جعلني هذا الإحباط أتراجع عن مغادرة سيارتي، وأدارت يدي من تلقاء نفسها المقود لأعود من حيث انطلقت.

كانت الكنيسة تتألق في الليل بأضواء خفيفة تتسلل من قلبها، أزعجت بابها الكبير بهدوء ودخلت، ووجدت سايا على أقرب المقاعد من الباب، منحنية إلى الأمام ووجهها بين كفيها، وشعرها ينسدل على جانبي رأسها كستائر تخفي لحظة ضعف لم أتخيلها.. كانت ترتعش وهي منطوية حول نفسها، وحيدة تمامًا وهشة وسط الكنيسة الواسعة.

اقتربت وجلست جوارها، فأجفلت إذ شعرت بي، لكنني وضعت يدي على ظهرها أطمئنها، وشعرت برعدة تسري فيها كما الكهرباء، فربتُ عليها. همست لها: "أبكي يا سايا، سوف تكونين أفضل".

- "البكاء للضعفاء الأغبياء، أنا لا أبكي أبدًا، لا شيء يستحق اهتمامي لأبكي".

لكن صوتها كان مذبوحًا بالبكاء، ورأيت على حجرها عدة مناديل مبتلة، وبين أصابعها آخر تلاحق به دموعها قبل أن تهمر. تمتمت: "حمقاء!".

وملت عليها وعانقتها، وفوجئت إذ غاصت برأسها في كتفي وتعلقت بي وكأنها توشك أن تغرق. تعاظم شعوري بالقلق فرحت أربت عليها أهدئها، والعرشة في جسدها لا تسكن أبدًا، ولا تهدأ.

رددت بصوتٍ مرتعش: "أريد أن أنام ولا أستيقظ أبدًا، أنام إلى الأبد ولا يقدر أي شخص على إيقاظي".

وبالصوت نفسه بدأت تتكلم بلغة لا أعرفها، ظلت أنفاسها متهدجة، موجوعة، حتى إذا انتهت انحدر ثقل رأسها من كتفي إلى صدري، استقرت سايا في حضني ساكنة، وشرعت في التنفس باضطراب لتسيطر على أعصابها، وبقيت أربت عليها أدعوها للهدوء، وأدعوقلني للخمود.

ببطء تلاشت رعشها وانتظمت أنفاسها، وحينها رفعت رأسها وابتعدت عني عائدة لجلستها الأولى، ومددت يدي أمسك يدها، وبعد دقائق استجابت لي بضمة صغيرة من أصابعها.

تمتتم بصوت مهزوز: "إنني ملعونة".

- "يومًا ما كنت مثلك".

- "وكيف تخلصت من لعنتك؟"

- "لم أفعل، لهذا دفعت ثمناً غالياً".

- "كيف؟"

- "عندما استيقظت في صباح ذلك اليوم ورأيت ناومي مشنوقة أمامي، وحين اضطرت لإنزالها من مشنقتها، وحين اختفت تحت التراب، وفي كل لحظة أيقنت فيها أنني لن أراها ثانية أبدًا، وأن الندم لن يجدي، وأن الحزن لن يستعيدها، وأنني سأعيش عالمًا في كل لحظة أنني دفعتها إلى الموت".

كانت أول مرة أتحدث فيها عن ناومي مع أي شخص، شعرت أنني أنتزع الكلمات من قلبي انتزاعًا، وأورثني النطق بها ألمًا يضاهي ذلك الذي اعتصر قلبي طوال تلك السنوات الثلاث. لم أتمالك الرجفة التي سرت في صوتي حين ذكرت أمر موتها، وشعوري بالذنب. نظرت لي سايا بكل كيائها، وشعرت بأصابعها ترتجف حول أصابعي.

- "لقد كانت حب حياتي، لكنني لم أحبها بقدر ما أحببت الموسيقى، كانت الأضواء بيئي وبنيتها، وقد تركتني ناومي لحبي الأكبر وذهبت. لم تعلم أنها ستحطم

حبي للموسيقى إلى الأبد، ولوعاد الزمن وخيرتي بينها وبين عملي ما ترددت لحظة قبل أن أترك كل شيء وأبقى معها".

نادتني سايا بصوتٍ خافت فالتفت وأمسكت بذقنها، أمعنت النظر في عينيها وقلت: "إياك أن تفعلني مثلي، لا تفعلني مثلي، لا تضعي الموسيقى فوق عائلتك، لا تضعي أي شيء فوقهم، سيكون الثمن باهظاً، وسوء ظن كينجي فيك أقل ما يمكنك توقعه".

سحبت يدها من يدي ورفعت رأسها، بدت أشد استنزافاً، وانفجرت شفتاها كأنها ستقول شيئاً، لكنها لم تقله، وظل معلقاً على طرف لسانها، لكن عينيها دمعتا، همست لها: "أنت عازفة عظيمة، عظيمة حقاً يا سايا، ولن يضربك في شيء ما يعتقد أنه شخص. ركزي لتبلغ القمة، واتركي نانا وكينجي، اتركيهما، لأن وجودهما أو غيابهما، أو مهما كان ما سيفعلان، كل هذا لن يؤثر عليك، أنت لا شريك لك، ولا بديل لك. ربما يكرهك البعض، أو يحقد عليك، أو يشيع عنك أي شيء، لكن أحداً لن يتجاهلك".

علت وجهها ابتسامة شاحبة وقالت: "إنه صديقي الأقرب، وقد ظنّ...".

- "الحب يجعل الأشخاص أغبياء، صديقي".

أومات برأسها وهي تنظري في عيني: "لقد انتهى الأمر".

- "كيف؟"

- "أنا لست مهتمة بما سيفعلان، حتى ولو أعلننا علاقتهما للعالم أجمع غداً، في كل الأحوال سأستमित كي لا ينهار تسوباسا وحسب".

- "حسناً، هذا أفضل للجميع".

نظرت للأمام ثانية وتمتعت بصلاة أخرى وهي مغمضة العينين، ثم قالت: "فلنذهب".

استندت إلى ذراعي في أثناء خروجنا، وبدا توازنهما مختلاً أكثر من ذي قبل حتى اضطررت لتوجيهها لطريقة ركوب السيارة، وأغلقت خلفها الباب الذي عجزت عن غلقه. وحين ملت أربط حزامها سألتني: "هل ستبقى معي؟"

رفعت وجهي إليها، ووجدتنا أقرب ما يكون إلى بعضنا، فتأملت كل بوصة في وجهها، وبدورها كانت تتأملني وكأنها تعيد استكشافي بعد خلقي جديد. تنفسْتُ ملء رنِّي وقلت: "إلى الأبد".

- "حتى ولو انشقت نانا عن الفرق؟"

- "حتى لو انشقوا جميعًا، سأظل معك".

رفعت يدها ووضعتهما على خدي وابتسمت، فقلت: "ليس لديَّ أي شخص أذهب إليه غيرك يا سايا، ولا مكان لي إلا معك، وحتى لو كان لديَّ شخص آخر ومكان آخر وعالم آخر، فأنا أختار أن أبقى معك".

لمعت عينها، وإذ تبينت ميلاد الدموع فيهما راودتني رغبة عاصفة في تقبيلها. كانت تلك أول مرة أشعر فيها بشيء مماثل نحو سايا، وشفعتني ذلك الشعور غير المتوقع حتى أنني أثبت نفسي شاعرًا بالذنب، لكن جزءًا مني استسلم لعذوبة الغواية الكامنة في الفكرة، وبالكاد قاومت نفسي، وخفضت وجهي أزفر نفسًا عميقًا، وابتعدت عنها متسائلًا عمَّا أصابني.

بدأت جولتنا الأسبوعية.. أخيرًا.

خرج حفلنا الأول في هوكايدو عظيمًا، وأظهر خير نتيجة للتدريبات المهلكة التي تصهرنا فيها سايا. لم أتمالك نفسي بعد الحفل وعانقتها فور خروجنا من المسرح، وصحت بها: "أنت أفضل قائدة فريق في اليابان، أتعرفين هذا؟"

- "بالتأكيد أعرف، ماذا تظن؟"

وضحكت ضحكة عظيمة، بدت في عيني مقياسًا لسعادتها الحقيقية. كانت تلك سايا التي أعرفها، المتفجرة بالحماس والتألق.. الشمس التي لا تنطفئ أبدًا.. شمس عالمي المتوهجة التي عادت لطبيعتها من جديد.

أصبحنا أحرارًا لمدة ثلاثة أيام قبل الحفل التالي الذي سيقام في أوكلندا، تشاورنا في أمر السفر فورًا لنستمتع بالدفء النسبي في الجنوب، وفي النهاية قررنا قضاء يوم إضافي في هوكايدو نستمتع فيه بالتزلج على الجليد، أما باقي فريق العمل فسبقنا إلى أوكلندا للاستمتاع بالينابيع الساخنة، كانت سايا ونانا تتوقان لها بدورهما، لكنهما نزلتا على رغبتنا في البقاء.

توجهنا إلى الجبال، وكانت سايا خارج المنافسة لأن مشهد المرتفعات الجليدية أدار رأسها، فبقيت معها نانا، وجلسنا على الجليد نتحدثان وترشفان المشروبات الساخنة، أمّا أنا فتزلجت مع داكي وتشو بشكل متهور، ملقيًا نظرة كل حين على سايا لأرى ابتسامتها، وصفاء نظرتها إلى السماء البعيدة، فعثرت على مقياس جديد لسعادتها الصادقة.

ثم انتهت أوقات استرخائنا فانطلقنا إلى أوكيناوا، وكان كينجي ينتظرنا في المطار حاملاً باقة زهور عملاقة، قدمها إلى نانا بطبيعة الحال، لكن سايا لم تبد ضيقاً ولا قلقاً أمام تلك البادرة التي سجلتها بعض عدسات المعجبين؛ كانت لا تزال متألقة بالسعادة، بل إنها اقتربت منه وعانقته، وحين أنهت عناقه ظلت متعلقة به، وذراعاها يحيطان بكتفه وهي تقف على أطراف أصابعها محاولة مجازاة طوله الفارع. أمالت رأسها يميناً في دلال وقالت له: "سمعت أغنيتكم الأخيرة".

- "ما رأيك؟"

- "بعد كل هذه الأعوام لا تزل تتساءل؟"

ومالت مقترية من أذنه، كانت قريبة منه بشكل حميم أشعرتني بنار في صدري، وأشعل فيَّ عداً غير مبرر نحوه.. وحين ضحك لما همست به شعرت بقبضة تعصرني. لم يكن قد سبق لي الشعور بالضيق كما شعرت في تلك اللحظة الخائفة. قررت أن أتجاهلها حتى وصلنا إلى الفندق، فاعتذرت من الجميع متوجهاً إلى غرفتي، لكن كينجي استوقفني: "انتظر هنا، لقد أتيت من طوكيو لأحتفل معكم، وأنت تتركنا الآن!"

- "لا أريد أن أحتفل بشيء".

ردي الجاف السريع أطلق صفارة إنذار في دماغي، لكن الأوان كان قد فات، إذ التفتت إلى الفتيات الثلاث مستغربات، وسألتي نانا: "ماذا بك؟ هل ضايقت أحداً؟"

هزرت رأسي، واخترعت حجة: "أريد أن أنام".

- "إنها السادسة مساءً!"

- "هل يوجد قانون يمنعني من النوم الآن؟"

قال كينجي بصوت غريب: "لا يا تاكومي، لا يوجد".

نظرت إليه وشعرت أنه استشف ما أشعر به، فتجنبته، هزرت رأسي وابتعدت عنهم، فلاحقني: "سنتحدث لاحقاً".

وحين دخلت غرفتي شعرت بغضبٍ تامٍ يسيطر عليّ، مشاعر جامحة لا سبيل لكبحها ولا فهمها، وضباب تامٍ يشمل أفكارِي، كنت غاضباً من كينجي، ومن سايا،

ومن نفسي؛ كرمت نفسي لأنني تركتهم وانعزيت في غرفتي. وكأنني أعيد اقتراف الأخطاء نفسها التي جعلتني على حافة الانتحار، الغضب المكبوت والمشاعر المتضاربة والعصبية.

وقفت في منتصف الغرفة وتنفست بقوة. نظمت أنفاسي في محاولة لكبح جماح أفكارِي. قال لي جزء مني أن أذهب إليهم مجدداً، وقال لي جزء آخر أن أغرق نفسي في الشراب حتى أفقد الوعي، لكن جزءاً آخر تحكم فيَّ. وهكذا خلعت سترتي وقميصي، وارتيمت عاري الصدر على الفراش شاعراً ببرودة أغطيته، ثم تناولت أدويتي مضيقاً إليها قرصين من المنومات، ولم تمض دقائق حتى غاب كل شيء عن وعيِي.

مع أول أشعة الفجر فتحت عينيَّ، وجعلني هذا الاستيقاظ المبكر صافي البال مرتاحاً، استحممت سريعاً، وقررت الهبوط للينابيع الساخنة الملحقة بالمنجع، كانت خالية إلى حد كبير في هذه الساعة المبكرة من اليوم، لكنني صدمت بوجود كينجي هناك.

حياني وكأنه كان ينتظرني: "صباح الخير".

كان يغمر نفسه حتى العنق في حوض امتلأ بماء حار يتصاعد البخار منه، حبيته فأوماً لي باسترخاء وأغمض عينيه مواصلاً أحلامه، خلعت ملابسِي وسكبت الماء الحار تدريجياً عليَّ حتى اعتدته ثم انزلت في الحوض المجاور له، وغمرت نفسي كلية حتى شعرت بكل خلاياي تذوب.

صعدت فوق الماء متنفساً بسعادة، وبمرح تام أنكرته أذناي قلت: "آآآ! الحياة رائعة".

رفع رأسه ونظر نحوي كأن سمكة عملاقة تطل من عنقي بدلاً من رأسي، ظل ينظر لي قليلاً ثم عاد لاسترخائه قائلاً بسخرية: "من هذا الشخص ذو المرح المرعب؟"

ابتسمت ولم أجب، فقال: "يجب أن تنافس سايا على بطولة العالم في المزج المتقلب".

ضحكت وغمرت نفسي في الماء فأذابت الحرارة عقلي، وشعرت بالامتنان للأدوية التي أورتني تلك الخفة الجميلة في روحي.

كانت غارقاً في أفكار الصافية حين سألتني كينجي: "أتحبها؟"

شعرت بصاعقة تطيح باستمتاعي، وسألته: "من؟"

- "سايا".

لسعني الكلمة وكأنني لم أتوقعها. نظرت إليه مقطباً، كان جزء مني غاضباً، وجزء آخر كان خائفاً، لكنني أظهرت الدهشة.

قال لي: "لا تظهر هذا الوجه لي، لقد رأيت وجهك الحقيقي أمس. أنت لم تكن على ما يرام حين عانقتي، لكنني كذبت نفسي، ثم كان ما كان في بهو الفندق. نظراتك الغاضبة قالت إنك تغار، لماذا يغار رجل على فتاة لا يحبها؟"

- "لأنني أمتلكها".

قلتها بتحدٍ محدقاً إلى وجهه ببرود، لكنه ابتسم، غمر نفسه تحت الماء لحظة، ورفع رأسه ونظر إليّ..

- "لا تكذب يا تاكومي، أنت لست هذا النوع من الرجال".

أغضبني قوله فوبخته: "ما الذي يدعونا لهذا الحديث غير المبرر الآن؟"

- "لأنك صديقي، ولا أريدك أن تجرح مجدداً، أنت بالكاد تتمالك نفسك منذ انتحرت نا...".

- "لا تنطق باسمها".

وتنفست بقوة ثم غطست تحت الماء.. بقيت مغموراً في حرارته متمنياً أن يذيب الوجع الذي انبثق في قلبي فجأة، وكأن شخصاً أوشك أن يقطع منه جزءاً. رفعت رأسي من الماء فوجدته ينظر نحوي مترقباً، وسألني: "أأنت بخير؟"

- "ماذا تعني بأني سأجرح؟"

ظل ينظر إليّ بقلق فصحت به: "أجب سؤالي".

- "حسناً، لو أهدرت وقتك مع سايا سينتهي بك الأمر مجروحاً، وبعض الجراح لا يتحمل الرجال العيش بها".

- "سايا لا تجرح أحداً عمداً، بخلاف الجميع".

- "أهذا اعتراف منك إذن؟"

- "أنا لم أجزم لأعترف، إذا شعرت بشيء ما نحوها سأخبرها هي، لا أي شخص آخر."

- "لا تفعل."

كان أمره قاطعاً حتى أنه زرع قلقاً خافئاً بأعمالي، وأثار هذا غضبي، وصحت به: "ماذا تعني؟ لو كان لديك شيء تقوله فقله الآن، وإلا فاصمت."

فتح فمه وكأنه سينطق، ثم تردد. ثم قال: "متى رأيت سايا تخرج في موعد مع رجل؟"

- "ما علاقة هذا بما...".

- "أجب سؤالي فحسب".

- "لا أعرف، ربما...".

- "أخبرني باسم رجل واحد كانت على علاقة به من قبل."

فكرت قليلاً وقلت ببطء: "لا أعرف....".

- "حسنًا، ألم يلفت نظرك قط طريقة تعلقها بنا؟"

- "إنها صديقتها المقربة".

بصوتٍ مسطح غير منفعل سألتني: "فقط؟"

سقط فوقنا صمت ثقيل مفاجئ، لكنني التقطت التلميح المتواري في كلماته وشعرت وكأن مثقاباً يخترق قلبي حتى أنني عجزت عن التنفس، خرجت من الماء بشكل مفاجئ فأجفل، وارتديت أحد معاطف الاستحمام المرتبة في كومة أنيقة تنبعث منها رائحة عطرة، وجلست أتنفس بقوة محاولاً التخلص من الحرارة التي يمج بها جسدي، فناداني: "تاكومي...".

صحت به: "ماذا تحاول أن تقول بحق الجحيم؟"

ظل ينظر إليّ كأنما يحاول تعرية أفكاره، ثم سألتني ببطء: "أنتظاهر بالغباء أم أنك حقاً لا تفهم؟"

- "ما الذي تعنيه؟ أجب سؤالي بوضوح".

غطس تحت الماء قليلاً، ثم رفع رأسه ولم يجب، تجنب النظر في عيني وتلاعب بالماء، فقلت له: "أتعرف، أنت لست صديقاً حقاً. في الواقع أنت لا تستحق وجودك بيننا".

نظر إليّ غاضباً لأول مرة، وقال: "توقف عن التصرف بعواطف المراهقين هذه، لو أنك نظرت إليها...".

- "أنا لا أنظر إلا إليها".

صحت بالكلمة ثم توقفت شاعراً بغبائي، وفي الوقت نفسه اجتاحتني قشعريرة رهيبة إذ تكشف لي جزء مني لم أكن قد انتهت إليه من قبل، ولم أتخيله قط. وأمامي كان كينجي مذهولاً بدوره، عجز عن النطق لبرهة، ثم قال: "لقد فات أوان تحذيرك يا هارونو تاكومي، ألسنت محقاً؟"

لم أستطع الرد عليه، بقيت جامداً في غمرة اكتشافي شاعراً برأسي يدور، وبأنفاسي تضيق، وكأنني أمر بميتة صغرى مباغتة. تمتت: "تَبَّأ لي!"

وبصعوبة أجبرت نفسي على التركيز، وقلت له: "أنت لست صديقاً جيداً يا هيروماسا كينجي، كيف لم ترسايًا هذا طوال تلك السنوات؟"

زجرني بصوت خشن: "لو كررت هذا سأضربك حتى الموت".

سخرت منه: "أنت لست غاضباً منها بسبب طموحها واهتمامها بتسوبا، ولا حرصها على نانا، لديك أسباب أخرى وهمية.. أنت أحمق".

وابتسمت ونهضت لأغادر فصاح خلفي: "هيتومي".

توقفت مترقباً، فرفع حاجبيه وقال: "لقد أخبرتها أنني أعرف، وأن اليابان كلها تعرف.. هذا ما كانت تعنيه".

- "ثم؟"

- "أنت الوحيد الأعمى في اليابان كلها يا هارونو تاكومي".

هممت بالرد غاضباً، ثم قررت أنه لا يستحق هذا، فغادرت المكان كاظمًا غيظي.

صعدت إلى غرفتي وارتديت ملابسني، وهبطت لمطعم الفندق المطل على أحد خلجان بحر أوكيناوا الخالية، وحاولت استرجاع استرخائي بكوب قهوة، لكن جودتها العالية لم ترق لتلك اللمسة السحرية التي يصنعها داكي.

ومرت سايا من أمامي..

تمالكت كوب القهوة بالكاد قبل أن ينقلب، ودق قلبي بقوة وأنا أستعيد ما قلته لكينجي قبل قليل.. "أنا لا أنظر إلا إليها".. كيف لم أنتبه لهذا قط قبل اليوم؟

وضعت القهوة وغادرت خلفها، استطعت أن ألحق بها راضاً، وحافظت على المسافة بيننا وأنا أتبعها، كانت تمشي بخطوات واسعة نسبياً محدقة إلى السماء، وعلى أذنيها سماعات عملاقة صفراء ومبهجة.

خلال دقائق خرجت من باحة المنتجع السياحي إلى طريق طويل تحوطه الأشجار، غابة رائعة الجمال جدت السير فيها لنصف ساعة أو أكثر، وأخيراً وصلت إلى ساحل البحر، عند بداية جسر أوكيناوا الشهير إيكيمأ أوهاشي.

صعدت إلى الجسر بخطوات بطيئة مستطلعة، كان من الواضح أن الوصول إليه هدفها منذ غادرت الفندق، فقدت تركيز متابعي لها وأنا أنظر حولي، إلى المياه شديدة الشفافية ذات اللونين الفيروزي والرمادي، والأسماك الملونة والسلاحف البحرية السابحة مع التيار، كان المشهد يخطف الأبصار في ضوء الشروق.

سارت سايا وقتاً طويلاً، لعلها قطعت نصف الجسر الطويل الذي يربط بين الجزيرة التي يقع بها منتجعنا، والجزيرة الأخرى التي بدت غير بعيدة عنا، وأخيراً توقفت، أمسكت حاجز الجسر ونظرت للأفق البعيد، لأعلى، مالت للخلف بقدر امتداد ذراعها ثم اعتدلت واستندت إلى الجسر منحنية للأمام.

في ضوء الشروق الوليد لمعت قطرات الدمع المتقاطرة من عينيها وهي تنزل على خدها ثم تواصل رحلتها إلى البحر، كانت سايا تبكي، رغم المسافة رأيت لمعان دموعها وتلك الطريقة التي تزم بها شفقتها لتمنع نحيبها، والطريقة التي يهتز بها صدرها بالبكاء المكتوم، تحركت قدميها لألحق بها ثم توقفت، اكتفيت بمراقبتها من بعيد، لعل البكاء سيمنحها راحة لا أستطيع أنا منحها إياها.

لفترة طويلة بقيت أراقبها، ودموعها تختفي كلما صعدت الشمس حديثاً في طريقها لتربع عرش السماء، وحين انتهت من البكاء كان أنفها محمراً، وخديها وشفتيها شاحبين، لكنها بدأت بالابتسام. مسحت وجهها وهمست بشيء ما، ومن جيها أخرجت ورقة كتبت عليها بقلم، ثم طوحت بها في البحر.

رأيت طائر كركي تم طيه بورق الأوريجامي الملون الباهر يطير في الهواء ليحمله جناحه الهشان إلى صفحة المياه. استقر الطائر برفق عليها، سبح قليلاً ثم تغلبت عليه دقات المياه الواهنة، التقطت الأمواج الخفيفة جناحه الأيمن فأمالته، ثم تمكنت من عنقه، ثم ذيله، وخلال ثوان كان جناحه الآخر يختفي تحت صفحة المياه الشفافة. مس المشهد قلبي بحزن لا مبرر له.

وقفت سايا تراقب طائر الأمنيات الغارق بابتسامة صغيرة، لكن دموعها تقاطرت ثانية عاكسة الضوء، لم أتردد هذه المرة وسرت نحوها، ناديتها فلم تسمعي، لكنها شعرت بوجودي بعد قليل، فرفعت السماعات ونظرت لي.

أشرق وجهها وهي تحيي: "صباح الخير يا تاكومي".

ابتسمت واقتربت ووقفت جوارها، ونظرت للطائر الغارق الذي تتلاعب به الأمواج وقلت: "ستتحقق أمنيتك".

- "إنني أصلي لهذا طوال الوقت".

- "لماذا صنعت الطائر؟"

- "أريد أن أنام ولا أستيقظ أبداً".

- "حسناً، لن نتحقق أمنيتك: الأمنيات الغبية لا تتحقق".

انفجرت ضاحكة، وإذ فعلت انفجرت في قلبي ألعاب نارية من البهجة والحبور، لم أشعر بنفسي وأنا ألثفت إليها وأسحبها نحوي، انتهت فقط وعيناها تحدقان إليّ وقد اتسعنا من الدهشة، تحاول استيعاب ما أفكر فيه وأنا أمسك بوجهها بين يديّ وأتأمل كل جزء منها وكأنني أكتشف وجودها للمرة الأولى، وكلما وقعت عيناها على تفصيلة مألوفة من ملامحها خفق قلبي، متذوقاً حلاوة كل ما أعرفه فيها ولم أبصره قط قبل اليوم.

ابتسمت لي مستغربة وسألتي: "تاكومي.. ماذا حدث؟"

وترددت عيناها بين عينيّ، ثم وضعت يدها على صدري، فقطبت مستشعراً ألماً
عذباً خلفه شعوري برقّة أصابعها، أمّا هي فقالت: "أأنت محموم أم كنت في
الينابيع الساخنة؟"

تمتّت بصعوبة من شدة تركيزي: "الينابيع".

"وقلبك يخفق!"

"نعم".

وجذبت وجهها وملت عليها، ومنعت نفسي في اللحظة الأخيرة من تقبيلها، هوت
شفتاي فوق جبينها، ورغم هذا شعرت بنار تستعر في صدري، ولم أجد سبيلاً
لإخمادها إلا باحتضانها.. شعرت برأسي يدور، العالم كله يدور، شيء ما كان
مفقوداً مني واسترددته الآن، كيف لم أنتبه قط لغيابه إلا الآن؟

كانت ذقني مستندة إلى رأسها، وذراعي يحيطان بها بإحكام وكأنها ستفلت،
وكانني أريد احتضانها حتى تصبح جزءاً من ضلوعي أبداً.

رفعت سايا يدها ببطء وأمسكت بقميصي فوق خصري، أبعدت رأسها عني
قليلاً ونظرت نحوي قلقة، سألتني: "ماذا أصابك يا تاكومي؟ لماذا تتشبث بي
هكذا؟"

"لأنني أفكر في أشياء كثيرة حمقاء".

وتهدت وأغمضت عيني، وعادوني الشعور بالدوار، وببطء حررتها من حضني
وقلت: "أسف يا سايا".

واستندت إلى حاجز الجسر ونظرت إلى الماء، بدأ جزء مني يصحو ويتمني
بالجنون، بينما كان جزء ثالث يعنقني قائلاً إنني أوهم نفسي بخيالات لا صحة لها،
وبقيت أصغي إليهما مغالباً شعوري بأن العالم يدور.

"متى خرجت في موعد مع رجل آخر مرة؟"

تصرف لساني بتلقائية وألقى السؤال، ولم أنتبه لعواقب ما قلت إلا وهي تنظر
لي باستغراب بلغ منتهاه، وقالت: "أنت غريب الأطوار اليوم يا رجل! ماذا أصابك في
الينابيع الساخنة؟"

"ليس لديك أدنى فكرة، ولكن أجيبني".

هزت كتفها ووقفت جوارى، وقالت: "لقد انتهيت من الرجال منذ زمن، لم أعد أواعد أحدًا وليست لديّ رغبة في هذا".

أحرقني إجابتها بالقلق، فقلت بصبر نافذ: "أجيبني سؤالاً".

- "لا أتذكر يا تاكومي، ربما منذ عامين".

- "هل وقعت في الحب من قبل؟"

أفلتت منها آهة خفيفة لم يشوش عليها صوت الأمواج، ثم قالت: "نعم، حدث هذا من قبل".

- "كم مرة؟"

- "ثلاث مرات".

- "أخبرني عن الرجل الذي وقعت بحبه؟"

نطقت بكلمة (رجل) وقلبي واجف، خشيت أن أسمع تصحيحًا لا أود سماعه، لكنها قالت: "أولهم كان صديقًا لي، اعتبرته من أصدقائي المفضلين، وهو أيضًا اعتبرني صديقًا له".

شعرت براحة من أفلت من حكم بالإعدام، وبدخلي سببت هيروماسا كينجي ولعننت شجرة عائلته كاملة.

- "كيف سار الأمر؟"

زمت شفتيها ثم قالت: "لقد اختار واحدة أخرى".

- "ألم تقاتلي لأجله؟"

- "لم يكن بوسعي عمل شيء يا تاكومي".

- "لماذا؟"

- "لأنها صديقتي المقربة. ولأنها تستحق الحب أكثر مني".

أجفلت ونظرت إليها هلعًا، سألتها: "لعلك لا تقصدين كينجي وأنا؟"

انفجرت تضحك وقالت: "لا يا تاكومي، حدث هذا قبل خمسة عشر عامًا، وأنا لا أقع في حب رجل تحبه صديقتي، لست حقيرة إلى هذا الحد".

- "لا حقارة في المشاعر، شعورك بشيء ما نحو شخص ما يخصك وحدك، ومشاعر شخص آخر نحوه لا تجعلك حقيرة بأي شكل".

- "لقد حدث الأمر مرة يا تاكومي، وكان أشبه بسلخ روعي، وليست لدي أي نية في تكراره".

ونظرت صوب البحر، أما أنا فأبقيت عينيّ معلقتين بهما..

تحدثت سايا وهي نصف شاردة: "سنوات طويلة مرت منذ فارقت هذا الشخص، لكنني حين أتذكره أتساءل: لماذا لم أكن جميلة كافية لأجعله يحبني؟ لماذا لم أكن أنثى كافية لأجعله يحبني؟ ترى هل يتذكرني؟ بأي طريقة يتذكرني يا ترى؟ لورأى صورة لتسوبا سايا اليوم فهل سيدرك أنها أنا؟"

ثم فردت يدها أمامها، وابتسمت وقالت: "قال يومًا إن يديّ لا تليقان بفتاة، أتساءل إذا كانتا كذلك فعلاً حتى الآن أم أنهما أصبحتا أجمل مما كانتا في ذلك الوقت؟"

أمسكت يدها وقلت: "بالنسبة إليّ هما الأجمل في العالم".

هزت رأسها بلا مبالاة، لكن اضطرابًا يسيرًا في أنفاسها أنبأ بوجع خفي.. قلت: "لا بد أن الأمر كان صعبًا".

- "أن أكون جواره طوال الوقت وهو يفكر فيها، أن أسمعها لا يتحدث إلا عنها، يقول إنها الأجمل من بين كل الفتيات، كلماتها فقط تليق بفتاة، أفكارها ودعاباتها وحدها تليق بفتاة، وأن أي فتاة أخرى يعرفها لا ترقى لمستوى أنوثتها ورقمتها بما يكفي ليراها. وأن يعتمد عليّ في أي شيء يحتاج لمساعدة فيه معبرًا لي عن مدى قوتي التي لا يملكها رجل. بعد سنوات فهمت ما كان يقصد، لم يرني حتى كفتاة يا تاكومي".

- "لحسن حظه أنه ليس يابانيًا وإلا لدفعت كل أموالي للياكوزا ليأتوا به في حوض أسماك".

ضحكت بشكل غير متوقع، وظلت تضحك فترة طويلة وأنا مبتسم، ثم توقفت ونظرت لي ممتنة، وقالت: "لا يضايقي في تلك الذكرى القديمة إلا أنني شعرت بالغيرة من صديقتي، بل بشيء من العداء أيضًا. جعلني هذا أكرهه، وقررت الابتعاد عنه لأنني خشيت أن يؤثر على حيي لها. عندما أصبحت نانا صديقتي

وأخبرتها بالأمر قالت لي كما قلت أنت، إن مشاعرنا نحو شخص ما لا تجعلنا حقراء، وأن شعوري بالغيرة طبيعي، وأي فتاة أخرى في موقعي كانت ستشعر بالمثل، لكن قلة منهم كن سيفضلن الصديقة على الحبيب، قالت لي إن هذا وحده يجعلني جديرة بالحب".

"أنا شاكر للظروف التي جعلتك تقابلين نانا".

تهددت من قلبها وقالت: "وأنا أيضًا، إنها أقرب صديقاتي، إنها أقرب الناس إليّ. لا أملك في حياتي شخصًا أقرب إليّ منها ولا أعلى، ولأجلها سأقبل الموت عشرات المرات بكل بطء وألم".

وتهددت مجددًا وكررت: "نانا هي الوحيدة التي سأقبل الموت لأجلها، لو كان سيجعلها أسعد قليلًا سأقبل به دون تردد. أنا حتى لا أحب نفسي بنفس الدرجة التي أحبها بها".

"هل عرفتها بعد صديقتك الأخرى بفترة طويلة؟".

"في الوقت نفسه تقريبًا، كانت نانا صديقة مشتركة لمجموعة من الأصدقاء الخونة الذين تخلوا عنا واحدة وراء الأخرى، لكننا كنا نملك تفاهمًا كبيرًا، ونسكن مدينة واحدة، أما ميساو فكانت تسكن بعيدًا عنا بأميال، وكنا نتواصل بالإنترنت أو برسائل الهاتف لأنها كانت مشغولة تمامًا بدراستها، لكنها كانت معنا دومًا، ولم تؤثر المسافات أبدًا في علاقتنا. أنا ممتنة للرب أنه منحني القوة لاختيارها عوضًا عن هذا الشخص، وجعلنا صديقات طوال كل هذه السنوات".

"وماذا عنها؟ هل قبلت بحبه؟"

"لا أعرف، لم أسألها ولم أهتم بالمعرفة، مادامت صديقتي فلا يهم أي شخص آخر، وإن كنت أشك أن أحقق كهذا يستحق حب ميساو".

ميساو؟ أي يابانية أم مثلهن؟ كبحت السؤال الذي لن أتلقي إجابته ولو تحولت إلى سمكة.

ابتسمت سايا أروع ابتسامة رأيته في حياتي وقالت: "ميساو.. إن اسمها وحده تعويذة سحرية تقصي كل الحزن بعيدًا عني، مادامت لديّ نانا وميساو في هذا العالم فأنا لا أحتاج شيئًا آخر، سأكون سعيدة دائمًا".

ضحكت للكلمة ورددت: "تعويذة سحرية؟ أي جنية سندريلا؟"

ضحكت معي وقالت: "دائمًا ما أقول لها إنها تعمل كساحرة في أوقات الفراغ، أما نانا فتصر على أنها تعمل كملاك حارس بعد منتصف الليل".

ضحكت مرة أخرى، فمدت سايا يدها في جيبيها وأخرجت هاتفها، لمست شاشته عدة مرات ثم ناولتني إياه.

على خلفية بيضاء تتدرج للون الوردي الفاتح كان اسم ميساو يتألق وإلى جواره أيقونة صغيرة تمثل قلبًا تتصاعد منه عدة قلوب أصغر تتحرك بشكل لطيف، وتحتة قرأت رسالة باليابانية:

- "الفجر جميل اليوم يا صديقتي، أمل أن تكوني مستيقظة الآن لتتمتع به. لا تتجاهلي إيكيم أوهاشي في هذه الرحلة أيضًا، اذهبي وانظري للسلاحف البحرية، وابحثي عن البيضاء التي كدت تلقين نفسك في البحر خلفها قبل عامين. *ضحكة* كوني سعيدة دائمًا *قلب*"

عندما ضحكت عرفت سايا أنني أنهيت قراءة الرسالة، فقالت: "انظر الرسالة التالية".

قلبت الرسالة بسحبة من يمين الشاشة إلى يسارها، وقرأت:

- "جهزت لك كمية كبيرة من الكيمتشي سنأكلها معًا، لا تخافي ركوب الطائرة وتعال سريعًا *قبلة*"

- "لا تصعدي الجبل إذا كنت تشعرين أنك على غير ما يرام، أنا أصلي لأجلك يا صديقتي لتكوني بأمان. *قلب*"

- "شاهدت الحفل الأخير قبل قليل مع جونغي، بهر عرفتك لدرجة أنه أرسل لك بقبلة في الهواء، لقد ضربته وعندما أراك سأضربك أيضًا *ضحكة*"

تساءلت: "جونغي؟"

- "إنه زوجها، وبطلتي، والرجل الذي أحبه أكثر من سواه في هذا العالم".

- "يبدو أنني سأدفع الكثير للياكوزا قريبًا".

أخذت الهاتف من يدي وأعادته إلى جيبها، ثم لفت ذراعها حولي، فلفني دفة أدار رأسي، وأبقاني جامدًا وقد فقدت كل قدرة على التفكير..

تنهدت سايا وهمست: "شكرًا يا تاكومي، لأنك لحقت بي اليوم، لا أعرف ماذا كنت سأفعل لو كنت وحدي".

وضعت يدي على رأسها، وتزاحمت على لساني آلاف الكلمات التي لا يجب أن أنطق بها، كلمات حارة مشتعلة يؤلني كتمانها، بالكاد منعت نفسي وقلت: "أخبرني عن الحبيبين الآخرين".

مالت برأسها، ورأيت في عينيها تلك النظرة العاشقة التي واجهتني بها يومًا وهي ثملة، فتداعيت إلى عقلي إجابة اشتعل لها قلبي، وتعجلت إجابتها: "أخبرني يا سايا".

- "ليس اليوم".

تنهدت وملت أسند رأسي فوق رأسها، وهب الهواء يدفع شعرها ليغطي وجهي، وحجبتني عن العالم فلم أود العودة أبدًا.

تبدلت أحوالي حتى لم أعد أعرفني..

البهجة التي أشاعها عبارة "أنا لا أنظر إلا إليها" في جنبات قلبي جعلتني شخصاً آخر. حتى أن طبيبي النفسي لم يتعرف صوتي حين اتصلت به وحييته بمرح. صحيح أنه أبدى قلقه في البداية - ولا أعرف لما يتضايق الطبيب حين يرى مريضه يوشك أن يشفى بشكلٍ سحري! - إلا أنه تقبل تأثير مشاعري المكتشفة حديثاً، وإن فرض عليّ مزيداً من المتابعة.

لم تشعر سايا بشيء، كانت غارقة في كوني آخر تفيق منه في بروفات حفلنا التالي، والتي أضحت ملأً تاماً لا أتحملة. كنت نافذ الصبر، لا أريد من العالم إلا المزيد من جسر إيكيم أوهاشي، ووجود سايا، وجسدها الصغير في حضني، وذراعها تلتفان حولي، وشعرها المتطاير عطر الرائحة الذي يحجبني عن العالم.

لكننا كنا منهكون بالعمل، وكلما طال وقتنا معاً ازدادت فيها غرقاً.

ولم يأتِ حفلنا التالي أقل عظمة من حالتي النفسية، عزفنا بأعلى درجات توافقنا، وصعدنا المسرح كألهة غير مقدر لها الخطأ. بدأ الحفل وصوت تشو القوي يتردد دون موسيقى، يتصاعد تدريجياً حتى يملأ اللحظة، ويلقي بعباءة الصمت على كل صوت آخر، حتى أنهت المقطع الأول من أحدث أغانيها، وارتفع الإيقاع الخفيض الذي يصنعه داكيي مقترناً بالصوت الغليظ لجيتارنا، ثم انفجر مصحوباً بالصراخ في المسرح كله، وانطلقت سايا وأنا في أعقابها.

لم أستقبل في حياتي قط بجنون كالذي استقبلنا به الجمهور في ذلك الحفل، ولم أكن قط أفضل مما كنت في ذلك اليوم، ولا أظنني سأعزف أبداً كما عزفت وقتها، كما لو أن الفرصة لن تسنح لي ثانية. لم نرتكب أي أخطاء، إيقاع داكيي

وسلسلة صوت تشو، وتقنية عزفي أنا وسايا ونانا كلها جاءت مثالية خالية من أي خطأ، بل خالية من أي تقصير، كل نغمة عزفت كما خلقت لتكون. كان هذا الأداء الأسطوري لتسوباسا، ذروة عزفنا المطلقة.

انتهى الحفل، واحتفلنا به شطراً من الليل، وفي الصباح التالي انطلقنا إلى كوريا، ولكن دون سايا ونانا، إذ تركنا خلفهما ملاحظة من سطر واحد "سنلحق بكم في كوريا".

أمضيت الوقت مع تشو، رافقتي طوال الطريق ولم تكف عن الثثرة عن الحفل وردود فعل الجمهور. كانت تشرد مع نشوتها مستعيدة اللحظة بتفاصيلها، وتبدأ في التعليق عليها، ثم تغني، ثم تصفق بجذل، ثم تنفجر في الصراخ السعيد وتحتضن ذراعي وتضحك، ثم تتحدث عن باقي جولتنا. كدت أفقد عقلي، ولكن عندما صعدنا الطائرة كنت قد تجاوزت مع ثرثرتها، وانطلقنا في الضحك والتعليق معاً، حتى أن باقي الركاب نظروا إلينا مشمزين من صخبنا، فطفقنا نهماس ونضحك ضحكات مكتومة.

وبجوار نافذة الطائرة، لفت تشو ذراعها حول عنقي وألصقت خدها بخدي، ورفعت هاتفها لتلتقط لنا صورة مفاجئة، ورفعتها على الإنترنت رغم أنني بدوت بشعاً فيها. وعلى الجانب الأخر من الطائرة جلس داكي مرتدياً نظارة طبية، مهمكاً في قراءة مجلد سميك، برزانه لم أعده عليها. أفلعت الطائرة فأغمضت عيني وتهدت، تساءلت كيف ستأتي سايا وحدها -أو حتى مع نانا- متغلبة على خوفها من الطائرات، ولشدة دهشتي قالت تشو في تلك اللحظة بالضبط: "إنها تستعمل المنومات".

- "من؟"

- "سايا تستعمل المنومات دوماً في رحلتها إلى كوريا. إنها تأتي كثيراً وحدها دون مشكلة".

- "كيف عرفت؟!!"

قالت بشموخ ظريف: "لأنني ساحرة".

وبعد لحظة صمت سألتني: "أتحبها؟"

نظرت إليها مدهوشاً ومستنكراً وحائراً، ولم أتمالك نفسي: "حتى أنت يا تشو!"

نظرت إليّ بتعبير من الانتصار الفكاهي، كشخصية شريرة في كرتون للأطفال، وهتفت: "حتى أنا؟! من قال لك هذا غيري؟"

- "بحق السماء!"

- "إذن.. ما إجابتك؟"

لذت بالصمت، واحترمت تشو هذا فتوقفت عن المزاح، وقالت لي: "حسنًا، إذا كنت تكن لها شعورًا ما عليك أن تخبرها بوضوح؛ سايا تتعامل ببراءة تبلغ حد الغباء وتظن الجميع مثلها".

- "مثلها؟"

- "يفكرون في الموسيقى وحسب".

أملت رأسي ببطء، فغمزت لي: "عندما تنزاح هذه الأزمة، اطلب منها أن تواعدك".

- "ومتى تنزاح الأزمة في رأيك؟"

- "عندما تتقبل سايا كوننا بشرًا لا روبوتات قادرة على العزف إلى الأبد، أو عندما تفيق نانا من حالة الوهن هذه، وتعود للتمسك بحلمها".

استغربت ما قالته، وسألتها: "قلتِ ودايكي إنكما تساندان نانا!"

- "تساندها طبعًا، ونتقبل كل ما يجعلها سعيدة، لكنها وكينجي لا يليقان ببعضهما".

- "إنني أراهما مثاليان".

- "أنت مخدوع، لن يدوم وفاقهما طويلًا، وستستيقظ نانا عاجلاً مما وضعت نفسها فيه، وعندها سنكون في موقف عسير".

- "وهو...؟"

نظرت عبر نافذة الطائرة قليلاً، ثم قالت بصوتٍ واجم: "كينجي سيتحطم، ولن يعود صديقنا كما كان في السابق، وهذا هو الشيء الوحيد الذي صدقت سايا في تنبؤها به".

اعترضت بضيق: "وربما يتجاوزان كل شيء ويكملان، لماذا أنتم متشائمون هكذا؟"

ضحكت وقالت: "لأننا مررنا بالكثير معًا، وكل المواقف تبدو متكررة لدرجة مضحكة".

- "ورغم هذا سايا تتعامل كالقنبلة الموقوتة".

أشارت إلى دايجي المستغرق في قراءته: "هذا لا شيء. قبل عام ارتبط دايجي بعارضة أزياء كورية. ولما أخبر سايا طرده من البيت شهرًا".

ثم لفت ذراعها حول ذراعي متوددة، وسألتي بخبت بريء كالقطط: "ولكن أخبرني.. من قال لك هذا غيري؟"

استقبلتنا سماء كوريا ببوابل من الأمطار أغرقنا، حتى وصلت حافلة شركتنا حاملة مدير أعمالنا. حيّانا بأدبٍ وطريقةٍ رسميةٍ كالعادة، ثم انطلق كالمنديع يخبرنا بجدول زيارتنا لكوريا، ولأول مرة اعترفت لنفسي بأنني لا أحب هذا الرجل: إنه ممل كأسطوانة لا تكف عن الدوران، حتى حين يُبلّغنا بأخبار جديدة يتكفل صوته الرتيب بتحويلها إلى نشرة أخبار مستهلكة سمعناها مرارًا وتكرارًا حتى حفظناها.

أنهى محاضرتي وتحدث إلى السائق بالكورية بكلمات لم أستوعب بعضها، فانطلق بنا في المدينة المشتعلة بالحياة رغم المطر. طالما أحببت سوول، حتى أنني قضيت شهر العسل مع ناومي فيها، وطفنا كل ركنٍ منها. تطايرت معالم الشوارع أمام عينيّ والذكريات تأخذني، ويهدوء تسربت الكآبة لتلوثني، كما تتسرب بقعة زيت لتغمر سطح نهر.

لم يمر وقتٌ طويل حتى خرجنا إلى ضاحية هادئة، وتوقفنا أمام سورٍ عالٍ لمنزل يضخ حياة تشبه التي تركناها خلفنا في طوكيو. نظرت إلى تشو مضطربًا فابتسمت، أما دايجي فقال لي: "إنه بيتي، مرحبًا بك".

لم أحاول سؤاله عن سبب شرائه منزلًا في كوريا؛ لم يكن في مزاج للحديث فتجنبته، أما تشو فسيقنتنا في مغادرة الحافلة. لحقت بها وداهمني الإحباط إذ وجدت نفسي أمام بناءٍ كوريّ تقليديّ تحيط به الأسوار، ووقفنا أمام البوابة العالية المصمتة المؤدية إلى الداخل، وقرأت عليها كتابة بالرموز الصينية لم أدرك

معناها تمامًا، ففسرها لي داكي: "(بيت النجوم).. هكذا أسمته سايا، كان هذا أول بيت نشتره في الخارج، وثاني بيت يمتلكه أحدنا بعد بيتنا في اليابان".

انفتحت البوابة، واستقبلني مكان جميلٌ ورحبٌ، تزينت الساحة الداخلية له بأحواض زهور، وفي أقسام منها تراصت تشكيلات فنية من الصخور، وشاعت روائح عطرة لنباتات جميلة تشكل سوزًا يحيط بالمكان. خطفت رقة الديكور ورقبه أنفاسي، وتلاشى شعوري الغامض بالإحباط.

أما البيت نفسه فكان من طابقين، مبنياً على الطراز التقليدي للمنازل الكورية القديمة، إلا أنه فرش بأثاث على الطراز الغربي الحديث. وحال دخولي غرفة المعيشة ارتمت على إحدى الأرائك مفكرًا في كم الأسرار المدهشة التي تتبدى لي كل حين من أفراد فريق العجيب هذا، لكن داكي صاح في أنهض وأنام في (غرفتي)، فاقترحت عليّ تشو أن أخذ الغرفة المجاورة لسايا لأنها ستعجبني، فلم أكذب خبرًا، واتجهت إليها لأبدأ طقوس وصولي.

ورغم أنني اغتظت لاقتراحها الخبيث الذي ألقته عليّ بصوتٍ ذي مغزى، إلا أنني شكرت تشو سرًا إذ كانت الغرفة التي اختارها لي مريحة وعطرة الرائحة، وتطل على حديقة خلفية صغيرة يتوسطها حوض للأسماك الملونة. خرجت إلى تلك الحديقة فראيت غرفة سايا من الخارج، لكن بابها الزجاجي العريض عكس صورتني دون أن يشفَ بما يكفي لأرى تفاصيل المكان الذي يحتضن وجودها، جعلني هذا أفتقدتها بشكلٍ موجه، ولم أجد مهربًا من غيابها إلا النوم.

لم أدر كم كنت مرهقًا إلا حين صحت من نومي، كان الوقت ليلاً والظلام يشمل المكان. وضوءٌ خفيفٌ يتسرب من تحت باب غرفتي، ويحيل الموجودات إلى ظلال رمادية تشع هالة صفراء شاحبة، كان هذا ضوء المصابيح الدائرية الصغيرة المزروعة في الأرض. لبثت في فراشي حينًا بذهني خالٍ، ثم نهضت واغتسلت، وغادرت غرفتي إلى غرفة المعيشة لأجد سايا مستلقية على الأريكة الكبيرة تحديق إلى السقف في الظلام النسي. نبض قلبي لرؤيتها بخفقاتٍ مفرحة. وبقيت دقائق أنظر إليها دون أن تشعر بي، ففتحت هاتفني وكتبت رسالة سريعة: "أنا هنا، لا تفري".

ورغم هذا أجدت عندما نظرت نحوني ورأيتني، ونادتني: "تعال يا تاكومي".

اقتربت منها وقلبي يختلج، ووقفت أطيل النظر إليها في رقبتها، فسألتني: "ما خطبك؟"

"أكنت تبكين؟"

"من قال هذا؟!"

"صوتك مختلف".

"لقد أصبت بالبرد؛ كان المطر غزيرًا في التصوير اليوم".

جلست على طرف أريكتها، أمسكت معصمها وقلت: "خذنيها نصيحة من نصف مجنون، لا تتظاهري أبدًا أنك بخير إذا لم تكوني كذلك".

ابتسمت بطريقة مشاغبة: "أنت لست نصف مجنون، وأنا لا أبكي".

وأبعدت يدي عنها، وأرخت رأسها مجددًا مغمضة العينين، وبقيت أنظر إليها ونبيض قلبي يتحول إلى سيمفونية مبهجة تنافس الفالس الثاني لديم تري شوستاكوفيتش. شعرت بالفكرة تضربني كموجة عاتية فهضبت وأنا أقول لها: "تعالى نرقص".

فتحت عينيها على اتساعهما مدهوشة: "نرقص!"

"نعم، تعالى نرقص".

ظلت نظرة الدهشة عالقة بوجهها وأنا أبحث عن المقطوعة عظيمة البهجة في هاتفي، وحين أدركتها ضحكت سايا: "لا ريب أنك تمنح".

وضعت الهاتف والتفتُ وملت عليها، أحطت خصرها بذراعيّ، فلفت ذراعها حول عنقي بحركة تلقائية وجلة، وصاحت بي وأنا أحملها وأدور بها حتى بلغت منتصف الغرفة، ثم أنزلتها لتلامس قدميها الأرض. حدقت إليّ بنظرة مبهورة لم تخل من ترقب وشعور بخاطر غامض، ولم أحاول تفادي هذا الخطر، بل جذبتها نحوي أكثر، وهمست في أذنها: "ارقصي معي يا تسوباسا سايا".

لم تملك أن تعارضني، انحدرت يدها من خلف عنقي إلى كتفي، وسرعان ما أخذتها الأنغام معي، رقصنا وكأننا نسيج مع السحب، ولن أنسى ذلك الشعور ما حييت.. على كثرة ما عشت معها من أوقات، كانت تلك الرقصة أسعد ما جمعتي بسايا.

حين بدأت المقطوعة من جديد كنا أشد حماسًا وحيوية وابتهاجًا، تقاربنا في الرقص أكثر حتى أصبحنا قاب قوسين أو أدنى من عناق حميم، ولاحت في عينيها تلك النظرة العاشقة التي تختطفني، حتى دفعتها لتدور حول نفسها ففعلت، دارت سايا كثيرًا كثيرًا، ولا أعرف ماذا أصابها في تلك اللحظات التي فارقتني فيها، إذ عادت إليَّ وعيناها تلمعان بالدموع.

شددتها إلى حضني وتوقفتُ، فسكنتُ دون أن تحيطني بذراعيها كما توقعت، ثم سألتني: "لماذا تتوقف؟ قلت إننا سنرقص".

"قولي لي ماذا يضايقك؟"

"لا شيء، فقط أشعر بالإجهاد إلى حد الموت".

ودفعتُ صدري بلطف وابتعدتُ عني، وأغلقتُ الموسيقى المبهجة وعادت لرقدتها فوق الأريكة. لاحقتها بسؤال: "قولي لي قيم تفكرين الآن؟"

قالت بلا مبالاة: "في روعة أن أختفي من العالم".

"هذه ليست أمنيته الحقيقية".

مازحتني بصوتٍ لعبوب: "وما أدراك؟"

"لأنني كنت مثلك، لقد تمنيت كثيرًا أن أختفي من العالم، لكن الحقيقة أنني كنت أتمنى لو يعثر عليَّ أحد".

"وهل عثر عليك أحد؟"

"أنت".

علت وجهها نظرة انتباه مفاجئة، وهبت تبحث حولها حتى التقطت مفكرتها، وفتحتها وبدأت تكتب. سألتها حذرًا: "ماذا تفعلين؟"

قالت بتركيز: "هذه العبارة تصلح لأغنية".

تهدل كتفائي إحياطًا، وسرت لأجلس على طرف أريكتها من جديد. تأملتُها وهي تكتب فانيبحث فالس شوستاكوفيتش ليغمر قلبي، ووجدت نفسي أبتسم. بدأت تعدل الكلمات وتدندن في سرّها، وتسرب إلى قلبي ضيقٌ إذ نست وجودي وغرقت مع أغنيتهما، فسحبتُ مفكرتها منها، وقلت: "ابقي معي قليلًا".

أخذت علبة سجانرها وأشعلت واحدة، ثم سألتني: "الحفل الأخير كان عظيمًا، أليس كذلك؟"

- "لعله أعظم حفلاتنا".

هاج مزجها كالإعصار فجأة. صاحت: "ليس الأعظم، لو أنه الأعظم فمن الأفضل أن نتوقف ما دما قد بلغنا القمة".

أفزعي هجومها فقلت: "أنا لم أقصد...".

- "أنا آسفة".

وأحنت رأسها وتنفست، فسمعت ما يشبه نشيجًا مكتومًا، ثم اعتدلت بعد لحظة متمالكة نفسها، لكن أصابعها كانت تضم سيجارتها وهي ترتعش في رقصة ألم لا تخفى. استولى عليّ القلق، وبقيت أنظر إليها متمنيًا أن تلين، أو تظهر بادرة ضعف، لكن سايا لم تفعل. ظلت تدخن دون توقف وهي تنظر إلى السقف، ثم استرنت مفكرتها وعادت إلى الكتابة.

سألتها: "ألا تردين الحديث؟"

قالت بهدوء تام: "إنني مرهقة وحسب يا تاكومي، لا يوجد ما أتحدث بشأنه".

- "ماذا تكتبين إذن؟"

- "أغنية جديدة".

مازحتها لأخفف عنها ما لا أدريه: "التي ألهمتك بها؟"

شقت جهامة وجهها ابتسامة صغيرة، وأجابتني: "لا، واحدة أخرى يطاردني لحنها منذ زمن، وكتبتها في الطائرة اليوم".

- "ماذا تقول؟"

مطت شفيتها وقالت: "لو كانت مبتذلة ستخبرني، اتفقنا؟"

أومأت لها مبتسمًا، فناولتني المفكرة، وقرأت ما كتبت:

"لا أزال أتذكر كل شيء"

اللحظة الأولى التي رأيتك فيها

الكلمة الأولى التي سمعتها منك
 قلبي الذي يخفق، يحلق، يطير إلى السماء
 لو عاد الزمن من جديد
 سأرحل قبل أن تأتي
 أتمنى لو أنني لم أقابلك قط
 لو أننا لم نلتقي
 ربما ما شعرت بكل هذا الحزن
 كيف استطعت أن تؤلم قلبي إلى هذا الحد؟"
 قطبتُ وطرقتُ بعينيّ مرابٍ ومرابٍ حتى انتهيت، ونظرت لي سايا وهي تلوي
 شفتيها، وفي عينيها نظرة مقيّمة غير راضية، فقلت لها: "ما هذا؟"
 -"الأغنية".
 -"إنها أكثر الأغاني التي كتبتها حزنًا".
 همهمت قليلاً ثم قالت: "إنه الكريسماس يا تاكومي، لا بد أن نقدم لجمهورنا
 شيئاً مميزاً في نهاية العام".
 -"طبعاً، لنلعب عامهم الجديد بالكأبة قبل أن يبدأ".
 أغرقت في الضحك، ثم تنهدت: "آه لو كنت أستطيع عزف الآلات الخمس
 معاً".
 -"ماذا كنت ستفعلين؟"
 غمغمت كما الهذيان: "كنت لأصبح كاملة".
 فهمت ما ترمي إليه فقلت: "كل البشر يحتاجون إلى الآخرين يا سايا".
 بصوتٍ هادئٍ تمامًا قالت: "إلا أنا".
 ونظرت بعيداً تتجنبني.

لم أعلق؛ أعلم أنها كاذبة بارعة لكن كلامها أوجعني، ولم أجد في نفسي طاقة لأجادلها. لفنا صمت أنقذنا منه صوت جرس البيت، فنهضت هاربًا من ثقل الموقف، وخرجت إلى الساحة الخارجية متوقعًا أن يكون الطارق رجل الأمن لسبب ما، ولكن عندما فتحت البوابة الكبيرة رأيت ملاكًا يقف بالباب.

كانت فتاة باهرة الجمال تبلغ من العمر سبعة وعشرين عامًا، وأحد عشر شهرًا، وخمسة أيام، لها شعر طويل مصبوغ بلون عسلي داكن بدلًا من لونه الأسود الفحمي، وعينين واسعتين رماديتين داكنتين بدت فيهما العدسات التي تعالج ضعف نظرها بوضوح. ووجنتها مرتفعان مكسوتان بلون خوي فاتح، وشفتيها تلمعان بلون خوي متوسط، وقامتها القصيرة محمولة على حذاء بلون المحار الداكن يرتفع كعبيه المعدني لتسعة سنتيمترات، وترفل في فستان كريمي قصير تعلوه سترة من الفراء الناعم، وتزين عنقها بسلسلة ذهبية كلون السلسلة التي تحمل حقيبتها الصغيرة المشابهة تمامًا لحذاءها.

عرفها قلبي فنبض بعنف قبل أن يدرك عقلي هويتها.. كانت نجمة الدراما الكوري الشهيرة (كيم سون هي)⁽¹⁾، التي انطلقت مع موجة الهاليو قبل أعوام لتستعبد قلوب الملايين حول العالم، وأنا أولهم.

انحنيت برشاقة ولطف، وانغرست لغتها الكورية الرقيقة في أعماق قلبي وهي تحيييني بأشد الألفاظ احترامًا: "مرحبًا يا سيد تاكومي، إنه لشرف لي أن ألقاك".

استحلت تمثالًا عاجيًا عاجزًا عن تحويل عينيه بعيدًا عنها ولو لرد التحية، لكنها بدت متفهمة، ابتسمت واكتسى لطفها بشيء من الدعابة وهي تقول: "أسفة لإزعاجك ولكن أين سايا؟"

- "سايا!"

كان هذا ما استطعت قوله بعد جهد، ثم فهمت ما تريد قوله فرددت: "آه! سايا!!!"

ضحكت وأخفت فمها بأطراف أصابعها وهي تفعل، فهوت كل صواعق الأنوثة والجادبية لتنتزع روحي من جسدي، وتلقيني في فردوس لا يراه أو يشعر به سواي.

¹. تتكون الأسماء الكورية من ثلاثة مقاطع، المقطع الأول هو اسم العائلة، والمقطعين الآخرين هما اسم الشخص نفسه.

حاولت أن أقول أو أفعل شيئاً لكن الأمر انتهى بي وأنا أهز رأسي، وأفتح فمي وأغلقه دون أن أعتز على كلمات، أو أستطيع ترتيب أفكاري وكبح مشاعري.

سمعت سايا تنادي من خلفي: "ميساو!"

حركت كيم سون هي رأسها لتلقي نظرة عليها ثم ازداد وجهها إشراقاً، ونادت بشوقٍ: "سايا".

سمعت أقوى وأحدّ صرخة في حياتي: "ميساو".

وفي لحظة قطعت الساحة، بينما دفعني كيم سون هي جانباً وجرت إليها، تعانقتا كمن افترقتا أعواماً، ورأيت في عناقهما تشبُّهاً لم أر في حياتي مثيلاً له، وكذلك سعادة سايا، لم أرميلاً لها من قبل.

بالأحرى، أنا لم أرها قط سعيدة قبل هذه اللحظة.

كانت تضحك ضحكة سعيدة عظيمة، وتمرر يدها على ظهر كوريثي الفاتنة وتشدد عناقها لها، ثم طفرت من عينيها دموع فرح. وبدورها كانت فاتنتي دامعة العينين بابتسامة كبيرة. انتهتا من العناق وجلستا على حافة الممشى الخشبيّ الجانبيّ، ممسكتين بيديّ بعضهما بقوة.

قالت سون هي: "أعرف أن موعدنا غداً لكنني لم أتحمل الانتظار؛ شعرت بقلق مفاجئ فجئت لأراك، شعرت أنك - ربما - بحاجة لرؤيتي الآن".

هزت سايا رأسها ودموع سعادتها عالقة بأهدائها، ووضعت سون هي يدها على خدها وسألتها: "ماذا بك يا صديقتي؟ هذا الضيق واليأس الذي أشعر به منك بالتأكيد، هل أنا محقة؟"

كانت تستعمل لغة يابانية شديدة الطلاقة والسلاسة، فاستغربت تحيتها لي بالكورية!

عندما هزت سايا رأسها بالإيجاب أمسكت بكتفها وقالت: "أنتِ ترتعشين يا سايا! ماذا حدث؟"

قالت بصوتٍ مضطرب: "إنني مجعدة، عانقيني فقط يا ميساو".

عانقتها كيم سون هي بقلق: "لا بأس، سيكون كل شيء على ما يرام، أنا معك الآن، وسأستعمل تعويذة سحرية تسحب كل الحزن منك".

هزت سايا رأسها رافضة، وقالت: "إنني متعبة، أود أن أنام ولا أستيقظ أبداً.
كيف يمكن أن يحدث هذا لي؟"

شدت سون هي عناقها وأكدت: "كل الآلام ستذهب بعيداً، كل شيء، أنا وأمن
بك يا صديقتي".

أومأت سايا برأسها، ولم تتوقف سون هي عن عناقها، بقيت تمرر يدها على
ظهرها برفق، وتهمس بكلماتٍ بدت كأغنية بلغة لا أعرفها، فبدت كساحرة حقيقية
تلقي بتعويزة للشفاء على صديقتي الأقرب، والتي سرعان ما هدأت ملامحها
وحملت سكينه صادقة.

تركتهما عائداً إلى غرفتي، درت فيها حتى أصابي الدوار والصداع، ثم ارتميت
على فراشي شاعراً بهم لم يبده مفعول الأدوية. ولأول مرة منذ زمن أتمنى لو كانت
ناومي موجودة، لو كانت نائمة إلى جوارتي تحتضني باعثة في أماناً يبدد خواء روحي
وضياعها، تمنيت لو أنها موجودة تتعلق بي وتحتاجني، لو كانت موجودة وحسب
أيّاً كان ما تفعله.

في تلك الليلة افتقدت ناومي كما لو كانت قد ماتت بالأمس، ثارت أوجاعي دون
مقدمات، واستيقظ الحزن والافتقاد كجمرٍ محتضر هبّت عليه عاصفة. جرحني
سايا حين تحدثت عن عدم احتياجها إلى أحد، ورغم يقيني بكذبها إلا أنني شعرت
بفداحة خسارة المرأة الوحيدة التي احتاجتني حقاً، وأحببني حقاً، ولم أحبها
وأحتاجها بما يكفي حتى دفعتُ بها إلى الموت.

جذبت الغطاء فوق أثارى فيه عن العالم، وسحبت وسادة كبيرة فوق رأسي
أخنق بها صوتي. بعد ثلاث سنوات من رحيلها وجدت نفسي أبكي على ناومي، بكيت
حتى قتلتني الحزن قتلاً. ما عدت بحاجة للتظاهر بالغضب عليها، ولا لإقناع نفسي
أنها خانتني بانتحارها وتخلت عني، فكل شيء فعلته كان خطيئتي وحدي.

تأوهتُ شاعراً بنارٍ تندلع في قلبي، واستعدتُ كل ما كان بيني وبينها منذ رأيتها
وحق اليوم، ولم يؤلمني انتحارها وفقدتها بقدر ما ألمني شيء آخر.. أن شبحتها الذي
يطاردني قد اختفى إلى الأبد، ولن أشعر به إلى جوارتي ثانية أبداً، مهما بلغ بي
افتقادها.

كالعادة، تبدل مزاج سايا في الصباح..

استيقظتُ من النوم على عاصفة من المرح والسعادة، ثم اقتحمت غرقتي تغني وتناديني: "هيبه.. تاكومي، هيا استيقظ وأشرق في هذا اليوم الجميل".

أغمضت عيني بإحكام، متمنيًا أن أعود لظلمة النوم المريحة، ولكن هبات. سحبت سايا الغطاء عني وهزتي بإلحاح، فنهضت جالسًا غير قادر على تحمل صوتها، شاعرًا بأن العالم أضيق في عيني من سَم الخياط. زجرتها: "يجب أن تستأذني قبل الدخول".

داعبتني: "ولم؟ أنا أعلم أنك نائم وحدك".

- "ماذا لو وجدتني عاريًا مثلًا؟"

قالت بلمهة لعب: "أوه يا تاكومي! لماذا يجب أن أحترس من رؤية هذا المنظر الجميل؟"

وألقت ذراعها على كتفي وابتسمت بخبث، فقلت: "صحيح، لقد نسيت أنني نموذج الجمال الرجولي المثالي في عينيك".

تجعد جبينها دهشة وضحكت: "من أخبرك؟"

- "تقولين الكثير وأنت سكرانة".

تهددت بصوتٍ انغرس في صدري كنصل مثير، ونظرت في عيني مباشرة تسألني: "وهل يضايقك هذا؟"

لكسرٍ من الثانية بدا الموقف وكأننا نستقبل صباحًا جميلًا بعد ليلة حب، ملابسها البيضاء وبشرتها النضرة منحنتني هذا الإحساس. ورغم ضيق صدري الذي لا يوصف، وثقتي أنها تمزح معي مزاحًا سخيًا، شعرت بإغراء مؤلم يعيث بأعصابي، فألقيت يدها عني بخشونة صريحة، ونظرت عبر زجاج الشرفة إلى الخارج.

قلت بجفاء: "يبدو أن مزاجك الكئيب قد اختفى خلال الليل".

- "حاول أن تنسى هذا".

- "بالتأكيد، فأنت تتعاملين مع آلات يسهل محو ذاكرتها".

توتر صوتها وقد أدركت سوء مزاجي الحق: "أنت في مزاج سيئ حقًا يا شريكي".

- "انظري من يقول ماذا!"

ابتعدت عني ونهضت، ووضعت بيننا خطأ دفاعيًا متوقعًا بقولها الهادئ: "حسنًا، إنني أعتذر عما حدث أمس، وأعدك أنه لن يتكرر".

قلت لها بعداء: "وكانني أهتم".

صمتت قليلًا فتمنيت لو أنني أوجعتها كما فعلت بي، وتجاهلت النظر في وجهها. قالت لي: "الإفطار بعد عشر دقائق، وبعده نتحرك لنبدأ بروفاتنا".

حالمًا غادرت الغرفة تناولت أدويتي، متمنيًا لو تأخذ بعض المشاعر السيئة التي عانيتهما في ليلتي الماضية. كان مزاجي مروغًا، ووقفت أمام مرآة الحمام أكثر من نصف ساعة متسائلًا عن السبب الذي يدعوني للاستمرار في الحياة. كنت أنحدر من جديد إلى الهاوية التي ظننت نفسي قد نجوت منها.

على مائدة الإفطار كنت منفصلاً تمامًا عنهم رغم مرح الأجواء، والتوافق التام الذي كنا عليه ونحن نتدرب على مسرحنا الجديد، حيث سنحيي ثلاث حفلات خلال عشرة أيام. حين فكرت في هذه الحفلات شعرت باختناق غير محتمل، وودت لو أرحل تاركًا كل شيء، لكنني لم أعرف إلى أين أذهب... ليس لدي من دون تسوياً عائلة، ولا ملجأ، ولا بيت.

انتهت بروفاتنا بسلاسة، وحملتنا حافلة شركتنا إلى لقاء المعجبين في أحد المولات الكبرى، عندها شعرت بالضغط العصبي الذي أمر به يبلغ منتهاه وأنا أجد نفسي مجبرًا على الابتسام والتصرف بأناقة ولمعان الكريستال الجديد. استقبلنا المعجبون بالصراخ والصيحات المجنونة، وبصعوبة مرقنا بينهم حتى وصلنا إلى مقاعدنا في صدر مركز بيع الأسطوانات الموسيقية الأكبر في العاصمة الكورية. جلست أنظر للأعين المفتونة، وشعرت أنني دجاجة مشوية تنتظر تقسيمها على قبيلة من الجائعين. إنهم مرعبون، كنا نحسب لمعجبينا الكوريين ألف حساب؛ إنهم الأشد حماسًا وتعصبًا، قبيلة كبيرة من الساسانغ.

نظم الأمن أحوال القاعة، واتخذ مترجمنا موقعه، وبدأ اللقاء، وطفقت ألوذ بالصمت مستمعًا إلى الأسئلة السخيفة التي لا يكل المعجبون عن تكرارها في كل لقاء بغياً مطلق، وكلها أسئلة عن حياتنا العاطفية، وميولنا الجنسية، واقتراحات

بأفكار مجنونة لتصوير أغانيها القادمة. وذهبت إحدى المعجبات تقول إنها تود رؤية قبلة حميمة بيني وبين داكي، وهو ما ابتسمت له ظاهرياً بالطبع، لكنني شعرت بالاشمئزاز يفور في أعماقي: كيف يفكر فينا هؤلاء المختلون؟ وماذا يجبرني على استنزاف حياتي لأجل إسعادهم بألحاني؟

كانت استماتني لخلق تلك الألحان سبب انتحار ناومي، بسبب هؤلاء المختلين دُمرت حياتي إلى الأبد. شعرت بثقل من الكراهية يسحقني وأنا أتأمل وجوههم المبهورة التي تتطلع إلينا بولع يبلغ حد العبادة.

سألتني إحدى المعجبات: "هل يملك تاكومي سان حبيبة في الوقت الحالي؟"
-"لا".

"هل ستفكر في الأمر مستقبلاً؟"

"ربما".

وابتسمت لها فتابعت: "ما مواصفات فتاتك المثالية؟"

"أن تكون مثل سايا".

أجبت دون تفكير، فعلت همسات الاستثارة بين الجمهور، وبالقرب مني شعرت بشياطين الغضب تنطلق من سايا لتلف ذيولها حول عنقي. أكملت: "إنها عفوية، تتصرف بطبيعتها دون أن تدعي كونها شخصاً آخر، رغم أن طبيعتها هذه لا تطاق".

شاكسني داكي: "عندما تجدها سأوصيها بتخطيم جيتاراتك والشجار معك طوال اليوم مثل سايا أيضاً".

أشرت إليه وقلت: "إنه أكثر من يستمتع برؤيتي أعاني، أؤكد لكم أنه سيفعل ما يقول".

رغم جديتي استقبلوا العبارة كأقوى دعاية سمعوها، وضع المكان بالضحك. ثم انهمرت الأسئلة على سايا بشأن مسلسلها الجديد، وعندما أوشك لقاءنا على النهاية سألنا: "نريد أن نعرف ما يخططه كل منكم بشكل منفرد في الفترة القادمة". كانت تشو أول من أجاب: "بعد نهاية جولتنا سأذهب لزبارة عائلتي وأقضي معهم إجازة طويلة".

وكانت إجابة دايفي نزقة ومرحة كما اعتاد الجمهور: "سأنضم لدورة دراسية جديدة في فنون الطهي، أنتم تعرفون كم أنا ماهر في هذا المجال، لكنني سأزاد مهارة".

أكدت ما يقول بصدق: "أنا أعترف بهذا، إنه يصنع قهوة لا أستطيع العثور على أفضل منها".

تأوهت الفتيات العاشقات فابتسم وغمز بعينه مشيرًا لهن مشجعًا، حتى في عينيّ بدا مؤثرًا وهو يتصرف بتلك الطريقة الأسرة.

أجبت السؤال بعده: "لا شيء أفكر فيه في الفترة الحالية، ربما أشتري أحدث إصدار من لعبتي الإلكترونية المفضلة".

ضحكوا معي، ثم أصبح السؤال مسلطًا على نانا التي أسرت القلوب بابتسامتها البراقة، وأجابت برنة صوتٍ مثيرة: "على خلاف باقي تسوباسا، أنا أملك كثيرًا من الخطط للغد، وسأعلن قريبًا عن أهم خطة في جدولي، وأتمنى أن تباركوها وتتمنوا لي السعادة".

لم يكن لكلامها سوى معنى واحد فهمناه فورًا، أما المعجبين فهتفوا بعشرات الأسئلة الفضولية حول مغزى كلامها، لكن نانا ابتسمت بشكل ساحر واعتدلت في جلستها تاركة فرصة الإجابة عن السؤال لسايا.

اختلست النظر إلى سايا وذكرى دموعها ليلة أمس تلوح أمامي، لكنها كانت متماسكة، بل كانت - بشكل مفاجئ - مقعمة بالحياة، وبروح قتالية وهاجة جعلتها تميل على مكبر الصوت وتتكلم بثقة ومرح: "إن نانا أقرب صديقاتي، أنا وهي نفكر غالبًا بطريقة واحدة، لهذا أملك مثلها كثيرًا جدًّا من الخطط للغد. عندما بدأنا فريقنا كنا مبهورين بفن الفيچوال كيه روك إلى حد الجنون، وقد كان سبب هذا الانبهار هو هيببكي ساما الذي سأعتبره إلى الأبد الأب الروحي للفيچوال كيه روك، وأعظم من انتسب إليه، وهذه هي خطتي القادمة التي لن أتنازلها عنها حتى ولو عننت موتي".

ساد صمت مليء بالفضول، وتابعت سايا بتفاؤل: "أنا مدركة عنف الصراعات التي تدور عادة بين شركات صناعة الترفيه، ومدركة أن شركتنا على عداء مع شركة هيببكي ساما، ورغم هذا فأنا سأقاتل لأجله. عندما تنتهي جولتنا ونعود إلى

اليابان سأذهب إليه مباشرة وأطلب منه أن نتعاون معًا. أريد أن أعزف مع هيببكي ساما لنغير تاريخ موسيقا الفيچوال كيه إلى الأبد".

علت همسات الاستثارة من جديد، وسرعان ما تحولت إلى صيحات صغيرة وهتافات..

قالت سايا بإصرار: "لن أتنازل عن هذا الحلم بالتأكيد، ولن أستسلم عن القتال لأجل هيببكي ساما، مهما كان الثمن، ومهما كانت العواقب".

عندما قالت سايا تلك الكلمات أدركت أنها تقطع على نفسها كل خطوط التردد والرجعة، وأنها أعلنت - بوضوح - الحرب على الجميع.

انتهى لقاء المعجبين الأول في جولتنا..

أجبنا أسئلة الجمهور والصحفيين، والتقطنا الصور مع معجبينا، وغنينا لهم، ووقعنا ألبومنا الجديد... كل هذا وذهن كل منّا مشغول بما قالته سايا. وبنظرات عابرة إلى نانا استشعرت الغضب الذي تكنّه في صدرها، في حين كانت سايا تتصرف ببراعة ومرحٍ مطلقين. وكالعادة تواصل داكي مع تشو بالنظرات التي تفتح ممراً بين أفكارهما، أما أنا فنسيت سوء مزاجي الذي رافقني منذ الصباح، وشرعت في تخيل سيناريوهات القتال الذي سأشهده حالما ننتهي.

غير أن توقعاتي خابت.

غادرنا المركز الموسيقي إلى الحافلة المزينة ببوستر هائل لنا من أغنية (همس النجمات)، وبقينا نلوح لجمهورنا حتى انطلق بنا السائق، واختفى كل شيء عنا، هنا فقط أسفرنا عن وجوهنا، ونظر بعضنا إلى بعضٍ مترقباً، ثم نظرنا إلى سايا ونانا. كانتا تجلسان في آخر الحافلة متجاورتين، تنظران في اتجاهين مختلفين، ثم أخرجت سايا من حقيبتها مفكرتها، وفتحتها عند صفحة معينة، وناولتها إلى نانا. قالت بصوتٍ طبيعي وكأنها تستكمل حديثاً طويلاً: "لقد كتبت هذه، ووضعت جزءاً من اللحن".

أخذت نانا المفكرة منها، ولم تهشم قشرة الجمود التي تكسو ملامحها إلا حين قرأت الكلمات. تجعد جبينها بنظرة استغراب، ثم قالت: "إنها أغنية حزينة!"

- "أعرف".

- "منذ متى نقدم أغنيات كهذه؟"

- "لقد فعلنا من قبل، (ثلاث زهرات بنفسجية) كانت أغنية مؤلمة".

- "لقد كانت استثناءً وحيداً".

قالت سايا وابتسامة صغيرة تملأ وجهها: "لن يقضي الجميع الكرنسماس بسعادة. بعض الأشخاص يمرون بوقتٍ حزين ويودون شيئاً من الموساة".

- "هذه ليست موساة، إنها كآبة مطلقة".

هزت سايا كتفها: "أحياناً تكون مشاركة الحزن خير موساة.. أن تفهمي المشاعر التي يصعب التعبير عنها وتغنّيها، خير من ألف أغنية تدعو إلى البهجة شخصاً غير قادر حتى على الحياة".

ودفعت إلى نانا بأوراق النوتة الموسيقية، فبدت في وجهها نظرة متفاجئة أسعدت سايا، وصفقت بيدها وهتفت كأنما تعني: "رائعة، أليس كذلك؟"

- "الأغنية قائمة تماماً على البيز جيتار!"

فتحت سايا ذراعها بانطلاق وهتفت: "طبعاً، قليل من العباقرة يدركون تأثير البيز جيتار في لحنٍ حزين".

مد داكي يده إلى نانا فناولته الأوراق، واستغرقت قراءتها، وإذ غرقت سايا في ابتهاجها استدارت إليها نانا بكامل جسدها. وحدّقت إليها بثبات، ثم تكلمت بلهجة باردة: "لماذا فعلتِ هذا؟"

استدارت إليها سايا بدورها وقد تعقلت، وبادلتها النظرات، فقالت نانا: "أخبريني بمرر لتصرفك بهذه الطريقة المتهورة. لو كنت تحاولين إحراجي أو التضيق عليّ فأنا لا أقبل بهذا يا سايا".

قالت سايا برزانة: "لم أحاول هذا، ولن أفعل، لم سأحاول إيدانك بأي شكل؟"

- "أخبرني إذن، ما سر هذا التصريح الغريب؟"

- "لقد كنا نحلم بهذا دائماً، ألم نفعل؟ ما المشكلة في مطاردة حلمنا الآن؟"

- "المشكلة أنك بدأتِ بمطاردة هذا الحلم بعد تصريحِي أنني أوشكُ أن...".

وقطعت كلامها وزفرت، ثم سألتها بضيق: "لماذا هذا التصريح في هذا الوقت بالذات يا سايا؟"

- "هل كنتِ تعنين شيئاً بتصريحكِ أنتِ؟"

ترددت نانا لحظة، ثم كذبت بشكلٍ غير مقنع: "لا".

- "ما المشكلة إذن؟"

- "سايا!"

كانت هذه صيحة حادة فاجأتنا، فقالت تشو بقلق: "لا تتشاجرا".

كانت سايا هادئة بشكلٍ غير طبيعي: "نحن لا نتشاجر أبداً يا تشو".

ثم نظرت في عينيَّ نانا وسألتها: "ما المشكلة في هذا التصريح إذا كنتِ لا تنوين شيئاً يا نانا؟ لقد حلمت طوال عمرك بقاء هيبكي ساما، ماذا جدَّ الآن؟"

بتحديٍّ مماثل قالت نانا: "أنتِ تعرفين أنني لم أحلم ببقائه فقط، فلم الآن يا سايا؟"

- "أجيبني سؤالي أولاً، ما مشكلتك في تعاون فريقنا معه؟"

لم تجب نانا، وإزاء صمتها فقالت تشو باستنكار: "لا تقولي إنك خائفة من رد فعل كينجي!"

نظرت لها نانا متضابقة، ولاذت بالصمت عاقدة ذراعها، قالت سايا: "الأمر ليس بهذه البساطة يا تشو، في حالة نانا هناك طريقتين للتفكير. لو افترضنا جدلاً أنها قررت خوض علاقتها مع هيروماسا كينجي إلى النهاية، وأنها مقتنعة به كشريكٍ لحياتها، فهذا يعني أنها تنازلت عن حلمها بهيبكي ساما تماماً، وبالتالي لن يعينها تعاوننا معه من عدمه، بالأحرى ستكون سعيدة للقاء الرجل الذي كان أول من شجعنا عمله على تكوين هذا الفريق. أما لو افترضنا أنها لا تزال متمسكة بحلمها القديم في لقاءه، فستشجع هذا القرار وتتحمس له بجنون، وستكون أسعد الناس. في الحاليتين ستكون سعيدة يا تشو، أما هذا الانفعال الغريب فأنا لا أفهمه، لهذا أسألكم وهي لا تريد إجابتي، أتعلمين لماذا؟"

قطبت نانا جبينها ولم تحول عينها عنها، فأجابت سايا سؤالها بنفسها بابتسامة كبيرة لدرجة الاستفزاز: "لأنها لا تعرف، ولعلها خائفة من المعرفة: لأنها لا

تحسم الأمور كما اعتدنا وفقاً لرغباتنا الخاصة. نانا الآن تفكر بعقلها، والخائفون فقط هم مَنْ يفكرون بعقولهم في أمور لا تحسم إلا بالمشاعر".

ثم نظرت إلى نانا وسألتها: "هل أتابع؟"

لم تجبها نانا. وظل وجهها صخرياً...

- "لقد اتبعت نانا حلمها لسنوات، جئنا إلى اليابان، وانضممنا إلى إحدى أكبر شركات الموسيقى، وتخصصنا في الفيچوال كيه روك، وصرنا نجومًا لامعين، لكنها مكبلت عن متابعة حلمها الأهم بالسعي خلف هيببكي ساما، لأن شركتنا تعادي شركته على نحو صريح. لمدة خمس سنوات ابتلنا لتنتهي تلك العداوة لكنها تزداد اشتعالاً مع كل جولة يقوم بها، أو يقوم بها نجوم شركتنا.

لقد بدأت نانا باليأس من الوصول إليه، وفي هذا الوقت الدقيق يظهر هيروماسا كينجي اللطيف، شخص يحبها ويرغب في قضاء حياته معها، إنه يمثل لها الراحة والاستقرار والغد المعلوم المطمئن، لا تلك الحياة الغامضة التي نحبها، والتي لا ندري هل ستظل مستقرة هكذا أم سيحدث ما يحطمها في أي لحظة. بعد شهرين ستبلغ نانا الثالثة والثلاثين من عمرها، وهي تتساءل: هل حان الوقت لتكوين عائلة حقيقية، والتخلي عن أحلام الأطفال الطائشين التي تشبث بها؟ أم تتابع طريقها الذي تعاهدنا عليه؟"

صفقت نانا ثلاث مرات ببطء شديد، فسألتها سايا: "هل أصبت؟"

ببرود غير مرحب أجابتها نانا: "في كل حرف، وهذا يجعلني أتساءل عن سبب تصرحك هذا مادمت تفهمين كيف أفكر إلى هذا الحد؟ أهدفين إلى بليلة أفكاري؟"

بتحدٍ قالت سايا: "لو كنتِ عاجزة عن مواجهة الأمر فسأجعلك تواجهينه قسراً يا نانا. أنا أعرف أن قلبك معلق بحلمك أكثر مما هو معلق بأحلام الحياة الهادئة المستقرة التافهة تلك، ولن أسمح لك بالتنازل عن هذا الحلم أبداً، لقد وعدتك بهذا".

تدخلت تشو محتجة: "لكننا لن نعيش هكذا إلى الأبد يا سايا، لو أنها ترغب بالعيش مع كينجي فأنت لا تملكين الحق لمنعها".

قالت سايا ببرود: "لو تأكدت من رغبتها التامة في العيش معه للأبد فلن أفعل شيئاً، سيكون هذا اختيارها الحروساًحترمه وأحميه، لكنني لن أتركها تقبل بوضع يبدو مريحاً لمجرد أنها تفتقر إلى الشجاعة والقوة الكافية لمواصلة القتال لأجل حلمها، لن أتركها تعيش بسعادة زائفة وهي لا تكف عن النظر إلى الوراء والتساؤل: ترى ماذا كان سيحدث لو لم أستسلم؟ هل كنت سأقدر حقاً على بلوغ هذا الرجل؟"

ونظرت في عيني نانا، وفي هذه المرة لاح فيهما غضبٌ خفيّ، وقالت: "أنا وحدي دون كل البشر أستطيع إخبارك عن هذا الشعور، لهذا لن أتركك تكبلين نفسك به، مهما كلفني الأمر، حتى ولو كرهتني، حتى ولو كرهني الجميع، سأحافظ على وعدي حتى يتبين لك ما تريد حقاً".

حلت نانا ذراعها مستسلمة، لم أفهم تعبيرات وجهها لكن سايا فعلت، فلانت ملامحها وقالت: "نانا.. أنتِ لست وحدك، أنت تملكين عائلة، تملكيننا جميعاً، وتملكيني، لا تنصرفي بهذا الضعف والتخبط، لا أريد أن أضغط عليك لكن هذا يؤدينا لدرجة لا يمكنك تخيلها، إنه يؤذيني كثيراً".

أعرضت نانا عنها، واعتدلت في مقعدها ناضرة عبر النافذة الأخرى، وتمتمت: "أنا لا أفهمك، وهذا أكثر ما يزعجني".

بأس صاحبت بها سايا: "ما الذي لا تفهمينه بشأني؟"

- "تقلب مزاجك هذا، لقد ثرت غضباً حين أخبرناك بالأمر، ثم هنأتني في اليوم التالي، ثم انعزلت بعيداً، والآن تأخذين خطوة تعرفين أنها ستربكيني".

طرفت عينا سايا ثم خفضتهما، تمتمت: "أنا أعرف، أنا أتصرف بطريقة غبية، وأعجز عن مقاومة أنانيتي، وأشعر بأشياء لا ينبغي أن أشعر بها، لكنني أجاهد للخلاص منها، وكل ما يسيطر عليّ الآن أن أحتفظ بك يا نانا، مادمت معي سأتخطئ كل شيء، سأتجاهل كل مشاعري وأتحمل أي ألم، كل ما يخيفني الآن أن تتفكك العائلة".

دون تردد قالت نانا: "العائلة لن تتفكك، أيّاً كان قراري فأنا لن أتخلي عنكم ولن أتوقف".

- "أهذا وعد؟"

- "نعم".

أغمضت سايا عينيها وابتسمت، بدت ابتسامتها منكسرة للحظات ثم نظرت من النافذة المجاورة لها، وسألته: "لماذا هيروماسا كينجي دون كل الرجال؟"

رنت في صوتها سخريه ممزوجة بالهم وحزن واستغراب، مشاعر متضاربة جعلت نبراتهما تبدو وكأنها لشخص لا أعرفه، وتولاني قلق غامض.

أجابت نانا عن سؤالها بآخر: "ماذا تعنين؟"

برفق غمغمت سايا: "لقد كنا نتجنب دائماً الرجال المقربين منا، ونتجاهل هؤلاء الذين نعتبرهم أصدقاء لنا، ولا نتورط معهم مهما حملنا لهم من مشاعر، لأننا ندرك أن فقدهم في حال حدوثه سيكون أبدئاً. لماذا كينجي بالذات؟"

حمل وجه نانا شيئاً من الشعور بالذنب، ورغم أن كليهما كانتا تنظران في اتجاهين متعارضين، إلا أن سايا شعرت بها، وترفقت بها إذ قالت: "لا بأس، أظنه يحبنا بما يكفي ليحتفظ بعلاقته معنا مهما حدث، ونحن نحبه كفاية لنتظاهر أن شيئاً لم يكن".

- "وماذا لو لم نستطع؟"

- "عندها سنحرره من أي وعد قطعه لنا، ويمكنه أن يذهب".

كانها لا تصدق سرعة الإجابة استوثقت نانا: "بهذه البساطة يا سايا؟"

ونظرنا إلى بعضهما في اللحظة نفسها، وقالت سايا دون تردد: "لأنك الأهم، وجودك معي أهم شيء في العالم بالنسبة إليّ. أنت الشخص الوحيد الذي أحبه أكثر من نفسي".

وضعت نانا يدها فوق رأسها وكأنها تربت على رأس حيوانها الأليف، فأشرقت ابتسامة صغيرة من شفتي سايا ببطء. قالت نانا موبخة: "حمقاء".

صفقت تشو بيديها جاذبة الانتباه وقالت: "حسنًا، هذا القدر من الدراما يكفي، ماذا سنفعل الآن؟"

ناول داكي أوراق الموسيقى لسايا وقال: "لو ضاعفت سرعة الإيقاع ستكون أفضل. الأغنيات الحزينة تكون مدمرة حين تُعزف بموسيقى سريعة".

رفعت سايا حاجبها إعجابًا بالفكرة، وتناولت نانا الأوراق منها قائلة: "سأعكف عليها الليلة.. إنها تعجبني بشكلٍ خاص".

كررت تشو متذمرة: "ماذا سنفعل الآن؟"

رفع دايمي يده باسترخاء وقال: "لديّ جلسة تدليك، لا أريد حديثًا عن العمل لمدة يومين".

قالت سايا بحماس: "هذه خطة عظيمة، أخبرني عن نتائجها حين أعود".

- "تعودين من أين؟"

لم تجب حتى توقفت الحافلة بعد قليل، فنهضت وودعتنا: "أراكم لاحقًا، لديّ موعد الآن".

وغادرت الحافلة لتتركني وحيدًا.

لم تنتبه لوجودي، لم تعلق على ما قلته في لقاء المعجبين، لم تنتبه لصمتي المستمر منذ الصباح، لم ترني طوال اليوم. مجتزأً مرارة هذه الأفكار عدت مع نانا إلى البيت، إذ فارقنا دايمي لجلسته التدليكية، ومعه تشو التي لم تقرر أين ستقضي ليلتها، وظلت تتذمر وكأن الترفيه عنها مسؤوليتنا.

كنت أحب صحبة نانا على قلة الأوقات التي قضيتها معها وحدنا؛ إنها صموتٌ وهادئة، ولعلها قادرة على البقاء دون أن تنطق بكلمة ساعاتٍ طويلة إذا ما بقيت صامتًا بدوري. ليست كدايمي الذي يهوى تكدير مزاجي، ولا تشو ملكة الثثرة، ولا سايا بكل ما تثيره في نفسي من عواصف جنون ووجع لا أفهم أبعاده بعد.

كان صمت نانا أفضل ما يمكنني أن أحظى به الآن، فلم أكن راغبًا في البقاء وحدي، ولا مستعدًا للبقاء مع أي شخص؛ إهمال سايا لي كان أشبه كشوكة عالقة في حلقي، تعيقني عن الشعور بأي شيء سواها، وأردت صموتًا ومساحة هدوء لأحاول التغلب عليها.

عكفت نانا على مراجعة النوتة الموسيقية، وعزفت اللحن بالبيز جيتار فوجدت نفسي مسحورًا، وانضمت إليها بالإلكتروك جيتار، وشرعنا في العزف دون أن نتخلى عن صموتنا وكأننا في معبدٍ مقدس. ضاعفنا الإيقاع كما اقترح دايمي فجاءت النتيجة أفضل، ثم ضاعفناه ثانية فجاءت النتيجة باهرة، وأجرنا تعديلين آخرين.

وحين انتهينا خرجنا إلى ساحة المنزل الداخلية، وأعدنا قهوة، ومضى الوقت في صمتٍ لطيف يهدئ الأعصاب.

لم تعد سايا حتى منتصف الليل، فقررت التوقف عن انتظارها، لكنني استيقظت في الثانية صباحاً وهاتفي يهتز بطنينٍ مزعج، فانتفضت وكأني أعلم أن المتصل سايا. في الواقع كان هاتف سايا يتصل بي، لكن المتحدث كان شخصاً كوريّاً فهمت منه بصعوبة أنها ساهرة في أحد البارات الشهيرة، وقد سكرت تماماً حتى سقطت نائمة.

غادرت البيت في جوٍ شديد البرودة متسللاً، وبمعجزة وجدت تاكسي بعد مسيرة طويلة قادتي إلى شارع حيوي، بعيداً عن ذلك المنعزل الذي يقع فيه بيتهم. وصلت البار في الثالثة صباحاً تقريباً، شاعراً بغربة كوني لم أدخل مكاناً كهذا في وقتٍ كهذا منذ زمن.

كانت سايا في مقصورة خاصة وحدها، وهي غرفة كورية تقليدية فُرشت أرضيتها بالحصى الفاخر، وتتوسطها مائدة منخفضة، خشبية ومستطيلة، تراصت حولها وسائد للجلوس. كانت المائدة مزدحمة بكؤوس صغيرة جداً ترسبت فيها بقايا التاكيلا التي فرغت زجاجتها، وجوارها زجاجة نبيذ تنتظر دورها. هالتي المنظر، وتوجهت إليها إذ سقطت نائمة على الأرض جوار المائدة، ورفعتها وأنا مشتت بين القلق والسخط، أسألها: "هل تحاولين الانتحار يا حمقاء؟"

وقلت للنادل الذي اصطحبني إليها: "يمكنك أن تحضر فاتورتها".

اعتذر بأدب: "عفواً يا سيدي، لقد سبق ودفعتها قبل أن تبدأ الشرب".

شكرته، وأوليت اهتمامي لسايا محاولاً إفاقتها. كان مكياجها قد زال، وبدت بشرتها شاحبة ومجعدة، بهالات داكنة منتفخة تحت عينيها، وتقطبية صغيرة بين حاجبيها، وانفراجة تعب في شفتيها. رحت أربت على وجهها حتى فتحت عينيها، ونظرت لي دون تركيز، ثم استوعبت الموقف قليلاً. نادتي بصوتٍ غائم فقلت: "مرة أخرى تفعلين الأشياء التي تهرينني عنها".

هزت رأسها لكنها لم تفهمني، ونهضت بحركات متخبطة حتى جلست، واستندت إلى المائدة لتجذب زجاجة النبيذ فمنعتها. قلت: "لن تشربي شيئاً آخر".

- "لقد أبقيتها إلى النهاية.. إنني أحب...".

وسقطت على الأرض شبه نائمة من جديد، لكنني أنهضتها، فتابعت: "أحب النوم بعد شرب النبيذ، أحب أن يكون أول طعم أستقبل به يومي التالي".

جارت سخافة ما تقول بقولي: "يومك التالي سيكون مأساويًا".

سقطت على الأرض ثانية وتقلبت، وتبدل صوتها إلى بكاء وشيك، وسألتني: "ما الذي أفعله؟ أنا لا أفهم شيئًا مما يحدث لي، كيف يحدث هذا لي؟".

أنهضتها من جديد فجلست، ومالت عليّ تسألني: "لماذا أنا على قيد الحياة حتى الآن؟"

- "لترعجيني، ولأستيقظ بسببك في الثالثة صباحًا وأقطع نصف سوول في تاكسي لأجذك سكرانة بهذا الشكل".

ضحكت وألقت رأسها إلى الوراء، فمال جسدها حتى كادت تنقلب على ظهرها، فأسرعت وأسندتها، وما لبثت أن مالت إلى الأمام حتى كادت تصطدم بالمائدة، ثم أخذت زجاجة النبيذ وصبت منها، وقالت لي: "هذا مشروي الحبيب الذي يشعل المشاعر".

ورفعت كأسها أمامي بنظرة تحدٍ لا يبرره شيء، ثم جرعت النبيذ دفعة واحدة، واختنق صوتها بالسعال، فنهرتها: "توقفي، النبيذ لا يشرب هكذا".

- "هل ستعلمني كيف أشرب يا تسوباسا تاكومي؟"

سحبت الكأس منها قسرًا: "أنت بحاجة لتعلم الكثير يا تسوباسا سايا".

استدارت وألقت بنفسها عليّ، ولفت ذراعها حول عنقي، وقالت بصوتٍ مغرٍ: "ليس الكثير كما تظن".

ابتسمت وأشحت عنها بوجهي، كان إغراؤها السكران طريفًا كعبث طفلة، وبدد ضيقي من تجاهلها لي، وشعوري بالانكسار. سألتها: "ألم يخطر ببالك قط أن لمسائك هذه قادرة على إغرائني؟"

- "لا أظن، إن تاكومي العزيز لا يزال ينظر إلى زوجته وحدها".

واندفع من عينيها سيل دموع.

شعرت بألمٍ وكان حجراً ضخماً سقط فوق رأسي وحطمني، إذ ارتمت في حضني وكيانها يتزلزل بكاء مفاجئ. انتزعت سايا جزءاً من قلبي بحزنها، وألمني أن دموعها بدت غريبة وغير مؤثرة للوهلة الأولى وكأنني أراها تمثل، حتى أدركت أنني لم أرها تبكي من قبل قط، حتى في الكنيسة لم تكن بربع هذا الألم.

ضممتها وأنا غير قادر على قول شيء، رحت أربت عليها متمنياً لو أستطيع سرقة هذا الحزن منها؛ كانت تحمله بسببي، وثقله مسؤوليتي وحدي، ليس على سايا أن تتألم هكذا لأنني لا أزال أنظر إلى شبح ناومي الذي توارى عني إلى غير رجعة.

شبحها الذي تخلى عني مثلما فعلت صاحبتة.

حين هدأت أخذتها لنرحل، وكان عثورنا على تاكسي أقل صعوبة أمام البار الشهير، الصعوبة الوحيدة كانت في إخبار سايا السائق بعنوان البيت بلغة واضحة، قبل أن تسقط في نوم متقطع، تجفل وتفيق منه كل حين وآخر، فأهمس لها لتهدأ. شرعت في مراقبتها طوال الطريق، ووصلنا والسماء تتحول من لونها الأسود إلى الأزرق الداكن.. كان الفجر في طريقه للبروغ.

ساعدني السائق على حملها فوق ظهري، وتسقلت إلى البيت راجياً ألا يكون أحدهم قد انتبه لغيابنا. ولما بلغت غرفتها شعرت برأسها يتحرك فوق كتفي، وبذراعيها تلتفان حول عنقي في عناق حميم لا شك فيه، وتمتمت: "كيف استطعت أن تؤلم قلبي إلى هذا الحد؟"

أوجعتني سؤالها، وحين أجلستها فوق فراشها ورأيت في عينيها شيئاً من التركيز ركعت أمامها وقلت: "لو قلت لك إنني كنت ميتاً، هل يشفع لي هذا قليلاً يا سايا؟"

أغمضت عينيها لكنني تابعت: "لكنني الآن أبعث من ذلك الموت، أشعر في كل يوم أن جزءاً مني يسترد روحه، وأعرف شيئاً واحداً لا يشوبه شك.. أنني لا أنظر إلا إليك".

وضعت يدها على خدي فأغمضت عيني، وفاجأني صوتها اللعوب: "أوووه! هل تشتعل مشاعرك تاكومي بلمسات سايا الحمقاء؟"

أمسكت يدها بقوة فأجفلت، قلت لها: "لا تمزحي الآن".

وكأنها لم تسمعي ابتسمت، وقالت بنفس العيب: "إنك تتأثر حين ألمسك.. ألا تفعل؟"

ارتفعتُ لأجلس جوارها، وجذبتها نحوي مقرراً التجاوب مع هذا العيب بصرامة تردعها، غير أن اقترابها مني بتلك النظرة أشعل في صدري ناراً لم أعدها، وتبدّل كل شيء فيّ. همست: "ماذا لو قلت لك إنها تفعل يا سايا؟"

لم تحوّل عينيها عني، ولم تخفت ابتسامتها اللعوب السكّري، فأحكمت ذراعيّ حول وسطها وشددتها إلى صدري، وهمست في أذنها: "ماذا لو قلت لك إن ما تفعلينه خطر كبير؟"

إلى هنا كنت أعابئها، لكنني إذ اقتربت من عنقها وشممت عطرها فقدت سيطرتي على نفسي، وجدت نفسي ألتقط حلمة أذنها بين شفتي، وأعتصرها برفقي شاعرًا بسحر نعومتها، ثم أنحدر إلى عنقها بقبالات بطيئة متتابعة، حتى بلغت كتفها، ثم استقرت قبلي الأخيرة فوق ثغرة نحرها، وشعرت بانعكاس نبض قلبها العنيف في رقصة أوردتها.

شهقت سايا شهقة صغيرة فشممت عبق النبيذ المُسكر ينبعث من أنفاسها، وتشبّثت يداها بصدري. وهنا توقفت، بصعوبة كبحت نفسي عنها، وأسندت رأسي إلى كتفها. كان في صدري بركان من المشاعر والمخاوف والرغبة والجنون، وسؤال عمّا أكتشفه الآن من أحاسيس لم أدرك قط تغلغلها فيّ إلى هذا الحد. أردت السكون في تلك اللحظة وعلى تلك الحالة حتى يتبين لي من أمري ما لم يخطر لي من قبل على بال، وإن كان كامناً في قلبي في كل لحظة عشتها معها.

أبعدتني عنها ونظرت في عينيّ وسألتني: "لقد تأخرت كثيراً يا تاكومي. لماذا تأخرت إلى هذا الحد؟"

- "لم أكن حتى على قيد الحياة لأشعر بشيء."

- "لكني فعلت."

وضعت يدي على خدها وقبّلت جبينها، وتفجّرت المشاعر في قلبي حتى أوشك أن يحطم ضلوعي. نادتني سايا بصوت يكاد يسقط في هاوية النوم، فنظرت إلى وجهها المجهد وعينيها اللامعتين، ولم أتمالك نفسي من الاعتراف دون مبالاة بأي شيء: "إنني أراك وحدك في هذا العالم يا سايا، ولا شريكة لك فيّ."

همست لي بأغنية كورية شهيرة: "حتى لو أصبح العالم كله عدوًا لي، فمن المستحيل.. من المستحيل أن يكون أحدٌ غيرك".

وابتسمت ابتسامة غريبة، وتأومت ضاغطة على قلبها بيدها، وتمتمت: "كيف استطعت؟ كيف أمكنك أن تؤلني إلى هذا الحد؟"

ومالت لتسقط على فراشها لتنام، لكنني أمسكت وجهها بكفي أستبقها، ففتحت عينيها بنظرة مترقبة تنتظر، فكررت لها: "لا شريكة لك فيّ يا سايا، إنني لك".

وقبلتها، قبلت شفيتها كما لم أقبل امرأة من قبل، وكما لن أفعل أبدًا، وبإدلتني سايا القبلة كاشي ما يكون، وببطء طوقتي بذراعها في عناق حميمي أشعل فيّ نارًا جامحة، ومن بين القبلات همست باسمي فأذابتني.. انصهر كل جزء من كياني ليصنع رجلًا جديدًا يمتلكه وحدها.

اشتعلت تلك النظرة العاشقة الحارة في عينيها، وتوقفت عن تقبيلي لحظة تسألني همسًا: "لو كانت هذه آخر ليلة في حياتك يا تسوباسا تاكومي، فهل تقضيها معي؟"

أومأت برأسي، والتقطت شفيتها السفلى في قبلة أخرى، ثم أسندت جبيني لجبينها وهمست: "نعم، كنت لأقضي كل ليلة في عمري معك يا سايا".

رفعت شفيتها نحوي في قبلة ثالثة، وانحدرت أصابعها على صدري في دعوة أحجمت عنها. لمسّ وجهها وتمتمت مترفقا بها: "لا يا سايا، ليس وأنت سكرانة".

ضمتني بقوة همس: "لكنني معك الآن، أنت وحدك يا تاكومي".

- "لا، يجب أن تنامي الآن".

ونزعت معطفها عنها، وراقبتها تغرق في نوم عميق بمجرد أن دفعتها لترقد، عندها هبطت جالسًا إلى الأرض جوارها متأملًا وجهها الساكن، وأمسكت يدها متشبثًا بها، وكأنني ألتقط من كل نجمة في السماء حلمًا من أحلامي.

وكان العالم كله يرقص على أنغام الفالس الثاني لديم تري شوستاكوفيتش..

هكذا استقبلت العالم بمجرد ما فتحت عيني في الصباح التالي. استشعرت النهار سعيدًا كما لو كنت في فردوس قصي، ورأيت السحب تراقص في السماء، تحملها رياح خفيفة تهتز لها الأزهار والنباتات. جلست على فراشي أتنفس ملء رنّي شاعرًا أنني أسحب بهجة الدنيا بين جنبي، ثم نهضت أستحم وارتديت أجمل ثيابي وأنا أغني، ولم أجد داعيًا للتفكير في تناول أدويتي؛ كان في شفتي دواء لكل ما شعرت به من ألم في حياتي بأكملها، وإكسير سحري ينثر في كل خلية مني حبورًا لو وزع على الكوكب لفاض.

استعدت وجه سايا وهي تنسبث بي، وهي تدعوني لقبيلتها الثالثة، ثم وهي تدعوني لليلة معها، ثم حركت لساني على شفتي مستجلبًا طعم النبيذ في قبلتها، وفتحت باب الغرفة متأهبًا لصباح جديد برؤيتها.

لكنها لم تكن موجودة على مائدة الإفطار التي يعدها داكي، سألت تشو عنها فقالت إن ساعة قد انقضت ونانا تحاول إفاقتها من تبعات نوبة السكر التي غرقت فيها. وبعد قليل سمعتها تصبح غاضبة وصوتها يقترب، ثم دخلت بخطوات مترنحة تتبعها نانا، وارتمت على أقرب مقعد وتدمرت: "قلت ألف مرة إنني لا أريد إفطارًا الآن".

قالت نانا بصوتٍ مسطحٍ النبرات: "إليك الخبر البهيج: رأيك لا يهمني".

وبدأت تساعد داكي في رص أطباق الطعام على المائدة، أمّا سايا فغطت وجهها بكفيها، ثم دعكته بهما لتفريق، وأزاحت شعرها المشوش إلى الخلف، وإذا فعلت رأتي جالسًا أمامها. ألقت عليّ نظرة عابرة وكأنني قطعة ديكور مألوفة، ثم

تجمدت، ثم نظرت إليّ مجدداً وطرقت بعينيها، ثم بدت عليها صدمة غير متوقعة، ومررت يديها على ذراعيها تدفئ نفسها من قشعريرة سرت في جسدها، ثم عادت تغطي وجهها بكفها، وخفضت رأسها تسندها على المائدة.

رفعت حاجبيّ استغراباً، وجفّف التوتر حلقي، لكنني قررت مقاومة أي وسواس قد يحبطني في هذا النهار. تلقيت طبق طعامي من نانا شاكرًا، فاتجهت لتضع طبق سايا أمامها، ووبختها لترفع رأسها وتفيق. فاعتدلت سايا وهي تكلم نفسها بصوت خافت.

سألتها تشو ضاحكة: "ماذا شربت ليلة أمس؟"

- "الكثير".

ودعكت وجهها مجدداً وقالت: "لقد راودني حلم في غاية الغرابة".

- "أي حلم؟"

كعادتها تجاهلت السؤال، وبعد قليل تمتمت: "لقد فقدت عقلي، ما من عاقل يحلم أحلاماً كهذه".

جلست نانا أمامها وفي وجهها سمت من يرى أمراً معتاداً، ورشفت قهوتها بهدوء وسألتها: "هل رأيت هيبكي ساما يجثو على ركبتيه ويهددك بالقتل ثم الانتحار لو لم تقبلي بحبه؟"

أنت سايا وهي تمسك برأسها: "كان يجب أن أحلم بهذا فعلاً. قولي لي يا نانا، كيف سيكون الوضع لو أننا وقعنا في حب الرجل نفسه؟"

قطبت نانا باستياء عظيم: "ماذا شربت بالضبط ليلة أمس؟"

- "قولي لي حقاً، بم ستشعرين لو وقعنا في حب الرجل نفسه؟ ماذا لو التقينا هيبكي ساما ووقع في حيي بدلاً منك؟ رغم أنك أحببته قبلي بسنوات، وتحببته أكثر مني بمئات المرات؟"

- "إذا أردت بلوغ الشيخوخة، فصلي للرب كي لا يحدث هذا".

- "قلت لك إنني أتحدث جدّاً".

- "وأنا لا أضح".

كان استياؤها متوحشًا يكاد يبلغ حدود الأشمزاز، وظلّت سايا تحدّق إليها بتركيز مبالغ فيه، ثم قالت: "لو أنني أحب رجلًا ثم وقع في حبك، فلن أتردد في التخلي عنه لأجلك، لأنك تستحقين السعادة أكثر مني يا نانا، ولأنني لن أحب أبدًا أي شخص أكثر منك، حتى نفسي".

زمجرت نانا: "هذا غباء. هؤلاء الذين يتخلون عن حبههم لصالح أي شخص لم يدركوا ماذا تعني كلمة الحب في الأساس، مجرد أغبياء جبناء يحاولون إخفاء عجزهم بالتظاهر بالتضحية. هذا مقرّف ومثير للشفقة، لا تكوني كذلك لأجل أي شخص. إذا وقعت في الحب فقاتلي لأجل الفوز به".

- "حتى لو كان هيبكي ساما؟"

- "سايا!"

كانت غاضبة وتشعر بغيرة واضحة ومدهشة، ابتسمت سايا ابتسامة صغيرة شريرة، وشربت بعض الماء. قالت: "أنتِ مُحِبَّة يا نانا تشان.. هذه ليست الإجابة التي أريد".

وجلست غير آبهة بطعامها، وسرحت في أفكارها بنظرة حائرة، سرعان ما وجهتها إليّ مختلطة بقلبي خافت وشك، وسألتني: "أنت من أعادني إلى البيت أمس يا تاكومي، أليس كذلك؟"

تشاغلّت بطعامي وأنا أجيب: "تعين فجر اليوم. بلي، أنا من فعل".

- "ألم يحدث لي شيء في الطريق؟"

- "لقد كنتِ نائمة طوال الوقت".

كنت أجيبها وحزّنٌ مدمر يخترقني، شعرت أنني بحاجة لضعف قوتي لأخفي رعشة يدي وأنا أكل، ولأضعاف هذه القوة حتى أستطيع البلع. ومن طرفٍ خفيّ شرعت أراقبها وهي تفرك وجهها من جديد، وكأنها تنفض عن رأسها كل شيء، كل شيء جميل قالته بالأمس وبدا لها الآن حلمًا غريبًا تزعجها فكرة كونه واقعًا.

سألتها نانا باستغراب: "ماذا بك يا فتاة؟! أي حلمٍ يفعل بك هذا؟"

سرحت سايا قليلاً ثم قالت: "إذا كنتِ تائهة في صحراء، والعطش يعذبك والشمس تحرقك، ثم فقدتِ الوعي، فالطبيعي هنا أن تحلمي بالقهوة، ومن غير الطبيعى أن تحلمي بسيارة مرسيدس، أليس كذلك؟"

اصطنعتُ ضحكة مكتومة وكأنني سمعت أغرب الأشياء، فعنفنتني: "لا تسخر من تعبيراتي يا تسوباسا تاكومي".

أما نانا المعتادة على غرائبها فقالت بنظرة ملل أبدي: "الطبيعي أن أحلم بكوب من الماء البارد".

زفرت سايا: "أنا حلمت بالسيارة المرسيدس".

علّق دايمي مستنكراً وهو يقطّب: "ماذا تريدان قوله بحق السماء؟"

أما نانا فزمرجت: "سواء كانت مرسيدس أو بوجاتي فيرون، لقد كانت مجرد حلم".

وسخرت تشو: "سايا مارست الحب في أحلامها مع سيارة مرسيدس".

أطلقت سايا صرخة وأخفت أذنيها، وصاحت بعينين متسعيتين: "توقفبيييي.. أنا لم أحلم بهذا، أنا بالتأكيد لم أحلم بهذا، لقد تسبب إرهابي في الهلوسة".

انفجرت تشو ضاحكة منها: "إذن فقد كنتِ تحلمين برجلٍ ما يا بلهاء".

توقف دايمي عن تناول طعامه ونظر نحوي، ولا أعرف ماذا رأى في وجهي ليبتل النظر إليّ. تجاهلته وغرقتُ في كوني الداخلي، واستشعرت وجعاً فاق ما شعرت به أمس وهي تنفجر باكية في حضني.

الآن أنظر إليك وحدك يا سايا، لكنكِ تظنين كل ما كان حلمًا.

اصطنعتُ ضحكة أخرى وداعبتها: "لا بأس بالسيارة المرسيدس يا سايا، إنها تستطيع أخذك بعيداً عن الصحراء. أليس كذلك؟"

انغrust نظرتها الباردة غير المرحبة في قلبي كإبرة سامة، فعدت إلى طبقي واكتئابي يتحرر، ويتوحش خانقاً كل ما كنت فيه من حبور.

أفطرنا في صمت تام، حتى توقفت سايا عن تناول طعامها وقالت: "أعرف أن ما قلته أمس في لقاء المعجبين كان مفاجئاً، وما كان لي أن أعلن قراراً كهذا دون أخذ موافقتكم جميعاً، وأنا أعتذر. أرجوكم اقبلوا اعتذاري".

توقفنا عن تناول الطعام، ومثلي رفعوا أعينهم نحوها حزين، ثم تبادلنا النظرات. علّقت تشو: "سايا تعتذر.. إنها نهاية العالم".

توقعت أن تنفجر فيها سايا لتتشاجرا بطريقتي الكوميديّة، لكنها لم تفعل. كانت جادة بقولها: "لكنني فعلت هذا لأجل استمرار تسو، يجب أن ندفع أنفسنا نحو الحافة القصوى لنعرف آخر ما يمكننا الوصول إليه، حتى إذا ما قررنا التوقف لم نندم على شيء".

قالت نانا: "لقد أخبرتك أمس أنني لا أنوي التوقف، ولا...".

- "إنني أتذكر جيداً ما قلته بالأمس".

وقضمت قطعة خبز، ولاكتها ببطء ثم قالت: "تسو، لن يستمر إلى الأبد. منذ عام ارتبط دايمي بعارضة الأزياء الكورية الحمقاء هذه، والآن هيروماسا كينجي يلوح في الأفق، عليّ الاعتراف بأننا بشر.. أنتم بشر، فأنا لا أصنّف نفسي كذلك".

زجرتها نانا بصرامة: "يا حمقاء...".

هزت سايا رأسها: "أنا لست مثلكم، لا أملك مثل مشاعركم ولا ميلكم لتكونوا مع حبيب، ولن أفهم هذا الشعور أبداً. أنا واحدة مقابل أربعة. عليّ الإقرار بهزمتي أمام المشاعر البشريّة الحمقاء التي تملكونها".

قال دايمي بيروود: "لم يمض وقت طويل على تجربتك هذه المشاعر البشريّة الغريبة، أتذكرين هذا؟ حتى أنتِ مررتِ بما مررنا به".

قالت سايا بلا مبالاة: "لكنني كبحت نفسي قبل أن أتحوّل إلى حمقاء".

جابهها بتحدٍ: "تعنين أنكِ هربتِ كحمقاء".

حدّقت إليه نانا بنظرة تحذير مرعبة، فقال: "إنها لا تتوقف عن استفزازي بهذا...".

حذرته بلهجة قاطعة: "لقد قلنا إننا لن نتحدث في هذا الأمر أبداً مرة أخرى".

- "ربما سنفعل لو كانت ستتوقف عن النظر لنفسها بتلك الطريقة".

قاطعت سايا اشتباكهما: "توقفا، فلا طاقة لي بالجدال اليوم. كل ما أريد قوله إن علينا الانطلاق إلى أبعد مدى. ولم أكن لأخاطر بأن يعترض أحدكم هذه الرغبة، لهذا أرجو أن تسامحوني على تصرفي برغبتي وحدي، بعكس ما اعتدنا أن نفعل".

سألتهما تشو: "ماذا حدث ليلة أمس يا سايا؟"

اضطربت نبضات قلبي قليلاً، لكن سايا أجابت: "ذهبت لأشرب؛ كنت بحاجة لحسم كثير من الأمور".

- "ثم ماذا حدث؟"

نظرت إلى تشو متسائلاً إن كانت تتعمد إثارة قلقي..

- "لقد اتصلت بي الشركة، واجتمعت مع تاكويما سان".

تأهب جميعنا للأسوأ، لكنها قالت: "الشركة ستمنحنا فرصة التعاون مع هيبكي ساما لو وافق هو أن يفعل، إنهم يرجون أن يرفض لكنني قلت لهم إنني سأقنعه".

قالت نانا برجاء: "ليس عليك...".

هزت سايا رأسها رافضة سماعها، وابتسمت وقالت: "سيكون علينا ابتكار أغنيات تغريه بالعمل معنا".

قلت لها: "أغنيتك الأخيرة جيدة جداً، بعض التعديلات ستجعلها...".

- "لا يا تاكومي، هذه أغنيتنا، لفريقنا، لن أتنازل عنها لأجل أي شخص".

وصمتت، وشرعنا في الانتهاء من الإفطار حتى إذا رفعنا الأطباق وبدأت أغسلها مع تشو، تساءلت نانا: "هل لدينا بروفات اليوم؟"

عاتبها سايا: "هل نسيت الزيارة؟"

صاح داكي: "وااه! أنا نسيت تماماً".

سألتهما: "زيارة من؟"

تدمرت تشو: "فتاة برج الجدي قادمة لزيارتهما".

- "برج الجدي؟!"

- "نعم، هذا البرج الكنيب، أنا لا أحبهم".

صاحت بها سايا ونانا في الآن ذاته، وباللهجة المتجهمة عينها: "لم يطالبك أحد بالزواج بها".

أجفلت لتطابق صوتيهما، لكن هذا لم يقارن برؤية وجهيهما معاً، ولوهلة شعرت وكأنهما توأم. ولأول مرة التمسست العذر لجنون سايا واستماتتها للاحتفاظ بنانا.

لوّحت تشو لهما ساخطة: "إلى من ينحاز دلوان أحمقان مثليكما؟ بالتأكيد إلى البرج الأحمق الذي يسبقكما".

استفسرتُ عما يحدث بنظرة تائهة صوتيتها لدايكي، فأجاب: "كيم سون هي قادمة لزيارة سايا ونانا. إنها صديقتهم منذ سنوات، لكن تشو لا تحبها لأنها تنتمي إلى برج الجدي".

صوّبت إلى تشو نظرة متجهمة بدوري، غير مصدق التفاهة التي سمعتها. صاحت بي: "ماذا بك؟ لا تنكر أنهم برج كنيب، يبحثون عن الحزن بحثاً، فإن لم يجدوه اصطنعوه بأنفسهم".

ولما لم تجد مني استجابة لما تقول، غادرت المكان ساخطة وهي تصيح: "حسنًا، استمتعوا بصحبتي وسحرها، أما أنا فسأذهب لجلسة مساج، وسأخرج لكم لسانِي وأنا أستمع هناك".

أخرجت لها سايا لسانها وصاحت: "يا سرطان البحر الأحمق!"

عمّت البيت بهجة صافية ونحن نستعد لزيارة سون هي، وكأننا بصدد استقبال سانتا كلوز. خرج دايكي بدوره ليستمتع بيومه. لكنني فضّلت البقاء مع سايا ونانا للقاءها. وللغربة كنت أشعر بحماسٍ طفوليٍّ كأنني طفل يرى نجمًا مشهورًا للمرة الأولى، شعور لم أجربه من قبل قط. وفي الثانية ظهرًا جاءت كيم سون هي، لم تكن وحدها، بل رافقها زوجها نجم الغناء الأشهر في كوريا كيم جونغ جين.

كان يتحدث بلغة يابانية شديدة الطلاقة مثلها، وحياني بانحناءة حارة: "رؤيتك شرف كبير يا هارونو سان، إنني معجب بعزفك للغاية".

- "إنه لشرف لي أنا أيضًا، فأنا من كبار معجبك".

كانت سون هي تبتسم لي بلطف جعل رأسي يدور، فانحنيت أمامها وقلت: "سيدتي، أنا أسف لأن الفرصة لم تسنح لي من قبل لأقدم نفسي بشكل لائق. أنا هارونو تاكومي".

وضعت سايا يدها على كتفي وسحبني بقسوة لأعتدل، وقالت لها بوجوم: "تجاهلي كل هذه المجاملات".

ضحكت سون هي، وانحنيت تحييني بتلك الرقة التي تفقدني عقلي، حتى استعصت عليّ الأنفاس، بعدها احتضنت نانا بحرارة لم تقل عن تلك التي قابلت بها سايا في تلك الليلة، كنت متأكدًا أن علاقتهما بدورهما قوية، ومنفصلة تمامًا عن علاقة كل منهما بسايا. كان هذا غريبًا!

حيًا كيم جونج جين سايا مبتسمًا، وقال: "سعيد لرؤيتك بعد كل هذا الوقت".
بعاطفية شديدة قالت: "الوقت لا يعني شيئًا، لا تزال بطلي الأول والوحيد، ولا أزال أحبك أكثر من أي رجل آخر على هذا الكوكب".

صفعتها سون هي على كتفها، فقفزت سايا في مكانها مجفلة، واحتجت بشكل كوميدي: "ميساوووو!"

بتكبر قالت كيم سون هي: "أخبرتك أنني سأضربك عندما أراك".

بدهشة مصطنعة قال كيم جونج جين: "كل هذا لأجل قبلة في الهواء! ربما كانت ستلقيني في حوض السباحة لو احتضنت الحاسوب".

وقالت سايا بأسفٍ خبيث: "لم تعد في العالم روح رياضية! لقد انعدمت المهنية".

عزف كيم جونج جين النغمة نفسها: "يا للأسف!"

أشاع وجوده مرحًا عظيمًا، وقضت سايا بعض الوقت جوار كيم سون هي وهما متشابكتا الأيدي، وكل حين وآخر تلقى رأسها على كتفها وتقول: "أنا سعيدة أنك هنا يا صديقتي، سيكون العام القادم رائعًا لو استطعت لقاءك فيه أيضًا".

كان كيم جونج جين سعيدًا لسعادتهما مثلي.

أُمعنت النظر إليهما وإلى نانا متسائلاً عن القوة الجبارة التي مكنتهن من إتباع أحلامهن حتى هذه النقطة. من أين أتوا جميعاً؟ لماذا غادروا وطنهم واختاروا البدء من جديد في بلاد أخرى غريبة؟ حتى كيم سون هي - أو ميساو - بدت مثلهن، أجنبية رغم مكياج عينها الخادع، ولم تشر بشرتها البيضاء الشاحبة إلى مكان معين، لكنها على الأقل أشارت لمدى بعده عن هنا.

لماذا خاضوا ما خاضوه من قتال ليصلوا إلى هنا؟ اليابان بلد عظيم، ولكن من يتجه إليها أولاً؟ من يبحث عن النجاح أو الشهرة يتجه غالباً إلى أمريكا أو أوروبا، على الأقل ليتفادى حاجز لغتنا العسيرة، فما الذي أجبرهم على هذه الطرق الشاقة؟

ودايكي، لماذا يتبعهن دون تفكير في نفسه؟

بقدر ما احترمت قوتهم بقدر ما أزعجني اليأس الذي بلغوه ليفعلوا كل ما فعلوا. لا بد أنهم كانوا يائسين، مهما فكرت في الأمر فلا يمكنني تخيل وجود شخص سعيد يهجر كل ما ينتمي إليه، ويبدأ بعيداً بهوية جديدة ومهنة جديدة، ويتجنب الحديث عن الماضي، ويتخلّى حتى عن استعمال اللغة التي ولد بها، وقضى حياته يتواصل بها ويحلم بها ويفكر بها.

لوحث سايا أمامي بيدها، وسألتني بصوت حاد: "تاكوميببي! أين ذهب عقلك؟"

كأنني أفيق من حلم صحت: "آه! آها!! أنا هنا، أنا معكم".

لم تبتلع كذبتني، سألتني: "ماذا كنا نقول إذن؟"

قطبت مصرحاً بسخافتها فضحكت كيم سون هي، فحلّق عقلي بعيداً. قالت سايا: "كف عن أحلامك البلهاء وعد إلى أرض الواقع يا تسوباسا تاكومي".

كان تحذيرها دقيق التوقيت، إذ إن كيم جونج جين انتبه إلى تأملي زوجته بهيام تام، وتحول لطفه إلى ترقب.

رطبت كيم سون هي الجو بطريقة كوميدية: "دايكي والمعجبون لا يبالغون في وصفكما بالقط والفأركما يبدو".

قلت وقالت في اللحظة نفسها: "أنا لست فأراً".

ونظرنا لبعضنا فانبعث البرق عندما تصادمت نظراتنا.

مر الوقت لطيفًا، وبمروره بدأت أفقد اتصالي بهم، شردت طويلًا ثم انتهت لضحكاتهم وأنا لا أعرف ماذا يجب أن أفعل. كانت كيم سون هي تتحدث مع نانا بصوت خافت على الأريكة المقابلة، أما سايا وكيم جونغ جين فانطلقا في حديث طويل امتلأ بمزاح لم أستوعب منه حرفًا، فهمت فقط شيئًا واحدًا: كلاهما أبله تمامًا. راحا يمزحان كطفلين عابثين، ثم وضعت سايا يدها بشكل غريب فوق رأسها وأصدرت صوتًا عجيبيًا فحذا حذوها، تمايلا معًا على نغمات يعزفها عقلاهما وهما يغنيان بشكل أحمق، بعدها انفجرا في الضحك أمام عيني الخاويتين من أي انفعال.

دعني سايا بحماس: "تاكومي، انضم إلينا، حاول محاكاة أذان القطعة معنا".
لا يمكنني الرد بشيء لاذع لأنه يفهم اليابانية، فماذا أقول؟! تمالكت نفسي وقلت: "أهذه محاكاتك لأذان القطعة؟ تبدين كمن قبض على ضفدع فوق رأسه!"
نست ما كانت تقوله لي، واستدارت إلى كيم جونغ جين وصاحت بحماس عظيم: "لقد رأيت صورتك مع الضفدع، كانت لطيفة جدًا".
بحماس أعظم قال: "أليس كذلك؟ كانت جميلة فعلًا حتى أنني عرضتها عليه، أظنها أعجبته".

- "بالتأكيد، بالتأكيد سوف تعجبه".

سألتهما وأنا أشعر بأنني تائه: "تعجب من؟"

ببراءة أجاباني: "الضفدع".

قررت التوقف عن الحديث معهما عند هذا الحد.

لعبت سايا الورق مع كيم جونغ جين، وواصلت ثرثرتها معه لوقت طويل سعيد، كانت تحبه حقًا، رأيت الامتنان يلمع في عينيها كلما نظرت إليه، فتساءلت عما فعله لها لتتأمل له تلك النظرة المفعمة بالإخلاص طوال الوقت.

مرت ساعتان من السعادة، وانتهتا ليتأهب الضيفان الجميلان للانصراف، وودعتنا كيم سون هي بقولها: "أنتم مدعوون للعشاء معنا كما اتفقنا، لقد أعددت لك الكيمتشي الذي تحبين يا سايا".

رفع كيم جونج جين إيهاميه وشجعها: "لقد ساعدتها في صنعه، وأضفت كثيرًا من التوابل الحارة، سوف نخوض تحدّيًا حقيقيًا هذه المرة".

رفعت سايا إيهاميا مثله وتحمست أكثر: "سأمتنع عن الطعام ثلاثة أيام قبلها، ولن أخسر".

"هذه هي الروح القتالية".

"نعم".

اقتربت منها كيم سون هي وأحاطتها بحضن قويّ، كانت سايا تبتسم أفضل ابتسامتها، ثم حركت يدها ببطء لتقبض على خصرها، لأول مرة أراها تقوم بتلك الحركة التي ألّفت الشعور بها حين تعانقي، بدت لي أصابعها غاية في الرقة وهي تبحث عن شيء ما تتشبّث به، قبل أن تغمض عينيها في أمان وتبتسم بطمأنينة واثقة، لو أنها تبتسم هكذا في كل مرة تتشبّث فيها بي...

ودّعها كيم سون هي: "كل شيء سيكون بخير، كلي ثقة فيك يا صديقتي".

"صلي لأجلي".

"طالما فعلت، وسأفعل دائمًا".

"إلى الأبد؟"

"إلى ما بعد الأبد".

عندما خرجت مع زوجها وقفنا فترة شاعرين بدفءٍ جميل، ثم اقتربت نانا من سايا، وقفت خلفها ولفّت ذراعها حولها وأسندت ذقنها لكتفها، وأمامها ابتسمت سايا وأمسكت كفها.

قالت نانا بلطفٍ: "إذا كنت غاضبة مني لأي سبب فعليك إخباري".

"لماذا؟"

"لأنني أشعر أحيانًا بأنك تكنين لي غضبًا لا أفهمه".

تمهّدت سايا: "ليس لديّ شيء، أنتِ صديقة مثالية، صديقتي الأقرب، وما دون ذلك أستطيع التعامل معه".

"ألست غاضبة حقًا؟"

- "ليس لديّ ما أغضب بشأنه".

- "لا تكذبي يا سايا".

- "أنا لا أكذب، لا أستطيع تذكر شيء يغضبني منك، وحتى لو حدث فقد نسيت، والأشياء التي ننساها أشياء لا تستحق عناء التذكر".

كانت تتكلم وهي سارحة تمامًا، وتبتسم ابتسامة أوجعتني، كل ما فيها أوجعتني وجعًا مزلزلًا، شعرت وكأن قلبي يُسحق، ولم أرد الاستماع للمزيد فذهبت.

تبدد كل ما في يومي من بهجة، وارتيمت على فراشي، وسحبت وسادة فوق رأسي محاولًا حجب ما سمعت عني، لكنني لم أستطع.

"الأشياء التي ننساها أشياء لا تستحق عناء التذكر.."

بالتأكيد لا تستحق عناء التذكر، بالتأكيد، لأنها تملك كوكبًا من القهوة لتحلم به.

إنها لا تراني على الإطلاق.

في الأيام التالية، كنت أنافس سايا في لعنة تقلب المزج.

عبدًا حاولوا فهم ما دهاني، لكنني التزمت الصمت أو الردود المقتضبة. كنا نتدرب في المسرح صباحًا، ثم ينطلق كل منا ليقضي الوقت كيفما شاء، ثم نجتمع في المساء لإنهاء العمل على أغنية سايا الجديدة، والتي عدّلت نانا على نوتة البيز فيها بشكل باهر.

أمضت نانا أغلب وقت فراغها في التسوق، أما داكي وتشو فذهبا إلى أحد المنتجعات الصحية للعناية ببشرتهم. وحدي أحببت البقاء بالمنزل، وهكذا اعتكفت في غرفتي أضيع وقتي بالألعاب الإلكترونية، أما سايا فعادت إلى اليابان لمدة يومين لتصوير بعض مشاهد مسلسليها، ثم عادت واعتصمت بغرفة التدريب، لتأتيني من خلف بابها نغمات الكمان الحادة تارة والغليظة تارة لتعبت بي. كنت غاضبًا منها.

كنت أنظر إليها مرة تلو المرة وأتذكر ما قالتها عن الأشياء التي لا تستحق التذكر، وأنساءل: ألهذا نسيت قبليتي؟ لأنني شخص لا يستحق أن تفكر فيه أو تأخذه على محمل الجد؟

جعلني إحباطي عدوانيًّا، وأسأت معاملتها عمدًا غضبًا مما قالت، لأنني لا أستطيع مواجهتها، ولأنها تجنبت الرد على استفزازي وتفادتي ما استطاعت. لكن تشو وبختني، وصاحت في أن أوصل علاجي أو أتصل بطبيبي لأسيطر على نفسي قليلًا، حتى أنها هددتني بإعادتي إلى اليابان، فأذعنت لما قالت وعدت ألتزم بعلاجي. لم يرق لي أن يتحسن مزاجي بفعل لعبة كيميائية تعبت بمخي، لكنني كنت مضطرًا، وتدريبًا هادئًا وهدأت الأمور.

قبل حفلنا بيوم خرجوا جميعًا عدانا، وأمضيت ساعة أو أكثر أشاهد فيلمًا كوميدياً أضحكني وكان روحاً دخيلة تشاركني جسدي. ناديت سايا لتنضم إليّ فلم ترد، فانتهزت أول فاصل إعلاني ونهضت إليها، وحين فتحت باب غرفة التدريب انهيار قلبي هلعًا.

كان مقعدها الطويل قد سقط بها، فسحبت معها حامل النوتة الموسيقية، بينما ارتدى الكمان على بعد بوصات منها، دون أن تفلت أنامل كفها اليسرى أوتاره، وانقبضت يمناها على القوس الذي انكسر نصفين.

جسدها كان ممددًا أرضًا على الجانب الأيسر دون حراك، وشعرها الطويل يغطي وجهها، وقد التوت ساقها بوضع مؤلم. توقفت عند الباب وشلّني الهلع، ودق قلبي مستعيدًا تلك اللحظة التي لا أنساها، حين أسجيت ناومي أمامي محاولاً تبين خدعتها، قبل أن أوقن أنها ميتة.

لكن سايا لم تكن ميتة، عيناى المتسعتان توقفتا عند صدرها حتى رأيته يعلو ويهبط، فاستعدت جزءاً من عقلي، وقدرتي على الحركة، وصوتي. ناديتها وهرعت إليها، وعندما رفعت رأسها وأبعدت شعرها عن وجهها أثار رعي أن عيناها مفتوحتان، وقبل أن يطيح الجنون بتفكيرى نظرت نحوي، وحركت شفيتها تنطق باسمى دون صوت.

رفعتها واحتضنتها ألود بها من أفكاري المفزعة، واستجمعت أعصابى حين تمتمت: "أنت تؤلمنى".

خففت ذراعى عنها، وأرقدتها أرضاً لأستكشف ما بها، كانت شاحبة أكثر من المعتاد وباردة، وعلى جبينها قطرات عرق. طمأنتها: "سأطلب الإسعاف".

لم أجد هاتفى معى، فسببت لاعتنا نفسى، وكدت أنهض لكنها أمسكت يدي وبدأت تتحرك، ثنت ساقها، فأمسكت يدها اليمنى وفككت أصابعها المتقلصة حول القوس المكسور، كانت راحتها متعركة بدورها.

- "ماذا حدث؟"

- "لا أعرف، شعرت بألم مفاجئ في بطني".

ساعدتها لتجلس وكررت: "سأطلب الإسعاف".

- "لا داعي، لم يستمر إلا ثوانٍ معدودة".

- "ولكن..."

- "تاكومي، لا تضيع الوقت ليلة الحفل".

ونظرت لي بإمعان، ثم مدت يدها إلى وجهي، لمستته برفق لمسة كعناق دافئ، وقالت: "لا تخف، لن يصيبني مكروه".

فجأة بدت لي كل انفعالاتي مبالغاً، وأعجزتني عن التفكير والتصرف، فلو كانت تعاني مرضاً حقيقياً لعجزت عن مساعدتها. أشعرتني الحرج بالاختناق، وسيطر عليّ شعور غيبي وكأنني رسبت في اختبار ما.

تناقل لساني حتى عن الاعتذار، لكن أصابع سايا شدّت على خدي، فامتصت حزني، وإن أورتني ألماً في قلبي. ودون وعي أمسكت يدها وقبلت راحتها باستغراق يفوق ما يعبر عن خوفي عليها كشريكة عزف، أو صديقة لا أستطيع مواجهة الحياة دونها. رن جرس إنذار ما في عقلي فانتبهت لنفسي وتوقفت، وفتحت عيني بعد فوات الأوان لأجدها تنظر إليّ بعينين متسعيتين فيهما شعور لم أفهمه، لكنني فهمت ما يعنيه: لقد فضحتُ شيئاً من مشاعري.

استأذنتني برفق وكأن شيئاً لم يكن: "هلا أحضرت لي شيئاً من المطبخ. أنا لم أكل منذ الصباح".

- "لأنك حمقاء".

ركضت إلى المطبخ وسخّنت لها شرائح من البيّزا، أكلتها بنهم المشردين حيث استلقت على الأريكة بالصالة، ثم غاصت في الوسادة الوثيرة مستجلبة النوم، فخفضت الضوء وجلست على الأريكة المقابلة.

قالت لي وصوتها يغم: "لقد رقصنا من قبل في هذه الإضاءة".

- "وكنّت تبكين".

- "أه.. كانت تلك أول لحظة فكّرت فيها في أغنيتنا الجديدة".

لم أعلق، فقالت بعد قليل: "سوف أسميها (الألم الأخير). ما رأيك؟"

- "مبتذل".

ضحكت وكأنني قلت أعظم دعايات العالم، وشاكستي: "أنت وغد. يجب أن ترفع معنوياتي بأي مجاملة".

ابتسمت ولم أعلق، فبدأت تغني على اللحن بأخر تعديلاته:

"لن أحب غيرك في هذا العالم..

أود البقاء جوارك لأنظر إليك حتى النهاية..

لا آمال أخرى.. لا آلام أخرى..

قريبًا.. كل شيء سيختفي في لمح البصر..

سأغمض عيني وأنام إلى الأبد... ولن أعود..

كيف استطعت أن تؤلم قلبي إلى هذا الحد؟"

كررت عبارتها الأخيرة مرتين، فانتهت لها لأول مرة شاعرًا بكهرياء مرعبة تسري في دمي: كانت سايا تغني العبارة التي رددتها على مسامعي مرتين ليلة سُكرها التام، العبارة التي وضعتها في أغنية أنامها إلهامها وهي ترقص معي.

لا أعرف بأي شيء شعرت في تلك اللحظة، كنت خائفًا، وأملًا، وفي صدري وخز وكأن روحًا خفية تعتصر قلبي. تذكرتها وهي تنفجر باكية إذ ذكرت ناومي، وتذكرتها وهي تحيط عنقي بذراعها وأنا أحملها إلى غرفتها، وتهمس لي: "كيف استطعت أن تؤلم قلبي إلى هذا الحد؟".

خشيت الاعتراف لنفسي بأنها كتبت هذه الأغنية لي، وخشيت ألا أفعل.

نادتني سايا بحدة: "أنت يا أحمق. إنني أتحدث إليك".

انتهت لها ورددت اسمها آليًا، ونظرت في عينيها غير قادر على التصرف بأي شكل. جسدي كان مشلولًا، وعقلي في وادٍ آخر. رمقتني بسخط ثم أولتني ظهرها وقالت: "حسنًا، عندما يصفو ذهنك كفاية للتحدث معي أخبرني. أوياسومي"⁽¹⁾.

وكفّت عن الكلام لكنني لم أعلق، كنت في دوامة من الذهول البهيج، وتسارعت ضربات قلبي حتى اضطرت لكبح أنفاسي ومحاولة السيطرة على نفسي.

سايا.. هل يعقل أنك...؟

¹ (تصبح على خير / ليلة سعيدة) باللغة اليابانية.

ولكن.. إذا كانت تلك الأغنية لي، فمن إذن كوب القهوة الذي جعل مروري بعقلها ضرئاً من المستحيل؟

xxx

كان حفلنا الأول في كوريا هو الأكثر نجاحًا منذ بدأت الجولة، استقبلنا الجمهور بجنون، وودعنا فاقداً عقله. أمضينا أكثر من نصف ساعة في توديع آلاف المصفقين الصارخين، وصفارات الإعجاب والانبهار تدوي في المسرح. شعرت من جديد أنني أحياء.. بل أنني أقوى من الحياة.

انطفأت أضواء المسرح فلم أجد أثرًا لشبح ناومي من حولي، كان جزء مني يتوق لهذا، لكن حزنًا غامضًا مسَّ جزءًا آخر من نفسي. خرجت إلى الكواليس فقابلتني سايا بابهاج، وعانقتني فلذت بها بعيدًا عني.

احتفلنا في أحد المطاعم حتى منتصف الليل، ولحق بنا كينجي قادمًا لتوه من طوكيو، فازداد احتفالنا صخبًا على صخب. أكلنا ورفعنا أنخاب النجاح، بعدها تمطت سايا كسلًا فحدت تشو حذوها، وأعلننا أنهما ستعودان إلى البيت لأنهما مجهدتان، بينما تبادلنا نانا وكينجي نظرة تغني عن البوح بخطتهما. اقترحتُ على دايكي أن نقضي سهرتنا في ملهى ليلي، أو بار تقليديّ تخدمنا فيه بعض الحسناوات، لنستمع بالخمير الكوريّ عالي الجودة، فراقه الاقتراح الأخير بشكلٍ لافت، وتحمس حتى أن سايا نظرت له باحتقار وقالت: "مراهق".

رفع يده كأنما يقسم وقال: "لن أقوم بأي أشياء منحرفة، أقسم لك".

أشارت لي وأمرته: "لا تجعله يسكر بطريقته الغبية".

اعترضت متذمرًا: "أنا لم أشرب منذ دخلت المستشفى!"

رمقتني باحتقار أنا الآخر، وحذرت دايكي بنظرة مرعبة فقال: "سأحرص عليه قدر ما أستطيع، إلا لو قرر الذهاب مع حسناء ما إلى مكان ما".

سبَّته سايا بوقاحة، وصحّت أنا: "كف عن خيالاتك هذه. أنا سأشرب فقط يا سايا".

صاحت بنا معًا: "اذهبا إلى الجحيم".

ضحكوا عندما تركتنا مغضبة، لكن كينجي نظر إليّ وفي وجهه قلق واستغراب، شعرت أنه يود سؤالي عن شيء ما لكنه أحجم لوجود الآخرين، فشكرت لهم هذا؛ لم أكن أطيعه منذ حديثنا في أوكيناوا.

غادرونا تبعاً، وحين أصبحنا وحدنا انفجرت في دايكي: "قل لي شيئاً واحداً ممتعاً في مضايقتي؟"

نظر لي وكأنني مجنون، فسألته: "لماذا تتعمد مضايقتي أمامها؟"

مزكثفيه ببراءة: "لكنني كنت أضايقها هي".

أغاظني هذا أكثر حتى وددت ضربه، لكنه رفع لي كأسه قائلاً بمرح: "أحب رؤية سايا عندما تغار".

جفّ حلقي ورددت: "تغار؟!"

كنت مؤمناً أنه أحمق، لكنني لم أرفض تلك الحماسة بالذات.

لم نتكلم كثيرًا، غادرنا المطعم ونحن نتحدث عن الحفل، وتوجهنا إلى نادٍ ليليّ فخم تابع لأحد الفنادق العالمية. كان المكان خافت الأضواء بشكّلٍ حميم، ونغمات الموسيقى مرتفعة بشكلٍ راقٍ يغمر الحاضرين دون أن يصدّعهم، وفي ساحة الرقص أحبة يتمايلون، وبعضهم يتبادل القبلات.

جلسنا على طاولة البار الرئيسية، وشرعت أراقب الآخرين، فيما ألقى دايكي تحيات صاخبة على الجميع! طلبت كوكتيل "تاكيدا شروق الشمس"، فجاءتني الكأس المبهجة بألوانها الحمراء والصفراء، الممتزجة في المنتصف في طيفٍ برتقالي جميل. بدأت أشرب والموسيقى تنتهي، ثم انخفضت الأضواء في المكان، وسطعت فوق مسرح مرتفع، عليه بيانو عملاق خلفه عازف شاب.

أحببت عزفه وكأنني أعيد اكتشاف سحر البيانو. وأحببت صوته وهو يغني "غرباء في الليل" بإنجليزية محكمة، ونبرات دافئة. أداؤه المرهف جعلني أدمع تلقائيًا، وشعرت أن أوجاعًا ما تفارقني مع الدموع.

كان دايكي مشغولاً مع حسناء تتجاذب معه أطراف الحديث، ثم اختفى، وهكذا أفرطت في شرب التاكيدا وحدي بارتياح. غاب عقلي تدريجيًا كما لو كنت أهبط جبلاً وقدماي تفقدان ثباتهما أمام قوة الجاذبية الراغبة في إسقاطي.

سمعت صوتًا ضاحكًا يحدثني: "تبدو كما لو كنت راغبًا في الغرق".

كانت فتاة جميلة، لم أتبين وجهها تمامًا لكنني أدركت جمالها كما أدرك ضوء الشمس وأنا مغمض العينين. نظرت لها أقل من لحظة ثم عدت لكأسي.

- "لقد استسلمت للغرق منذ زمن، لكن لا شيء يحدث إلا أنني أطيل احتضاري".

- "ربما لأنك لم تغرق بشكلٍ مناسب".

ودفعت أمامي كأسًا تتدرج ألوانها من الأزرق الداكن إلى الأخضر الفاتح، وقرعت بها كأسها: "هكذا يكون الغرق سريعًا وأنيقًا".

استسلمت لجاذبية السكر دون أدنى مقاومة، بعد طول فراق سقطت من جديد في الدوامة الثقيلة المعهودة، فتقاذفتني من دوار إلى آخر، وأسلمتني لشعور بأن جسدي خائن، يوشك أن يتخلى عني، كما فعلت ناومي.

اختفى كل شيء في لحظة، ثم غمرني الضوء في اللحظة التالية، وتقلب وسط نعومة تامة تلفني، وتغريني بمزيد من الاسترخاء. استسلمت لها، وأردت العودة لنومي لكنني عجزت، وبعد قليل فتحت عيني وتقلب في الفراش الناعم، ولم أنتبه للغرفة غير المألوفة من حولي في البداية، ثم انتبه عقلي المشوش فأجفلت.

نهضت لأجدني وسط فراش مضطرب، ومن حولي ملابس متناثرة. استغرقت دقائق حتى استطعت تحمل الألم النابض في صدغي منذرًا بعاصفة من الصداع، واستغرقت دقائق أخرى حتى ميزت قميصي الملقى على الوسادة وقد تطايرت أزواره وتمزقت عرواته، وارتمي فوقه فستان قصير تمزق ظهره شرمزق، وبالقرب منه ملابس داخلية نسائية لم تكن أحسن حالًا.

نهضت مبلبلاً فانقضت عاصفة الصداع مكشرة عن أنيابها، وفار الدم ليضرب منتصف جبتي بإيقاع ثقيل منتظم. نظرت إلى نفسي عبر الغرفة في المرأة، وتساءلت: أين أنا؟ وماذا حدث ليلة أمس؟

ثارت معدتي وكأنها تقذف حممًا فأسرعت إلى الحمام، وتقبأت حتى كدت أختنق ثم غسلت وجهي، وأمام المرأة رأيت خدوشًا غائرة تمزق صدري وتشوه عنقي، وفوق حاجبي الأيسر تبلورت كدمة صغيرة داكنة، وتمزقت شفتي السفلى.

دق قلبي بقوة مستقبلاً شعوراً بالخطر لم يدركه عقلي.

خرجت أبحث هاتفي فلم أجده، لكن حافظتي وبطاقتي الانتمانية كانتا معي، وهكذا ارتديت قميصي وأحكمت السترة فوقه لأخفي تمزقه، وغادرت الغرفة والفندق كله خلال عشرين دقيقة. كنت في الفندق نفسه الذي قضيت الليلة في باره.

وصلت البيت بعد رحلة متعبة جداً في التاكسي؛ لم أتذكر اسم الشارع، وشرعت في توجيه السائق عشوائياً حتى وجدت معالم مألوفة. فتحت لي سايا الباب فهزتي المفاجأة وكأني لم أتخيل أبداً أن أقابلها، وشعرت أنني ملوث جداً ومذنب في شيء ما لا أدركه، لكن أوان تداركه قد فات.

كانت مقطبة الجبين وحانقة، وأنا على يقين أنها كانت ستقول بجفاء "يبدو أنك استمتعت بسهرتك"، أو أي عبارة مماثلة، لولا أنها جالت بعينيها في وجهي ونظرت إلى ملابسي المبعثرة والممزقة.

رددت اسمي بصوتٍ حذر فدفعتها وتجاوزتها إلى الداخل، أحكمت غلق باب غرفتي خلفي، وجريت إلى الحمام، وغرقت في نوبة قيء أخرى أشد عنقا. لم أكن مستيقظاً بما يكفي لأفكر أو أدرك أي شيء، لكنني كنت خائفاً، وأرتعش، وأقسمت ألا أسكر بهذا الغباء مجدداً، بل لن ألمس الخمر ما حييت.

كنت شبه نائم حين فتحت سايا باب الشرفة ودخلت، جلست جوارى وأمسكت ببدي فأجفلت ودفعتهما عني. سألتني وهي قلقة: "ماذا يخيفك؟" - "لست خائفاً".

كانت عبارتي مضحكة لأن صوتي كان يرتعش. عادت تسألني: "أهو حادث سرقة؟" - "أرجوك اتركيني الآن".

وأوليتها ظهري فغادرتني، وانكمشت في فراشي محاولاً تذكر أي شيء دون جدوى، مهما بلغ بي السكر أستطيع تذكر بعض الأحداث حتى ولو بدت مشوشة كحلم، لكنني لا أتذكر أي شيء، فقط أغنية "غرباء في الليل"، وفتاة الكوكيتيل الأزرق.. هل كانت معي وتأذت بشكلٍ ما؟

قهري النوم وأنا أفكر أن امرأة ما رافقتني إلى تلك الغرفة ثم اختفت، وعلى الأرجح بعدما أصيبت بأذى.. رأيت أحلامًا مقززة.

أيقظتني سايا عند الغروب، فزعت لرؤيتها لحظة ثم تماكنت نفسي، وهربت من النظر إليها. اعتدلت في الفراش وانتظرتها حتى جلست جوارى.

وضعت يدها الباردة على يدي وقالت: "هيا يا تاكومي، سنخرج معًا".

"إلى أين؟"

"سنذهب إلى ميساو، هل نسيت دعوتها؟"

"اذهبوا أنتم".

"سنذهب جميعًا أو نعتذر جميعًا، لقد وجهت وجونغي الدعوة إليك مباشرة، وسيكون من المزعج لهما أن تتخلف".

تلقت باحثًا عن مهرب، ثم توسلت إليها: "أرجوك يا سايا، اتركيني وحدي اليوم".

شدت يدها على يدي. فأشعرتني دفؤها بألم كاسح، وفوجئت بنفسي أقول: "أنا لا أعرف ما حدث ليلة أمس".

"هذا لا يهم، مادمت لا تتذكر فالأمر لا يستحق".

شعرت بالاختناق وصحت بها: "ما رأيته يقول إنه يستحق، ليس كل ما ننساه أمور لا تستحق التذكر، ربما هي أمور نختار نسيانها كي لا نفقد عقولنا، ربما هي أشياء لن نستطيع التعامل معها، ربما...".

صاحت تهديني وكأنني حصان جموح، لكنني لم أتمالك غضبي حتى وهي تقول: "تاكومي الذي أعرفه لن يفعل شيئًا سيئًا، ثق فيه، وثق في ثقتي فيه".

تأملتها بلا تعليق فابتسمت لتشجعي: "انهض واستحم، وستشعر بالانتعاش، ولو بقيت غير راغب في الخروج سأبقى معك، لكن الانعزال في فراشك ليس حلًا لما تواجهه أيًا كان".

نهضت وفعلت كما قالت، فغسل الماء ثناقلي وبعض القلق عني، ووجدت نفسي أميل لمحاولة تجاهل ما قد يكون قد وقع، انتقيت ملابس أنيقة وخرجت إليها، ووجدتها بانتظاري مع نانا.

كانت ترتدي فستانًا قصيرًا زرعِي اللون، فوقه معطف من الفرو الناعم الرمادي، وتصفف شعرها في لفائف طويلة ناعمة انسدلت على كتفها حتى منتصف صدرها، وقصبت غرة شعرها فأحاطت خصلاتها بوجهها في تدرجات مختلفة، ورسمت بالكحل عينها كأجمل ما يكون، وظلت شفيتها بلون وردي مغري. كانت مختلفة عما عهدت، وألجم جمالها لساني. أطلت النظر إلى ساقها اللتين بدتا أطول وأكثر رشاقة في الكعب العالي، وإلى فتحة الفستان التي كشفت عن عقد ماسي جميل ينعس على صدرها.. كانت جميلة بكل المعاني، لم أتخيل قط أنها بهذا الجمال.

ابتسمت عندما رأيته، قالت بعينها إنها توقعات خروجي في تلك اللحظة بالذات، وكذلك نانا التي سألتني فورًا: "هلا ذهبنا؟"

أومأت لها، واقتربت من سايا فانتسعت ابتسامتها، وازداد لمعان عينها لدرجة خطفت عقلي، قلت لها: "أنت رائعة".

أومأت برأسها وتأبطت ذراعي، وخرجنا فوجدنا حافلة شركتنا تنتظر. جلسنا بالخلف، وجلست نانا بعيدًا في بادرة لطيفة. لم نتكلم، ألقى كل منا رأسه للخلف وهو ينظر نحو الآخر، شعرت بكلمات كثيرة عالقة على طرف شفتي وشفيتها، لكني لم أرغب في الكلام، أصغيت فقط لعينها الواسعتين، ولم أشعر بالوقت حتى وصلنا.

ولكن لم يفارقني القلق لحظة.

استقبلنا كيم جونج جين في ساحة بيته الداخلية بحلة سيرة أنيقة، وتصفيقة شعر تليق بجلسة تصوير. قادنا إلى الداخل، فخلعنا أحذيتنا في المكان المخصص، ثم خلعت معطفي وعلقتة، وساعدت سايا على خلع معطفها، فانهدر الفرو بنعومة عن كتفها وذراعها، ورأيت ظهر فستانها المكشوف يظهر بشرتها الناصعة. تملكنتي رغبة عارمة في لمس مؤخرة عنقها بسبابتي، والانهدار بها بطول ظهرها الناعم، كان إغراء لمسها مؤلمًا فتتهددت، وتضرج وجهها بالحمرة لما سمعتني، ولكزتي من طرف خفي.

أخذ جونج جين يدها مني دون انتباه، أو ربما دون مبالاة، انحني وقبل خدها قائلاً: "أنتِ باهرة الجمال الليلة".

- "وأنت أيضاً".

وابتسمت له ابتسامة أشعرتني بالغيرة، حتى جاءت كيم سون تحذرهما: "شخص ما سيتم تقديمه على مائدة العشاء الليلة، أو ربما شخصين".

وسحبت زوجها من ذراعه، وألقت حول عنقه مريلة المطبخ، وقالت: "لا تظن أنك ستهرّب مني، عليك إنهاء الكيمباب بنفسك".

- "لقد فعلت".

- "ضعه في الأطباق إذن".

وابتسمت لي وقالت: "أرجوك اعتبر نفسك في بيتك، أو ابق مع سايا، هي تعرف طقوس البيت جيداً".

تبعّت سايا إلى غرفة المعيشة، لكنها لم تكن متفرغة لي، جلست مع نانا في ركن قصيّ تهاوسان بابتسامات واسعة مسترخية. كانت تطوي ساقها جوارها وتمد ذراعها على ظهر الأريكة خلف نانا، وفي عينيها نظرة حب جعلتني ألتمس الأعذار لأفكار كينجي، لن ألومه على سوء ظنّه فيها بعد اليوم.

لولا قبلتها وما قالت له لي، لربما ظننت الشيء نفسه.

جاءت كيم سون هي بعد دقائق، وإذ رأتهما قالت: "أوه.. طيور الحب!"

ضحكتنا، وأشارت لها لتقترب ففعلت، وجلسن متقاربات، وأمسكت سايا بيدها وألقت رأسها على كتفها وقالت: "لقد مرزمن طويل".

- "متى كانت آخر مرة اجتمعنا فيها؟"

غمغمت نانا بعينين مغمضتين: "منذ رحلة الصحراء".

قالت سايا: "لا، منذ صعدنا جبل فوجي".

أكملت كيم سون هي: "يومها رصدنا أورانوس بوضوح".

ثم صاحبت بحماس: "سايا، لم تشاهدي بعد تليسكوبي الجديد".

قفزت سايا واقفة مشدوهة بالسعادة. رددت: "تليسكوب!"

أشارت إليهما نانا باسترخاء وقالت: "مهوستان برصد النجوم".

دعني كيم سون هي لمرافقتها إلى الخارج، فتبعتهما بفضول، خرجنا إلى حديقة خلفية مرتبة، في منتصفها تليسكوب أكبر من الموجود على سطح بيت تسوياسا. ركضت إليه سايا كمن يلقي حبيبا، وتقاظرت حوله تفحص كل بوصة منه، وانطلقت في الحديث بلغة أجنبية لم أميزها، ولم أهتم بتمييزها؛ أطلت النظر إليها وهي في تمام جمالها وسعادتها، لشد ما كانت رائعة! لا أمانع في تأملها هكذا إلى الأبد. ماذا لو أنني اصطحبت امرأة إلى غرفة الفندق وأديتها؟ هل ستنظر سايا إليّ مجدداً بتلكما العينين العاشقتين؟

غاب ذهني مع مخاوفي.. بينما تضبط كيم سون هي إعدادات التليسكوب، وسايا تنظر إلى السماء هائمة، ثم غنت: "أريد أن أصبح نجمة".
-نحن كذلك بالفعل".

لم تنتبه سايا للهجي الجافة، وغمغمت بنشوة: "حين ننهي حفلاً بنجاح، وأسمع صراخ الجمهور المنتشي، أشعر أنني قطعت عشر سنوات ضوئية نحو حلمي. لا أريد أن أموت أبداً، أريد أن أصبح نجمة، ويظل وهي خالداً بعد مليون عام من موتي. أه لو كان بإمكانني أن أرىكم مستقبلي كما أراه!"

سألتهما: "وماذا لو تصبجي نجمة؟ ماذا لو كنتِ شهاباً عابراً؟"

رفعت كيم سون هي عينها عن التليسكوب، ونظرت لي باستنكار محي رقتها ولطفها، ونهتني نظرتها إلى أن توتر ذهني جعل جفائي وقاحة غير مقبولة. وبالعكس، نظرتها الشريرة الموجهة نحوي قالت لسايا بلهجة عاطفية: "ستكونين يا فتاتي، لقد عانيت بما فيه الكفاية لتستحقي مستقبلاً رائعاً".

وضحكت سايا لي: "أنا نجمة يا تاكومي، خلقت لأكون كذلك، ولن أقبل بغيره. ألم تسمع من قبل أننا نصنع أقدارنا بأيدينا؟"

-سمعت، لكن ما يحدث أن الأقدار تسحقنا وحسب".

وكأنها لم تسمعني أغمضت عينها بحماس. قالت: "التفكير في هذا يجعلني أريد كتابة لحن جديد. تاكومي، ما رأيك في سهرة طويلة للكتابة؟"

قالت كيم سون هي بتذمر: "لا أظنه مستعدًا لأي شيء بهيج الليلة. تعالي يا سايا، لقد تعقبت زحل".

أقبلت عليها سايا بوجهٍ مشرق، وإذا نظرت عبر العدسات شرعت في حديث سعيد بلغتها الأجنبية، مرندة الكلمات وكأنها تدلل طفلًا صغيرًا حبيبًا. انضمت إلينا نانا بعد قليل، ثم جاء كيم جونج جين يدعونا إلى الداخل. صحبني وهو يتحدث عن آخر الأخبار الفنية، أما الفتيات فبقين يتحدثن بلغتهن ضاحكات، حتى اجتمعنا حول مائدة العشاء. وقال لي كيم جونج جين إذ رأني أخرس: "سيستغرق الأمر وقتًا، يبدو أنك ترى هذا للمرة الأولى".

أومات برأسي بصمت، فقال: "كيف تخططون لإغرائه؟"

كان الطعام بديعًا، والجلسة دافئة، وضيافته رائعة، لكنني لم أتحمّل فكرة أن أثرثر معه في تلك الليلة بالذات. نظرت له مستفهمًا فقال: "أتحدث عن هيببكي سان، كيف تخططون لإغرائه؟"

توقفت الفتيات عن الحديث بلغتهن الأجنبية، وقالت نانا مختالة: "لدينا أغنية جديدة مذهلة".

- "فقط؟"

أشرق وجه سايا فجأة وسألته: "فيم تفكر يا جونجي؟"

ضحك: "أفكر فيما تفكرين فيه. ما رأيك لو نتعاون معًا؟"

قالت نانا بحماس: "أنا موافقة".

صاحت كيم سون هي: "توقفوا يا مجانين. من يتعاون مع من؟"

بابتهاج هتف: "أغنية لي مع تسوباسا، نكتبها ونلحنها معًا، وأؤديها مع تشو سان في حفلٍ خاص. سيكون هذا جنونيًا".

اقترحت نانا: "ولنجعلها باليابانية والكورية".

- "هذه فكرة عظيمة".

صاحت سايا: "نانا!!!!!!".

وشدتها لتقبلها على خدها، فاستسلمت نانا بنظرة كوميدية، وانقلب الحديث فجأة باللغة الكورية. لم أبذل ذرة جهد لأفهم ما يقال، وانجرفت مع أفكارى راسماً على وجهي ابتسامة مفتعلة.

كانوا في مرح عظيم حين دخل أحد رجلَي الأمن القائمين على حراسة البيت بالخارج، ونادى كيم جونج جين لينتحي به جانباً ويهمس له بكلمات ما، فأجفل هذا لما سمع ونظر نحوي.. جعلتني تلك النظرة أترك عصا الطعام وأنهض، علمت أن كارثة ما وقعت لي، وأنا على وشك معرفتها، وللغرابة شعرت بالراحة لكوني سأعرفها أخيراً.

أثار نهوضي القلق، ونظرت كيم سون هي نحو زوجها تتساءل عما يحدث، فاستأذنتنا: "أستميحكم عذراً لدقائق".

وغادر الغرفة لبعض الوقت، ثم عاد، لكنه لم يعد وحده، كان يتبعه عدد من رجال الشرطة صارمي الوجوه، حينها هوى قلبي، وتمنيت ألا أعرف أبداً ما أنا مقدم عليه.

قال لي قائد الشرطيين: "سيد هارونو تاكومي، أنا أسف لاضطراري إلقاء القبض عليك بتهمة الشروع في الاغتصاب، وانتهاك قانون إقامتك في هذا البلد".

قالها باليابانية لكنني وقفت جامداً كأني لم أفهم ما يعنيه..

كنت بالفعل لا أفهم ما يعنيه.

"أنا مضطر لإلقاء القبض عليك بتهمة الشروع في الاغتصاب".

كرر رجل الشرطة عبارته دون أن ينبس أحد بكلمة، ولما تبين له تحولنا لتمائيل ساكنة أشار لرجلين أن يتجها إليّ. لكن سايا تحركت ووقفت أمامي، أمسكت بذراعيّ بتأهب وكأنها ستمنعهم من أخذي، فتوقف الضابطان أمام مبادرتها التلقائية تلك.

قال قائد الضباط: "أنسة سايا، أرجوك لا تقحمي نفسك في مشكلة إعاقتنا عن أداء عملنا، نحن...".

"أنت لا تجيد اليابانية أيها الضابط، وأنا لا أفهم ما قلت. خيل إليّ أنك نطقت بشيء مستحيل".

تحدث بالكورية فلم أفهم ما قال. سايا فهمت وازدادت تشبثاً بي، وبصوت مرتبك وغاضب سألت كيم جونج جين: "ماذا يقول؟ يبدو أنني لا أفهمه جيداً؟"

كنت واثقاً من معنى ما قيل، ولم أرد توريطها فأبعدتها لكنها تمسكت بي. صاحبت غاضبة: "أنتم تلفقون التهم ل....".

قاطعها كيم جونج جين: "لا تقولي شيئاً قد تحاكمي به يا سايا، هناك خطأ ما على الأرجح، ويجب أن يذهب معهم تاكومي سان الآن، وسوف نرسل محامياً يفهم سبب تلك التهمة الغريبة".

ووجه حديثه إليّ سائلاً: "أنت لم تفعل شيئاً، أليس كذلك؟"

"بلى".

لكن رغم ردي الواضح والمباشر لم أكن واثقًا مما قلت، وغضضت بصري عنه كي لا أرى نظرة الشك والقلق في عينيه، فرأيت وجه سايا شاحبًا إلى حد الموت، وفي عينها نظرة أشعرتني أنني أسمع صوت قلبها وهو يتشم قطعًا صغيرة. أفضع ما في الأمر أنني لم أملك ثقة كافية لأدافع عن نفسي.

سألتني سايا: "أفعلت هذا؟"

لم أستطع استجماع أفكاري لأجيبها، وخشيت قول شيء يجعلني أخسرهما. وفي الوقت نفسه لم أعرف ماذا يجب أن أقول. وضعت يديّ حول وجهها وحدثت إلى أعماق عينها، بدت لي ثمينة إلى حد لا يمكنني معه المخاطرة بأن أخسرهما.. لا أريد أن أخسرهما أبدًا.

همست لي: "قل إنك لم تفعل شيئًا، أنا أعرف أنك لم تفعل".

"لا أعرف، أقسم لك أنني لا أعرف".

أبعدت يديّ عنها وأشاحت بوجهها، وقالت: "سأتصل بدايكي".

وفي لمح البصر غادرت الغرفة. وإذا اقترب مني رجال الشرطة قالت لي نانا تطمننني: "لا تقلق يا تاكومي، هذا خطأ على الأرجح".

سرت مع رجل الشرطة دون أن أنظر لوجه أي شخص، وددت الاختفاء من الحياة كلها؛ بعد كل ما حققت من نجاح وشهرة تُدمر سمعتي ومستقبلي بتهمة مهينة. والأسوأ أنها في بلد أجنبي، وأنني غير قادر على الدفاع عن نفسي بثقة. كنت في غيبوبة ذهول، ومضت عليّ ساعات وأنا جالس في الزنزانة المؤقتة بمركز الشرطة أنظر للسقف، لا أعرف فيم أفكر، ولا أعرف فيم يجب أن أفكر، ولا أعرف ماذا سيحدث، لكنني كنت خائفًا، كنت أشد خوفًا من أي وقت آخر في حياتي، خائف مما يمكن أن يحدث، وخائف مما فعلت.

ماذا حدث ليلة أمس؟

أخذني النوم والسؤال يتردد داخلي، وتردد مجددًا في أحلامي وأنا نائم، وظل يلح عليّ مطاردًا بعدما استيقظت.

وقت تقديم طعام الإفطار، سألت رجل الشرطة: "ماذا سيحدث لي اليوم؟"

أجابني بالكورية فلم أفهمه تمامًا، ميزت فقط ثلاث كلمات: محامي، أصدقاء، صحافة.

صحافة؟!!!

اجتهدت لأقول: "لا أريد رؤية أحد".

هز رأسه وترك لي صينية الطعام، فوضعتها جانبًا وجلست زائغ العينين.. صحافة؟! كيف يمكن أن يتسرب الخبر بهذه السرعة؟ كيف تسرب؟ وماذا يقال الآن؟ ماذا عن الشركة؟ وماذا عن المعجبين بالفريق؟ والحفلات القادمة؟ وعاودني الشعور بالغثيان.

عند الظهيرة جاءت الزيارة الوحيدة التي لن أرفضها أبدًا، كان دايفي بصحبة رجل لا أعرفه، بمجرد دخولهما الزنزانة وقفت قلقًا، لكن دايفي ابتسم وقال: "أعرف أنك توقعت زيارة شخص آخر، لكن سيكون عليك القبول بي مؤقتًا. هل أنت بخير؟" - "لا".

أشار إلى الرجل: "لقد كلفت الشركة هذا السيد بالدفاع عنك في القضية، وقد جئت معه اليوم لأتولى الترجمة بينكما، أنت لا تعرف طبعًا أنني محامٍ". كنت بانسًا لدرجة أنني لم أستغرب معلوماته الجديدة..

"حصلت على دبلومة دولية في القانون قبل خمسة أعوام، لكنني لا أحمل رخصة تؤهلني للدفاع عنك، لهذا سأتولى الترجمة. لن تجد شخصًا يقوم بهذا أفضل مني".

كان جادًا على غير عادته، فقلت بامتنان: "أنا أثق فيك، لكنني لا أعرف ماذا أقول، أنا لا أعرف ماذا فعلت ليلة أمس، ولست واثقًا أنني...".

"أنت لم تفعل شيئًا يا تاكومي، لقد كنت أتابعك طوال الوقت، وغبت عنك عشر دقائق لأحضر سيارة، ووقتها كنت شبه فاقد الوعي، ولم تكن بك القوة الكافية للوقوف فضلاً عن ارتكاب جريمة".

"والملابس الممزقة؟ والجروح في صدري؟ و...".

"هذا يسهل تلفيقه. لا تفكر فيما يشير لإدانتك، فكر في الأشياء التي تثبت براءتك فحسب، لأنك بريء. نحن كلنا على يقين من هذا، حتى لو قال العالم كله العكس.. أتفهم؟"

أومأت برأسي، ترددت في سؤاله عن أمر ما، لكنه عرف ما أفكر فيه وأجابني: "الوضع بالخارج سيئ، الشركة تساندك فقط لأنك عازف ماهر، واتهامك وسجنك سيجعلهم يخسرون نجاحنا، لكنهم لا يؤمنون حقًا أنك بريء، وستتعرض لمشاكل هائلة حال ثبوت التهمة عليك. الفتاة التي تتهمك ابنة عائلة كبيرة ذات نفوذ هنا، لهذا تتعامل الشرطة مع القضية بعنف، ولهذا تسرب الخبر للصحافة والإنترنت بطريقة غير معقولة، ونحن نتعرض لحملة تشويه مرعبة الآن، وقلة من المعجبين تساندنا وتثق ببراءتك، لو أنك اطلعت عما يحدث في الخارج ستظنها نهاية العالم".

"يا للهول!"

وتهاويت جالسًا وقلبي يخفق، فقال بسرعة: "لكننا لن نستسلم، كل منا يقاتل الآن لإثبات براءتك من عدة نواحٍ، لهذا يجب أن تساعدنا، وسينتهي كل هذا سريعًا، ثق بنا كما نثق بك".

أومأت برأسي، عندها تكلم المحامي الكوري للمرة الأولى، وترجم لي دايكي ما يقول: "الآن أخبرنا بكل ما حدث لك، منذ دخلت البار حتى عدت إلى المنزل".

بدأت جلسة اعتصار الذاكرة ولم تستمر طويلًا، لكنهما سألاني عن تفاصيل عدة، بعضها أذكره وبعضها لا، وبعدها تحدث المحامي فترة طويلة مع دايكي، ثم بدأ في تلقيني الإجابات التي سأحتاج إليها في التحقيقات.

حين رحلا عدت إلى دوامة الأفكار المرعبة، والشعور المزري بالوحدة، لم أشعر في حياتي كلها بالبؤس كما شعرت به في هذين اليومين بالسجن، كان شعورًا رهيبًا شوّهني تمام الشوه، حتى غدوت لا أعرف نفسي.

أطلق سراحي بكفالة في مساء اليوم الثالث، وعدت إلى البيت مع نانا وتشو، وعلق دايكي في إنهاء الإجراءات المعقدة. لكنني لم أر سايا قط، ولم أرها لأيام عديدة تالية.. سألتهم عنها عشرات المرات، وتلقيت النظرات الحائرة نفسها مع الرد ذاته: "قالت إنها بحاجة للوحدة"، ثم لا شيء.. استقر في أعماقي يقين تام بخسارتها.

إنها حتى لا تريد أن تكون موجودة في البيت نفسه الذي أبقي فيه.

أصبح داكي بدوره يغيب طويلاً، وأسفرت نانا عن وجه قيادي لم أتخيل وجوده وهي تجربني وتشو على التدريب طوال الوقت لحفلنا المقبل. كنت فاقد التوازن وأشعر أن حياتي انهارت، وبدأت لي فكرة أنني سأصعد إلى المسرح مجدداً في غاية السخافة، فلم أخذ توجهاتها على محمل الجد، حتى قذفتني بجيتارها ذات ليلة، واندلع بيننا شجار كبير، فعدت للتدرب مغلوباً على أمري.

في تلك الليلة رأيت سايا لأول مرة منذ قبض عليّ. كنت في الطريق لغرمتي حين سمعت صوتها في غرفة داكي، اتجهت إليها وبدأت أتبين صوتيهما وهما يتناقشان بحدة أو يتشاجران بلغتهما الأجنبية. لم أدر بنفسي وأنا أفتح باب الغرفة وأناديهما، ولم تنتزلي في البداية، ثم حوّلت عينها نحوي للحظة واحدة وقالت "أهلاً"، ثم استدارت لتولييني ظهرها.

قال لي داكي: "ليس بعد يا تاكومي".

تجاهلته وقلت: "أريد أن أتحدث معك يا سايا".

لم تجب، وقال داكي: "نحن مشغولان الآن".

صحت به: "هل يوجد شيء أهم من قضيتي يشغلكما الآن؟"

- "لا، نحن نعمل عليها".

- "عظيم، لا يجب أن تعملوا بمعزل عن المتهم إذن. أُلستما في صفي؟"

- "تاكومي...".

- "أريد أن أفهم ماذا يحدث، أريد أن أتحدث معك يا سايا، أنا المتهم في هذه...".

استدارت إليّ وصرخت: "أنت لست محامياً، ولا شيء مما نفعله يخصك. اخرج وأتركنا".

دخلت وأغلقت الباب خلفي غاضباً، صحت: "هل تحاولين الدفاع عني وأنتِ تظنين أنني فعلت هذا؟"

- "أنا لا أدافع عنك".

- "أتظنين أنني فعلت هذا يا سايا؟"

- "ماذا تظن أنت؟"

لم يغضبني شيء في حياتي قد وجهها الغاضب المستهتر في تلك اللحظة..

- "أنتِ تظنين أنني فعلت! أحمًا يا سايا؟"

- "لقد سألتك: ماذا تظن أنت؟"

- "أنا لا أؤذي النساء يا تسوباسا سايا، لا أفعل هذا في وعي، ولن أفعله حتى

لوشربت نهرًا من التاكيل".

- "عظيم".

وأولتني ظهرها مجددًا، فصرخت بها: "انظري إلي".

تدخل دايمي بيننا: "هيه.. توقفًا عن هذا الغباء".

قالت سايا: "تأخرت في إدراك الأمر يا هارونو تاكومي، كان عليك أن تثق

ببراءتك مبكرًا".

نظرت إلى دايمي لكنه رفع عينيه إلى السماء بنفاد صبر، وكشر في وجهي لأذهب، لكن سايا كانت الأسبق: سحبت حقيبتها ومرت بجواري لتغادر، وبحركة تلقائية مددت يدي نحوها، لكنها ارتدت بعيدًا عني ورفعت يدها تحول بيني وبينها. قالت: "لا تفعل، إياك حتى أن تفكر. ابتعد عن طريقي يا هارونو تاكومي ودعني أذهب".

ومضت أمامي صورتها بعينها اللامعتين العاشقتين، وشعرت بمذاق قبلتها النبيذي إلى حد مؤلم، ثم عدت إلى الواقع لأرى وجهها الغاضب وهي تنظر بعيدًا عني لتتجنب رؤيتي. لم أنطق بكلمة، كل الكلمات بدت بلا معنى.

كانت تدعمني دائمًا، كانت الشخص الذي أستطيع الاعتماد عليه أكثر من سواه، ولكن في هذه الكارثة هي الشخص الوحيد الذي لا يثق ببراءتي، ويلومني، ويتجنبني.

اقترب دايمي ليحول بيني وبينها، وفتح الباب فخرجت. قال: "مرحبًا، أنت تقابل سايا الغاضبة للمرة الأولى".

- "أهذا غضب؟ أنا لا أرى إلا كراهية واحتقاراً".

- "لأنك أعمى وغبي، كلنا يعرف هذا".

واعترض طريقي قبل أن أغادر بدوري، قال: "تعال لتعرف ماذا سيحدث غداً".

جلست على أحد المقعدين الموجودين بغرفته، وجلس هو قبالي، وبدأ يصنف الأوراق الكثيرة المنتشرة أمامه، ويسلمها إليّ واحدة تلو الأخرى، ويترجم لي ما بها.

- "اليوم قدمت مع سايا عدة مستندات هامة للجهات التي تتولى التحقيق في قضيتك، أولها تحليل الدم الذي أجريناه بعد اعتقالك مباشرة، لقد جاءت نتائجه لتجزم بأنك كنت تحت تأثير مخدر متوسط المفعول قبل اعتقالك بفترة لا تزيد على أربعة وعشرين ساعة. أما هذا المستند فهو رقم قضية نظرتها محكمة طوكيو العليا قبل خمسة أعوام تقريباً، واتهمت فيها فتاة تدعى كيونغ شين بي".

اضطربت إذ سمعت الاسم، وقلت: "هذا.. مألوف...".

نظر لي كأنما يعزني، وقال: "قبل خمسة أعوام كنت تقضي عطلة الكرنسماس في منتجع بهوكايدو، و...".

ملأت كلماته صدري ببرد مؤلم، وتذكرت تلك الليلة المروعة التي قضيتها مع ناومي في أحد الفنادق الفخمة بالمدينة، كنا غارقين في الاحتفال على طريقتنا الخاصة، في فراش وثير بغرفة تضيئها عشرات الشموع، وتعطرها آلاف من بتلات الزهور الحمراء، نمارس الحب في ذروة نشوتنا، ثم شعرنا بوجود شخص ما معنا في الغرفة، وانتبهنا لهذا حين سمعنا صوت كاميرا.

أي هلع شعرت به ناومي في تلك اللحظة، وأي اضطراب تملكني! ما من كلمات تصف تلك الليلة، لعلها الليلة الوحيدة التي تفوق انتحار ناومي سوءاً في ذاكرتي. لحقت بتلك الفتاة المطاردة واستدعيت الأمن، وقبض عليها وتم ترحيلها إلى بلدها، ودفع بها إلى المحاكمة، لكنها أفلتت من السجن لأنها دون السن القانونية بأسبوع واحد، وعلى هذا تلقت عقاباً يناسب المراهقين، وأوصي لها بعلاج نفسي مكثف.

كانت تلك أول الضربات القاصمة التي أودت بناومي من بين يدي، انعزلت عني لأشهر بعدها، وبدأت تستشعر خطر معجباتي المجنونات اللاتي يتعقبني في كل مكان، ويلاحقنها بالسباب واللعنات إذ ظفرت بي دونهن.. عبثاً حاولت استرداد ناومي القديمة التي أعرفها دون جدوى، وبعد انتحارها كنت أفكر أحياناً في تلك

الفتاة، المراهقة الكورية التي وضعت أول مسمار في نعش ناومي حقيقة لا مجازًا..
كان اسمها كيونغ شين يي.

صحت وكأن كهرباء ضربتني: "توقف الآن.. توقف.. توقف..."

وأخفيت وجهي بين كفي محاولاً السيطرة على نفسي..

بعد فترة صمت قال: "أعرف أن الذكرى سيئة، لكن تلك القضية نقطة قوية
في صالحننا..."

- "أريد أن أقابلها".

- "أنا أرحب بهذا، لأنني أود رؤية جريمة الشروع في الاغتصاب تتحول إلى قتل
عمد. هلا توقفت عن تلك العاطفية يا هارونو تاكومي؟"

- "تسوبا سا".

- "ماذا؟"

صحت به: "ليس هارونو، بل تسوبا سا. أنا جزء من هذه العائلة".

حدق إلى وجهي بصمت. قلت يائسًا: "ليس أنت أيضًا، يكفي سايا".

- "سايا هي من انتبه لاسم تلك الحقيبة، لا تكن حانقًا عليها بسبب غضبها".

- "لم أفعل ما يستحق غضبها".

- "حسنًا، ليس من حقي أن أوضح لك مشاعرها ما دمت أحرق وأعمى. والآن
ركزمي".

- "أنا منصت".

في الصباح التالي كان الدليل الأهم على مائدة المحققين هو كاميرات المراقبة
بالفندق، والتي سجلت أحد العمال وهو يأخذني إلى غرفتي وأنا فاقد الوعي،
وهكذا انقلب ميزان القضية بين عشية وضحاها، وأمام قضية الشروع في
الاغتصاب رفع محامي شركتنا قضايا بالبلاغ الكاذب، والتعدي على سمعة مواطن
أجنبي، وتلفيق القضايا بالباطل، والاختطاف، واشتعلت وسائل الإعلام والعالم
كله.

بعد أسبوع آخر سقطت عني التهمة الموجهة إليّ، وغادرت مركز الشرطة لآخر مرة مشتت العقل كما دخلته أول مرة. كان دايفي بانتظاري، ونانا، وتشو، وكينجي، وكيم سون هي، وكيم جونج جين، كلهم إلا سايا، الكل يبتسم ويهتفي، وفي وجوه تسوباسا إرهاب يتعذر وصفه. عدنا إلى البيت مع كينجي، ودون اتفاق سابق سحب كل منا وسادة من المنثورة فوق الأرائك، وارتمينا على الأرض متهاكين.. في تلك اللحظة أدركنا أي أسبوعين عصيين عشنا.

تساءلت تشوهمسا: "لم يعد شيء يحول بيننا وبين حفلنا القادم، صح؟"

شرعت نانا في البكاء، لكن أحدًا لم يجد الطاقة لمواساتها. وحده كينجي همس لها لتهادأ. قالت: "خشيت ألا نصعد إلى المسرح مجددًا".

قال دايفي: "لا شيء يقدر على حرماننا من المسرح".

- "وسايا...".

- "دعها تبكي، لقد عاشت وقتًا عصيبًا".

داهمنا صوتها الجاف كالكاوبوس: "ولم أبكي؟ لأجل أحرق لا يستطيع الثقة في نفسه ليدافع عنها؟ ويسمح لنفسه بالسكرك حتى يفقد الوعي؟ الشيء الوحيد الذي يستحق البكاء أننا اضطررنا لتأجيل حفلين من حفلاتنا في كوريا، ما دعا رعاتنا لإلغاء أحدهما لأول مرة في تاريخ تسوباسا، كما أن جولتنا ستمتد لعشرة أيام أخرى وتنتهي ليلة العام الجديد. ما يدعو للبكاء أننا لم ننه العمل على أغنيتنا الجديدة والكريسماس يقترب، والأغنية التي ننوي إغراء هيبكي ساما بها لم يكتب منها حرف، وحتى لو كتبناها فمن يضمن لنا أنه يود التعاون مع فريق مثلنا؟ فريق يسكر أعضائه حتى يغيبون عن وعيهم، وتوجه له اتهامات مخزية؟"

كانت واقفة عند باب الغرفة، مائلة على الحائط باستهتار، ونظرت لي وقالت بمقت: "لم أتخيل قط أنني قادرة على كراهيتك إلى هذا الحد يا هارونو تاكومي. أقسم أنني سأجعلك تعاني، وسأجعلك تكره انضمامك لنا من كل قلبك".

قال دايفي وهو لا يزال مستلقًا يحملق في السقف: "لا تنسي نصيبي من الكراهية، فكل هذا حدث بسببي، لأنني لم أراقبه كطفلي الصغير".

- "لن أنسى يا دايفي، واعتبارًا من اليوم وحتى مارس المقبل، لا أريد رؤيتك ولا التحدث إليك إلا في غرفة التدريبات أو المسرح. تجنبي وكأنني الموت".

- "حسنًا، وباعتبار هذه آخر محادثة بيننا لمدة ثلاثة أشهر قادمة، دعيني أقول لك إننا ما كان يجب أن نترك المحاماة".

- "نعم.. لقد خسر العالم كثيرًا".

واعتدلت تقول: "لدينا حفل بعد غدٍ، وأغنية يجب أن نقدمها لجمهورنا في حفل العام الجديد، استريحوا ساعتين وسنبداً تدريبنا".

همست تشو حين اختفت: "لقد عادت الساحرة الشريرة".

لم نجد طاقة للتعليق.

عشنا أشق أيام حياتنا في الأسبوع السابق للكرسماس؛ أنجزنا حفلنا الأخير في كوريا بنجاح أذكته فضيحتي لشدة الغرابة! ثم انطلقنا إلى تايلاند لنؤدي حفلًا آخر، وسافرنا بعده مباشرة إلى ماليزيا، وفي عصر اليوم التالي كنا في المسرح استعدادًا لحفل ثالث، وحال انتهائه عدنا إلى الفيلا المخصصة لنا لنضع آخر اللمسات على الأغنية الجديدة حتى انتهينا منها، ونمنا ساعات معدودة ثم استيقظنا نواصل تدريباتنا، ثم انطلقنا إلى حفلنا الثاني والأخير، لنودع ماليزيا وننتقل إلى الصين.. المحطة الأخيرة والأهم في جولتنا.

أقمنا في بيت تقليدي الطراز، في منطقة منعزلة كالعادة، ما جعلني أفكر في السبب الذي يدعونا دومًا للإقامة بعيدًا حتى لا نزعج الآخرين بتدريباتنا، عوضًا عن الإقامة في فنادق، والتدرب في إستديو كما تفعل جميع الفرق الموسيقية؟ غريبٌ أن أفكر في هذا الآن فقط!

لم ترحمنا سايا، جرجرتنا إلى الغرفة المجهزة لتدربنا وبدأنا البروفة النهائية على (الألم الأخير)، وحالما انتهينا قالت: "عظيم، سنؤديها بعد غدٍ في حفل الكرسماس، أي أخطاء...".

قاطعتها نانا: "لن تحدث أي أخطاء".

- "عظيم".

ووضعت جيتارها في حقيبته وتأهبت للذهاب، فقالت لها تشو برجاء: "سايا، عودي للبقاء معنا أرجوك".

- "شقتي ليست بعيدة يا تشو".

- "لكنه الكرنسماس يا سايا، يمكننا تزيين شجرة، والغناء، و..."

ونظرت لي ترجوني أن أقول شيئاً، فقلت: "لو كان على أحد أن يذهب، فأنا..."

غادرت المكان قبل أن أتم عبارتي.

واستني نانا: "تجاهلها وهي غاضبة، عندما تهدأ ستعود للتحدث معك".

لم أعلق؛ بعد أيام من تجاهلها لي أصبحت موقناً أنني خسرتها إلى الأبد، وأن الأزمة الأخيرة بكل ما جلبته قد حطمت ما بيننا، لكنني لم أكن مستعداً لهذه الخسارة، ولا قادراً عليها، كل ما أردته فرصة واحدة لأتحدث معها عالمياً أنها ستصغي إليّ.

قال لي داكي: "هون عليك، ستعود للتحدث معك قريباً".

لكنني قلت لنفسي إنني لا أملك ما أخشاه ما دمت قد خسرتها، وتحملت على مضض جلسة الثرثرة التي اصطنعوها لمواساتي بعد العشاء، كانوا يضحكون بطريقة متكلفة وسخيفة وكان هذا سيلهيني، أما أنا فاستمسكت بالنظر إلى التلفزيون الذي لا أفهم منه حرفاً، متابعاً برنامج منوعات سخيفاً، حتى خيل إليّ أنني أسمع اسم "تسوباسا" بلغة صينية حرّفت مقاطعه، ثم قفزت واقفاً إذ بدأ عرض أغنية (همس النجمات) فجأة.

أشرت إلى الشاشة وصرخت: "لقد.. لقد عرضوها..."

ضحكوا مني ضحكاً حقيقياً هذه المرة، وأغرقت نانا في القهوة تقول: "تبدو مبتدئاً يرى نفسه لأول مرة على الشاشة".

رددت كلمات لم أفهمها أنا نفسي، ثم استجمعت تركيزي. صرخت: "لكن من المفترض أن تعرض في الكرنسماس!"

قال داكي: "نعم، في موسم الكرنسماس، لا في يوم الكرنسماس ذاته. لقد بدؤوا عرضها قبل ثلاثة أيام يا رجل".

كنت أداري بانفعالاتي المبالغية ما أشعر به وأنا أرى نفسي في الأغنية بين ذراعي سايا، راقداً على الأرض بين طيات فستانها الأزرق الداكن العظيم، تزينه الماسات الصغيرة كما تزين النجوم سماء الليل، وهي تستحوذ عليّ كجنينة تمتلكني كل الامتلاك. لشد ما يختلف اليوم عن أمس! حين صورنا تلك الأغنية كنت غارقاً مع

ناومي، ولم أكن قد شعرت بشيء معين نحو سايا، ولم أكن تعرضت لتلك الغواية التي كادت تجرفني معها ليلة سُكرها. في الأغنية كانت تحدّق إليّ بأعين بالغة الصفاء.. ربما لن تنظر إليّ ثانية هكذا.

حين انتهت الأغنية استجمعت شجاعتي مقررًا التوجه إليها، وهكذا وقفت أمام باب شقتها أصغي لأغنيات الكريسماس العذبة القادمة من الداخل، ثم قرعت الجرس متأهبًا لإنهاء كل شيء بيننا.. أغمضت عينيّ وودعت كل التفاصيل الصغيرة الجميلة التي تجمعني بها إلى الأبد.

فتحت لي بعد لحظات، ولما رأني أغلقت الباب في وجهي. صحت: "حقًا يا سايا! حقًا!"

وطرقت الباب متعمدًا إزعاجها حتى فتحته مجددًا بوجه بارد، وسارت بخطوات بطيئة عائدة إلى الداخل فتبعته. دخلت الشقة الصغيرة فرأيت مدفأة تفرقع نيرانها بصوتٍ بهيج، وأريكة واسعة أمامها، وبينهما مائدة منخفضة عليها شجرة كريسماس صغيرة جدًا، وكأسًا وزجاجة نبيذ.. لقد صنعت لنفسها فقاعة أحلام مريحة ودافئة بعيدًا عنا.. بعيدًا عني.

ارتمت سايا على الأريكة وتمددت محدّقة إلى السقف..

سألتني بهدوء: "ماذا تريد؟"

- "لقد بدؤوا عرض (همس النجمات)".

- "إنها تعرض منذ ثلاثة أيام، وقد باع الألبوم مليوني نسخة في أول يوم لإطلاقه. لقد أخبرتكم بهذا بالفعل، لكن يبدو أن عقلك كان مشغولاً بشيء أهم من تسوبا سا".

تبخرت أفكارني، ولم أجد شيئًا أقوله، وبقيت واقفًا في مكاني فترة..

- "أنا آسف يا سايا، لأنني سكرت بحماسة وزججت بنفسي في مشكلة أساءت إلى الفريق، ولأن الشركة ضغطت عليكم في هذه المحنة، ولأن أحد حفلاتنا ألغى في كوريا، ولأن جدولنا أصبح مضغوطًا جدًا. أنا آسف لأنني جعلتك تشعرين بالسوء، واضطررتك للدفاع عني وأنتِ غير مؤمنة ببراءتي، أنا آسف لكل شيء، وأعلم أنني خسرتك بعد ما حدث، لكنني لن أتحمل مزيدًا من هذا التجاهل، اقبلي

أسقي ودعينا نحاول استرداد ما كنا عليه، أو تخلي عني ودعيني أنفصل عن تسوباسا بشكل محترم، لا يجب أن تنتهي علاقتنا بهذا الشكل".

ظلت صامته فترة طويلة..

"أنا ودائيكي محاميان".

ولمّت رأسها تنظر لي بخواء وقالت: "وأنا لا أدافع عن مجرمين".

"إذن؟"

"أنا لم أشك في براءتك".

واعتمدت والتقطت كأس النبيذ تقول: "ولا تعتذر عما حدث، لقد كانت تتعقبك، وكانت ستج بك في كارثة عاجلاً أو آجلاً. هذا ليس خطأك، ولسوف نقاضها حتى تبيع جوارها لتدفع تعويضات عما أصابنا".

وهزت رأسها إذ جرعت نبيذها دفعة واحدة، فقلت: "لا تسكري بهذا التهور ثانية رجاءً".

"أنا لا أكرر أخطائي مرتين يا هارونو تاكومي".

"تسوباسا تاكومي يا سايا، أنا جزء من العائلة".

ظلت تنظر لي فترة وهي تشرب، ثم سألتني: "أتريد الانفصال عن الفرق؟"
"لا".

"حتى لو أخبرتك أنني أريد هذا؟"

حاول استشفاف ما يدور برأسها لكنني فشلت، ولم يكن أمامي بد من الإجابة بصدق: "لا، أنا لن أقبل الانفصال عنكم".

"عظيم".

وصبت لنفسها كأساً أخرى، وقالت: "نحن على ما يرام، تجاهلني فحسب، ودعنا لا نتعامل بشكل مباشر لفترة".

"هذه ليست طريقة لحل مشكلاتنا".

قالت بخواء: "أي مشكلات؟ أنا لا ألومك على ما حدث، ولا أحمل لك ضغينة، وأنت بخير ولا ترغب في الانفصال عنا. نحن على ما يرام".

- "باستثناء أنك لا تبقيين في مكان واحد معي أكثر من دقيقة".

راحت ترشف النبيذ ببطء، واقتربت أقف في مكاني خلف أريكتها شاعرًا بدفء عذب إذ أراقبها في جلستها، وضوء المدفأة يصنع هالة متوهجة تحدد جسدها، وتضيء شعرها الطويل المنثور. لشد ما افتقدتها!

تهدت سايا بصوتٍ كالتأوه، وتمتمت: "أنا مرهقة، جدًّا، أشعر أنني سأموت تعبًا، وأشد ما يرهقني هو غضبي منك، إنني غاضبة لدرجة أخشى معها أن أضربك بشدة إذا اقتربت مني".

اقتربت منها خطوة: "إنني أفتقدك".

كررت: "غاضبة لدرجة تجعلني أتساءل كيف ستبدو لو أنني حطمت هذه الزجاجاة فوق رأسك".

وضعت يدي على شعرها، ولما استكانت لي درت لأجلس جوارها، أخذت كأس النبيذ منها ونحيبها جانبًا، وأمسكت بيديها.. نظرت في أعماق عينها متمنيًا رؤية تلك النظرة التي تضيء عالمي، لكن سايا بقيت خاوية، مجهدة، غير قادرة على قول شيء.

رجوتها بصدق: "افعلي أي شيء يمليه عليك غضبك، ولكن لا تتجاهليني يا سايا، ليس من العدل أن تقتليني بهذا البطء".

- "كان يجب أن تكون واثقًا".

- "واثقًا؟"

- "حين سألتك: هل فعلت هذا؟ قلت لي إنك لا تعرف، كان يجب أن تعرف".

- "كنت مشوشًا، والمفاجأة...".

- "توقف عن انتحال الأعذار".

وسحبت يديها من بين يدي، عقدتهما على صدرها وتراجعت لتغوص في الأريكة، وكررت: "كان يجب أن تكون واثقًا".

صحت: "كيف؟ كيف يمكنك أن تكوني واثقة تمامًا مما فعلت بعد نوبة سكر تامة، واستيقاظك في مكان غريب لتجدي أنك قد تعرضت للضرب والخدش؟ كيف؟"

قالت بهدوء تام: "لأنك قلت لي: لا".

اقشعر جلدي وجفّ حقي، وعبث وجل مؤلم في صدري، لكنني لم أجرؤ على تخيل أنني فهمت ما تعنيه بشكلٍ صحيح. أدارت سايا رأسها ونظرت في عيني وقالت: "لقد قلت لي (لا) لأنني سكرانة، كان يجب أن تكون واثقًا أنك لم تفعل شيئًا".

مرت بنا لحظة صمت رهيبة، ثم تراجعَت بعيدًا عنها. ظللت صامتًا وهي تنظر إليّ، ثم سألتها: "أنتِ تتذكرين؟"

ابتسمت بشيء من الاسهانة، وأغمضت عينيها، وقالت: "لقد قلت إنك تنظر إليّ وحدي، وأن لا شريكة لي فيك، لكنك لم تجد الثقة لتدافع عن نفسك".

ثم نهضت وقالت: "يجب أن تذهب، أنا متعبة وبحاجة لكأس نبيذ، وكثير من النوم".

نهضت، وقبل خروجي قالت لي: "قل شيئًا يا تاكومي".

نظرت إليها وأفكاري يضرب بعضها بعضًا، ثم توقف كل شيء، ووجدت نفسي أشدها إلى حضني، وقبلتها قبلة طويلة، ثم ابتعدت إذ شعرت بشيء من المقاومة في جمود كتفها وسكون ذراعيها. حدّقت إلى عينيها ووضعت يدي على خدها، ومن جديد قبلتها، وببطء كدوبان الشيكولاتة استجابت لي سايا، التفت ذراعاها حولي في عناقٍ قويّ، واكتسبت قبلتنا غمقًا عذبًا مدوّخًا، حتى استحالت إلى قبلة فرنسية شهية أفقدتني اتزاني وعقلي.

تمسكت أصابعها بقميصي بتلك الحركة التي أعشقها، ثم رفعته لتزرعه عني، وإذا استرددتها ثانية بين ذراعي شعرت بقلبي يتوهج لكل لمسة منها، ونزعت بدوري قميصها عنها، وحملتها عائدًا إلى الداخل.

اندفع كل منا إلى الآخر بجنون، كل شيء بيننا كان مثاليًا وكاملًا وكأننا عشناه من قبل آلاف المرات، أو كأن كل منا يقرأ أفكار الآخر، كانت لحظات من السعادة

التامة التي تبدو بلا نهاية، وقبل أن أغرق في النوم فكرت أن هذا اليوم حري بالاستمرار إلى الأبد.

استيقظت على دقات ساعة تقليدية، وكان أول ما رأيت هي تلك الهالة الذهبية المحيطة بها، ثم جسدها المكشوف تزينة حبات خال صغيرة جميلة، توزعت بشكلٍ هلالٍ بديع حول نهدها الأيسر، مُشكِلة خطأً مُنقَطاً فوق قلبها مباشرة. واستقرت حبةٌ أخرى أكبر قليلاً تحت سرتها.. نجوم سمراء تنغرس في بشرتها الناصعة. جذبت اللحاف الناعم لأعطيها، وعانقتها، وسمعتها تهمس: "تاكومي".

قبلت عنقها وهمست: "أنا هنا".

راقبتها حتى غرقتُ في النوم من جديد، واستيقظتُ ثانية على الدقات التقليدية نفسها، وسمعت سايا تتأوه غضباً جوارى، ثم سكنت، ثم انقلبت على جانبها الأيسر والتقطت هاتفها من فوق المائدة، وفتحت مسجل الصوت وبدأت تدندن لحناً غير مألوف، حتى إذا انتهت ألقت الهاتف، وسقطت نائمة ورأسها مدلى عن حافة الأريكة، فسحبته برفق إلى حضني.

كانت تلك ساعة مذهلة الجمال في حياتي؛ تأملتُها بحرية وهي نائمة بسكون تام بين ذراعي، هادئة لدرجة أنني تحققت من نبضها مرتين، ومررت أصابعي على بشرتها الضيئة، وأمسكت بكفها الصغيرة لأقبل أصابعها واحداً تلو الآخر، متذوقاً تلك الصلابة الجميلة في أناملها.

دقت الساعة مجدداً، وانتفضت سايا بألم إذ سمعت الدقات، وسبّت ساخطة وانقلبت من بين ذراعي لتخفي أذنيها، ثم زمجرت: "أخربي وإلا حطمتك".

وهبت صوب الساعة المعلقة فوق المدفأة، فأنزلتها وعطلتها، وأنا أتابع بسعادة غمازتين رائعتين غائرتين أسفل ظهرها، وعلامة داكنة في جانب فخذه الأيمن من أعلى. تأملتُها من قمة شعرها الهائش، حتى قدميها الحافيتين الرائعتين.

استدارت لي سايا وتوقفت، وتهدل كتفاها وهي تناديني فابتسمت لها، مواصلاً تأملها في ضوء المدفأة، حتى صاحت بي: "هيه.. انظر إليّ".

- "بصدق، أنا لا أستطيع إبعاد عيني عنك".

عادت لي بخطوات سريعة، وجلست أمامي وحذرتني: "لقد مرت سنوات منذ شعرت بالخجل من رجل، وهذا سبب آخر يجعلني راغبة في ضريك".

همست لها: "أخبرني".

وشددتها إليّ فعانقتني، غبنا في قبلة طويلة عذبة، ثم قالت لي: "أنت هنا".

- "نعم".

- "أنا لا أحلم؟"

- "لا، السيارة المرسيدس حقيقية هذه المرة".

قطّبت مستهمة بضحكة كبيرة، فقلت: "لديك كوب قهوة وسيارة مرسيدس، أتذكرين هذا؟"

وضعت يدها على خدي، وبنظرة حانية قالت: "وأنت قلت إن السيارة المرسيدس قادرة على أخذي بعيدًا عن الصحراء، ألم تقل؟"

قبّلتها، ثم سألتها: "من هو؟"

- "من؟"

- "كوب القهوة الذي تظنين أنه من يجب أن يسكن أحلامك".

- "أنت تفسد الحلم الآن، خذني بعيدًا عن الصحراء وحسب".

أبعدتُ خصلات شعرها عن خدها وقلت: "هذا أجمل من أن يكون مجرد حلم".

قبلتني مرة أخرى، ثم نهضت وعادت بزجاجة نبيذ أخرى باردة، وصبت كأسًا جديدة ورشفت بعض ما فيها، ثم ناولتها لي. قالت: "ليست لديّ إلا كأس واحدة".

تبادلنا رشقات النبيذ حتى أنهينا كأسين، ثم استدارت لي سايا وأمسكت بوجهي وقبلتني، قبلة عميقة طويلة، وتراجعت تنظر إليّ. وتمرر يدها فوق عنقي، وتجول بأصابعها فوق صدري حتى بطني، ثم لفّت ذراعها حولي، واندست تحت اللحاف معي، وجلست على ساقّي لتحيطني تمامًا. قبلتني مرة أخرى، وقبلت عنقي، ثم عانقتني عناقًا حارًا وهمست لي: "ميري كريسماس، تاكومي. لقد أتى بك سانتا مبكرًا هذا العام".

- "لقد أتى بك إليّ مرتين، في الوقت المناسب تمامًا".

- "إياك أن تختفي بحلول الصباح".

أبعدتها عني ونظرت في عينيها، ورأيت فيهما تلك اللمعة العاشقة الممتعة.
قلت: "لا يزال النهار بعيدًا".

- "لحسن الحظ".

وعادت لتقبيلي حتى أذابتني، ثم دفعتني حتى استلقيتُ وهي تميل عليّ،
وانسدل شعرها من حولي ليخفيني عن العالم، ستائر ناعمة بنية تتوهج في ضوء
المدفأة وتحيط بي من جميع الجهات.. كان هذا أحد أجمل الأشياء التي رأيته،
وأروع المشاعر التي اختبرتها في حياتي. التقطت بعض خصلاتها بين أصابعي
وشممتها، قبلتها، ثم وضعت يدي على خدها.

- "أعرف أنك لا تحبين الشعر الطويل، لكنني أود لو أبقىته هكذا لفترة أخرى
بعد انتهاء جولتنا".

مررت أصابعها على صدري، ثم توسدته وهمست: "أنت دافئ وكأنك فرن".

- "وأنت باردة".

- "طالما كنت كذلك".

ثم رفعت عينيها لي وتمتمت: "أريد مزيدًا من هذا الدفء".

- "حسنًا، يمكنني التفكير في شيء واحد".

وأحكمت ذراعي اليسرى حولها، واستندت على اليمين حتى تبادلنا المواضع،
وقهقهت سايا بطريقة فاتنة لم يسبق لي رؤيتها قط، ثم نظرت لي: "أنا حقًا
سأضربك".

قبلتها قبلة خاطفة وقلت: "أخربي، لقد كنتِ تذكّرين تلك الليلة طوال الوقت
ولم تقولي شيئًا".

قهقهت من جديد وضممتني إليها، وانتهى بنا الأمر من حيث بدأنا.

xxx

في فقاعة الأحلام، قضيت مع سايا يوماً إلا قليلاً..

حُفرت كل لحظة من لحظات ذلك اليوم في كل خلية مني، ولا أظني سأنسى يوماً تلك السعادة الذهبية المشرقة كالشمس التي عشتها معها، ولا لمساتها الناعمة الثمينة، ورائحة أنفاسها، ورائحة شعرها، ورائحة بشرتها، وطعم قبلتها، وريقها الشهيّ المعطر بالنبيذ، وتلك البرودة الحبيبة التي تنبعث منها، وتتواءم مع حرارتي.

ورغم أن متعلقاتها بقيت في شقتها، إلا أن سايا عادت إلى البيت بعد عودتي بساعات، وقضينا أمسية كريسماس مبكرة، لأن الأمسية الحقيقية في الغد سنقضها في الحفل، فزيّنا شجرة كبيرة، وعلقنا الأضواء والزينات، وقالت لي وضوء المدفأة ينعكس على نصف وجهها: "ميري كريسماس، تاكومي".

- "ميري كريسماس، سايا".

شع من ابتسامتها الدفء، حينها فكرت أنها الشمس التي أود لو أقضي حياتي أدور حولها، وملأتني تلك الفكرة سعادة مطمئنة راسخة، وكأن كل الأوقات السيئة التي مرت بي اختفت، ولن تكون أبداً مجدداً. سار كل شيء على ما يرام، احتفالنا المبكر، نومنا الهادئ، استعدادات الحفل، والحفل نفسه، حتى بدأت تشو الفقرة الأخير بأغنيتنا الجديدة ذات الاسم المبتذل.. (الألم الأخير).

لم أدرك قط كم أحب صوت تشو قبل هذه الأغنية، لقد تدرنا عليها آلاف المرات، وأديناها أداءً نهائياً آلاف المرات، لكن شيئاً لم يكن كذلك الأداء الأعظم على المسرح، وكذلك كانت نانا، عزفت نصف النوتة بالبيز جيتار ممزقة جميع القلوب. كان دايمي على حق.. "الأغنيات الحزينة يليق بها الإيقاع السريع أكثر، إنه يجعلها أشد إيلاماً"، تذكرت هذا ونحن نمضي بعزفنا نحو نهاية الأغنية، مفكرين أننا ارتكبنا جريمة في حق بهجة الكريسماس.

لحسن الحظ أن هذا كان رأيي وحدي، وأن العالم كله رأى العكس. إنه الحفل الأفضل والأعظم في جولتنا، ردود فعل الجمهور جعلتني واثقاً أن هذه الأغنية ستسحق الفرق الأخرى لفترة طويلة جداً.

تألفت نانا في تلك الليلة كما لم تفعل من قبل، تقنية عزفها الساحرة قتلت الجميع قتلاً، أصابهم بالجنون، ولاحقها الصحفيون في كواليس المسرح وحتى

صعدنا إلى الحافلة لننجو بحياتنا. وقفت بين المقاعد تنظر إليهم حتى ابتعدنا، ثم انفجرت تصيح: "اللعة! ما هذا الذي أشعر به؟!"

وألقت نفسها على أحد المقاعد، وبدأت تضحك بانفعال، فصاحت سايا: "إنها نشوة الصعود إلى القمة. مرحى يا تسوباسا".

وانتهت لنظرتي إليها، وأنا أجلس على الأريكة المقابلة لها، فهتفت: "إياك".

نظرت بعيداً عنها، فانتقلت لتجلس جوارى وقالت: "لقد كنت رائعاً".

-وأنت أيضاً".

راقبت نانا وهي تبتسم، وقالت: "كنت أفكر دوماً في تراثي الموسيقي، وأظن أن (قبل أن نلتقي) و(عندما التقينا) هما أعظم ما سأتركه في العالم عندما أموت، لكنني أشعر أنني أنجزت شيئاً لا يقل أهمية اليوم".

-("عندما التقينا)؟"

-أنت لم تسمعها بعد، كنت أعمل عليها حين سقطتُ في غرفة الموسيقى".

-أنا لا أستطيع التوقف عن التفكير في مذاق قبيلتك".

نطقت هذا بتلقائية دون أن أدري ماذا أقول..

توقفت سايا لحظة ثم قالت بتروي: "أوكي.. ليس هذا أنسب تعليق على ما أقول، ولكن.. شكرًا".

-ولا رائحة أنفاسك.. لقد أحببتها".

لكزتني هامسة: "هيبه.. أنت لا تجعل الأمر سهلاً بالمرّة".

-كيف أمكننا أن...؟"

لم أدر كيف أتمّ سؤالِي.. "كيف أمكننا ألا نلاحظ تلك المشاعر؟" لكن هذا جعلني أفكر في ماهية مشاعري نحوها بالتحديد، وما إذا كنت تملك مشاعر نحوي بدورها، وماهية مشاعرها المفترضة نحوي، وما سترتب عليه، أو ما يعنيه ذلك اليوم الحالم الذي قضيناه معاً.

أم أنني أفكر: "كيف لم نندفع هكذا من قبل؟" أو "كيف اندفعنا هكذا فجأة دون كثير تردد؟"، أم...

قاطعت سايا تفكيرى: "لأننا نفكر كثيرًا يا تاكومي، ولا نأخذ إلا خطوات واضحة ندرك ما سيكون بعدها".

مررت إجابتها على عقلي فأنبأني بأنها محقة..

- "أنا وأنت جنباء.. هذه هي الإجابة".

ثم لفت يدها حول ذراعي، وتوسدتها، وتمتمت: "لقد كان يومًا طويلًا، دعنا لا نفكر في أي شيء مربك، دعنا لا نفكر في أي شيء على الإطلاق".

- "حسنًا".

- "لو أطلنا التفكير سنفسد كل شيء قبل حتى أن نفهمه".

- "لن أفكر في أي شيء إذن.. باستثناء أمر واحد".

قهقهت بالطريقة الفاتنة نفسها ولكن ذراعي.

توقعت أن نعود إلى البيت، لكن الحافلة انطلقت بنا إلى فندق فخم زينت الأضواء كل بوصة منه، وفي ساحته الخارجية استقرت شجرة كريسماس عظيمة البهجة، بألوانها وزينتها، والثلج الحقيقي المتراكم عليها، والنجمة الكبيرة على قممها، كانت رؤيتها متعة تسر المحترفين.

بمجرد هبوطنا قابلنا هيروماسا كينجي، فتح ذراعيه وهتف: "مفاجأة، أليس كذلك؟"

عانق نانا وتشو، ثم جاء إلى سايا بخطوات سريعة، ورفعها بين ذراعيه ليدير بها ويهتف: "أفتقد دروس الهارمونيكا، وأفتقدك في التصوير".

صاحت ضاحكة: "ابحث عمن تتشاجر معه غيري".

- "أربع مشاجرات في ساعة ونصف؟ لا أحد يستطيع مجازاة هذا المعدل".

وأنزله أرضًا وأطال النظر إليها، وقال بحماس: "لقد كنت عظيمة.. أنا فخور بما فعلته في الأيام الماضية".

- "أهذا اعتراف بأنني أفضل منك مع Vanity؟"

- "هاه! لا تغتري، الحرب سجل بيننا".

انحدرت يدها بلطف عن كتفيه لتتمسك بذراعيه، لمعت عيناها بسعادة سحرية وهاجة وهي تنظر إليه، قالت: "ميري كريسماس، هيروماسا سينباي".
-"ميري كريسماس، سايا تشان".

وقبّلها على خدها ثم تركها، ولبثت سايا في مكانها بالسعادة نفسها، واللمعة الجميلة في عينيها، ودلّكت ذراعها كما فعلت في ذلك اليوم في ناغويا قبل سنوات، فشعرت بالضيق يخنقني، وكأنني ابتلعت شيئًا وخارًا علق في حنجرتي، تمامًا كما حدث من قبل في أوكيناوا.

صعدنا إلى القاعة المغلقة في الطابق قبل الأخير بالفندق، ودايكي لا يكف عن تهديد من سيسكر منّا، وانفصلنا عن بعضنا في زحام المحتفلين الذين يملؤون حلبة الرقص. اتجهت مع تشونحو البار وجلسنا معًا، لكنني طلبت عصيرًا طازجًا، مسترجعًا تجربتي المريعة الأخيرة حين سكرت. وعلى مقربة منا رقصت سايا مع دايكي، كانا مجنونين ويجرّوان على حركات حادة وخطرة تحتاج انتباهًا لا مساومة فيه، ما جعلني أساءل كم من السنوات تدربا معًا.

رقصت سايا منتشية كأنما بسحر مخدر فعّال، وأبقيت عينيّ معلقتان بها، حتى بعد انضمام دايكي لي وتشو. كان الحفل رائعًا، وكانت هي أروع.

لم أنتبه كم من الوقت مر قبل اختفائها، فجأة لم أرها في أي مكان حولي، وتركتُ تشو ودايكي لأبحث عنها بين جموع الراقصين، حتى رأيتهما عند نهاية القاعة وحدها، تدير عينيها فيما حولها باحثة بدورها عن شيء ما، وتقتحم أمواج المحتفلين في لهفة. أقلقني ما بدت عليه من اضطراب وانزعاج في بحثها المحموم الغريب.

سرعان ما تاهت مني سايا وسط الزحام، ثم عثرت عليها مجددًا، ومضيت خلفها وهي تغادر القاعة. الصوت كان مرتفعًا لدرجة جعلت كل نداءاتي عديمة الجدوى، واكتفيت بملاحقتها وقلق ما يخزّني، وحسّ غامض ما أنبأني أنني سأرى ما لا أحب رؤيته.

انتهت بي مطاردتها إلى سطح الفندق، صعدت ببطء مترقبًا الخطر الذي سألاقيه لتوي، لكن السطح كان خاليًا إلا منها، رأيتهما توليتني ظهرهما وهي تختلس النظر من خلف لافطة إعلانية هائلة، إلى شيء لم أبصره من موقعي. ناديتهما مرتين

فلم تستجب لي، فاقتربت ووضعت يدي على كتفها، وشعرت برعدة تسري فيها،
فاختلست النظر بدوري.

كانت نانا وكينجي هنالك، متعانقين وسط الأضواء الخافتة يتبادلان قبلات
حارة سريعة، ويتضاحكان على شيء ما، ثم غابا في قبلة طويلة وعميقة. تراجعت
سايا خطوة لما شعرت بي، ورفعت يديها تخفي عينيها بهما، وهي تتأوه بألم تأوهات
خافتة متتابعة، وأنفاسها في اضطراب تبدو تهدئته محض خيال.

أمسكت ذراعها وتمتمت: "سايا، هذا لا يعني أي شيء...".

- "اصمت".

نطقت الكلمة على دفعتين تتخللهما تأوهات الألم الصغيرة، بأنفاسها
المتقطعة، ثم كررتها وتنفست، ثم كررتها عشرات المرات، حتى اضطرت لجزها
لتصمت، وكررت: "هذا لا يعني شيئاً، نانا لن تتخلى عن تسوباسا، لقد...".

- "اصمت".

تراجعت وأنا لا أفلتها، أطلت النظر إليها، ورعشة موجعة تضربها كالزلازل
فتهزها هزاً، وحول فمها تشكلت تجاعيد حادة وهي تحاول كتمان ألمها. لقد اختلف
كل شيء فيها عما كان قبل ساعتين ونحن في المسرح، وقبل ساعة حين التقينا
كينجي، وعانقته بتلك اللمعة الباهرة في عينيها.

اللمعة المحبة، العاشقة، التي أترقيها حين تنظر إليّ.

ومضت صورتها وهي تعانق كينجي أمام عيني كفلاش ضخم، ووجدت يدي
تتخلى عنها وكأنها موصولة بالكهرباء.

تراجعت للخلف خطوة..

- "ساي.. إلى أيهما تنظرين الآن؟ نانا؟ أم هيروماسا كينجي؟"

أكره ما أكره في حياتي أن أكتشف بعد فوات الأوان أموراً بديهية طالما كانت أمامي لكني لم أبصرها، ولم يكن لديّ عذر لعدم رؤيتها. حين أكتشف أموراً كهذه وينتابني الغضب، لا أدري من أي شيء ينبغي أن أغضب أكثر. هل أغضب لغبائي وعمى بصيرتي؟ أم لأن هناك شخصاً يجب أن ألومه لما أذاني به؟

عانيت هذا الشعور طويلاً بعد رحيل ناومي، كنت أمضي الليالي متسائلاً كيف لم أنتبه قط لفكرة الانتحار التي تتلاعب بها؟ كيف لم أشعر بالخطر منذ ذلك اليوم الذي دخلت فيه الحمام لأجدها تغمر نفسها في حوض الاستحمام، وهي تنظر عبر الماء إلى السقف نظرة ميتة رُوعتني؟ كيف لم أنتبه لنظراتها الطويلة إلى سكين الطعام الضخمة؟ وحديثها المستمر عن البهجة التي سيمنحها الموت إياها، بابتعادها عن معجباتي المزعجات إلى الأبد، وتخلصها من مطاردهن وإهانتهم، فيما أنا غائب وغير مهتم؟

كيف لم أنتبه قط لنظرات سايا إلى كينجي؟ كيف وقد عانقته أمامي بتلك الحرارة العاشقة والنظرة المشتعلة نفسها قبل سنوات في ناغويا؟ كان هذا لحظة لقائنا الأولى، فكيف لم أرمذ البداية؟

حين صارحها كينجي بأمره ونانا، كانت تمسك بيدي، وشعرت بأصابعها تتلجج حول معصمي، فكيف لم أنتبه؟ وعندما دفعها في التصوير فاخفت لتتمثل ثم مرضت.. لم يكن الكحول سبب توعكها، بل الألم أسلمها إلى الحمى.

كيف مر بي سؤالها لنانا "لماذا هيروماسا كينجي دون كل رجال العالم؟" وكيف تجاهلت مواجهة داكي لها "قولي لي إنك لست واقعة في حب هيروماسا كينجي".. كان قادراً على قراءة مشاعرها أكثر مني، ورغم أنها وأدت شكوكه في

مهدها، إلا أنه كان محققاً ولو لم يدرك هذا. كان محققاً وكنْتُ أحمق، لم أشك في الأمر قط. لم يراودني أدنى شك، صدّقتها حين قالت إنه أعز أصدقائها، وصدّقت ما قالته لي قبل سنوات.. "هذه الأمور ليست لي".

كان الأمر واضحاً منذ البداية، لكنني لم أر شيئاً، فمن يفترض بي أن ألومه الآن وأنا أكتشف هذا بعدما تورطت معها، وسمحت لنفسني بإطلاق عنان مشاعري؟ تلك المشاعر التي لا أدرك أبعادها تماماً، والتي بادلتني إياها بمشاعر أخرى لا أدركها، لكنها قالت لي ألا نفكر فيها الآن.

للمرة الثانية في حياتي أشعر بأن الأرض نفسها تتوقف، عالمي كله يتجمد، وأن كل ما يحيط بي يتحرك بالحركة البطيئة كفيلم رديء. بعيداً عن الجميع، على بعد خطوتين من كينجي ونانا الغارقين في حُبهما الرائق، وقفت أحنق إلى سايا، وهي جامدة أمامي كتمثال، تخفي عينيها بكفيها، وشهقات ألمها متقطعة الأنفاس تحتضر، ويحل محلها سكون ميت بغيض.

رفعت يدها عن عينيها ونظرت إليّ، فرأيتهما مغلفتين بغشاوة دموع بلورية تتلألأ، أطالت النظر إليّ ولم تقل شيئاً، موقف ثقيل أليم كموت صديق. ثم تساقطت دموعها تتحطم على خديها، فسارعتُ بمسحها، وحاولتُ إبقاء وجهها بارداً كعادتها، لكن محاولاتها لم تعكس إلا خواءً ميئاً مخيفاً هزني، وتجاهلت كل ما دار بعقلي من أفكار.

خطوت نحوها وأمسكت ذراعها، ملأني شعور بأنها ناومي ثانية، وأنها قد تغافلني لتقتل نفسها إذا لم أنتبه لما أقول الآن، لكنني لم أجد شيئاً أقوله، وببدين باردتين خدرتين ضممتها إلى صدري، وأحكمت حمايتها بين ضلوعي. عندها سكن شيء من الألم، وسكنني هدوء يتحسس طريقه نحو الطمأنينة لما أسندتُ رأسها إلى كتفي، وأبقيت يدي عليها كي لا تتحرك.

لكن الألم لم يفارق سايا، شعرت بموجاته في صدرها وهو يعلو ويهبط، وسمعته في أنفاسها الثقيلة الخافتة، فضغطتها في حضني أكثر، مفكراً أنها لم تبادلني عنافي، ولم ترفع يدها لتتشبث بي كما تفعل عادة. فكرت في الأمر فحسب، ولم أسمح لنفسني بالشعور به.

سمعت صوت كينجي يقترب، ونانا تضحك، واضطربت سايا وكادت تثب لتبتعد لكنني أبقيتها، همست لها: "جاريني فحسب".

وأمسكت وجهها وقبيلتها، ولمّا اقترب منّا صوتا نانا وكينجي صمتا فجأة، فعرفت أنهما أبصرانا، عندها ابتعدت عنها، ونظرت في عينيها وقلت بصوتٍ خافت: "أنا آسف، هلا تجاوزنا هذه المشكلة الآن؟"

ناداني كينجي مستغرباً، فنظرت إليه ومثلتُ أنني فوجئتُ برؤيته، فنظر إليّ وإلى سايا التي توليه ظهرها، وسألني: "أأنتما بخير؟"

ربت على خد سايا وسألتها: "هل سنكون بخير؟"

وأمأت برأسها وعانقتني في قبلة أخرى، لعلها أكثر القبلات التي تلقيتها في حياتي بروداً وكأن دمية ما بين ذراعيّ. أشعرتني الفكرة بالبرد.

ابتعدت عنها ثانية وقلت لكينجي: "نحن بخير. ميري كريسماس".

كان يحدّق إلى سايا بنظرة غريبة تكاد تكون غاضبة، فتذكرت ما قاله لي عنها في أوكيناوا، وتمنيت أن يقتله ضميره تأنيباً. كان كينجي صديقي، ربما ليس أفضل ولا أقرب صديق في العالم، لكنني شعرت نحوه دوماً بشيء طيب، ليس إلى درجة داياكي، ولكن... في تلك اللحظة تمنيت لو لم يكن موجوداً في حياتنا.

لم تعلق نانا، نظرت لي ولسايا بصمتٍ وبين حاجبها تقطبية صغيرة، وإذا نظر إليها كينجي ابتسمت له بابهاج متكلف، ثم غادرا عاندين إلى قاعة الرقص. وقبل أن تختفي وقفت وألقت علينا نظرة.

أغشانا صمت غيبي حين صرنا وحدنا، وحررتُ سايا من عناقي المحكم وابتعدتُ عنها؛ كان شعوري بأنها ناومي الأخرى يحاصرني، لكنني أردت مساحة من الصمت والوحدة، أردت أن أسترجع ما رأيت وأستوعبه ليرسخ في قلبي. أن أتألم، أن أفهم، أن أفكر.. لم أرد أن أكون معها في تلك اللحظة، وإذا تركتني عائدة إلى قاعة الرقص، أدركت أن ثمة ألم آخر ينضم لقائمة ما أريد التفكير فيه: سايا أيضاً لا تريد أن تكون معي.

كانت تلك أسوأ ليلة كريسماس في حياتي، وكان سوءها نابعاً من كوننا نتألم، ولا نستطيع إظهار هذا؛ ما كانت سايا لتظهر ألماً يثير التساؤلات، لكنها لم تكن قادرة على التصرف بعجرفة وعصبية مجنونة كتلك التي أخفت خلفها مشاعرها في الفترة الماضية، ولم تكن تملك كماً لتعرف مقطوعتها الجهنمية الحارقة، ولم تكن لدينا تدريبات لتقتلنا بها، فأحرقَت ألماً مع سجائرهما، وعادت لتدخن بجنون.

جلست على البار شاردة تدخن وفي عينيها النظرة التي استلقت بها على الأريكة يوماً قبل أن أدعوها للرقص، والتي بدت في عينيها الدامعتين وهي ترقص معي، وعندما كانت في الكنيسة، وعندما سكرت وقبّلتني وسألتني: "كيف استطعت أن تؤلم قلبي إلى هذا الحد؟". لقد كانت تفكر فيه طوال الوقت حتى وهي معي، كان كينجي هو كوب قهوتها الذي تحلم به لدرجة أنها لا تصدق أنها قد تحلم بسواه، حتى بدا لها الحلم بي شاذاً وغير منطقي، لأنني لست هو.

لقد كان كينجي هو كلمة السر طوال الوقت، هو سر ذلك الجنون غير المفهوم الذي يجعلها تتألم من علاقة نانا به، لقد استوعبت قلقها ومخاوفها من علاقتهما، لكنني لم أدرك قط أنها تتألم، ولم أبصر سبب هذا الألم. كان الأمر واضحاً جداً لدرجة أن أحداً منا لم يره.

جلست غير بعيد عنها في البار، وطلبت "تاكيدا شروق الشمس"، ومع رشفتي الأولى انشقت الأرض لتلفظ دايمي كشيطن رجيماً، وسحب الكأس مني متأهبا للشجار معي، لكنني لم أجد داعياً لأرهق نفسي بالتفكير في مشكلة إضافية، فاستسلمت وتركت الكأس، وتركهم وعدت إلى الحافلة. استلقت في المقعد الخلفي وغبت مع أفكاري في غيبوبة.

عدنا إلى البيت فجراً، والكل في مزاج احتفالي ممتع، لكنني تظاهرت بالإرهاق لأبرر وجومي وانفصالي عنهم، وتألقت سايا بابتسامة مبتهجة رائعة موزعة تهنئات الكريسماس، كانت تستحق لقبها الشهير ككاذبة بارعة. في نهاية الأمسية عانقها كينجي قائلاً: "سنسافر معاً ظهر غد، لدينا شجارات أخرى في موقع التصوير".

- "سنحطم الرقم القياسي هذه المرة".

- "ولدينا دروس الهارمونيكا. إنني أفتقدها".

وعادت من غرفتها بحقيبة سفرها الجاهزة، وصندوق الكمان، فناديتها: "انتظري يا سايا، أنا قادم معك".

ابتسمت لي بامتنان رقيق، وسحبني معها حقيبتها ومضينا لنغادر البيت، وبمجرد خروجنا إلى الشارع البارد المفروش بندف الثلج عاد الصمت الغي ليخيم علينا، واختفى كل ما يوحي بالحياة من وجهها. سارت معي سايا بوجه شاحب، ونظرة خاوية، وإرهاق يتعذرو وصفه.

دخلنا شقتها فوضعت أشياءها جانبًا، وسألتها: "أتريديني أن أبقى؟"

- "تعال لنشرب شيئًا".

رغم ما نحن فيه ألم وثقل، شعرت بقشعريرة تسري فيّ لما رأيت أريكتها، واللحاف الدافئ مطويّ بعناية في ركنها البعيد. أشعلت سايا المدفأة، ومن المطبخ سألتني: "لديّ سكوتش ونبيذ".

- "نبيذ".

كنت أود أن نتحدث.. لم أرغب في فقدان رشدي في تلك الليلة..

عادت سايا بزجاجتيّ نبيذ، وكأسها الوحيدة، ناولتي إياها مع الزجاجاة المغلقة، واستأثرت لنفسها بالأخرى نصف المليوننة، فتحتها وشربت منها مباشرة جرعة هائلة. سحبتها منها وصحت: "أجنت؟"

تركت لي الزجاجاة، وارتمت للخلف على الأريكة تتنفس بثقل، صمتٌ ووضعت الزجاجتين بعيدًا عنّا. قالت لي: "تحدث يا تاكومي".

تبخرت كل الأسئلة التي تجول بعقلي. قلت: "قولي أي شيء تريدني قوله".

- "لو أنني تكلمت الآن ستسيء فهمي إلى الأبد، ولو فعلت هذا فلن أستطيع تجاوز الأمر، ولن أسامحك، لأنني أضعف من أن أفكر بشكلٍ منطقيّ يقدّر مشاعرك، وأضعف من أن أرغب في تفهم موقف أي شخص سواي، أنا متعبة إلى حد الموت، وأبسط صدمة ستقتلني الآن".

- "لن أسيء فهمك. فقط تحدثي إلي".

بعد فترة طويلة قالت: "أريد أن أنام ولا أستيقظ أبدًا، أنا لا أتوقف عن التفكير في هذا، مهما كانت حفلاتنا عظيمة، ومهما اقترت من هيببكي ساما، ومهما بدت نانا سعيدة، ومهما بدا تسوباسا متماسكًا، ومهما بدوت أنت أفضل مما كنت سابقًا. أريد أن أنام ولا أستيقظ أبدًا، ولا شيء في العالم يبدو قادرًا على محو تلك الأمنية من قلبي. إنني أسهر كل ليلة أصلي وأدعو من قلبي للتحقق، ولا أستطيع التفكير في أي شيء سواها، طوال الوقت".

- "إنه كينجي.. كان هو منذ البداية، أليس كذلك؟"

ضغطت شفها السفلى على العليا، وتمتعت: "لقد كان هيروماسا سينباني طوال الوقت".

"منذ متى؟"

بدا في وجهها ما يشبه الابتسامة..

"منذ قال لي: مرحبًا، تشرفت بلقائك يا سايا سان".

ثم استدارت نحوي، طوت ساقها جانبًا واستندت إلى ظهر الأريكة. قالت لي: "تاكومي، أريدك أن تصدقني حين أقول لك إن اعتراضني على ارتباطه بنانا لا علاقة له بمشاعري نحوه. أنا لا أعتبر ما أشعر به نحوه حبًا، إنني مصابة به، مريضة به وكأنه سرطان لا أمل في استئصاله، وعليّ أن أعايش معه. أنا لم أكن أكذب في أي شيء قلته عن علاقتهم.. وكل ما أخشاه...".

وتوقفت عن حديثها باضطراب، نظرت حولها وعيناها تدمعان، فاقتربت منها وأمسكت يديها، وهذأت رعشتهما بضغطات رفيقة. حتى سحبت يمانها ووضعتهما على صدري..

"لو لم يكن هيروماسا كينجي موجودًا، ما كنت لأتردد حيال ما أشعر به نحوك، لكنه دومًا يظهر فيخرب كل شيء، ويقلب كل ما بأعمالي رأسًا على عقب. ولكن يا تاكومي، تلك الليلة معك.. أنا لا أفعل هذا مع أي رجل، لم أتم قط إلا مع رجل أحبه، وفي الوقت نفسه أعرف أنني ما كنت لأنام قط مع كينجي، أبدًا، أبدًا. هل تصدقني؟"

"أنتِ تحبينني".

ووضعت يدي على خدها، فأغمضت عينيها وهمست: "لا يمكنني أن أقول نعم". ولا يمكنني أن أقول "لا"، لا يمكنني قول شيء.

اقتربت منها ثانية، وأحطت وجهها بكفي، كررت وقررت: "أنتِ تحبينني".

وقبلتها، قبلة طويلة جدًا وحارة، لكن سايا لم تستجيب لي أفضل استجابة، وحين فارقتها تمتعت: "تاكومي، هذا خطأ".

"ألا تريدن...".

"أريد، أريدك، طالما أردتك يا تاكومي، ولكن ليس وأنا في هذه الحالة".

- "أنا لا أمانع".

- "أنا أمانع".

- "حسنًا".

وقبّلْتُها من جديد، قبلة أخرى مختلفة ترنح لها رأسها، وهمست لي مجددًا أن هذا خطأ، ثم توقفت عن الحديث. كانت سايا لي، كان أهدنا يُكمل الآخر كقطعتي بازل، هذا ما عرفته في ليلتنا الأولى وتأكد لي الآن، ما كان كينجي ليشعل مشاعرها مثلما أستطيع أنا أن أفعل، لا يستطيع رجل آخر، أي رجل آخر، أن يستأثر بمشاعرها دوني. سقطت سايا بين ذراعي ليتواءم جسدها معي تمامًا.. شعرت بكمال مطلق، ولعل الشعور انتقل إليها فحبس أنفاسها. لفت ذراعها حولي، لمستني بكل جزء منها، وغرقنا معًا كما في ليلتنا الأولى.

كنت غائبًا عن العالم في أحضانها، أتقلب معها، بها، أغوص فيها، ثم لاحت مني نظرة إلى وجهها.. عندها رأيت تلكما العينين الزجاجيتين تحدقان عيري إلى السقف.. لا تبصران شيئًا.. فاقدتي الشعور.. ورأيت ذلك اللمعان في أطرافهما يترقق.

همست لها: "سايا..".

وملت عليها أنهبها بقبلاّتٍ انحدرتُ بها من أذنها إلى عنقها ثم إلى صدرها، ثم نظرت إليها مرة أخرى فأجفلت وانتهت لي، واصطنعت ابتسامة وهي تهمس باسمي، لكن ابتسامتها لم تفلح إلا في جعل دموعها تطفو، وتلمع بوضوح أكبر، لمستُ وجهها متممًا باسمها، وقبّلْتُها فاستجابت لي، ناديتها ثانية فقالت: "أنا بخير.. أنا بخير...".

رددت الكلمة مرتين.. ثلاث.. أربع.. لكنها لم تكن بخير، في سعيها اليائس لافتعال البهجة، اكتسى صوتها بألم غير محتمل، وبشكلٍ مفاجئ فكرت: هل بدت ناومي بذلك البؤس في ليلتنا الأخيرة؟ هل كانت في حضني واتخذت قرارها بشنق نفسها، فيكت هذا الشكل؟

انبعث البرق من مكان ما في قلبي فتجمدت..

أسندت ذراعي فوق رأس سايا وتوقفت محدقًا إليها، رأيته ورأيت شبح ناومي فيها، ناومي التي اختفت من ظلام المسرح لتسكن ثاني أقرب امرأةٍ إليّ في حياتي،

وتواصل مطاردتها لي، فأردت الفرار كما لم أرغب من قبل. أما سايا فاستعنت عيناها المعلقتان بي، ثم همست تناديني، واللحظة استردت نفسها فشددتني إليها، وحررتني من جمودي رغمًا عني فاستسلمت لها.. غبت معها في قبلة طويلة، وغصت فيها أكثر وذراعاها تشدانني إليها، تستحائني على الاقتراب، حتى أضحي المزيد من الاقتراب مستحيلًا، وهنا توقفت سايا.. انحدر ذراعاها عني، وارتميا جوارها، وسمعتها تسحب نفسًا عميقًا.. ضعيفًا متهدجًا مرتعشًا، ثم وضعت كفها على صدري، وأبعدتني بتردد شابه البطء، أو بطء شابه التردد، بدت ممزقة بين الاستسلام لجنوني الأناني، وبين رغبتها في الفرار الأشد أنانية، ولكن إذ شرعت في تقبيلها مجددًا اعترفت بصوت واضح: "توقف.. توقف...".

الكلمة الخافتة التي خرجت بحذر تحولت إلى مطالبة عنيفة، وسالت دموعها فرفعت يديها تخفي عينيها بهما، فتوقفت مُسنِّدًا ذراعي فوق رأسها مجددًا، وتمتمت باسمها فانفجرت سايا في البكاء..

- "توقف.. أنا لا أريد...".

إنها لا تنظر إلي.. كيني يحول بيني وبينها..

انسحبت بعيدًا عنها قدر ما استطعت، وجلست على حافة الأريكة مديراً ظهري إليها، وشعرت أنني أوشك على السقوط ميئاً من الألم، لقد مارست الحب لتوي مع امرأة تفكر في رجل آخر.. حاولت تذكر أي شيء مررت به أشد مذلة من هذا، فلم أجد..

كانت تناديني ببأس كي لا أرحل، لكن ياسها لم يشفع لها لأستدير إليها، لم أرد رؤيتها، ولم أرد أن أرى شبح ناومي فيها في تلك اللحظة. وفي غيابة أفكاري، تلمست سايا طريقها إلي، فأجفلت حين لمست يدي، واستشفّت هي من رجفتي المشمّزة إغراضي عنها، فأحاطتني بذراعيها بقوة، والتصق صدرها بظهري وبشرتها الناعمة تشع برودة، وعلى كتفي سقطت دموعها فجف حلقى.

رددت مراراً: "أنا آسفة، لكنني لا أستطيع...".

وضعت يدي على كفها المتقاطعتين أمام صدري، وهمست: "لم يحدث شيء".

كنت أشعر بشيء، وأقول شيئاً آخر، ثم وجدت نفسي أتصرف بشيء ثالث. بقسوة لم أتخيل أنني أملكها أمسكت يديها لأبعدهما عني، ودفعتهما إلى الخلف،

ونفضت لأنظر إليها. لا أعرف كيف كانت ملامحي لكن سايا تجمدت إذ رأتي ولم تنبس بكلمة. وبعد لحظة قلت: "لا تنظري إلي. لا أريدك أن تريني هكذا بعد اليوم".

- "تاكومي، لقد قلت لك إنني لا...".

جمعت ملابسني المنيثورة وهربت إلى الحمام. ومن خلف الباب سمعت بكاءها الحاد يخرق كل ركني مني، ففتحت الصنبور ليخفي نبرات حزنها اليائسة عني، وشرعت في التنفس لأسترد سيطرتي على نفسي. أغرقت نفسي تحت الماء لأصقي أفكاري دون جدوى.

حين خرجت كان تقف أمام باب الشقة بانتظارني، قلت لها: "لا تقولي شيئاً الآن".

استنشقت دموعها، وقالت ببراءة: "في هذا الأمر أنا وحدي، ما من أحد يعلم بشأن مشاعري نحو كيني، لقد تمنيت كثيراً لو تشعر نانا أن ثمة خطأ ما بي، لكنها لم تفعل. أنا وحدي في هذا يا تاكومي، لو أنك رحلت الآن، لو أنك رحلت للسبب الذي أظنه، فستحطم بيننا شيئاً يستحق أن نحافظ عليه".

لم أرد، كل شيء في رأسي كان يتلاطم إلى حدٍ أكرسي. قلت: "ابتعدي".

- "أنا لا أتمسك أبداً بمن يحاولون تركي، لكنني أتمسك بك الآن يا تاكومي، ابق معي. ابق ودعنا نتحدث، أنا أسفة لأنني جرحت مشاعرك".

- "ابتعدي عن الباب يا سايا".

ظلت تحدق إلي لحظة، ثم تنحت وفتحت لي الباب، وحالما أغلقت خلفي سمعت أنعس شهقة بكاء سمعتها قط، ولم يخفت صوت بكاءها في أذني حتى خرجت إلى الشارع، وجددت السير نحو البيت، ثم بدأت أركض، ثم عدت، حتى إذا بلغته تقطعت أنفاسي، وأنت رنني إرهاباً. دخلت غرفتي وارتيمت على فراشي ثم هَبَبْتُ في اللحظة نفسها، دخلت حمامي وخلعت ملابسني ثانية، ووقفت تحت الماء شاعراً بأني ملوثٌ إلى درجة تكاد معها معدتي تلفظ ما بها. وهكذا بدأت فرك جلدي بعنف حتى أدميته في غير موضع، غاسلاً بأشمنزاز أثار لمساتها عني، متمنياً لو يتوقف شعوري بها، دون رجعة.

سافرت سايا ظهر اليوم التالي مع كينجي عائدين إلى اليابان. ليواصلنا تصوير مسلسلهما المفعم بالشجارات.

لم يكن قد سبق لي رؤيتها في حال أسوأ مما كانت عليه في ذلك اليوم، شاحبة كورقة بيضاء، وباردة وواجمة كإنسان آلي. منذ اللحظة الأولى لدخولها البيت عرف الجميع أن كارثة ما وقعت بيننا؛ كلانا تجنب الآخر، ولم تودعني وهي تنطلق إلى المطار، لكن الأسوأ هو أنني لم أشعر بذلك الفراغ الذي اعتادت أن تخلفه في حين تغادرنى لفترة طويلة، ووقفت خلف الباب أراقب سيارتها تبتعد متمنياً الشعور بشيء، أي شيء، دون أن يستجيب قلبي.

كان يوماً غريباً، وكنت خاوياً كصدفة اقتلع ما فيها، وغسلت طويلاً بماء البحر حتى جردتها الملح من كل شيء، وأحالتها حجراً ملوناً لا حياة فيه. غريب أن أشعر بالفراغ لأنني لا أجد في نفسي الفراغ المعتاد لغيابها! لم أستطع التفكير بشيء معين لأركز فيه، بل إنني حتى لم أسترجع أي صورة لما حدث ليلة أمس، لا صورتها وهي تنظر إلى كينجي ونانا، ولا بكاءها وهي في حضني، لا شيء، لا شعور على الإطلاق، حتى أنني توقعت أن شيئاً ما أصابني وقتل مشاعري كاملة فجأة، وسيكمل مسيرته ويقتلني خلال ساعات.

لكن الساعات مرت و... لا شيء، نائم في فراشي كالمخدر، أو أتقلب كالمفிக من غيبوبة، أو جامد أحملق في السقف، راسماً بعين الخيال ألف لوحة ولوحة من خطوط الدهان الدقيقة المتداخلة. جاءت نانا لرؤيتي عند منتصف الليل.

سألتني دون مواربة: "منذ متى وأنتما معاً؟"

- "لسنا كذلك".

- "يمكنك أن تقول إن الأمر ليس من شأني، ولكن لا تكذب".

- "لم أكذب".

ونفضت جالسًا يدغدغي شعور قويّ بالإرهاق والصداع والجوع، شربت بعض الماء وقلت: "لقد حدث شيء سيء بيننا، ولست واثقًا مما أشعر به".

ابتسمت ببساطة وقالت: "إنها تحبك، ما دام هذا راسخًا بينكما فلا شيء آخر يهم".

- "لا تكوني واثقة".

- "إنني واثقة، سايا هي الأكثر تشددًا بيننا في العواطف، إنها بخيلة جدًا بمشاعرها ولا تمنح من نفسها شيئًا إلا لرجل تحبه. إنها من نوعية الفتيات اللاتي لا يقدمن قبلة إلا لو وقعن في الحب، إنها هذا النوع المتشدد حتى ولو كانت تعانق الجميع طوال الوقت".

نظرتُ لها وابتسمتُ ابتسامةً صغيرةً مُستهينة، فقلت: "لقد كانت تكن لك شعورًا قويًا منذ أيام انضمامك الأولى، ولقد حاولتُ معك من قبل يا تاكومي لكنك لم تنتبه؛ كنت غارقًا تمامًا في ذكرى ناومي. لقد حاولتُ معك كثيرًا قبل أن تستسلم".

- "إنها تملك كوب قهوة".

- "قهوة؟!!!"

لم أعلق..

قالت بنفاد صبر: "أنت أحمق وأعمى يا تاكومي. حين ترغب في التحدث أنا موجودة".

انفجرت شفتاي لأنطق بشيء، لكن ما خرج مني كانت أنفاسي ثقيلة بتأوهات خافتة، كما كانت سايا تنفّس أمس. كافحت ما داهمني من ألمٍ مفاجئ إذ تذكرتها تبكي، وغرق صدري في برد مؤلم من الشعور بالإهانة والذنب معًا.. تمنيت لو تذهب نانا، وقد قرأت أفكارِي ففعلت.

شعرت بالامتنان أن سايا ستعود بعد أربعة أيام، بدت كفترة هدنة مريحة، لكنني توقفت عند أسئلة عدة: هل سأتمكن من فهم ما أشعر به قبل عودتها؟ وماذا لو لم أفعل؟ وكيف تفكر سايا الآن؟ كيف تشعر؟ وماذا تظن عني؟

شيء واحد نَعَص عليّ تبلد مشاعري، هو تفكيري أنها مع كينجي وحدهما الآن في اليابان، في أيام العيد المبهجة، وسط الثلج، والبرد، وكل ما هو جميل.. إنها الآن وحدها مع الرجل الذي تفضله عليّ، فنجان قهوتها الخاص الذي تحتاجه أكثر مني.. وأكثر من أي شخص آخر.

أمضيت أيامي التالية محملاً في السقف، وأتخيل كيف تنظر إليه وهي تجلس معه وحدها، في مأمن من الأعين المقتحمة القادرة على اكتشاف تلك اللمعة العاشقة المبتهجة في عينيها، ثم أغمض عينيّ هارباً من المشهد، لأنّذا بمزيدٍ من الصمت في عقلي. يهدوء تحولت ردهات مخي إلى منطقة محظور فيها الكلام.

لم أسمع عن سايا شيئاً حتى التاسع والعشرين من ديسمبر، يومها استيقظنا على خبر انهيارها في موقع التصوير، وترددت أنباء عن إصابها بحمى شديدة قد تعيق حفلنا في رأس السنة. في البداية ظنناها وعكة عابرة هوّلت الصحافة منها كالعادة، لكن القلق أصابنا حقاً حين اختفت سايا: اتصل دايكي بمخرج المسلسل فأخبرني أنها صمدت حتى أنهت مشاهدتها، ثم عادت إلى البيت، وقال كينجي إنها ألحت عليه أن يتركها وحدها، اتصلنا بالبيت في اليابان فلم يجب أحد، واتصلنا بها آلاف المرات لكن هاتفها ظل يحيلنا إلى البريد الصوتي.

ثم ظهرت سايا عند عتبة بيتنا في الصين في المساء، بملابس رياضية مريحة، تشي بوصولها قبل ساعات وحصولها على قسط من الراحة والهدوء. كادت نانا تصفعها غيظاً، ثم عانقتها وأبدت قلقها من ارتفاع حرارتها البسيط. شرحت سايا الأمر: "إنه التصوير بملابس خفيفة، لكنني بحالٍ ممتازة".

كانت مختلفة، فيها شيء ما لم أستطع تحديده أشعرتني بالغيرة وأنا أنظر إليها. بقيت معلق النظرات بها وهي تتحدث بعصبية ونفاد صبر يفوقان المعتاد، لكن هذا لم يكن إجابة شافية على شعوري الغامض والملح بوجود شيء ما خطأ.

قالت لدايكي: "سأكون في شقتي، لو أحببتكم أداء بروفة أخيرة أخبروني".

أمرها بشفتين ملتويتين غير راضيتين: "متى أكلت آخر مرة؟"

نظرت إلى السقف وهي تطرف بعينيها بتفكير، فسحبها دايمي من معصمها وجرحها خلفه، زمجر: "أحقًا يا سايا! لو عشتِ وحدك ستموتين جوعًا بعد ثلاثة أيام، أو بسوء التغذية خلال أسبوعين".

"هذا هراء. لديّ نبيذ ومكسرات وكثير من بسكويت القرعة في شقتي، لكنني نسيت أن أكل".

لم يتركها حتى أطعمها قطعة كبيرة من السمك قسرًا، بقيت أراقب عنايته بها كالقطعة الأليفة العنيدة، لكن سايا لم تكمل طعامها، وهرعت إلى الحمام لتنقيًا ما أكلته. واستحال وجهها فجأة إلى شحوب محزن كأنها تلفظ أنفاسها. وبختها نانا وهي ترقددها على أريكة الصالة: "ماذا فعلتِ بنفسك في اليابان؟"

"سجلت ستة وسبعين ساعة عمل خلال أربعة أيام".

"أهذه أفضل طريقة وجدتها للانتحار؟"

لم تجبها سايا، نظرت إلى السقف بعينين خلتا من الحياة فجأة، رأيت فيها انعكاس ناومي من جديد، لكنها ما لبثت أن قالت ببساطة: "لا، لدي وسيلة أفضل".

لم أستقبل ما قالتة كمزحة مثلهم، وأدركت أن هذا هو المختلف فيها.. سايا لم تكن متفجرة بالحياة كعاداتها.

حاول دايمي أن يجعلها تاكل فرفضت، ورفضت أن تبقى معنا بشكلٍ قاطع، ورفضت أن تمكث نانا معها، كانت مستمسكة بوحدها بإصرار، وقبل أن تخرج نظرت إلي نظرة كراهية واضحة تقول "إياك حتى أن تفكر".

عندما غادرتنا قال لي دايمي: "أتعلم ما أسوأ صفات سايا؟"

"ماذا؟"

"أن كراهيتها لا تراجع فيها، وهي تحتاج أسبوعًا فقط لتشتطب شخصًا ما من حياتها إلى الأبد، أسبوع من التجاهل والكراهية وستستيقظ لتجد نفسها لا تباي به ولو احترق أمام عينيها".

"أهااا".

وضع يده على كتفي إذ مر بجواري: "إنه اليوم السادس، أيًا كان ما يغضبها منك، من الأفضل أن تصفيه اليوم".

نظرت إليه لأخبره أن هذا ليس من شأنه، فعاجلني: "حتى ولو كانت هي المخطئة".

كان الكلام سهلاً، لكن الفعل شيء آخر بعد تلك النظرة الحارقة التي رمتني بها. كان الكلام سهلاً، لكن الفعل شيء آخر وأنا لا أدري بم أشعر نحوها، ولا كيف يفترض بي أن أتعامل معها.

رغم هذا قرعت بايها، مقاطعاً صوت موسيقى الكمان الجهنمية التي تأتي من شقتها، منذرة بسوء مزاجها، وتصرخ بي "اذهب ودعها وحدها".

فتحت سايا الباب، واستقبلتني بنظرة مقت نفدت إلى قلبي، ونفضت عني بعض جمودي وتبلدي. حبيبها فقاطعتني: "لا تنطق اسمي".

وكادت تغلق الباب ثم تراجعته، وابتسمت بسخرية وقالت: "لماذا أتيت؟ لماذا تزعم نفسك بالتواصل معي اليوم بعد أسبوع من تركك لي وأنا...".

- "لم يمر أسبوع بعد".

- "أه.. إذن لم تأت برغبتك، لكن أحدهم وجّه إليك نصيحة فرأيت أن تستغلها. لا تضيع وقتك يا هارونو تاكومي، لقد انتهى كل شيء منذ تلك الليلة، وأنا لا أمنح فرصاً ثانية".

- "دعينا نتحدث".

- "ماذا تريد أن تقول بعد تلك الليلة؟"

- "أنا لم أقل شيئاً في تلك الليلة".

- "لم تكن بحاجة لقول شيء يا هارونو تاكومي، فكل شيء كان جلياً في عينيك. كيف تسمح لنفسك أن تظن هذا بي؟ وأن تفكر في هذه الطريقة؟ أنت لا تعرفني، لا تعرف شيئاً عني، ولا تعرف كيف أشعر، ولا كيف أفكر، ولا كيف أنا مرتبطة بكليهما. أنت لا تعرفني وتسمح لنفسك بالحكم علي".

- "أنا لم...".

- "أنت لم تجرب أن تقع في حب شخص لا ينبغي لك أن تحبه أبدًا، شخص مثلك تمامًا لدرجة أن أي تواصل بينكما يدفعكما لشجار بلا نهاية، إنكما متشابهان لدرجة أن لا أمل على الإطلاق أن تتحملا بعضكما. أنت لا تعرف كيف يكون شعورك وأنت موقن أن هذا الشخص هو حب حياتك، لكنك لست كفؤًا له. لا يمكنه أن يراك، يرى الجميع من حولك لكنه لا يراك، لهذا تبذل كل ما تستطيع لتتخلص من شعورك نحوه. وتغدو صديقه ومنافسه ليدفع أحكما الآخر نحو القمة. أنت لا تعرف هذا".

- "مشاعري أعقد مما...".

شعرت أنني أوقدت فيها نارًا محرقة. ونظرت لي وهي تتوهج بالغضب..

- "لا تتحدث عن المشاعر المعقدة، لأنك لن تتحمل جزءًا مما أمر به. إنه صديقي الأقرب، صديقي الموهوب ذو الطموح المدمر مثلي، الذي لا يقبل بأقل من المركز الأول مثلي، الذي لا يضع شيئًا قبل الموسيقى مثلي. ولقد اختارنا، أعز شخص أملكه في حياتي، والتي لا يجب أن ترتبط أبدًا بشخص مثلنا. لو أنني أصغيت لمشاعري نحوه فسأفكر في كم الحزن الذي عليّ الشعور به، لأنه يختار أخرى دوني للمرة الألف، ولأنه لم ينتبه قط لمشاعري نحوه. ولو أنني أصغيت لمشاعري نحوها فسأشعر بالغيرة لأنها تفضله عليّ، ولأنها تحبه أكثر مني، ولأنها سمحت لنفسها بالتردد بينه وبين الفريق الذي بنيناه معًا لأجلها، ولأنها قد تفكر جدًّا في ترك الفريق إذا ما تعارض مع ارتباطها به. ولو أنني فكرت في الأمر كله لشعرت بالغضب من نفسي، لأنني أستمّر في الشعور بالألم طوال الوقت، ولأنني مريضة به طوال الوقت، ولا أستطيع إبعاد عيني عنه، رغم أنني أعرف أنه حتى لو أحبني لتراجعت هاربة منه، ولفضلت الموسيقى عليه كما فعلت مع ألف رجل من قبل. ولو أنني فكرت في الفريق لشعرت بالهلع مما سيكون عليه الأمر لو انسحبت نانا واضطررنا للاستعانة بغيرها، أو أجبرتنا الشركة على التوقف، أو انفصلنا واتجه كل منا لعالم آخر جديد وتفرقنا. إنهم عائلتي، لقد تركت كل شيء خلفي وتمسكت بالموسيقى لأكون معهم، لأضمن أن يكونوا معي إلى الأبد، والآن يبدو كل منهم مستعدًا لترك كل شيء والانتقال لمرحلة جديدة لأن هذه "سنة الحياة"، ولأنهم "بشر أولًا، وليسوا عازفين أولًا". أنا أفكر في هذا طوال الوقت حتى يكاد مخي يحترق، ثم تأتي أنت لتحكم عليّ، وتهمني بأنني أخون صديقي الأقرب، وتهمني بأنني أنام معك وأنا أفكر فيه. أنا لم أكن أفكر فيه لو أن هذا سيرحك".

بلغ صوتها علوًا كبيرًا متصاعدًا، حتى إذا انتهت دافعت عن نفسها: "أنا لم أظن هذا".

- "كذاب".

لم أطل الجدل؛ لقد كان وجهي فاضحًا أكثر مما ينبغي، وهي تفهمني كعادتها أكثر من سواها. ولكن رغم أبعاد الألم الذي تعانيه وحدها، والذي تبدى لي شارحًا كل شيء، لم ألمس تغيرًا في مشاعري التي بقيت كما هي، بليدة وباردة.

هدأت نبراتها، واستحال غضبها استهانة وخواء، وقالت: "لقد قلت لك إنني وحدي في هذا الأمر؛ إنها صديقتي الأقرب التي أستطيع مصارحتها بكل شيء، لكنني لا أستطيع إخبارها بهذا. هل تتخيل الوضع؟ إنني أمر بأكبر محنة في حياتي، وأحتاجها أكثر من أي وقت مضى، لكنني غير قادرة على طلب العون".

ولاذت بالصمت تنظر إلي..

ترددت بقولي: "أنا لا أعرف فيم كنت أفكر في تلك الليلة، بصدق".

- "حسنًا".

- "لكنني أظني مدين لك باعتذار".

- "وأنا لا أقبل الأعذار، أريدك أن تذهب وحسب".

- "أيمكنني العودة لاحقًا؟"

- "لا، لا أريد رؤيتك مجددًا"

وأغلقت الباب بوجهي.

أيًا كان الشيء الذي بيّني وبين سايا، أيًا كانت ماهيته، أيًا كانت جديته وصدقه، فقد انتهى إلى الأبد، إنها لن تغفر لي أبدًا ذلك الشعور الذي لم أفهمه، والذي سيطر عليّ في تلك الليلة البائسة، أغمضت عيني فيما يشبه صلاة، متمنيًا من قلبي لو أستر: يومنا الساحر الأول في فقاعة الأحلام.

بدأت مشاعري البليدة تتفكك بعدما فارقتها، ببطء يطفو شعور موحز من قلبي ليحتلي، بدأ الألم ديبه في لدرجة أشعرتني بوجع في جسدي، وقضيت اليوم

مع تسوباسا أحاول الاحتماء بصحبته من الفوضى الضاربة في.. لقد انتهى كل شيء مع سايا قبل أن يبدأ، وبطريقة موجعة لا تراجع عنها ولا اعتذار.

بعد هذا الشجار أصبحت سايا منفلة الأعصاب لدرجة يتعذر كبحها؛ بدأنا تدريبنا الأخير على حفل رأس السنة في اليوم التالي، فتشاجرت مع مدير أعمالنا، ثم تشاجرت مع أحد عمال المسرح، ثم تشاجرت مع تشو. كانت كقنبلة مرمية، وحاولنا بقدر الإمكان تجنبها، لكنها شرعت في افتعال المشاجرات بإصرار.

عند الظهيرة لم تتحمل نانا الأمر، وضعت جيتارها جانبًا وتوقفت عن التدريب، وصاحت: "سايا، هلا توقفت عن جنونك لدقيقة؟"

صرخت بوجهها: "أنا لست مجنونة، تمسكي بهذا الفريق ليس جنونًا، هل تفهمين هذا؟ هل تفهمين أنتِ بالذات ما أقول؟"

صمتت نانا لهول الهجوم غير المتوقع، وطوّحت سايا بجيتارها جانبًا وواصلت الصراخ: "أنتِ بالذات يجب أن تفهمي.. اللعنة يا نانا! لماذا أنتِ بهذا الغباء الآن؟ لا يجب أن تكوني غيبية إلى هذا الحد."

بادلتها الصراخ: "أنتِ بالتأكيد فقدت عقلك يا تسوباسا سايا."

-لأنك غيبية جدًا، لماذا أنتِ غيبية إلى هذا الحد؟-

هبط دايكي عن منصة الدرامز، ووقف في منتصف المسافة بينهما، وهتف: "هيبه.. عار عليكما ما تفعلان الآن، ما يقال بالصراخ يمكن أن يُقال بهدوء، هلا هدا أنا؟"

أشارت نانا إلى سايا وهي تحرك شفتيها والغضب يعجزهما عن النطق، فأومأ لها يقول: "أعرف، ولكن اهدئي أنتِ".

واتجه إلى سايا: "وأنتِ كفي عن الشجار مع كل شيء، وأخبريني ماذا يحدث؟"

ظلت تنظر إلى نانا فترة، ثم قالت: "لقد اتصلتُ بك كثيرًا أمس، لكنك استمررت في رفض تلقي مكالماتي. ما الشيء المهم الذي عطلك؟"

وجمت نانا، وأجابت تشو نيابة عنها: "مر كينجي بأزمة في العمل، وكان يتحدث".

تجاهلها سايا، وقالت لنانا: "إذن فهو هيروماسا كينجي، لقد بدأت بوضعه في المرتبة الأولى قبلي".

دافعت نانا عن نفسها: "لقد كان يمر بمشكلة".

- "طبعًا".

كانت نظرتها ثابتة وخالية من أي شعور، ثم خلعت السماعة والميكروفون عن رأسها، وقالت: "ولكن كان من الممكن أن أكون أنا أيضًا في مشكلة، كان من الممكن أنني ارتكبت جريمة واعتقلت، أو أنني أحتضر وبحاجة لمن يأخذني إلى المستشفى. أنت تعرفين جيدًا أنني لا ألح أبدًا في الاتصال يا نانا، لكنني بقيت أعاود الاتصال لثلاث ساعات، ثلاث ساعات".

- "أنا آسفة".

- "حريّ بك أن تكوني كذلك. انتهى التدريب اليوم يا تسوباسا، عودوا إلى البيت واستريحوا".

كانت تعرج قليلاً وهي تخرج من المسرح، فوضعت نانا يدها على شفتيها واضطربت. نظرت لدايكي وقالت: "ظننتها تعابثني، لم أتخيل...".

- "أعرف".

سألنا تشو بقلق: "ماذا نفعل الآن؟"

واصلنا تدريبنا لساعة أو أكثر قليلاً، ثم خرجنا نناقش ما قد نفعله باقي اليوم، لنجد سايا نائمة في المقعد الأخير من الحافلة. خفضنا صوتنا دون اتفاق سابق مراعاة للإرهاق الذي بدت عليه، وجلست نانا جوارها ورفعت رأسها على ساقها، وجسّت جبينها.

قالت لدايكي: "إنها دافنة".

- "هل نأخذها إلى المستشفى؟"

- "لا أعرف. سايا، أأنت مستيقظة؟"

لم تجبها سايا، كانت تغط في نوم عميق غير معتاد، إنها تستيقظ دومًا إذا ما تحدث أحد جوارها، وأقل شيء يزعجها، ولكن الآن.. وجهها ساكن مغطى بقطرات

عرق صغيرة، تلمع على عنقها، وأعلى شفتيها وأسفل عينيها، وفوق جبينها، ذرات صغيرة تعكس تعبًا وإجهادًا مفرطين. ناولت نانا منديلًا فمررتة على بشرتها، لكن سايا لم تستيقظ.

نومها الثقيل الغريب أثار قلقي، لكن نانا أكدت لي أن الأمر على ما يرام، وبقيت معها في غرفتها طوال اليوم ترأقب نومها، وتضع على جبينها ضمادات باردة تخفف حرارتها. حتى استيقظت سايا مساءً، وخرجت علينا وهي تشع بهجة وسعادة، واتجهت إلى المطبخ تقول: "من يريد بيتزا؟"

صرخت تشوودايكي معًا: "لا".

واندفعنا يحولان بينها وبين المطبخ، فاكتمسى وجه سايا بحزنٍ طفوليٍّ وتوسلت: "أريد بيتزا".

قال دايكي: "البيتزُ تطلب من الخارج، لا داعي لمزيد من اختراعاتك المربعة".
- "وغد".

خلال الساعة التي استغرقها طلب البيتزُ تبدل مزج سايا إلى النقيض، وجلست كالتمثال تحديق إلى شاشة التلفزيون، ثم أعلنت فجأة رغبها في العودة إلى شقتها، واندفعت في مونولوج من التذمر غير المبرر، ثم اشتبكت مع تشو في شجار لأنها غيرت القناة، رغم أنها لا تتابعها، ورغم أننا جميعًا لا نفهم الصينية، ولو فهمناها فلن نتابع نشرة الأخبار.

لم يعد الأمر مشكلة نانا وحدها، بدا واضحًا أن سايا تتعمد افتعال المشكلات مع أي منّا، لم تحاول تشو الرد عليها واكتفت بالصمت، ولم يحاول أيُّنا التعليق على تصرفها، ظلت تصرخ لدقائق ثم انفجرت في البكاء.. وألجمنا المشهد لدرجة الخرس.

غابت سايا في غرفتها ساعة أو أكثر، ثم خرجت بالمزج السعيد الرائق ذاته الذي استيقظت به، شعرت بإنذار خطر ما يدق في صدري، وألمني الشعور به حتى أنني ضغطت قلبي بيديّ معًا محاولًا التحكم في نفسي، لكن سايا لم تجيني حين سألتها عمّا أصابها ليلة أمس، وبمزاج مرح غادرت البيت عائدة إلى شقتها، وغابت مخلقة في الشعور القديم بالخواء المروع.

لم أستطع تحمل هذا الشعور، وفي الثانية صباحاً كنت أقرع باب شقتها، ترددت في البداية، لكنني ازددت إصراراً لما تأخرت في إجابتي، حتى اضطرت لقرع الباب بقبضتيّ معاً.

صحت بها: "لو كنتِ تمزحين معي أو تحاولين عقابي، فليست هذه وسيلة مناسبة، افتحي الباب يا سايا.. الآن".

بعد لأي فتحت الباب، كانت شاحبة ومتعرقمة، ومحنية القامة حتى خلتها ستسقط، أسرعرت لأمسك بها لكنها تراجعت خطوة بعيداً عني، سألتني بمزاجٍ عاصف السوء: "ماذا تريد؟ لقد أزعجت نومي".

أمسكت بها رغماً عنها، وشعرت بالحرارة تتسرب من جسدها إلى كفّي عبر الكنزة الصوفية الثقيلة التي ترتديها. قلت: "أنتِ مريضة، تعالي معي إلى المستشفى".

- "أنا بخير لولا هذا الإزعاج، اذهب".

- "سايا...".

انتفضت وألقت يديّ عنها، صاحت: "لماذا أنت هنا؟ لقد قلت لك بوضوح إنني لا أريد رؤيتك مجدداً".

- "قولي ما تريد، ولكن...".

حاولت أن أحملها، لكنها فاجأتني بصرخة مدوية رنّت في أذنيّ كالرعد، تركتها وتراجعت، قلت: "أظنّين أنني أود إيذاؤك؟"

صرخت بجنون: "لا أريد أن أظن شيئاً عنك، اذهب واتركني، ما الصعوبة في أن تكف عن إزعاج شخص يكره وجودك حوله؟"

طرفت بعيني، وكبحت جماح مشاعري كي لا تسيطر عليّ. قلت: "لو احتجت شيئاً اتصلي بي. ليس لديّ هيروماسا كينجي لأفضله عليك".

لاحقتني بسبة وقحة وهي تصفق الباب خلفي، ولبثت صامتاً بعدها منتظراً أن تتراجع، أن تفتح الباب وتعتذر، أو تناديني، لكن شيئاً لم يحدث.. خيل إليّ أنني أسمع صوت ضحكة، ولكن ربما واهماً.

لم أستطع النوم حتى الفجر، ثم هويت في لجة أحلام مضطربة متقطعة، ما جعلني أستيقظ في مزاج يكاد يكون أسوأ منها، فتجنبت الأحاديث على مائدة الإفطار. محاولاً التغلب على الغضب الكريه الذي أشعر به نحوها، والشعور الملح بالقلق عليها، والذي يوسوس لي أن خطراً ما أمامي، واضحاً وضوح الشمس لكنني لا أبصره، مثله مثل هيروماسا كينجي.

وصلنا إلى المسرح في العاشرة صباحاً، ولحقت بنا سايا وحدها لأول مرة في التاريخ تقريباً، وبدأنا البروفة الأخيرة متهامسين بأنها تبدو أفضل من أمس، وكانت بالفعل أفضل، حالتها المعنوية مرتفعة، وحركتها خفيفة ورشيقة، لكن قلقي استمر يعيث في صدري.

عند الثالثة عصراً بدأت سايا بالمرور بذلك الطور الشاذ من التقلب المزاجي، كنا في استراحة قصيرة حين داعبتها تشو بضربها على رأسها، ما جعلها تتحول إلى وحش متعطش للدماء. ألقت جيتارها عن كتفها بكل عنف وزمجرت عليها: "كفي عن حركاتك الغبية هذه".

طرفت عينا تشو ودافعت عن نفسها بصوت مجروح: "أنا أمزح يا سايا".

- "لا تمزح معي أبداً بعد الآن إذن".

وتوقفت وكأنها انتهت لشيء ما، ثم غادرتنا راكضة، هنا اجتاحني غضب أعظم من أن أسيطر عليه وقلت: "هذا يفوق الاحتمال".

وخلعت الجيتار وأوشكت أن ألقيه بدوري، لكن دايمي سحبه مني، وأمسك معصمي يقول: "أيّاً كان ما ستقوله الآن سيجعلها أسوأ حالاً".

دفعته يده بعنف لا بد أنه جعله يقرر عدم اعتراضه، ثم لحقت بها، لم أطرق باب غرفتها ولم أقل كلمة وأنا أقتحمها، وعندما فعلت أنزلت سايا زجاجة ماء عن شفتيها واستدارت نحوي.

لم أرفع عينيّ عنها، وقلت: "أنتِ مريبة، أنتِ غير طبيعية، هذا ليس تقلب مزجك المعتاد، ما الشيء المختلف فيك يا تسوياسا سايا؟"

- "أنتي لا أطيقك".

- "أنتِ كاذبة، قولي لي ما الخطأ فيك؟"

تخشب وجهها ما أقلقني أكثر، فألححت: "أنتِ مريضة، شيء ما يؤلمك لدرجة تفقدك صوابك. أخبريني وسوف نتولى الأمر، ولن يعطل الحفل أو يؤثر على شيء"

قالت ببرود: "أنت لحوج، ولا تدرك لأي درجة إلحاحك ممل".

- "وأنت لا تدركين لأي درجة تبدين غبية الآن، إنكِ تفعلين اليوم ما حذرتني منه من قبل، ألا تفعلين؟"

أطرقت ونظرت للأرض، فواصلت إلحاحي: "إياك أن تعرض نفسك لألم فوق طاقتك يا تاكومي، لا شيء في العالم يستحق أن نضحي بصحتنا، إياك أن تغامر بسقوطك فوق المسرح، إياك...".

- "حسنًا، لقد وصلت وجهة نظرك".

وأشاحت بوجهها عني، وبعد دقيقة نظرت لي وقالت: "ربما أنا لست بخير حقًا، لكني أقاوم، ولم يبق وقت طويل. بعد الحفل سأكون حرة من أي شيء، وعندها يمكنك أن تفعل ما تريد، لكن ليس الآن".

- "ماذا تعانين إذن؟"

لم تجب، فقط ابتسمت، أشرقت ابتسامتها بشكل أخافني إذ بدت منفصلة تمامًا عن سايا التي كنت أحدثها قبل دقيقة.. هذا التقلب المزاجي غير الطبيعي جعلني موقنًا أن شيئًا ما مخيفًا يحدث لها وأنا لا أدركه.

مرت بجواري مغادرة، وعادت إلى المسرح لتأخذ جيتارًا جديدًا، واعتذرت لتشو التي تقبلت اعتذارها بالبليلة والقلق نفسيهما اللذين أشعر بهما.

مر الوقت، وأنهيينا البروفة الأخيرة وارتدينا ملابس الفقرة الأولى من الحفل. كان موعد البدء عددًا تنازليًا يزيدني قلقًا، وأنا لا أستطيع انتزاع تفكيري بعيدًا عنها، وأخطأت عدة مرات في ارتداء ملابسني، ثم أسلمت كل شيء لمنسقة الأزياء، وحين انتهت خرجت إلى غرفة داكي.

اقتحمت غرفته أقول: "إنها مريضة يا داكي".

أبعد يد مصففة الشعر عنه ونظر لانعكاسي في المرآة يسألني: "من؟"

- "سايا".

- "لقد كانت بخير قبل قليل!"

- "هل تمزح؟ أتجد كل ما تفعله منذ الأمس طبيعيًا؟"

- "لا، لكنني رأيت من تقلبات مزاجها ما هو أشد سوءًا، ولقد تشاجرت معك بعدما... أيًا كان ما حدث بينكما، ثم هذا الشجار مع نانا.. يحق لها أن لا تكون بخير."

- "لا، لا، سايا ليست بخير أبدًا، شيء ما غريب وربما خطر يحدث لها."

قطب جبينه قلقًا. قال: "سايا لن تعرض حياتها للخطر، أنت تعرف هذا جيدًا".

كان يحاول إقناع نفسه بجدي، فبذلت جهدي لأحطم جهوده: "إنها مختلفة، لماذا لا ترى أنها تبدو كمن يتأهب للانتحار؟"

نخر ساخرًا واستهزأ بي: "انتحار؟ سايا؟ هل فقدت عقلك؟"

- "إنني أرى هذا في عينيها، ولقد سبق لي رؤية هذا من قبل، إنني أعرف كيف يبدو الأمر حين يقرر شخص ما أن يتوقف عن الحياة".

التفت لي وصاح: "نظرية مثيرة، لم لا تحاول إثباتها بنفسك بدلًا من بث القلق في؟"

- "لأنها لا تطيقني، أنت صديقها المفضل، يجب أن تتحدث إليها، لن تستطيع أن تكذب عليك".

نطقت عبارتي الأخيرة وأنا أتذكر كل ما كان عن هيروماسا كينجي، فانهارت نقتي. لا، إنها تستطيع الكذب عليه ببراعة.

كتمت ما يجول بذهني. ألححت: "دعنا نلغي الحفل ونأخذها إلى المستشفى".

- "أنت تعرف أن هذا مستحيل. وحتى لو قبلت سايا، فسوف نفتح أبواب الجحيم على أنفسنا".

- "هذا أفضل من أن نفتح لها قبرًا، أليس كذلك؟"

طعنته الفكرة فأجفل، وعاد إلى جلسته الأولى ثم قال: "إنني أدرك مشاعرك نحو سايا".

- "ليس لهذا علاقة بما أقول".

- "بل له علاقة مباشرة؛ أنت تتصرف وكأنك الوحيد القلق بشأنها، لكن دعني أقول لك إنني قلق، ونانا وتشو قلقتين، لكننا نتحمل الأمر لأننا نثق بسايا، مادامت أخفت أمرًا فلا ريب أن لديها سبب قوي، وعلينا احترامه".

- "هذا ليس...".

- "سايا أقل البشر احتمالًا للألم، لو أنها تعاني أزمة صحية فلن تملك القوة للتماسك، ولن تخاطر بسقوطها على المسرح لتجلب لنا فضيحة".

لم أقتنع بحرف، لكنني لم أمتلك ثقة في نفسي كثقته في سايا لأجادل، قلت لنفسي: "لعلني مخطئ، ليتني مخطئ، ليته محق فيما يقول، ليتها لا تعاني بالشكل الذي أشعر به".

أعلنت استسلامي: "أرجو أن تكون محقًا".

ابتسم لي واثقًا، ولكن قبل خروجي سألته: "إذا كنت واثقًا إلى هذا الحد يا داياكي، فلماذا تشعر أنت ونانا وتشو بالقلق؟"

تمنيت أن يقول شيئًا يسكتني، لكنه ظل صامتًا فعرفت أنه قلق مثلي، ولعله قال ما قال ليطمئن نفسه لا ليطمئنني، جعلني هذا أعود لدائرة أفكار المفرغة.

انفتح الباب خلفي، ونادتني سايا: "تاكومي، أريدك قليلًا لو سمحت".

ونظرتُ إلى داياكي وابتسمتُ، كان في ابتسامتها عرفانًا جعلني أوقن أنها سمعت ما قلناه. تبعتها إلى غرفتها، وإذا وقفت أمامي أمعنت النظر في وجهها محاولًا إدراك مكن الخطة. اقتربت مني وقالت: "لقد اقترفت خطأ كبيرًا بالأمس، لكنني كنت في حالة غير طبيعية، هل يمكنك أن تغفر لي؟ ستكون هذه آخر مرة أصرخ فيها عليك، أعدك بهذا".

لم أسيطر على غضبي وسألتها: "وهل ستكون آخر مرة تعذبنني فيها بالقلق؟"

- "ستكون آخر مرة تزعج فيها سايا الحمقاء أي شخص آخر. أيمكنك أن تغفر لي يا تاكومي؟ لا يجب أن ينتهي الأمر هكذا".

أمسكت ذراعها وهزتها: "ما الذي سينتهي؟ لماذا تتكلمين وكأنك...".

نظرتُ في عينيّ مباشرة فلم أمنع نفسي من الشعور بضباب غامض يخفيهما عني حقًا، شيء ما كان غريبًا في عينيها لكنني لم أدركه، شتتت انتباهي بقولها: "لو كان بإمكانني اختيار رجل واحد لأبقى معه حتى أموت، فلن يكون سواك يا تسوباسا تاكومي".

- "قولي لي ماذا بك؟"

- "أنا بخير يا تاكومي، بصدق، أنا بخير الآن".

استسلمت متهدأ: "حسنًا".

- "عندما أموت، امنح كل كتيبي ومذكراتي المكتوبة والمسجلة لميساو، وامنح تشو كل ما كتبت من أغنيات، ودع دايجي يأخذ التحف الصغيرة الفضية، أما أنت فخذ جيتاراتي، وكل ما كتبت من موسيقا ومقطوعتي (قبل أن نلتقي) و(عندما التقينا)، إنهما لك، لا أعرف ماذا قد تفعل بهما، لكنني لا أؤمن عليهما سواك. آه، وإذا ما رقدت يومًا على فراش الموت، احرص على تشغيل (بحيرة البجع) جوارِي. هل أخبرتك من قبل أنها أقرب موسيقى العالم إلى قلبي؟"

ولم تمنحني فرصة للتفكير أو الخوف، اقتربت ومدت يديها لتمسك بخصري، واقتربت أكثر ونظرت في عيني، وتمتمت: "هناك شيء لم أسألك عنه من قبل لأنني ظننت نفسي مجنونة...".

واقتربت مني أكثر، مالت بوجهها عليّ حتى أغمضتُ عينيّ وانتظرت قبلتها، لكن تلك القبلية لم تأت، فتحتُ عينيّ ونظرت إليها فرأيت ابتسامة صغيرة على شفתיها. سألتني: "تلك القبلية الأولى لم تكن حلماً، أليس كذلك؟"

حيرني سؤالها، لكني أجبت: "بلى يا سايا، أنت تعرفين هذا جيداً".

طرفت عيناها بانتباه، وابتسمت: "صحيح، لقد حدثت حقًا".

وانطفأ لمعان عينيها قليلاً وقالت: "ما كان يجب أن ينتهي الكرنسماس يا تاكومي، وما كان يجب أن يحدث أي شيء مما حدث".

بدأ الحفل، وتوزعنا في أماكن متباعدة تمامًا في المسرح المتسع، كانت سايا عند أقصى اليسار، وأنا في أقصى اليمين، وتشو على منصة ترتفع عنا قليلاً في

المنتصف، وخلفها على منصة تعلوها بقليل كانت نانا، وفي أعلى منصات المسرح بالخلف كان داكي.

استمر القلق في سحقي، لا أعرف إن كنت وحدي من لاحظ الأمر أم لا، لكن عزف سايا كان مختلفًا، مجرد نغمات عادية لا يشوبها خطأ لكنها مجردة من وهج عزفها المؤلف، كانت مختلفة حتى عما كانت عليه منذ ساعة. لم أتوقف عن اختلاس النظر إليها بقلبٍ واجف، لكنها ابتسمت لي عندما رأيتني، وصبت ابتسامتها عليّ شلاً من الثلج، داهمني وسواس مفزع أن سايا لن تكمل الحفل حتى نهايته.

كنت أعزف لاهياً عن الحفل وما فيه، أحاول وزن عواقب ما سيحدث لو ألقيت الجيتار الآن وجريتها إلى المستشفى، ثم أنظر إليها فأجدها أقوى مما أتوقع، وتتحرك بحرية دون أن يبدو عليها أثر لتعب، وتصرخ كل حين وآخر مع الجمهور، هل ما أشعر به صحيح؟

نعم..

أجابتي سايا بنفسها عن سؤالي، في كواليس المسرح ونحن نبدل ملابسنا استعداداً للفقرة الثانية، إذ خرجت من غرفتها وعيناها غائمتان، وفي حال سيئة طمرتها لمسات المكياج المتقنة. سرْتُ خلفها ثم أمسكتُ بيدها فتوقفت. ووسط ظلمة المسرح، وفي صمت تام لا أجرؤ على تحطيمه، وقفت ممسكةً بيدها الباردة شاعراً بخوف لا يوصف، لففت ذراعي حولها لحظة وقيلتُ شعرها، وشعرتُ بإيماء منها تبغي طمأنيتي.

خرجنا للمسرح فعددت روحه السحرية لتحريكها، عزفنا جيداً، وأدت تشو ونانا استعراضهما في الأغنية المثيرة الأخيرة.

كنا نتأهب لعزف الأغنية الأخيرة في الفقرة الثانية حين أطلق جيتارها نشاراً حاداً أوقفنا إثره العزف معها، لكن سايا ضحكت وبدأت بالعزف الصحيح، وضحك الجمهور معها استجابة لهذا المقلب -غير المدبر!- الذي صنعتته بنا. ثم عدنا إلى العزف مجدداً لكنني شعرت أن إيقاع داكي ينبض بتوتر غير محسوس. فجأة أصبحت قادراً على قراءة أفكاره والشعور به؛ كان يفكر فيما قلته له، ويحاول مقاومة خوفه.

وفي منتصف الأغنية، توقفت سايا، وأحدث صمت جيتارها المفاجئ فجوة عميقة في اللحن. توقفت بدوري ونظرتُ نحوها، ورأيتُ يدها اليمنى تتراخى عن الأوتار، ثم تخلتُ يسراها عن عنق الجيتار، كانت تطرف بعينها بسرعة فظننت دواراً أو أماً قد ألم بها.. لكن سايا سقطت، انهارت على ركبتيها، ثم مال جسدها عن حافة المسرح، سقطت وغابت في الظلمة أسفل بعيداً عن الأضواء.

أوكيناوا، وجسر إيكوما أوهاشي..

ضوء الشمس الباهر يضرب عينيّ، وأشعر ببرودة الهواء على جلدي، ورذاذ أمواج البحر إذ يحطم بعضها بعضاً، ثم تناديني سايا حيث وقفت جوازي..

أنظر إليها فتبتسم: "وكانه الفردوس، ألا ترى هذا؟"

أبتسم وأهز رأسي، وأعود للنظر إلى البحر، لكن ضوء الشمس يضرب عينيّ ثانية. أغمضهما وأتنفس، فتملاً رائحة الملح صدري.

تقول لي سايا: "أود لو أنام إلى الأبد".

يعتريني خوفٌ طاغٍ، وأنظر إليها فأرى ابتسامة مختلفة، ثم تهب الرياح ثانية، رياح خفيفة هادئة لكنها تنتزعها من أمامي، فتطير في الهواء مفككة الأوصال، ثم تشحب صورتها، تتبدد، وتختفي مع رذاذ الموج المحطم.

انتزعني الرعب من نومي انتزاعاً، وأجفلت إذ رأيت ضوء الشمس الحقيقي، قادماً بانكسار من خلف الستائر البيضاء. تنفست بقوة، والكابوس يحفر نفسه جوار مجموعتي المميّزة القادرة على تدمير نوم مئة شخص.

جلست على الأريكة شاعرًا بالالام التي يخلقها الفزع في عضلاتي، ورأيت نانا على الناحية الأخرى من الغرفة تحديق إليّ، لكنها لم تهتم بي في غمرة انشغالها؛ كانت تمسك بجيتارها وتضرب عليه دون صوت، ثم تلتقط النوتة الموسيقية، وتسحب القلم الرصاص الذي تعض عليه بين شففتها، وتكتب، ثم تواصل الضرب الصامت على أوتار الجيتار، وتعود لتصيح أو تضيف أجزاءً أخرى. حسناً، ليلة أخرى من كتابة الموسيقى وهي تراقب كواييسي. كم هذا بدیع!

حوّلت عينيّ نحو سايا، وجدّتها لا تزال في غيبوبتها، والأنبوب الضخم ذاته يخرج من فمها موصولاً بالآلة الكبيرة ذات الفحيح، صوت كأصوات الثعابين لا يكف عن إقلاقي. لم أستطع التحكم في شعوري بأن هذا وحش يجثم عليها، يمتص أنفاسها وحياتها حتى الموت.

الأسلاك الدقيقة تمتد من وإلى كل جسدها، وذلك المشبك الطبي العملاق يطبق على سبابتها اليمنى. نهضت إليها، وأمسكت يدها وهمست في أذنها: "أرجوك استيقظي".

تسرّبت البرودة الموجعة من أصابعها إليّ.. تساءلت للمرة الألف: هل نال الموت منها؟ هل سرق شيئاً لن تسترده أبداً لتفريق؟ لقد أمضت أول ليلة بعد سقوطها تحاول الموت، وتوقف قلبها مراراً حتى كدنا نياس ونتركها تمضي بعيداً، قبل أن تستقر في سكونها المخيف هذا.

سألت نانا: "هل قال الطبيب جديداً؟"

- "لا شيء غير الجملة نفسها: إنها أفضل قليلاً، ربما تفريق في أي لحظة".

- "متى؟ أريد أن أعرف متى ستأتي" في أي لحظة" هذه؟"

- "توقف عن نبرة اليأس هذه يا صبي".

وبنبرة ضاحكة قالت لسايا شيئاً ما، بلغتهما ذات النغمات الموسيقية، فحدّقت إليها ضيقاً وضجراً. سألتني: "متى ستقولها يا تاكومي؟"

صوّبت إليها نظرة متسائلة..

- "متى ستقول: أنتِ السبب في هذا يا نانا؟"

لم أجب، نظرت إلى سايا مفكراً: هل أرفق بصديقتهما الأقرب لأجلها؟ أم أترك لمشاعري العنان فأسمح لنفسي بالغضب عليها؟ كان شعورها بالذنب يأكلها حيّة، وجميعنا أدرك هذا إذ تشبّثت بالبقاء مع سايا خلال الأيام الثمانية المنصرمة، ولكن بخلاف دايفي وتشو اللذين لمّا لها بأنها ما كانت لتدرك ما سيحدث، لم أستطع أن أسامحها.. وحدها كانت مذنبّة بما صار إليه حال سايا.

لقد اتصلت بها تستغيث عندما داهمها الألم أول مرة، لكنها تجاهلتها لساعات، ولا يصعب عليّ تخيل ما شعرت فيه سايا إزاء هذا التجاهل. لأجل

كينجي، ولا يصعب عليّ تخيل ما فكرت فيه وهي وحدها، وقدر الألم الذي عانتته فتقرر أن تتوقف عن كل شيء، وأن تنتحر ببطء شرط أن تنهي الحفل الأخير في جولتنا.

خلال الأسبوع الماضي، وأنا أجلس جوارها متوقعًا أن يتوقف قلبها في أي لحظة، متأهبًا لطلب النجدة إذا حدث شيء، وأصلي لتفريق وأنال فرصة واحدة لإصلاح الأمور معها، استطعت أن أفهم ما شعرت به في تلك الليلة التي هجرتها فيها بقسوة. حين رأيت كينجي قادمًا من اليابان تحذوه اللفة والجزع، اجتاحتني غيرة ساحقة كاسحة مؤذية، لا يصمد أمامها شيء، ولا يكبحها منطق ولا صداقة، ولا تذكير نفسي بكل الأشياء الطيبة التي تربطني به. إنني أغار من هذا الرجل حد الموت، ولا أكاد أتحمل وجوده معي في مكان واحد، وتقتلني فكرة أنها تحبه إلى هذا الحد، إلى الدرجة التي تجعلها تفضل الموت هكذا.

ليس الموت.. بل الانتحار.

لقد كانت تموت أمامي، معي، ولم تخبرني بشيء، لم تنطق بكلمة. ظلت غاضبة ومنعزلة ومستسلمة ليأسها، لم تكثرث لأمرى لحظة، ولم تفكر فيما سيصيبني وأنا أراها هكذا.. لم يحدث هذا إلا لأن كينجي موجود، ولأن نانا فضّلته عليها، وتجاهلها لأجله.

كانت نانا عائلتها، والأقرب إليها، كان عليها أن تفضلها على الجميع، ما كان يجب أن تتجاهلها أبدًا، ليس من أجل كينجي بالذات.

لم يكن لديّ شيء يجعلني أسامحها.. مهما قيل، ومهما حاولوا مواساتها، وحتى لو برأتها سايا من هذا الذنب، ورفعت عنها هذا اللوم، أنا وحدي أعرف ما يحدث، وأعرف أنها هنا بسببها، وأنها كادت تموت بسببها.

لم أنطق بشيء من هذا، ولم ألمح إليه، في الواقع لم أكن أتحدث كثيرًا أو أعلق على أي مما يحدث، لكن من الواضح أن وجهي يفضحني، كما قرأت سايا فيه من قبل ما لم أكن قد اكتشفته بعد عن نفسي.

نطقت نانا جملة أخرى، فقاطعتها: "هذا ليس عدلًا، إنك تتحدثين معها بما لا أفهمه، في حين لا أحظى بالفرصة نفسها".

"أتريد أن تقول لها شيئًا لا أعرفه؟"

مسحتُ على شعر سايا، يغمرنى حنين شديد..

- "أريد أن أقول لها الكثير".

- "قله إذن، سايا لا تخفي عني شيئاً".

أحنيت رأسي ولم أتمالك ضحكتي..

قلت لها وأنا أسترده أنفاسي: "أنت تجهلين كل شيء يا نانا".

وانفجرت أضحك.. ضحكت حتى أوجعتني بطني، وتخيلت ما تشعر به سايا
حيال "عائلتها" المعتوهة هذه.. نانا التي سكنت غرفتها مع البيز جيتار، ولم تتوقف
عن العبث بهاتفها الشخصي، وكتابة الموسيقى، وأنا باكتئاب الراسخ، ودايكي
بوجهه المتورم من أثر عراكنا، وتشو التي تبكي بمجرد دخولها الغرفة كالحمقاء.
جعلني التخيل أزداد ضحكاً على ضحك، ثم توقفت متجهماً وقد دهمني اكتئاب
مهول.

قالت نانا: "أنت لست بحاجة للكلام على أي حال".

ونهضت تناولي النوتة الموسيقية، تفحصتها مترجماً ما أقرأ في عقلي، وتسلفت
إليّ مشاعر مختلفة عما عشته في الأسبوع الأخير.. اللشوة.. الانفعال.. التأجج..
الرغبة في الإمساك بجيتاري حالاً.. ما هذه الروعة؟

سألتها عما أقرأ فمحتني هاتف سايا، ودفتر ملاحظاتها، ثم انسحبت إلى
الحمام مع حقيبة ملابسها الصغيرة. ضغطت الهاتف فانبعث صوت سايا يدندن،
كان ذلك اللحن الخافت الذي استيقظت في ليلتنا الأولى لتسجله ثم تهوى نائمة،
وفي دفتر الملاحظات كانت أغنية مكتوبة بخطها، بعنوان "وجدتك".

ضغطت التسجيل التالي، سمعت سايا تغني الأغنية بصوت ناعس جداً جعلني
أبتسم...

"تمنيت كثيراً لو اختفي.."

لو أنني أنام إلى الأبد ولا أستيقظ أبداً..

تمنيت لو أنني لست هنا..

ثم وجدتك.. فعرفت أنني أردت لو يعثر عليّ أحد..

أنت عثرتُ عليّ..

لقد وجدتُك"

إنها الأغنية التي ألهمتها بها بعد وصولنا إلى كوريا، الليلة التي رقصت فيها معي..

كانت تنددن الصورة الأولى من اللحن، فطوّرتَه نانا في النوتة الموسيقية بشكلٍ باهر، وكانت نوتة البيز جيتار مفعمة بروعة مذهلة، والجيتار، والدرامز، و... إنها عظيمة.

لم تغب نانا في الحمام أكثر من عشر دقائق، وخرجت بوجهٍ منتعش قليلاً تزين خطوط الماء حوافه، وألقت نظرةً متلهفة على سايا.. كانت تخشى تركها ولو دقائق، وبدت عازمة حتى الموت على أن تكون أول من يستقبلها حين تفتح عينها. لوحتُ بالأوراق وقلتُ: "أنتِ عظيمة".

- "طبعًا، بما يكفي لأنزع قيادة الفريق من هذه الحمقاء لو لم تستيقظ".

كانت تلك أيام صعود نانا، بمجرد سقوط سايا في غيبوبتها، أصبحت متشبثة بالموسيقى حد الجنون. وبعد استقرار سايا في العناية المركزة الخاصة، أحضرت جيتارهما وبعض ملابسها، وحاسوبها اللوحي. تابعت أخبار ما يحدث في الخارج، وأصدرت بيانًا باسم الفريق يوضّح ما حدث، قبل أن تنتشر شائعات تعاطي سايا للمخدرات. قالت في البيان إننا لا نستطيع تحمل عواقب إلغاء أيٍّ من حفلاتنا بأي ثمن، خاصة في ظل الضغوط التي نعيشها منذ إلغاء أحد حفلات كوريا بسبب قضيتي، وكان هذا دافع سايا للمخاطرة بتناول المسكنات دون أن تخبر أحدًا. أثار هذا حنق الجميع على شركتنا، وعلى باقي شركات صناعة الترفيه ذات السياسات العنيفة مع نجومها، حتى أن بعض معجبينا طالبوا بتدخل جمعيات حقوق الإنسان لحمايتنا. مطالبات رومانسيّة لدرجة تثير السخرية.

أصبحت نانا موجودة أكثر من أي وقت مضى.

جاء كينجي لرؤية سايا في اليوم الخامس للحدث، وسافر في المساء عائدًا إلى اليابان، لكن نانا لم تبدٍ مرحبة بوجوده، كانت باردة ومتباعدة وهو يحاول مواساتها ومساندتها، ودأبت على الاعتذار عن إطالة الحديث كلما اتصل بها، متعلقة بوجودها في المستشفى وحاجة سايا إلى الهدوء. ورغم ما يشتعل في صدري

نحوه إلا أنني كنت ساخطًا لما تفعله به: إنها تحاول تحميله ذنب ما حدث لسايا وإلقاء اللوم عليه، في حين أن لا أحد ملوم هنا سواها.

ومرة أخرى لم أهتم بما يكفي لأعلق، كان جل اهتمامي مع سايا..

سهرت جوارها ليالٍ عدة لا أفعل شيئًا غير النظر إلى وجهها، مستكشفاً بدهشة وحسرة أنني لم أفعل هذا قط من قبل، كنت أتجنب عينيها دومًا إذا ما نظرت إليّ، وأتجنب تأملها أمام الآخرين كي لا يستشعر أحدهم شيئًا مما أضمره لها، المرة الوحيدة التي سنحت لي الفرصة لتأملها فيها كانت في ليلتنا الأولى معًا، حين استلقت جوارى مجردة من كل شيء، من كونها قائدة فريق، من معاملتها الساخرة أو القاسية، من معاملتها لي كصديق، من ملابسها، من دموعها التي لم أفهم سببها إلا لاحقًا.. وقتها أطلت النظر إليها شاعرًا أنني على أعتاب حياة جديدة.. والآن...

يعتريني شعور عارم بالخذلان، والخوف، والضيق، والفقد.

أنا لا أسامح من يتخلون عني..

هؤلاء الذين أحبهم، وأتخذ من وجودهم في حياتي ركيزة أستند إليها، ومرفأ أتجه إليه، هؤلاء لا أسامحهم أبدًا حين يتركوني وحدي. لم أسامح ناومي قط لتركها لي دون أن تحاول بجدية إصلاح ما بيننا. وفي أعماقي، ورغم عدم مسؤوليته عمّا أصابه، كان جزء مني ما ينفك يلوم هيساو لأنه تركني في أشد أوقات احتياجي إليه.

لم أسامحها قط، وربما لن أفعل. لكنني قادر على مسامحتك يا سايا لو أنك عدت، لو فتحت عيني.. سأسامحك لإخفاء مرضك عني، ولاعتمادك على مسكن قاتل كاد ينتزع حياتك، ولن أسألك إن كنت قد تناولت الجرعة الزائدة عادمة أم كان الأمر محض حادث.

استعدت مئات المرات ذكرى لحظة سقوطها، وحين وصلت إليها لأجدها قد سقطت على بطنها، وتلقت ضلوعها صدمة السقوط بالجيتار الذي تحمله. وعندما قلبتها لترقد على ظهرها وانتزعت الجيتار عنها، وانتهت للتصلب المشثوم في بطنها. أمسكت وجهها وناديتها، حاولت تنبيهها حتى حوّلت عينيها المحدقتين إلى

السقف نحوي، لكنها لم ترني، كانت تحلق في عالم آخر لا أبصره، وبصعوبة رفعت يدها محاولة بلوعي لكنها لم تقدر، سقطت يدها إلى جوار رأسها كأنها تهشمت.

يومها استلقت بين ذراعي هادمة تمامًا، باردة تمامًا، شاحبة، العرق يغمرها، وأنفاسها سريعة خفيفة جدًا تكاد تنقطع، كل شيء فيها أخبرني أنها تذهب سريعًا، ولن أستردها ثانية أبدًا.

كانت تلك لحظة الرعب الأعظم في حياتي، بقيت يومين أخشى أن أنام كي لا أراها في أحلامي، ولم أتحمّل محاولات أي شخص للتخفيف عني. عندما رأيت دايمي بعد وصولنا المستشفى، اشتبكت معه في عراك عنيف، وكان يحاول تجنب ضربي باعتباري مصدومًا أو فاقد العقل، لكنني كنت عازمًا على تحطيمه، وكنت واعيًا برغبي التامة في إيذائه؛ لقد حذرته لكنه استمر في تجاهل ما أقول، وسقّه من قلقي حتى سقطت بيننا نصف ميتة.

في النهاية فصل الأطباء عراكننا بالكاد، تحطم أحد ضروس دايمي، وتمزقت شفته السفلى في موضعين، وتورم نصف وجهه، أما أنا فوضعت يدي في رباط ضاغط محكم ثلاثة أيام.

كانوا يأملون أنها ستكون بخير، لكنني أدركت أن ما من شيء يشير لهذا؛ لقد كانت مريضة، ويأسه، ووحيدة، ولم يكلف أينا نفسه عناء الضغط عليها للذهاب إلى مستشفى. التهمت زائدتها واتصلت لتطلب العون، لكن نانا تجاهلتها، وبدأت في تعاطي المورفين لتسكين الألم، لكن أحدًا منّا لم ينتبه لهذا، حتى دفعها الألم لزيادة جرعة المسكن، والنتيجة أن رنتها كانتا على وشك الانهيار. حتى بعدما أنقذوها بمعجزة في الجراحة، لم تعد سايا قادرة على التنفس وحدها، تلك الآلة المرعبة الجائمة على صدرها كانت تساعد على التنفس، أما غيبوبتها الطويلة فكانت آخر محاولة لجسدها لإصلاح نفسه بعد ما تحمله من أضرار، كل هذا حدث تحت أعيننا.

ليس لدينا أدنى حق في أن نعتبر أنفسنا عائلة لها.

حاول جزء مني انتحال عذر يائس، باعتبارها لم تدرك خطورة ما تفعله، لكنني واجهت نفسي بالحقيقة: إنها تدرك الخطر جيدًا؛ في العام الماضي أصيبت تشو بالتهاب الزائدة، وأجريت لها الجراحة بعد ساعات من ظهور الأعراض، ولكننا عرف عواقب إهمال تلك الحالة.. سايا كانت تعرف، لكنها اختارت أن تموت.

اختارت أن تموت ولم تبال بي لحظة، لم تتردد ولم يطرف لها جفن.

حين قابلت كينجي فكرتُ بصمت: "أنت المسؤول عن هذا".

لم أخبره هذا بطبيعة الحال، تجاهلته، ثم صليت شكرًا حين عاد إلى اليابان.. تمنيت أن يختفي كان لم يكن، ويختفي كل شيء سيئ ترتب على مجرد وجوده في الحياة.

بقيت عاليًا مع نانا وحسب.

قالت وهي تمسك بيد سايا اليسرى، على الناحية الأخرى من فراشها: "انظر إلى يدها يا تاكومي".

- "ماذا عنها؟"

- "إنها تقبض أصابعها بإحكام. في البلد الذي ولدنا فيه نؤمن أن الشخص الذي ينام هكذا يملك كثيرًا من الأحلام، ولديه الوقت ليحققها، لهذا أعرف أنها ستفيق".

حاولت فك أصابع سايا، واقتضى الأمر شيئًا من الجهد. تمنيت لو كان لتلك الأسطورة حظًا من الصدق..

تهتدت نانا: "أتذكر اليوم الذي صفعتك فيه؟"

- "نعم".

- "لقد كان الأمر واضحًا، لقد نظرت إليك على مائدة الإفطار ورأيت نظرتك للسكين، وعرفت ماذا ستفعل إذا ما خلوت إلى نفسك، لكن الأمر لم يكن بالوضوح نفسه بخصوص سايا".

- "كان واضحًا بالنسبة إلي".

- "وهذا أكثر ما أكرمه بشأنها، بعض الأشياء يراها الجميع إلا أنا، واكتشفها بعد فوات الأوان. إنها لعنة تميز علاقتنا على ما يبدو، فهي أيضًا لم ترى شيئًا بيني وبين كينجي".

- "نعم".

نظرت لي وابتسمت...

- "على أي شيء تلومني يا تاكومي؟ لأنني لم أجب اتصالها؟ أم لأنني مع كينجي من الأساس؟"

وضعت يدي على رأس سايا، مسحت على شعرها، وانزلت لفائفه الناعمة بين أصابعي.. جميلة جدًا، جدًا، لا أتحمل افتقادي لها يومًا آخر.

- "ربما ألومك لأنك لم تخبريها قط كم تعني لك، ثم تبدين اهتمامك الآن فقط بعدما سقطت شبه ميتة. قولي لي يا نانا كيف سيكون الوضع لو أنها لم تستيقظ أبدًا؟ ولو انتهى كل ما بينكما بموتها وهي موقنة أنها لا تعني شيئًا بالنسبة إليك مقارنة بكينجي؟"

تركت يد سايا وتراجعت في مقعدها.. ولعثت عيناها المضطربتان بغشاوة دمع كثيفة، لكن دموعها لم تسقط. شكرًا للكبراء السقيمة ذاتها التي يتقاسمانها.

قلت دون ترفق: "ليس لديك أدنى فكرة كم أذاها الأمر".

هاجمتني بصوتٍ غاضب: "لا تجرؤ على الحكم عليّ يا تاكومي، لقد عرفت سايا أكثر من نصف حياتي، ولم أكن بحاجة قط للكلام، كنت دومًا واضحة بالنسبة إليها، ولم تكن بحاجة لأن أشرح لها كيف أفكر ولا بم أشعر".

- "ليس هذه المرة".

- "لأنه كينجي".

اضطرب قلبي لما قالت هذا، ونظرت إليها متوقعًا أن تكون مدركة ما يحدث، خائفًا من الاحتمال لكنني أتمناه في الوقت نفسه..

- "إنهما متشابهان، ولعل هذا ما يجعلها مدركة أسوأ ما فيه. كينجي يفضل الموسيقى على أي شخص، ومتسلط، ومتحكم، وغيور، ومتنافس، إنه كل شيء سيء في سايا، لهذا تتوقع أن يكبح جماحي".

- "لماذا أنتِ معه إذن؟"

- "لماذا أنت مع سايا؟"

ورفعت حاجبها تحديًا نازرة إليّ، ألمني سؤالها أيما ألم، وتذكرت شجارنا ليلة الحفل..

قلت ببأس: "لا يمكنني القول إننا معًا".

بعد صمتٍ طويل قالت: "لو أن شخصًا كبح جماحي فلن يكون كينجي، لو أردت التوقف عن الموسيقى سأفعل لأنني أريد هذا. لكنها كانت محقة في أمراخر، أنا كنت متعبة ومستنزفة وبحاجة لشيء من الراحة، أصبحت لينة وبدأت أفكر في الاستسلام".

- "إذن...؟"

- "لا مزيد من الليونة يا تاكومي".

قطبت متسائلًا فابتسمت لي، وعدتني: "هل تذكر ما قاله لنا جونغي قبل القبض عليك؟".

- "لا. ماذا قال؟"

قهقهت ضاحكة من تلاشي ذاكرتي، تلمملت ضجرًا غير قادر على تحمل الألغاز، زاهدًا في مواصلة الحديث.

نهضت وأخذت سترتي ذاهبًا لإحضار القهوة، وفتحت باب الغرفة، فكدت أصطدم بالرجل الواقف خلفه، رافعًا يده على وشك طرقه.

صعقتني رؤيته، فتحت عيني متوقعًا أنني أحلم، ثم تراجع لأستوعب الصورة كاملة. كان أطول قامته مما يبدو في الصور، وكتفيه أعرض، وشعره أطول، لكن أناقته الأسطورية كانت كما أعرف، وصوته العميق يأتي من أغوار صدره تمامًا كما في أغانياته.. لم تكن تلك مؤثرات صوتية كما اعتقدت طوال الوقت، فانهلت عليه بسخريتي.

حيّاني بابتسامة مشعة: "مرحبًا، تاكومي سان".

مكثت لحظة في صمتٍ تام، ثم نظرت خلفي فرأيت نانا تنهض لرؤيته، وعلى وجهها تعبير صامت مشدود، وعيناها متسعتان، لكنها لم تقل شيئًا. بم تشعر الآن وهي تلتقي الرجل الذي حلمت به أكثر من نصف عمرها؟ وأحبته أكثر من أي شخص آخر؟

حيّاها بنبرة أرسقراطية: "أسف للمجيء دون موعد، نانا سان".

رغم كل ما يضرها من مشاعر، كانت نانا ثابتة وشامخة، حيته بانحناء تقليدية وقالت: "أرجوك تفضل، هيبكي ساما".

رد بابتسامة خلابة، ثم دخل الغرفة، وانحنى لها بتحية تقليدية أنيقة، ثم انحنى صوب سايا بتحية أخرى، ودخل خلفه حارسه الخاص، ليضع جوار النافذة باقة زهور هائلة، لم أرفي حياتي أكبر منها ولا أجمل.

سألها بلطف: "كيف حالها الآن؟"

تنفست نانا نفساً عميقاً، أغمضت عينيها، وحين تمالكت نفسها وفتحتها كانتا دامتعتين. أجابته: "لا تزال نائمة".

- "أنا أسف لهذا".

وأوماً لها مستأذناً فأومأت له بترحيب، وهكذا اتجه ليجلس على مقعدي، ومال نحو سايا قليلاً يقول: "مرحباً، سايا تشان. استيقظي وأخبريني أي أغنية مذهلة يمكنك إغرائي بها".

هل من العدل أن يعيش تسوباسا واحدة من أعظم فتراتهِ إنجازًا وسايا غائبة؟

فكرت في هذا مرارًا وأنا أراقب خطوات نانا الجديدة في الفريق، بعدما بُنّت فيها زيارة هيبكي ساما روحًا مذهلة الجموح. عندما رأت بعينها نتيجة تصريح سايا المتهور برغبتها في التعاون معه، تحولت نانا إلى عنقاء تبعث من رمادها، تعيش الحلم الذي طالما تمنته، دون أن تتهور – ويتهور تسوباسا معها – للعمل على تحقيقه، متجاهلين شركتنا وقواعدنا، وخلافاتها مع منافساتها. فور ظهوره في المستشفى عرضتُ عليه أغنية (وجدتك). مع نوتة البيز الباهرة التي تنافس (الألم الأخير)، وأضافت إليها تحديًا جديدًا: أن يعزف البيز جيتار السعادة والحب أعظم مما عزف الحزن والأسى.

في اليوم التالي وصل كيم جونغ جين مع كيم سون هي، وإذ شرعا في الحديث إلى سايا الغائبة عن الوعي، فاتحته نانا في أمر الأغنية المشتركة التي اقترحها من قبل مع تسوباسا، ولمّا أبدى تعجبه من التوقيت أشارت له كيم سون هي خفية ليقبل. تصرفت وكان نانا تفعل هذا لتتغلب على صدمتها، لكن نانا لم تكن مصدومة. كانت تشع طاقة وقوة جبارتين، ودأبت على القول إن سايا ستستيقظ في أي لحظة. ويجب أن نستقبلها بشيء باهر يعوض ما عاشته في آخر أيامها من ألم.

وهكذا عقدت اجتماعًا مصغرًا في غرفة سايا، لنخطط لأغنية جديدة مع كيم جونغ جين، ونراجع التعديلات التي اقترحها هيبكي ساما على (وجدتك). محاولين التعديل على تلك التعديلات بلمسات أفضل.

مع اليوم الرابع عشر كانت الأغنية جاهزة، كل شيء أصبح تأمناً وكاملاً، وحققنا رقماً قياسياً في إنجاز أغنية خلال خمسة أيام. في الواقع نانا من فعل كل شيء.

لم يبق إلا أن تستيقظ سايا.. كنا نشعر أنها معنا رغم غيبوبتها، تتابع ما نفعله، وتراقبنا بصمت.

في هذه الفترة عكفت تشو على تدريب صوتها لمستويات هائلة، يحدوها الخوف من مقارنة طبقاتها رقيقة الحدة بعنف طبقات هيبكي ساما وقوتها. كانت له صرخة شهيرة مروعة يرددها في بعض أغنياته، ورغم أن طبيعة هذه الأغنية مختلفة ولا تحتتمل صراخاً، إلا أن الوسواس ظل يقهرها بأن المقارنة بينهما لن تكون في صالحها.

أما داكي فلم أره إلا مساء اليوم الخامس عشر..

كان يتجنبني منذ عراكننا، ولم أجد في نفسي أسفاً لأعتذر إليه، ولم أكلف نفسي عناء السؤال عنه. جاء المستشفى وقبل جبين سايا كعادته، وتحدث إلى نانا قائلاً إن كل شيء على ما يرام. كان قادماً لبيت مع سايا، ما جعلني أرحل على مضض.

عدت إلى البيت الموحش لأقع فريسة تشو ومخاوفها، لكن رغم ثرثرتها كانت مشغولة بأمر سايا أكثر من التفكير فيما سنفعله في الفترة المقبلة. أصغيت لها بعض الوقت ثم دخلت غرفتي، وتأهبت للنوم فور الاستحمام، لكن النعاس قهرني فور ملاستي للفراش.

نمت دقائق معدودة، ثم رن الهاتف بنغمة هادئة رنت في أذني كصرخة. كانت نانا، وفور رؤية اسمها اشتدت نبضات قلبي من الخوف، وإذ نادتي وهي تبكي لم أتحمل سماع ما قد تقوله، فأهيت المكالمة.

ضغطت صدري بيدي محاولاً تملك لجام خفقاته المنفلتة. هل أفاقت أم ماتت؟ بدا كلا الاحتمالين مروعاً فجأة.

طرقت تشو باب غرفتي، وبفرحٍ عظيم صرخت: "لقد استيقظت، سايا استيقظت".

تنفست كالغريق إذ يصعد فوق سطح الماء.

كانت نانا لا تزال تبكي أمام غرفة سايا حين وصلنا، ولما احتضنتها تشو لتهديتها انتحبت: "ماذا كنت سأفعل لو ماتت؟ كيف كنت سأعيش لو أن آخر ما تظنه عني هو أنني فضلت رجلاً عليها؟"

لقد أمضت نانا الأسبوعين الماضيين تفرغ هاتف سايا من مشاريع ألحانها، وترجم هذه الألحان إلى نوتات موسيقية، وتطوّرهما، وتتعاون مع هيبكي ساما، وتتصل بكيم جونج جين، وتخطط لعام قادم على الأقل من عملنا، لم أرها نائمة لحظة، وشعرت أنها استلمت راية "فلنعمل حتى نفقد الوعي" من سايا، لكن في هذه اللحظة فقط رأيت ما كانت تفكر فيه حقًا، والمشاعر التي راودتها دون أن تسمح لها بالتحكم فيها. شعرت بقلبي يفيض حبًا لها، وبكثير من الندم أنني صارحتها بأفكاري القاسية عنها، رغم أنني لم أخطئ في شيء.. فقط لم يكن عليّ أن أقحم نفسي بينهما. تمنيت لو رأيت سايا هذا، كانت لتوقن أن نانا لن نتركها لأجل أي شخص، ولن تفضل عليها أحدًا ولو كان الرجل الذي تحب.

اندفعت أحتضنها، احتويتها تمامًا ناقلًا إليها اعتذاري وشعوري بالحب، ضربتني على ظهري أولًا، ثم بادلتني عناقِي، بكت بفرح: "سوف تعيش".

كان قلبي يحلّق، وسألت دايمي لأول مرة منذ عراكنّا: "أخبرني عمّا حدث".

كنت أحسده من قلبي، لقد غاب المحظوظ عنها خمسة أيام لكنها أفاقت في وجوده، واستقبلها بعد عودتها إلى الحياة. قال بابتسامة واسعة: "في البداية ظنناها تختنق، لكنها كانت تقاوم أنبوب التنفس، لقد فصله الأطباء وهي تتنفس وحدها الآن".

- "ماذا قالت؟"

- "لم تقل شيئًا، غابت عن الوعي فورًا، لكنهم يقولون إنها ستستيقظ في أي لحظة".

قفزتُ مرحًا وصحّتُ: "لقد أفاقت".

سخر مني: "انظروا إلى هذا المبتهج".

كان اشتياقي قد بلغ منتهاه حين سُمح لنا بالدخول، ركضت إليها ركضًا، ووقفت أمام فراشها أمسك بقدميها، باردتين كالثلج لكنهما اكتسبتا الدفء مني يديّ سريعًا. انتظرت حتى انتهوا من الهمس لها، ثم اقتربت، انحنيت وقبلت جبينها،

وقبلتُ طرف أنفها البارد الدقيق، وأمسكتُ يدها، وتمتمتُ في أذنها: "أنا هنا يا سايا، استيقظي، استيقظي".

بقيت أهمس لها طويلاً حتى ألمني ظهري من الانحناء، وإذا استدرت لأجذب المقعد قرب فراشها، شعرت بأصابعها تتحرك ببطء بين يدي، فعدت أنحني عليها، مالت برأسها يميناً ويساراً ببطء شديد، وفتحت شفتيها.

"نا.. نا...".

صوتها المبحوح ذو النبرات المهشمة كان أعظم إثارة للبهجة من الفالس الثاني لشوستاكوفيتش. كررت الاسم مراراً حتى استطاعت أن تنطقه كاملاً، ومالت برأسها إلى يساراً، متتبعه صوت نانا إذ تهمس لها "أنا هنا"، وعيناها مغروقتان بالدموع.

بعد لحظات سكنت سايا وقد غابت عن وعيها مجدداً، أمضينا الليل جوارها متأهبين لإفاقتها الكاملة، لكنها ظلت تفيق على نحو متقطع. ثم أفاقت بشكل أفضل في الرابعة صباحاً، وكان وجهي أول ما رأت لما فتحت عينيها.

حدقت إليّ قليلاً دون أن تراني حقاً، تائهة وكأنها لم تعد من عوالم الغيبوبة بعد، نظرت في جميع الاتجاهات ثم ركزت في عيني، ولما أدركت أنها تراني حييتها: "هيبه.. يا شمسي المشرقة".

انزلقت بنظراتها حتى رأت يدي تحتضن يدها فوق بطنها، ثم نظرت لي، قبضت أصابعها على يدي، وحاولت أن تهمس بشيء فلم تقدر، بدت أكثر تركيزاً للحظة ثم أغمضت عينيها. نهتها: "سايا، ابقى معي لحظات".

وتلمست وجهها بيدي، مسحت على جبينها ثم شعرها، وشدت يدي على أصابعها الهشة. فتحت عينيها ونظرت إليّ بانتباه.. كانت واعية دون شك.

"استمعي إليّ جيداً قبل أن تغيبني عن الوعي. أنا لم أظن أنك تخونين نانا؛ ما من خيانة في الشعور بحب شخص، وأنت وقعت في حبه منذ لقائكما الأول، قبل علاقتهما بسنوات. أنا لم أحكم عليك، ولم أتهمك بشيء. في تلك الليلة حين بكيت، فكرت أن كينجي يحول بيبي وبيتك، وقد قتلتني الفكرة، كنت مدمراً بالغيرة، وأردت الهرب قبل أن تكوني قادرة على اكتشاف قدر الأذى الذي أشعر به. أنا دائماً خائف من أن يكتشف الآخرون ما أشعر به، ولا أحب أن يدرك أحدهم

أفكاري، ولو كنتُ شخصاً آخر لاكتشفتِ بنفسكِ منذ زمن إلى أي درجة أنا متعلق بك، وأنتِ الشيء الوحيد الذي يجعلني أتشبث بالحياة، وأني لا أستطيع رفع عيني عنكِ، وأنتِ تجعلين عالمي يشرق لمجرد أنكِ موجودة. أنا أنتمي إليك يا تسوباسا سايا، وأود لو أنكِ تنتمين إليّ بالمثل، لو أنكِ منحتني فرصة أخرى سأريك أني أستحق أن تبقي معي إلى الأبد".

تملصت أصابعها من يدي، وارتفعت إلى خدي، فضغطتها عليه متشرباً برودتها الجميلة المفتقدة..

"قلتِ إنكِ مصابة بسرطان؟ عظيم، دعينا نقاومه معاً، أنا لن أتركك حتى أصيبك بسرطان مختلف".

ابتسمت، وعانقتني عيناها، فوضعت يدي على شعرها وأكدت لها: "أعرف، أشعر بالشيء ذاته".

وطبعت على شفתיها قبلة خفيفة، ثم تصلبت مع الصرخة المروعة: "سرطان!" عادت نانا حاملة القهوة في أهم لحظة. وهكذا تبخر حي لها متحولاً إلى سخط كاد دخانه يخرج من أذني، وضعت القهوة جانباً وركضت نحونا بعينين هلعتين. شرحت لها: "مجرد تعبير مجازي. لماذا أتيت الآن؟" نظرت لي ساخطة، وأخرجت لي لسانها مغيظة. سألت سايا: "إنه لا يكذب، أليس كذلك؟"

أغمضت سايا عينيها تؤكد صراحتي، فتهالكت نانا وأطلقت زعرها بعيداً. اقتربت منها، وأمسكت وجهها بين كفيها، أمرتها: "لا تغيبني عن الوعي ثانية".

ابتسمت سايا وأغمضت عينيها موافقة، ومسحت نانا على شعرها...

قالت نانا: "أنتِ أهم شخص في حياتي يا سايا، العائلة قبل أي شخص، وأنتِ قبل العائلة، لقد اعتقدت أنكِ تعرفين هذا دائماً، وأني لست بحاجة لقول شيء".

مسّ صدقها سايا، واستسلمت عن محاولة الكلام بعينين دامعتين.

"كان يجب أن أقول هذا مبكراً، لكنني أقوله الآن: أنتِ أهم شخص في حياتي، لن أفضل عليكِ أحداً، أنتِ صديقتي المقربة. وقد عشنا معاً أكثر من نصف عمرنا، لقد أحببنا الأشياء أنفسها، والأشخاص أنفسهم، وحظينا بالطبايع المجنونة

ذاتها، وتقبلنا بعضنا على ما نحن عليه، لو كنا توأماً ما ضمنت أن نكون هكذا. لا تفكري أبداً، أبداً، أي قد أحب شخصاً أكثر منك".

أثري صوتها اللطيف، المختلف عن سخرتها المعتادة التي تتهرب بها من إبداء أي عاطفة، ولكن...

"كنت لأقبلك قبلة تبعث الحياة فيك يا سايا تشان، مثلما فعل هذا الأحمق، ولكنك لم تغسلي أسنانك منذ أسبوعين، وكل هذه الأدوية التي صبّوها في حلقك صَبّاً. والاع! سينتهي بي الأمر فاقدة الوعي على فراش مجاور".

أبهج صوتها اللعوب سايا، بدا في ملامحها ذلك التقلص الجميل لقهقهتها الفاتنة، لكنها لم تقو على الضحك. مسحت نانا على رأسها بحنو.

"استردي قوتك يا حمقاء، نحن ندخلك مفاجآت ستطيح بعقلك".

كانت أول المفاجآت هي زيارة هيبكي ساما، سمحت له نانا بزيارة سايا بعد يومين من إفاقته. لما رآته واقفاً بباب غرفتها كادت تطير من الفراش طيراً، وأورثتها حركتها المفاجئة ألماً تقلص له وجهها، فوبخها داكي: "هيبكيه.. ابقى هادئة".

دخل الطاووس المتباهي بأناقته الأسطورية، وصوته الأخاذ: "مرحباً بعودتك يا سايا تشان".

كانت ابتسامته براقّة كالмас، وأسنانه بالغة البياض كمصاصي الدماء، سحقاً له! لو أن هذا اللعوب يحاول إيقاعها في حبه فأنا في خطرٍ محقق.

تبعه حارسه الخاص بباقة زهور أكبر من السابقة، التقط منها زهرة بيضاء ناصعة، واقترب يقدمها لسايا. أخذتها منه ورفعت يدها نحوه تصافحه، فتلقى يدها بإيماءة أنيقة وشت بخجل لم أتوقعه. هذا الوقح المتبجح! هل يظهر في إعلاناته المبالغ فيها عاراً، ثم يخجل من فتاة مريضة؟!

زادني دهشة لما غمر المكان برقة قوله: "لقد انتظرتك، وقد صليت لتكوني بخير".

ولأول مرة منذ أفاقت قالت سايا: "إنها تختار الأصفر.. بسببك".

تكلمت بصوتٍ بطيءٍ للغاية، وأصغى لها هيبيكي ساما باهتمام رغم أنه - قطعاً - لم يفهم شيئاً مما تقول.

"إنها تختار الإضاءة الصفراء دوماً في المسرح، لأنه لونك المفضل، لأنك قلت يوماً إنه لون البهجة والسعادة".

نظر نحو نانا وابتسم: "إنه لون الإشراق".

وأشرقت ابتسامته فابتسمت سايا، وأغمضت عينها لحظة كأنما تستعيد تركيزها، لكنها سقطت نائمة فجأة فأثارت هلعها، ونظر إلينا مستنجدًا، فقال داكي: "لقد نامت.. إنني أعتذر بالنيابة عنها".

أصبح سقوطها في النوم فجأة معتادًا؛ جسدها الذي تحمل فوق طاقتها في تصوير المسلسل، وأعمال الفريق، والسهر المستمر، والسفر والتنقل بلا توقف، والحمى الشديدة، والتهاب زائدها ثم انفجارها، وجرعة المورفين العالية، كان يصرخ طالبًا الراحة، ولأول مرة يعلو صوته على صوتها حتى لم تعد لها سيطرة تذكر عليه، وهذا لحسن الحظ، فقد كان يعرف ما يفيد أكثر منها، ويدخر طاقتها قدر الإمكان.

ببطء بدأت سايا تتحسن، كنت ألاحظ اختفاء الشحوب الميت عنها يوماً بعد يوم، وعودة شحوبها الناصع المحبب إليّ، وازدادت تحسناً عندما جاء كينجي لزيارتها في اليوم الخامس لإفاقتها، معتذراً لتأخره، وناقلاً تحيات فريق عمل المسلسل، وكثيراً من بطاقات الحب التي أرسلها المعجبون.

انقل ليجلس على طرف فراشها، ويحذر من الأسلاك المتصلة بجسدها عانقها، أراح رأسها على كتفه وضمها بحرصٍ واشتياق، بل وأسند رأسه إلى رأسها، وذلك ظهرها بلطفٍ لتدفتها. همس بصوتٍ مؤثر: "أنا سعيد لأنك بخير يا فتاة. لا أدري كيف يمكنني العيش لو أصابك مكروه".

"ستواصل العزف، وستستغل مأساة فقدي لكتابة أغنية تُبكي معجباتك".

كانت تمزح بسخرية قاسية يستجيب لها عادة بسخرية أقسى، لكنه لم يتقبل دعابتها هذه المرة. خيل إليّ أن عناقه ازداد إحكامًا، وأنه يضغطها في حضنه أكثر. وبخها: "لا تمزحي، أنتِ لا تعرفي كيف شعرت عندما سمعت الخبر، ولا عندما رأيت

فيديو الحفل. اللعنة يا سايا! كيف سمحتِ لنفسك بتعرض حياتك للخطر هكذا؟

عرفت الإجابة التي جالت بذهنها، لما رأيت يداها تترددان في مبادلتة العناق، ثم تستسلمان وتسقطان جانبًا.

عاتبها: "كان يجب أن تتصلي بي".

- "لقد كنت في اليابان!"

- "كان يجب أن تتصلي بي، كنت سأتي فورًا لأنك ذلك".

مازحته بقسوة ثانية: "كان يجب أن تأتي فور سماع الخبر إذن. لقد جئت بعد خمسة أيام يا رجل".

صاح وهو يشدد عناقه بوضوح: "لأنني لم أتحمّل رؤيتك تموتين. أنت تعرفين كيف أكون حين أرى شخصًا أحبه معرضًا للخطر".

ابتسمت سايا فعكس وجهها سعادة رائقة، وبادلتة عناقه، ثم انخفضت يداها مرة أخرى وابتعدت عنه. أدركت أفكارها ممن شعور الذنب في عينيها.. في لحظة هو "هيروماسا سينباي" الذي أحبته لسنوات، وفي اللحظة التالية هو "كينجي" الذي تحبه نانا، "كينجي" الذي يحب نانا.

أورثها تضارب مشاعرها إعياءً اضطركيني لإعادتها إلى رقدتها الأولى، وتدثيرها جيدًا، ولبث جوارها يهمس بكلماتٍ لم أسمعها حتى سكنت، فغادر الغرفة ملقيًا عليّ التحية وأنا أقف عند الباب.

دخلتُ الغرفة واقتربت منها وهي تتظاهر بالنوم، مسحت على شعرها، وأمسكت يدها الباردة، ولما فتحت عينيها داعبتها: "نانا قائدة فريق مفترسة، لا تتركيني بين أنيابه أكثر".

ابتسمت لي ممتنة..

- "هلا أغلقت الباب بإحكام؟ والستائر؟"

فعلت كما طلبت، ولما عدت إليها كانت قد أفسحت لي مكانًا صغيرًا، فاستلقيت جوارها ومررت ذراعي أسفل عنقها فتوسدت كتفي. وضعت يدي على

يدها المستقرة فوق صدري، وتسرب إليّ جمالٌ عظيم احتوى مشاعري، فلو كانت بصحة جيدة، وخارج هذا المستشفى، سأود لو بقينا هكذا أبداً.

- "لا تزال دافئاً يا تسوباسا تاكومي".

أنفاسها كانت ثقيلة وكأن صدرها يغلي، وبشكل غامض أدركت أنها لو كانت بصحة جيدة لتظاهرت بالعصبية أو انهيمكت في العمل لتغطي على مشاعرها الآن.

- "قل لي يا تاكومي، فيم كنت تفكر وأنا غائبة عن الوعي؟"

تهربت من السؤال بقولي: "هذا لا يهم ما دمت بخير".

- "لماذا كنت غاضباً؟"

اندفعت الكلمات دون تحكم مني: "لأنك تعرفين كل شيء عني، وتعرفين ما مررت به بعد ناومي وهيساو، ورغم هذا وقفت أمامي تلقينيني وصاياك الأخيرة، وتحديثني عن فراش الموت و(بحيرة البجع)، وخرجت إلى الحفل عالمة أنها ستسقطين ميتة بعده. بأي شيء ستشعرين لو انعكس الوضع؟"

- "سأغضب، لكنني سأقدر ما مررت به من ألم لتقرر هذا".

- "فور سقوطك خرجت من بين الجمهور طيبة، وقالت إن الوقت لا يكفي لانتظار الإسعاف، فحملتك بنفسك إلى السيارة، وأبقيتك في حضني كما أضمك الآن، وقبل وصولنا بقليل توقف قلبك، لقد جئنا بك هنا وأنت ميتة. وبقيت ميتة لسبع دقائق أخرى. أنا لا أستطيع إخراج هذه الصورة من رأسي".

انكمشت في حضني، وشعرت بحرارة دموعها على صدري.. بقيت صامتة فترة طويلة.

- "هل سمعت (وجدتك)؟"

- "نعم".

- "هل...؟"

- "نعم، لقد تعرفتها فوراً".

- "لقد ألهمتي بفكرتها، لكنني حين كتبتها، فعلت هذا لأجلك. إنها لك يا تاكومي، وكل ما فيها أعنيه، فهل تقبلها كاعتذار؟"

لم أدر بما أجيّب، شددت ذراعي حولها لأضمها إليّ أكثر، وانقبضت أصابعها انقباضاً بسيطاً على صدري..

- "كنت أود لو أتممتها كاملة لك، لكنني لا أستطيع القول إنني قادرة على تطوير اللحن أفضل مما فعلت نانا".

- "كلماتها فقط أجمل شيء فعله لي أي شخص على الإطلاق يا سايا، إنها تكفيني".

صمتت..

- "إنني أعني كل حرفٍ منها يا تسوباسا تاكومي".

- "أه".

- "لكنني مصابة بسرطان".

- "أعرف، ولن أنسحب بسبب هذا".

صمتت ثانية، وغمرت حرارة دموعها قميصي مرة أخرى.. مسحت على شعرها وقلت: "أتذكرين ذلك اليوم في الطائرة؟ قلت لك إن لكل منا فوبيا، والفوبيا التي تطاردني هي الفقد. إنني خائف حتى الموت من فقد أي شخص آخر.. إياك أن تجعليني أفقدك يا تسوباسا سايا".

- "لكنني لا أستطيع التوقف عن تلك الأمنية".

صمت كلانا، وانقلبت بشيء من العسر لأستطيع رؤيتها.. حدّقت إلى عينيها وقلت: "سأجعلك تتوقفين، استردي صحتك وسوف أنسيك العالم بأسره، سأستري شقة جديدة بعيداً عن بيتي الكثيب ونعيش معاً لفترة. سأطبخ لك، وسنسهر معاً ونعزف، وسنذهب إلى السينما في الثالثة صباحاً لأنني لم أفعل من قبل. دعينا نشترى كلباً ونذهب للجري كل صباح".

رفعت رأسها تنظر لي، توقفت دموعها وابتسمت: "أتدري لماذا أهرب من الرجال دائماً؟ لأنهم متسرعون، ويرسمون حياةً كاملة في لحظات".

- "لن تستطيعي الهرب مني، لأنني حب حياتك".

نسيت البكاء وحققت: "أحب ثقتك".

اصطنعت الغرور قائلًا: "في أوكيناوا قلبت لي إنك وقعت في الحب ثلاث مرات، أولهم مع الفتى الذي أحب ميساو، وكينجي هو الثاني بالتأكيد لأنك عرفتته قبلي، وأنا الثالث. لن يكون لديك رابع يا تسوباسا سايا".

- "لا تكن واثقًا.. الثالث ليس أنت".

رفعت ذقنها نحوي، وببطء قبلت شفيتها، ثم سألتها: "ربما دايمي؟"

- "مممم.. ربما".

قبلتها قبلة أخرى: "ربما المخرج؟"

- "ربما".

قبلة نالثة..

- "ربما تاكوياسان؟ من أيضًا؟ إن الرجال قلة من حولك".

قهقهت: "إنهم أكثر مما تتخيل، لكن اعتقادهم الأحق عني يعميمهم عن رؤية أي شيء".

- "اعتقاد أحق؟"

قالت بضحكة ساخرة: "إنهم يظنونني سحاقية".

- "أنت تعرفين؟!!"

- "طبعًا أعرف، الكل يظن هذا، والكل متأكد أنني واقعة في حب نانا التي تفضل الرجال، حتى نوايدي المعجبين نسجت عن هذا آلاف القصص الحزينة".

أحنقني ما تقول فوبختها: "وأنت متعايشة مع هذا ببساطة؟"

- "وماذا يضيرني من الأمر؟ الجمهور يستثار بتلك القصص البلهاء، والحمقى يبتعدون عن طريقي. المضحك أن جميع الفتيات السحاقيات اللاتي عرفتهن لم يخدعن قط، ولم يحاولن التقرب مني بأي شكل، لكن الرجال... ثم تغضبون حين نقول إنكم كائنات حمقاء".

- "ولكن كينجي...".

- "لقد أخبرتكم، إنه سرطان لا علاج له".

لا يا سايا، ليس هذا ما أردت قوله، أردت القول إنه أحد هؤلاء الحمقى.. إنه يظنك كذلك حتى أنه حاول تحذيري من الاستسلام لمشاعري نحوك في أوكيناوا. فكيف لو عرفت هذا؟

وضعت يدها على خدي فانتبهت لها من أفكاري، شعرت بألم شديد لأجلها، وعزمت على فعل أي شيء لإنقاذها، ولتكون لي وحدي. قالت برفق: "أيها السيارة المرسيدس القادرة على أخذي بعيداً عن الصحراء، أنا موافقة على الحياة معك".
- "حقاً؟"

- "نعم، لن أهرب هذه المرة. من الغريب أنني لا أشعر حتى بالرغبة في هذا".

- "لا، ليس هذا غريباً؛ أنت تنتمين إلي".

في تلك الليلة، شعرت أن كل شيء في حياتي ينتظم ليكون على ما يرام، وأفضل مما حلمت به في يوم من الأيام، وكان كل شيء ليكون كذلك فعلاً.

ولكن...

نانا..

تمائلت سايا للشفاء سريعًا، وغادرت المستشفى بعد شهر تقريبًا من سقوطها في الحفل، محملة بعشرات التعليمات الطبية، والأدوية، والمتابعات التي ستستكملها في اليابان. قضيت الوقت أفكر في العودة إلى بيتي مع سايا، لأكسب الوقت الذي أحতاجه لشراء شقة جديدة. كنت متشوقًا حد الجنون لبدء حياة معها، لكنني لم أرغب في المغامرة باتزان عقلي ونفسي بعد أشهر العلاج النفسي الطويلة، ومكالماتي مع الطبيب للتحديث معه عن جنوني حتى تلاشى رويدًا رويدًا، وبدأت أصبح طبيعًا.

بمجرد عودتنا إلى اليابان عهدت إلى وكالة عقارات بالبحث عن شقة في منطقة منعزلة، وعثرت على واحدة في شرق طوكيو بعد ثلاثة أيام فقط، وذهبت مع سايا نتفقددها معًا. كانت شقة صغيرة جدًا مقارنة ببيتي الواسع المكون من ست غرف وطابقين، لكنني أحببتها، لقد جعلتني فقاعة أحلامنا التي تركناها خلفنا في الصين أحب جميع الشقق الصغيرة في العالم.

كانت الصالة مزينة بمدفأة حقيقية. وفي الحمام حوض استحمام ضخم خلفه جدار زجاجي عملاق يطل على خليج طوكيو. وفي غرفة النوم الرئيسية شرفة كبيرة تطل على المنظر المذهل ذاته، أما الغرفة الثانية فكانت تطل على حديقة كبير.. المشكلة الوحيدة أن الشقة كانت في الطابق الخامس والعشرين، وسايا لا تتحمل المرتفعات.

توقعت أن ترغض، لكنها جالت بين الغرف بسعادة كبيرة. وقالت لي: "دعنا نأخذها يا تاكومي.. أنا أريدها إذا أردتها أنت أيضًا".

قُضي الأمر إذن.. اشترينا الشقة بعقدٍ مشترك؛ لم تقبل سايا أن أتحمّل تكلفة بيت سيعيش فيه كلانا وحدي. ولم أعاندها لأن الشقة على جمالها لم تكن البيت الذي سأقضي حياتي كلها فيه. إنها مرحلة مؤقتة معها قبل أن نعرف إلى أين سنتجه. كنت أتخيل بيتًا كبيرًا بحديقة مزروعة بأشجار مختلفة، وحمام سباحة، وجدران زجاجية بالكامل.. هذا البيت سأشتريه وحدي لنعيش فيه معًا، حين تتعافى سايا من كينجي. وأتعافى تمامًا من ناومي بحيث لا أهاب العودة إلى بيتي القديم.

بعد كتابة العقد انطلقت مع سايا إلى مركز تجاري لبيع المفروشات، لم نهتم بأراء مهندسي الديكور واشترينا ما أحببنا من أثاث، حرصنا على اقتناء أريكة ضخمة لنضعها أمام المدفأة، وغرفة نوم بفرش بالغ الاتساع كما تحب سايا، ولم نهتم بشيء آخر. بعد هذا عهدت إلى داكي بإحضار بعض الأشياء المهمة من بيتي، ونقلت ملابسنا واحتياجاتنا كاملة من بيت تسوباسا. رغم أنني قضيت معهم فترة كنت أعلم تمامًا أنها مؤقتة، وأنني حتمًا سأعود لأستقل بحياتي، ورغم أن سايا معي، إلا أنني افتقدت بيتهم بالفعل قبل أن أغادره.

سألتني تشو وأنا أحكم وضع ملابسنا في حقيبتي: "ألا يبدو الأمر مثيرًا للسخرية؟ حين ارتبطت نانا بكينجي أقامت سايا الدنيا ولم تقدها، خشية أن تعرف الشركة بوجود علاقة جدية بينهما فيُفسخ عقدا، لكنها الآن تنتقل لتعيش معك! ماذا فعلت بها؟ سايا لم تنتقل قط لتعيش مع أي رجل".

- "أنا لست أي رجل".

انفجرت في توبيخًا: "حين أخبرتك أن تصرّح لها بمشاعرك لم أقصد أن تسرقها منّا يا تاكومي".

ابتسمت لها: "أنا أيضًا سأفتقدك يا تشو، سأفتقدكم جميعًا".

اندفعت دموعها دون سيطرة، وتأوهت: "كيف سنجتمع على مائدة الطعام دونكم؟ سيكون البيت موحشًا لدرجة فظيعة".

احتضنتها فتشبّث بي، قالت: "أنا أحبك يا تاكومي. اعتن بسايا أرجوك".

- "أنا أيضًا أحبك، وسأعتني بها جيدًا، وسنأتي هنا كثيرًا. انفصلنا هذا مرحلة مؤقتة لا أكثر".

وعلى خلاف دراما تشو، كانت نانا مبتهجة من أجلنا، وودعتنا بابتسامة كبيرة عزيزة. أما داكي فكان الأسعد حالاً. قال لنا وهو يضع متعلقات سايا في سيارتي: "أنا سعيد لأجلكما. أنا سعيد أنه أنت يا تاكومي وليس هيروماسا كينجي".

ونظر إلى سايا معتدراً فابتسمت له.. أه لو علم قدر صدق تخمينه!

قالت لي سايا ونحن في طريقنا: "أكره الكذب على داكي، لكنه طالما كان كذلك، كان قادراً على كشف كذبي طوال الوقت، وحتى حين أقنعه أنه أحمق، كنت أعرف دوماً أنه أكثر شخص يراني على حقيقي".

- "ولم تخبره بهذا قط؟"

- "لا، لا أريده أن يعلم إلى أي درجة يراني عارية مهما حاولت الادعاء".

ونظرت إلى الخارج مهمومة، فمددت يدي وأمسكت يدها، وقدت سيارتي بيدي الأخرى دون أن أفلت أصابعها. وصلنا شقتنا بعد نصف ساعة تقريباً، ونقلنا أشياءنا معاً.. كان وقتاً ممتعاً.

لم تأخذ سايا من البيت إلا ملابسها، وجيتاراتها، وسوو تشان، وصندوقاً صغيراً مليئاً بدفاتر الملاحظات، فرغته على المكتب في الغرفة الثانية، وكان آخر ما أخرجته منه صندوق هدايا صغيراً، تفقدته بشكلٍ عابر فوجدت به آلي هارمونيكاً توأم، بديعتا الصنع حتى ليخيل للناظر أن إلهاً ما صهّما صبّاً من الفضة الخالصة.

الألتان التوأم التي كانت ستمنح كينجي إحداهما في عيد ميلاده، مع دفترين توأم كان أحدهما له أيضاً. التقطت بطاقة التهنة الموجودة بالصندوق، وقرأتها:

"هيروماسا سينيبي"

طالما كنت مصدراً لقوتي وإلهامي، أتمنى لو تمنحني الفرصة لأجعلك سعيداً كما أسعدتني لسنوات. سايا تشان"

رسمت سايا قلباً في نهاية رسالتها الصغيرة، ووجهاً ضاحكاً محبباً.. سايا لا تكتب هكذا.

أعدت كل شيء لموضعه، ورددت لنفسني: "لا تتألم، لا تتألم.. إنها معك أنت، وكل شيء يعتمد عليك الآن.. لقد نامت معك أنت، وانتقلت لتعيش معك أنت، إنها تحبك أنت.. سوف تحبك أنت".

رددت هذا كثيرًا، مقاومًا الوسواس الهامس بأنني أحقق مثير للشفقة، وأعدت كل شيء لما كان عليه. نادني سايا من الغرفة الأخرى فصحت: "أنا قادم".

أنهيت ما أفعله واتجهت إليها، وفي ضوء الغروب رأيته مسترخية في حوض الاستحمام، تتأمل الشمس الموشكة على الرحيل.. أردت تصوير تلك اللحظة بتفاصيلها، حتى نظرت لي وابتسمت فحفرت المشهد في رأسي إلى الأبد.

مدت يدها نحوي تقول: "تعال".

خلعتُ ملابسي مستشعرًا شيئًا من الحرج المفاجئ، وكانت بعد تمد يدها إليّ حين دخلت حوض الاستحمام معها. كدت أجلس في مواجهتها، لكنها شدتني برفق لأجلس أمامها، وسحبتني ليستند ظهري إلى صدرها، وأمالت رأسي على كتفها اليسرى. ألصقت خدها بجبيني وتشابكت يداها أمام صدري، بادرة التملك التي أهواها تلك، ثم قالت: "لم أكن لأغامر بعثور نانا عليها".

اضطربتُ، ولم أسألها كيف عرفت، لكنها فسرت لي: "إنني أعرف تلك النظرة، رأيته كثيرًا في مرآتي في كل لحظة كنت تفكر فيها في ناومي".

- "أنا أسف".

- "وأنا كذلك يا تاكومي".

- "لكننا معًا".

وأملت رأسي يمينًا وقبلت عنقها، فأجابتي: "نعم، نحن معًا".

وقبلتُ شفتي بقم مفتوح، تلك القبلة الشهية التي تذيبني حتى يستحيل عليّ التفكير.

أمضينا وقتًا طويلًا في حوض الاستحمام، راقبنا غروب الشمس، والشفق الأحمر العذب، ثم زحف الليل وميلاد أضواء المساء في البنايات البعيدة. تلاعبنا بالصابون الكثيف للأطفال، وتحدثنا في كل شيء ممكن في الحياة عدا الموسيقى والعمل. ومثلما فعلت معي، أجلستها أمامي، ودلكت بشرتها البيضاء الضيئة

بالصابون، وراقبت انحدار الماء عليها برفق.. في تلك الأمسية، اتقد في قلبي حب من نوع خاص.

وعلى أريكتنا الجديدة، استلقيت معها نحدّق إلى النيران الصغيرة في مدفأتنا، فبعث قربي منها حياةً مختلفة في عروقي، وبقيت أستند إلى ذراعي أراقب جانب وجهها الهادئ السعيد، حتى نامت بين ذراعي، لينقطع حديثنا الطويل بهمة ناعمة من بين شفتيها. تدثرنا بلحافٍ ناعم، وغرقت في النوم سريعاً بدوري، وحلمت أحلاماً ناعمة كانزلاق الماء على بشرة سايا الرائعة، حلوة بطعم قبلتها، شهية كرائحة أنفاسها، هادئة كالغروب.

لم يدم الهدوء طويلاً، فعند منتصف الليل رن جرس الباب، ونهضت لأفتحه قبل أن تستيقظ سايا، فوجدت دايمي أمامي.

سببته غاضباً، وصحت به: "هذا مزاح سخيف يا تسوباسا دايمي".

كان جاداً ومهموماً، وفي صوته رجاء حقيقي: "اسمح لي برؤية سايا حالاً يا تاكومي".

استيقظت سايا كما كنت أخشى، وارتفع رأسها وهي تتساءل: "دايمي؟"

نظر من فوق كتفي إليها، وقال: "يجب أن نتحدث الآن يا سايا".

نهضت جالسة ودعكت وجهها، ودخل دايمي وخلع حذائه وأسرع إليها، وارتدى جالساً أمام الأريكة، وألقى مطروحاً يحمله على الأرض، وفرك كفيه في وضعية من يستعد للاعتذار. طار النوم من عيني سايا، وتبخر غضبي.. تأهينا للكارثة.

سألته سايا بوجوم: "ما الكارثة التي فعلتها؟"

"آآآه.. إنها ليست كارثة، لنقل إن فكرة ما خطرت لي وقررت التأكد منها وحدي، كان يجب أن نعقد اجتماعاً وأطرحها عليكم أولاً، ولكن... أنت كنت في غيبوبة، وتاكومي ونانا كانا معك، وتشو كانت تبكي، لم يكن أحد في كامل قواه العقلية سواي".

"اختصر يا دايمي، ما الكارثة التي فعلتها؟"

"لقد كنت أفكر في السبب الذي دعاك لتحمل المرض حتى سقطت على المسرح...".

تهكمت عليه: "صدقني أنت لن تدرك هذا أبدًا".

- "... الشركة تواصل الضغط علينا دون تفهم أي مشكلات نمر بها، وتضاعف الضغط بعد فضيحة تاكومي في كوريا، بصرف النظر عن المخطط في الموضوع. لو لم تكن الشركة تنتهج تلك السياسة العنيفة ما عرضت نفسك للموت يا سايا، لهذا فكرت أن علينا تغيير الشركة".

- "هذا ليس سهلاً يا داكي، جميع الشركات..."

- "ورغم العداء المؤذي بين شركتنا وسائر الشركات الأخرى، إلا أنني قررت البحث عن شركة بديلة، تقبل ضمنا إليها بسياسات وشروط أفضل مما نحصل عليه في شركتنا، شركة لا تحرم نانا وكينجي الارتباط، ولا تضع فوق كاهل تاكومي ما لا يطيق بسبب متعبه مجنونة، ولا تجبرك على العمل حتى تسقطين نصف ميتة".

اتسعت عينها محذرة: "هل تركتني في غيبوبة وذهبت تبحث عن شركة أخرى يا تسوباسا داكي؟!"

فرك كفيه مرعوباً، ولمعت عيناه كجرو ارتكب خطأ. قال: "أنا آسف، لكنني كنت سأجن لو بقيت في المستشفى وهم سيكون طوال الوقت، لم أتحمل اليأس المشع من هذا الكتيب وهو يجلس جوارك كما لو أنه التصق بك".

صحت به: "أنا كتيب!"

فضّبت اشتباكنا قبل أن يقع، صاحبت بصراة جنرال عسكري: "ماذا فعلت يا داكي؟"

مد إليها المظروف المغلق، وعاد يفرك كفيه...

- "شركة (سمائل ميوزيك) تعرض علينا الانضمام إليها، بضعف الأجر، وبنسبة أعلى من أجور الحفلات، بشرط أن نسمح لهم باختيار اسم الفريق".

تولاني القلق، وقالت سايا: "اسم الفرق؟ نحن تسوباسا يا داكي".

ابتلع ريقه وتأهب للمعركة. قال: "لن نظل تسوباسا لو انفصلنا عن شركتنا، أتذكرين شروط العقد؟ إنهم يحتفظون بحق اسم تسوباسا إذا انفصلنا عنهم".

"ليس إذا ما دفعنا الشرط الجزائي للمطالبة بالاسم.. هكذا يقول العقد أيضاً".

"هل ستدفعين حقاً كل هذا المبلغ يا سايا؟ إنه يوازي أجورنا مجتمعين لمدة عامين".

صمتت سايا وتراجعت للخلف، ثم انتهت لظهر الأريكة المفرد فطويته من أجلها. نظرت حولها تبحث عن سجاثرها، ثم تذكرت أنها ممنوعة من التدخين، كان صدرها يغلي لكنها حسمت أمرها.

"سأدفعه".

"لكن...".

"لا مساومة في هذا، إنه اسم عائلتنا، سأدفع المبلغ كله من أموال الخاصة يا دايكي".

تدخلت بحسم: "سأدفع النصف، إنه اسم عائلتي أيضاً".

ومض وجهها بابتسامة لحظية اختفت سريعاً.. سألتها: "ثم ماذا بعد؟"

"هل أنت مستعدة للمخاطرة بالأمر؟"

"أي مخاطرة؟ لدينا عقد معروف علينا، ونحن نقبله. فور انقضاء عقدنا الحالي يمكننا الانتقال إلى الشركة الأخرى".

"هنا المشكلة، إنهم يرغبون في توقيع العقد في منتصف أبريل على الأكثر، ولن يكون بوسعنا الانتظار إلى مايو".

لوحث سايا بيدها: "ما هذا الهراء؟ ماذا يضيرهم في الانتظار لمدة أسبوعين؟"

"إنهم مصرون على هذا، إما توقيع العقد فوراً، وإما أن يلغوا العرض".

"فليلغوه إذن، نحن لا نخرق تعهداتنا، ولو كنا ممن ينكثون بعقودهم، فنحن لا نستطيع تحمل هذه المخاطرة. لو وقّعنا عقداً جديداً مع شركة أخرى قبل انقضاء عقدنا الحالي فسوف نقاضي، وربما يؤدي بنا الأمر إلى السجن".

"ألا يمكنك تحمل المخاطرة لمدة أسبوعين؟"

"-هل جننت يا داكي؟ بالطبع لا يمكن لأي شخص تحمل مخاطرة كهذه ولو لساعتين. أنا وأنت دون الجميع ندرك الخطورة".

ظهر عليه إحباط شديد، وأطرق بوجهه أرضاً، وتراجع ليجلس بشكل معتدل متريفاً على الأرض. ونظرت سايا نحوي تطلب عوني، فجلست جوارها، استشعرت غرابة تلك الجلسة ونحن نرتدي روب الاستحمام! يا لغرائهم التي لا تنتهي.. تسوباسا!

إنهم تسوباسا.. لا أتخيل نفسي أدعوهم - وأدعو نفسي - باسم آخر.

قال داكي: "إذن ماذا؟ منذ شهر واحد لم أكن أتخيل نفسي في شركة أخرى، والآن لا أتخيل أن نوقع معهم عقداً جديداً، ونعيش خمس سنوات أخرى في تلك الجحيم. نحن نستحق شيئاً أفضل يا سايا".

بنفس اللهجة العسكرية جابته: "نستحق الأفضل، وهذا الأفضل ليس المخاطرة بالسجن يا صغيري. اتركهم وارفض عرضهم، نحن أعظم فرقة موسيقية في اليابان، سيكون للجميع الشرف في أن يعملوا معنا".

"نحن ننتمي إلى الشركة الأكثر نفوذاً، ويبدو لي أن أحداً لا يجرؤ على المطالبة بنا صراحة خشية أن تُدمره".

"-هذه مشكلاتهم لا مشكلاتنا، نحن فريق عظيم، وقد سئمنا الشروط الغبية التي نعيش بها. أليس هذا ما قالته نانا عندما عرض كينجي الارتباط بها؟ حسناً إذن، فلينتهي عقدنا الحالي ولنر ماذا سيحدث. اضغط عليهم برفضك يا داكي، هم من يحتاجوننا لا نحن".

كانت قاطعة وحاسمة فلم يجادل معها، وأخذ المظروف المغلق كما هو ونهض، واعتذر عما سببه من إزعاج، وغادرنا واجفاً. أغلقتُ باب الشقة خلفه وعدت لأجدها في إعياء شديد، ارتمت نائمة على الأريكة مغمورة بالعرق لدرجة أخافتني، لكنها طمأننتي بأنها بخير.. بالفعل تحسنت بعد دقائق واستردت قدرتها على التنفس بانتظام.

حملتها إلى غرفة النوم، وأرقتها وسط الفراش الضخم البارد، ورقدت جوارها أصغي لصوت أنفاسها في الظلام.. كانت هادئة لدرجة أنني شككت أنها تنفّس،

وبهدوء تحسست عنقها أطمئن لنبض قلبها، فقالت لي همساً: "أنا بخير يا تاكومي، لا تخف".

تهدتُ مطلقاً سراح مخاوفي الغيبة.

همست لي: "هل كنت محقة فيما قلته لدايكي؟"

كان هذا جانباً هسّاً منها لم أكن أدري عنه شيئاً، ووضعت يدي على رأسها شاعراً بعطفٍ شديد، وشجعتها: "طبعاً محقة، تسوباسا سايا لا تخطئ".

- "تسوباسا سايا خائفة".

ومست صوتها رعدة عابرة وهي تهمس بعبارتها هذه، ثم تلوذ بصمت لم أعرف نهايته، إذ سقطتُ في النوم بعد قليل.

وفي الثالثة صباحاً استيقظت ثانية على طنين هاتف المزعج، التقطته وكدت أستم كالمجنون لما رأيت اسم دايكي على شاشته.

هتف بانتصار: "لقد أخبرتهم برفضنا فتراجعوا، لقد وافقوا على توقيع العقد معنا فور انقضاء عقدنا الحالي مع شركتنا. أخبر سايا أنني سأكون عندكما بعد ساعة لنناقش العقد الجديد".

عندما انتقلت مع سايا إلى شقتنا الجديدة، اقتصرت رؤيتنا لتسوبا سا على أوقات التدريبات، في الإستديو الذي حجزه هيبكي ساما، مصرًا على عدم قدرته على العمل خارجه. عدنا إلى العمل بروح جديدة، وسجلنا النسخة الأولى من الأغنية فجاءت باهرة، ما شجعنا على بدء تصوير البوسترات الخاصة بها.. كان وقتًا مرحًا لنا، ووقتًا مثيرًا للعاملين في الشركتين المتصارعتين الكارهتين.

وقفت نشو تتوسط البوستر مع هيبكي ساما، تنظر إلى الكاميرا نظرة جانبية وهي تضع يدها اليسرى على كتفه، فيما يمسك داكي يدها اليمنى المَطْوَحَة في الهواء، وإلى يساره نانا تضع يدها على صدره. وإلى يمين هيبكي ساما كانت سايا توليه ظهرها وتقف بزاوية جانبية أيضًا، ويدها اليمنى بين يده، أما يسراها فكانت على خدي، وأنا أميل عليها مغمض العينين أوشك على تقبيلها، لكنها تنظر إليّ نظرة لامعة عاشقة تنطق بحبٍ لا يوصف، نظرة تقول (وجدتك).

حتى لو لم أكن عازفًا، حتى لو كنت بعيدًا كل البعد عن عالم الموسيقى والترفيه، فبنظرة واحدة إلى البوستر كان بوسعي التخمين مَنْ كتب تلك الأغنية لأجل مَنْ. لفتت نظرة سايا انتباه الجميع، على كثرة الصور التي التقطت لنا، والبوسترات التي تخصنا، خلال السنوات التي تقمصنا فيها ثيمة الثنائي، كعازفي الجيتار الكهربائي في الفرق.

من المضحك أن تشو كانت هي الثنائي مع هيبكي ساما في تلك الأغنية. وجعلنا هذا نهامس طوال الوقت مغيظين نانا، وبقدر استجابتها لاستفزازاتنا الطفولية أحيانًا، إلا أنها لم تعر الأمر اهتمامًا كبيرًا. كانت تقضي مع هيبكي ساما وقتًا طويلًا بعد كل تصوير، واعتادا الخروج معًا، واللقاء في الصباح الباكر ثم الوصول إلى

الإستديو مغًا. كان وجوده سحرًا أخاذًا فصلها عن عالمها القديم، وصارت نانا يانعة كالزهرة، وتحتفظ بروح معنوية عالية مهما حدث.

قلت هذا لسايا ذات مساء، وعلّقت عليه: "عليك التوقف عن الشعور بالقلق عليها، إنها تملك جميع الخيارات الآن، وقادرة على حسم أمورها. لقد أنجزتِ وعذكِ لها بمساعدتها على تحقيق حلمها".

رغم هذا بقيت سايا مهمومة، لم تصارحني بأفكارها قط، قائلة إنها تحمل مخاوف غبية لا داعي لمناقشتها.

في الحقيقة، لم تخبرني سايا أنها الآن قلقة بشأن كينجي.

انتصف فبراير، وجهزنا لاحتفال ضخّم بعيد ميلاد سايا، ولكن رغم تكتمنا عليه، فاجأتنا ونحن في طريقنا إلى المنزل بقولها: "لو دعوتكم أكثر من خمسة أشخاص سأقتلكم جميعًا".

ردّ دايفي بلمحة ساخرة: "لا داعي للشكريا سايا، نحن عائلة".

صرخت سايا حال دخولها البيت، كان أعضاء Vanity هناك جميعًا، مع نانا وتشو، وهيبكي ساما وعازفي فرقته، وتاكويا سان، و... كان البيت يضم ما لا يقل عن عشرين شخصًا. ضربت دايفي على كتفه، ونظرت لي نظرة غيظ عظيمة فهمت ما تعنيه فضحكت، وعانقتها عناقًا عاديًا أقول: "في البيت يا سايا، لدينا بيتنا الآن".

ضربتني على ظهري، وأغرقتنا خيوط الزينة التي انطلقت في وجوهنا، ورذاذ الثلج الاحتفالي.. ركض كينجي خلفها صانعًا قبةً بيضاء من الثلج فوق رأسها، وما لبث أن احتضنها ليصنع لها لحية بيضاء، حتى بدت كنسخة أنثوية مضحكة من سانتا كلوز.

كانت غارقة في الضحك بين ذراعي كينجي فتساءلت بم تشعرا الآن؟ أي سعيدة للمقلب؟ أم سعيدة لقرها منه؟ هل ساعدت أيا منا المشتركة في بيتنا على التخفيف من إصابتها بذلك السرطان؟ لا أعرف، لكنني لم أر في عينيها شعور الذنب المرافق لتفكيرها فيه باعتباره "هيروماسا سينباي"، إنه كينجي الآن، تمنيت أن يبقى كينجي مجرد: "كينجي" بالنسبة إليها إلى الأبد.

أطفأنا الشموع وقطعنا الكعكة الكبيرة، وتفرقنا في الصلاة كل مع المقرب إليه
يثرثر. كنت مع سايا ودايكي نتحدث عن عقود الشركة الجديدة. ورأينا بالقرب منا
نانا وهيببكي ساما يتحدثان، ويقرعان كؤوس الشراب احتفالاً.. بدا عليهما وفاق
صديقين عاشا معاً عشرين عاماً. هنا شعرت بالقلق على كينجي.
كان عليّ أن أقلق..

كنا نثرثر حين شعرت بانخفاض الضوضاء في المكان فجأة، ولما نظرت وجدت
أفراد Vanity يجهزون لافتات متوسطة فيما بينهم، ويتأهب كينجي بنفس عميق
للتقدم نحو نانا، وهي لاهية في حديثها مع هيببكي ساما فلم تنتبه لما يحدث، ورنّت
ضحكتها وسط الصمت التام الذي خيم فجأة فبدت بالغة الغرابة، وأشبه
بالنذير.

اقترب كينجي منها، عانقها من الخلف وقال لهيببكي ساما: "أنا أسف لقطع
حديثكما، ولكن شيء ما مهم يجب أن يقال الآن".

أوماً له هيببكي ساما مبتسماً، وضحكت نانا: "كينجي.. نحن نتحدث في أمر
هام".

واستدارت إليه، واختفت ابتسامتها لما رأت لافتات Vanity المكتوب عليها
باليابانية والإنجليزية "تزوجيني". هنا توترت ولم أرغب في البقاء، ولم أرغب في أن
ترى سايا ما سيحدث الآن. كانت إلى جوارى ساكنة، عيناها معلقتان بنانا في
اتساع خائف، وكأنها ترى ما لا أراه.. وهمست بكلمات لم أسمعها.

أمسك كينجي يدي نانا، وببطء هبط جالساً على ركبتيه، فتصاعدت صيحات
إثارة، وصفر أحد الموجودين، لكن وجه نانا اصفر على نحو لا يبشر بخير. سمعت
همس سايا: "لا تفعل!".

قال كينجي: "نانا.. عندما تقربت منك كنت شخصاً آخر، رجلاً مجروحاً يشعر
أن العالم بأسره قد انتهى، لكنك بعثت الحياة في كل لحظة قضيتها معي. لديّ
كثير من الشكوك في كوني شخص جيد، لكنني لا أشك لحظة أنني أحبك، وأني
أستطيع أن أكون أفضل إذا بقيت معي".

ومن جيبه أخرج علبة زرقاء مخملية، وفتحها ليلمع فيها خاتم ماسي..

- "تزوجيني يا تسوباسا نانا، وسأجعلك سعيدة في كل يوم نقضيه معًا، وسأحبك بكل نقطة دم في عروقي حتى أموت".

خيمت على المكان سعادة مُسلِّم بها، بدت موافقة نانا أمرًا متوقعًا وموثوقًا فيه، حتى أن كاميرات الجميع تأهبت لاقتناص اللحظة العظيمة. لكن نانا بقيت صامته، جامدة كالحجر وهي تنظر إلى كينجي، ولمّا انفجرت شفتاها لتجيبه صاحت سايا: "لا تفعل!".

قلبت صرختها الموقف إلى النقيض، بَنَّت التوتر في الجميع، وبددت ابتسامة كينجي كأن لم تكن، نهض واقفًا ينقل عينيه بينهما. فقالت لها نانا: "أسفة".

ثم أمسكت يدي كينجي، وضغطتهما حتى أغلقت علبة الخاتم الزرقاء بينهما، وقالت: "أنا أسفة يا كينجي.. لا أستطيع، اعتقدت لفترة طويلة أن هذا أفضل شيء أريده، لكنني كنت مخطئة. أنا لست المرأة التي تتمناها".

أطال النظر إلى يديها المطبقتين فوق يديه، ثم رفع رأسه وحدَّق إلى وجهها، وقف صامتًا فترة طويلة ولم يعلق بكلمة، ثم أشاح بوجهه عنها فلم أر ما ارتسم عليه من انفعالات، ثم تركها وغادر البيت بأسرع ما أمكنه. ركضت سايا وراءه تناديه: "كينجي.. انتظر.. كينجي...".

وكانما طردهم شبح خفيّ، ترك الجميع كل ما كانوا يفعلون، وتسلسلوا واحدًا خلف الآخر مغادرين المكان. كان أولهم بالطبع زملاء كينجي في فريقه، والذين رمونا بنظرات جفاء واحتقار، وحده هيبكي ساما كان رزينًا في تحية نانا: "سأذهب، ولو أحببتِ المحيي الليلة أنا أرحب بك".

- "شكرًا، هيبكي ساما".

حين عادت سايا كان البيت خاليًا إلا من تسوباسا، ونانا واقفة في منتصف الصالة تحدق إلى علبة الخاتم الملقية تحت قدميها. خطت سايا فوق اللافتات العاطفية التي حملها أفراد Vanity وهي مذهولة، ونظرت إلى نانا وفي عينيها يشتعل غضب أعمى مخيف. كانت ترتعش وهي تصرخ: "ماذا فعلتِ هيروماسا كينجي أيّتها الغبية؟ في أي شيء كنتِ تفكرين؟"

- "إنه لا يستحق العيش مع امرأة لا تريده يا سايا".

"إنه لا يستحق أن يُرفض بهذه القسوة، ليس هنا، ليس اليوم، ليس أمام كل من أحبهم واعتمد عليهم في حياته، الأشخاص الوحيدين الذين يثق فيهم.. كيف أمكنك إذلاله علناً بهذا الشكل؟"

نظرت نانا إلها، صاحت: "هل تعنّفيني لرفض كينجي حقاً؟ أنتِ بالذات دون الجميع؟ بعد الأشهر التي قضيتها وأنتِ تشعّريني أنني ارتكبت جريمة كبرى بارتباطي به! أليس هذا ما أردتِ من البداية يا سايا؟ لم لا تحتفلي بالأمر؟"

صرخت سايا: "أنا لم أرغب في تحطيمه، أردت أن تتشبّثي بحلمك ولا تخدعي نفسك، وألا تقبلي بأي حب وتتخيلي أنك سعيدة، لكنني لم أرد تحطيم كينجي. لقد رأيت ما فعلته به هيتومي، لم أكن لأتمنى له أن يمر بهذا ثانية".

"وأنا لم أرد هذا، لكنك كنتِ محقة طوال الوقت يا سايا، أنا لم أرد كينجي، أردت رجلاً يحبني لكنني لم أرغب في كينجي بالذات، لم أدرك هذا إلا عندما رأيت هيبكي ساما، وكنت أزداد إدراكاً له في كل لحظة أقضها معه، إنه يحيلني شخصاً آخر يا سايا، يجعلني أكتشف قدرات في نفسي لم أكن أتخيل أي أملكها".

صرخت سايا بسخريّة: "إذن فقد كنتِ واقعة في حب كينجي حتى التقيت بحلمك الأول، وهنا تحولت إلى معجبة تافهة تلاحق نجمها المفضل، وترمي كل شيء خلفها إلى التراب. مرحى يا نانا! لقد تفوّقتِ على كل ظنوني السيئة".

صرخت نانا: "اسحبي ما تقولين يا تسوباسا سايا".

وقفتا تحدقان إلى بعضهما بغضبٍ لا محدود، وهما قاب قوسين أو أدنى من الاشتباك الفعلي...

قالت نانا ببرود: "يعجبني أنك أحياناً تفعلين أشياء ما، ثم تلقين بمسؤوليتها على الآخرين. ولكن تذكري جيداً يا سايا أنك من سعى لوضع هيبكي ساما في طريقي، أنتِ الشخص الذي أدخله حياتي، ولم تفعلي هذا إلا لأكتشف أنني لا أحب كينجي حقاً، لأنك أردتِ مني الابتعاد عنه، والبقاء جوارك في تسوباسا حتى الموت. لقد عملتِ على هذا بجِدٍّ، وفزتِ أخيراً بما أردتِ، فلا تلوميني الآن".

لم تزد سايا حرفاً، ظلّت تنظر إلها وفي عينها يختلط الغضب بصدمة وشعور عميق بالخيانة، ثم ركضت مغادرة البيت، بينما صاح داكي: "وقد قبلت المخاطرة بكل هذا لأجلك، كانت تدرك احتمال أن تفقد صديقها المقرب لكنها خاطرت

لأجلك، وكان أقل ما تفعلينه لأجلها أن تحاولي الحفاظ على مشاعره في انفصالك عنه، لا أن تدمري كل شيء بهذه الرعونة لأجل ذلك الطاووس الأحمر هيبكي".

صرخت نانا: "لقد فعلت هذا لأجل نفسي، ليس من أجل أي شخص سواي.. أنا فقط يا دايكي".

- "شكرًا لك إذن، لقد فقدنا أقرب صديق للعائلة من أجلك يا نانا".

- "لقد أخبرته أمس أنني أريد التحدث إليه، لكنه ظلّ يؤجل هذا إلى ما بعد عيد ميلاد سايا. لم أكن لأوافق أمام الناس ثم أرفضه لاحقًا، أنا لا أمنح الأشخاص أملًا زائفًا في أي شيء، ولا أفكر بعقلي في أمور تُحسم بالمشاعر، من يفعلون هذا جبناء".

قلت لها متملّكًا نفسي بالكاد: "أنت سيئة يا تسوباسا نانا.. صديقة سيئة، وحبيبة أسوأ. أتمنى لو تدركي إلى أي مدى أنت رهيبة قبل أن تدمري آخرين".

وخرجت خلف سايا متوقعًا أن تكون بانتظاري في سيارتي، لكني لم أجد لها، وأخبرني رجل الأمن أنها غادرت جريًا، فانطلقت بالسيارة حتى لاحت لي وهي تركض على الطريق السريع. لحقت بها وتجاوزتها، ثم هبطت لأعترض طريقها، ارتمت في حضني تلهث، ثم حاولت دفعي لتواصل الركض، ولمّا منعته صرخت بصوت متقطع: "دعني أركض، لو لم أستهلك هذا الغضب سأقتلها الآن.. سأقتلها وأمزقها حتى...".

حملتها حملًا إلى السيارة لمّا انهارت من الإعياء بين يدي، ودفعت مقعدها للخلف حتى استردت أنفاسها، ونظرت عبر فتحة السقف إلى السماء. كان غروبًا دافئًا عذبًا لعيد ميلادها الثالث والثلاثين، لكن عذوبته تلك لم تكن قادرة على مواساتها بأي شكل من الأشكال.

قالت بتعب: "إنني سيئة.. لا يجب أن تعلق مع شخص مثلي يا تاكومي".

هوّنت عليها: "لقد قالت ما قالته في لحظة غضب".

- "لقد قالت الحقيقة. هل رأيت وجه كينجي وهو يجنّو أمامها؟ إنه يحبها، لقد أحبّها حقًا، وتجاوز هيتومي تمامًا معها، والآن سيظل محطّمًا لفترة طويلة حتى يتمالك نفسه، لكنه لن يعود أبدًا كينجي الذي نعرفه، انكسر فيه شيء لن يصلح أبدًا ما حيا، وأنا فعلت هذا، هذا ما أردته منذ البداية.. أليس كذلك؟"

- "نعم يا سايا.. ليس هذا ما أردته".

- "خذني إلى البيت يا تاكومي، أنا غاضبة ومتعبة ولا أستطيع التفكير".

ظلت صامته بإجهااد تام حتى وضعتها في الفراش، ومضيت إلى المطبخ أطهولها طعامًا خفيفًا، سامحًا لبعض أفكارها بالتححرر، مفكرًا أنني للمرة الأولى أكرس حياتي للعناية بامرأة، حتى وإن كنت لا أستطيع القول إنها تحبني.

عدت إليها حين انتهيت فوجدتها نائمة، بدلتُ ملابسني وتأهبت للنوم جوارها، وحالما فعلت رن الجرس.

قالت سايا: "كينجي".

ظننتها تهذي في نومها، لكنها جلست وقالت لي: "إنه كينجي، ابق هنا يا تاكومي، فسوف يقول كثيرًا من الكلمات المزعجة".

- "أأنت بخير؟"

- "لا، لكنني أستحق ما سيفعله بي".

وخرجت إليه كمن يسير إلى مشنقته، فتحت له الباب فدخل، كان متماسكًا وهادئًا، ووقف أمام المدفأة يتأمل الشقة، وقال: "تبدو حياتك هنا طبيعية قليلًا يا سايا".

جلستُ على الأريكة ونظرت إليه. قال: "كان كل شيء ليكون أفضل لو لم تكوني تتظاهري بتلك التمثيلية مع تاكومي".

- "تمثيلية؟!"

وجمْتُ لما قاله، لكنني فهمت ما عناه.. كان يواجهها بصلاية وهدوء، عازمًا من كل قلبه على تحطيمها..

- "لقد كنتِ صديقتي المفضلة لثمان سنوات تقريبًا، كنا متشابهين، وقادرين على التواصل في أشياء لا يفهمها سوانا. كنتِ الوحيدة التي تفهمني، لهذا أريدك أن تدافعي عن نفسك بعبارة واحدة، وتبرري لي ما دعاك لتفريقي عن نانا. لقد كنتِ معي حين انفصلتُ عني هيتومي، كيف أمكنكِ أن تسببي لي هذا الألم ثانية؟"

دمعت عينا سايا وهمّت بالرد، فلاحقها: "كم سنة ستنقضي قبل أن تفهمي أنها لن تبادلك مشاعرك يا سايا؟ وأنتِ لن تحصلي عليها بالشكل الذي تتخيلينه؟"

- "مشاعري؟!"

لم أتحمل البقاء بالغرفة أكثر، خرجت سريعًا فاستدار لي ورأيت وجهه. لشد ما تفهمه سايا! هذا ليس وجه كينجي الذي أعرفه، وعلى الأرجح سيلزمه هذا الوجه الميت طوال حياته.. لقد دمرته نانا تدميرًا تامًا وكاملًا.

قلت له: "أخرج تلك الفكرة الغبية من رأسك".

ببرود قال: "أهذا ما تحاول إقناع نفسك به كي لا ترى كم أنت مثير للشفقة؟"

حارت سايا بيننا، وأوقفت شجارنا الوشيك بصيحة: "توقف، عن أي شيء تتحدث يا كينجي؟ أي مشاعر نحو نانا التي...".

وقطعت كلامها، تأملت سايا في تلك اللحظة كمن طعن على حين غرة، وشابت ألما سخرية عظيمة، ثم انفجرت في الضحك.

- "حقًا يا كينجي! أنا ونانا؟! حقًا؟! وأنا التي أفتخر بقدرتي على قراءة ما يدور في عقول الآخرين! يا للهول!"

استمرت تضحك وجسدها يهتز، لكن القناع الميت على وجه كينجي لم يتأثر إلا بلمحة استفهام. قلت له: "لقد قلت لك هذا في أوكيناوا، إنها ليست كذلك يا كينجي، ونحن لا نعيش معًا في تمثيلية".

واصلت سايا ضحكها: "أنت أيضًا كنت تعرف! عظيم.. رائع.. باهر".

وضعت يدي على كتفها فدفعتها بعيدًا، ولمّا توقفت عن الضحك بابتسامة كبيرة، رأيت أن الدموع التي تغرق عينيها دموع حزن حقيقية. قررت أن أتوقف، وأن أكتفي بالمشاهدة؛ هذه معركة سايا وكينجي الأخيرة، ولا يجب أن أقحم نفسي فيها.

قالت سايا: "في البداية خشيت أن تستغلها لتتجاوز ما حدث لك مع هيتومي، كان هذا سيحطمها، كما سيحطمها الندم لأنها اتبعتك دون اهتمام بأحلامها".

- "كنتِ ترين أنني سأعيقها عن أحلامها إذن؟"

"نعم، وجودها معك هو آخر شيء تريده نانا التي أعرفها، لا تلك الفتاة الهشة التي استسلمت لرفقتك ولطفك سريعاً. لو استمرت معك سينتهي الأمر بكما بشكلٍ مأساوي، وكنتما ستفترقان حتماً بجراح أسوأ".

"لقد أخبرتكِ أنني أحبها".

"وهي أيضاً أحبتك، لكن ليس بالشكل الذي تستحقه".

جلس على المائدة المنخفضة وسط الصالة، في مواجهتها مباشرة، وأحى رأسه لينظر في عينيها. قال بالهدوء الميئ نفسه: "لم لا تعترفي أنكِ فعلتِ كل هذا من أجل نفسك؟ لأنكِ طموح بطريفة شريرة، ومنحطة لدرجة أنكِ لا تبالين بي، ولا بها، مقابل أن يستمر تسوأسا في الصعود.. قولي هذا يا سايا".

تلك النظرة في عينيها.. كيف لا يمكنك رؤية ما أراه يا كينجي؟

امتلاّت عيناها دموعاً، لكن صوتها بقي ثابتاً: "كنت لأعترف لو كان هذا هدفي الوحيد".

"لقد فضلتها علي".

"إنني أفضّلها على الجميع، طالما كنت كذلك، وسأبقى كذلك أبداً".

"وقد فضلتكِ عليّ أيضاً.. لقد امتلكت الجراءة لتتصل بي منذ ساعة وتقول لي إنها تفضل أن تكون عازفة استثنائية وعظيمة جوارك، على أن تكون أسعد نساء العالم معي. لك أن تفخري بهذا".

أحنت سايا رأسها، وضغطت بيدها اليمنى على قبضتها اليسرى، وفي جسدها رعشة خفيفة. راقبها كينجي بهدوء لا مشاعر فيه، ولا تأثر، ولا حتى حزن.

"لقد كنت أمتلك شكوكاً نحو هيتومي لفترة طويلة، حتى وجدتها مع ذلك الرجل. كان الأمر مؤلماً، لكن جزءاً مني كان يتوقعه، أما اليوم فقد تلقيت خيانة أخرى دون توقع، كنت أمتلك الثقة الكافية لأتقدم لها على الملأ، وكانت تمتلك اللا مبالاة الكافية لترفضني. أريدك أن تتذكري أن هذا بسببك يا سايا، أنتِ فعلتِ بي هذا، وفي كل لحظة أتذكرك فيها سأتمنى لو تحبي شخصاً لدرجة الدمار، وألا ينتبه لمشاعرك أبداً، ولو انتبه لها فسأتمنى أن يدير ظهره لك ويرحل غير مبالي بك".

بقيت سايا صامته، ثم أحنّت رأسها وأخفت وجهها في يديها، وبقي كينجي على بروده ذاته، وكأن رؤيتها تتألم هي المواساة الوحيدة التي سيتلقاها..

- "لقد قضينا كثيرًا من الوقت معًا يا سايا، كعائلة حقيقية، لكنني الآن، وفي هذه اللحظة بالذات، أنا أكرهك بكل خلية في جسمي، ولن أتجاوز كراهيتك هذه أبدًا، وسأتمنى لك ألمًا يجعلك تصلين لأجل الموت".

لم أتحمل تعذيبه لها أكثر، وأقحمت نفسي في معركتهما إذ نهضت وجذبت ساعده، وصحّت: "هلا توقفت، لماذا لا ترى الموقف بوضوح؟".

لم أتوقع أن يضربني، لكنه لكمني فألقى بي بعيدًا ووجهي يصرخ لشدة الضربة. صاحت سايا باسمي مفزوعة، وأمسكت بيده تسحبه بعيدًا عني قبل أن يفتك بي. ألقى كينجي يدها عنه بقسوة دفعها إلى الخلف، وتحطم بروده بتعبير كراهية رهيب. صاح: "لا تلمسيني، إنني أحتقرك لدرجة أنني أريد إشعال النار فيك، أود لو أن لديّ الوقاحة الكافية لضرب امرأة، كنت لأحطمك تحطيمًا يا سايا، كنت سأعذبك حتى تموتي بين يدي آلاف المرات".

صاحت: "أنت تفعل هذا الآن".

بادلها نظرتها المتألمة بأخرى باردة، ثم تجاوزها في طريقه للخروج.. ارتدى حذائه ببطء وقال: "وداعًا يا تسوباسا سايا، كنت أسوأ صديقة حصلت عليها في حياتي، سأعيش نادمًا على كل لحظة عاملتك فيها بلطف".

نفد صبرها فجأة وصرخت: "اخرس، هل تفهم؟ اخرس.. أنت أعمى ولا تفهم شيئًا".

لم يعرها اهتمامًا، فصرخت تناديه: "هيروماسا سينباي".

كان في صوتها غضب كاسح وحزن، ولمّا تجاهلها ركضت خلفه، انقضت عليه وبشكل غير متوقع احتضنته، منعتة من الخروج، وشبكت أصابعها أمام صدره تتشبث به بعنف، ورددت "توقف.. توقف"، حتى استسلم عن محاولة دفعها عنه. ثبت كلاهما في مكانه، وأخفت سايا وجهها في ظهره وسكنت.

ارتعد صوتها وجعًا: "هذا ليس عدلًا، امنحني الفرصة لأخبرك بالقصة كاملة. لو أنك بقيت.. لو أنك منحتني الفرصة.. سأخبرك بكل شيء. لقد كنا صديقين لثماني سنوات يا هيروماسا سينباي".

- "لا أريد".

- "استمع...".

- "لا أريد، مهما كان ما ستقولينه فهو لا يعني، لا أريد أن أغفر لك، لا أريد أن أفهمك، لا أريد إلا أن أحتفظ بكراهيقي نحوك. لا تقولي شيئاً".

حررته سايا من ذراعها، فارتمتا جوارها تهتزان على غير هدى، كمؤشر بوصلة ضل طريقه أبداً نحو الشمال. ارتفع بينهما صمت ضغط ثقله على صدري.

قال كينجي: "اهني بتسوبا سا ما دمت قادرة على هذا، فأنا سأحطمكم قريباً".

- "سينباي...".

استولت الرعدة على صوتها في ندائها الأخير، وبعدما غادر كينجي ظلت صامتة طويلاً. ثم دفعت الباب فأغلقتة، ورجعت بظهرها خطوة ثم جلست أرضاً، ضمت ذراعها حول صدرها تضغطه بقوة، ثم ضمت ساقها نحوها وأسندت رأسها إلى ركبتيها. تكورت سايا كمن فقد طريقه بلا أمل، واهتز جسدها كبندول ساعة، ثم تنفست بأهاتٍ خافتة، متتابعة، متقطعة.

ولما نهضت ووضعت يدي على ظهرها تمتمت: "لقد ذهب.. لقد ذهب".

قبل أشهر، قلت لسايا إن البشر يخفون في أعماقهم هشاشة توازي ما يتظاهرون به من قوة، وكنت أشير بهذا إلى نفسي متخيلاً أنني الأكثر قابلية للتحطم في العالم.. لكنني الآن إذ أرى ما فعله كينجي بها، أدركت أن ما كنت أشكوه كان لا شيء.

كانت تتوقع خسارته كصديق إذا ما فشل ارتباطه بنانا، ولكن عندما رحل بالفعل وهي موقنة بهذه الخسارة، كانت يائسة إلى حد أنها أوشكت أن تشرح له كل شيء، لكنه رفض. خرج كينجي من بيتنا وسايا تناديه "هيروماسا سينبائي"، وصرح نداؤها اليائس بحبٍ أعظم بأساً، لم يفارقي نداؤها هذا لحظة، كان أكثر الأشياء التي سمعتها في حياتي إيلاًماً، شيء فيه انتزع مني جزءاً، كما فعل انتحار ناومي ومصراع هيساو.

لم يلهمها البقاء معي عنه، لم يتوقف حبها له حتى وهي موقنة أنه أحب نانا حقاً.. كنت يائساً إلى أبعد حدود اليأس، لكنني لم أهرب، أصررت على البقاء معها، متمنياً لو يخفف وجودي شيئاً يسيراً مما تشعر به.

ظلت سايا جالسة أمام الباب ترتعش في تلك الليلة، وتتأوه بألم شديد، والإعياء يحيل وجهها إلى ورقة بيضاء، واضطربت أنفاسها حتى خلتها تختنق. حاولت إنهاضها من مكانها، أو التخفيف عنها بأي كلمة دون فائدة، ظلت تضغط قلبها بيديها، وتنكمش حول نفسها أكثر، ورددت بصوت هامس متعبد: "هذا مؤلم، مؤلم، لا أستطيع أن أتحمل أكثر".

احتضنتها، كانت تلك المواساة الوحيدة التي أملك، ولما بدأت حالتها تسوء أمسكت ذراعها، هزتها لتنظر في عيني. قلت: "ركزي معي يا سايا، وحاولي أن

تتنفسي معي بانتظام، واحد.. اثنان.. ثلاثة. مرة أخرى، واحد.. اثنان.. ثلاثة. تنفسي معي."

أطاعني بصعوبة، حتى إذا انتظمت أنفاسها خفَّ اتساع عينيها، وهالكت في حضني من جديد. همست: "ما كان يجب أن أقطع لها هذا الوعد. إنه صديقي المقرب، وقد دمرته اليوم".

- "لوعلم الحقيقة سيتفهم".

- "لقد ذهب، لقد خرج وتركني ولن يعود".

شعرت أن وجودي لن يصنع فرقاً أبداً؛ كانت سايا تجتاز نقطة اللا عودة، وتسير نحو نهاية مؤلمة شعرت بها دون أن أراها.

في الصباح التالي اعتذرتُ عن جميع مواعيد عملنا في ليومين، وأبلغتُ دايكي أن يستلم قيادة الفريق مؤقتاً حتى تسترد سايا توازنها، عندها أبلغني أن نانا تركت البيت، قائلة إنها بحاجة لبعض الوقت لاستكشاف قدراتها الاستثنائية في العزف، والتي لم يدر بوجودها أحد قبل هيبكي ساما. على الأرجح كانت تهرب من جو الاستياء والغضب الموجه إليها من تشو ودايكي، تشو بالذات كانت تعتر بكينجي إلى أبعد الحدود، وكانت خسارته بالنسبة إليها لا تعوض.

لم أخبر سايا برحيل نانا، وبدورها لم تسأل عنها، كانت نائمة أغلب الوقت كأنما تلوذ بالنوم مما تشعر به، أعتقد أنها نامت أكثر من أربعين ساعة في هذين اليومين.. هروب مختلف يتوارى في عباءة الإرهاق. أمضيت الوقت أتأملها في نومها، أستمع لهذين متألماً لا أفهمه، وأراها تتكور حول نفسها وتضغط صدرها وجعاً، وأمسح دموعاً لوئت أهدابها القصيرة الكثيفة الجميلة.. شعرت وقتها بشدة افتقادي لسايا القديمة، القوة المتعجرفة التي لا يهزمها شيء، ولا يبكيها شيء، ولا يشكل أي مخلوق فرقاً في حياتها.

ومع صباح اليوم الثالث استيقظت سايا أخيراً، كانت أفضل، ونشطة وممتلئة بالحيوية، وكأنما كبحت مشاعرها في مكانٍ ما بشكلٍ سحري، جعلني هذا أعظم قلقاً عليها، وترقبت شيئاً مخيفاً سيحدث في أي لحظة، ما دعاها لتوبيخي ونحن نعد الطعام معاً. قالت: "لا تنظر إليّ هكذا.. أنا بخير".

دمدمت قلقاً: "أتساءل عن السبب".

"أنا لا أتمسك بمن يتخلون عني، فليرحل كما يريد، لقد كنت على وشك إخباره بكل شيء لكنه اختار كراهيتي عوضاً عن محاولة إنقاذ صداقتنا. هذا شأنه إذن. بعد سنوات سيشاركني لإنقاذه من علاقة مع فتاة تشعر أنها عالقة معه، وتعيسة لمجرد وجودها جواره.. بعد سنوات سيفهم".

"في الصين قلبت لي إنك لا تتمسكين بمن يتخلون عنك، لكنني فعلت، وها نحن نعيش معاً".

"لا تقارن نفسك بأحد، أنت ملكي".

أعجبتني العبارة، أحببت التفكير فيها كاعترافٍ بالحب. اقتربت واحتضنتها، وقبلت مؤخرة عنقها، فمالت بحركة مضحكة وقد دغدغتها أنفاسي. تدمرت مشاكيتي: "أنت حقاً لا تجعل الأمر سهلاً، لا أستطيع مقاومتك وأنت تفعل هذا".

"لا تقاومي إذن.. ولماذا تقاومين؟"

سخرت مني: "لا يا سايا، أنت سكرانة.. لا يا سايا، لقد غادرت المستشفى مؤخراً.. لا يا سايا، جرحك لم يلتئم جيداً بعد.. لا يا سايا، يجب أن تنتظري عشر سنوات بعد التئام الجرح.. لا يا سايا، أنت...".

"هذا أقسى شيء قالته لي امرأة على الإطلاق! إنني أفعل هذا لأجلك".

"تعذبي لأجلي؟! ماذا لو قررت معاقبتي إذن؟!"

تلمست شعرها الناعم، وشعرت بمذاق بشرتها الناعمة تحت شفتي كاشهي ما يكون.. أردتها كأعظم ما تكون الرغبة، أردت إغراق نفسي فيها حتى أضل الطريق إليّ، وفي الوقت نفسه همس لي جزء مني أن ما أفعله خطأ عظيم.. تكرر غيّي لخطأ أغنى كاد يجعلني أخسرها إلى الأبد. لا أريد أن أرى شبح كيني في عينيها مرة أخرى وهي في حضني، وأنا أعرف أنه مائل في تفكيرها الآن مهما تظاهرت أنها بخير.

تهددت بألم: "أنا الوحيد المُعَذَّب هنا".

وللحظة أسندت خدي إلى كتفها، حاولت استجماع نفسي، لكن رغبتي سحقت قوتي وإرادتي سحقاً، وواصلت تقبيل عنقها وكتفها، نزولاً حتى منتصف ظهرها، فأنت شاكية: "اللعة! هذا تعذيب يستوجب العقاب".

وألقت ما بيدها واستدارت إليّ، شدتني لتعانقني وغرقنا في قبلاتنا الشبهية، وأشعلت آخر ما تبقى من تعقلي لما عرّت صدري ولامسته بأصابعها الباردة. همست: "إياك أن ترفضني ثانية".

- "إياك أن تسقطي على المسرح ثانية".

واستسلمت عن مقاومتها أكثر، وحملتني إلى أريكتنا وقهقهتها الفاتنة تحيطني..

كان ضوء النهار يغمر كل شيء، وبدأ الأمر وكأننا نبدأ معًا من جديد من نقطة الصفر، بعيدًا عن فقاعة الأحلام، بعيدًا عن ليلة الكريسماس البائسة.. هذه المرة أنا وسايا معًا وحدنا، في عالم قصي بعيد عن كل ما نعرفه، وعن كل ما يباعد بيننا. في ذلك الصباح كانت سايا معي حقًا، خالصة تمامًا لي، لم يكن في ذهنها أحدٌ سواي.. رأيت هذا بوضوح في عينيها العاشقتين، تذوقته في قبلاتها، تسرب إليّ من كل لمسة منها، من كل عناق.

كنت أراقبها والضوء القادم من خلفنا يصنع انكسارات بديعة زادت ملامحها جمالاً على جمال، وهمست لها: "أنتِ تنامين قبلي".

انتهيت لي بعينين ناعستين: "ماذا؟"

- "أنتِ تنامين دومًا قبلي، لم ألتق قط بامرأة تفعل هذا. هذا شيء لا يعرفه عنكٍ غيري".

هممت، وأخذت يدي بين كفها، قبّلت أناملي واحدة تلو الأخرى. ثم ارتخت أصابعها وقد سقطت في النوم. استسلمت للنوم بدوري جوارها. أتمنى لو أن ذلك النهار استمر لفترة أطول قليلاً.. قليلاً فقط.. كان هذا آخر نهار جميل جمعتني بسايا في عالمنا القديم الحميم المستقر.

وفي الثامنة مساءً، بعد يومين بالضبط من مغادرة كينجي منزلنا، انقلب العالم على تسوياسا..

اتصل بي داكي يخبرني أن أتابع القناة الفنية، فجريت إلى الصالة أفتح التلفزيون، وأقلب مليون قناة حتى أبلغ القناة المنشودة. كان ثمة فاصل إعلاني يعرض لقطات من أغنية (همس النجمات)، ولقطات أخرى من (الأم الأخير) في جولتنا السابقة. ومع خلفية من صوت تشو السلس، تتابعت صور أفراد

تسوباسا، ثم انقسمت الشاشة إلى ثلاث صور، نانا إلى اليمين، وسايا إلى اليسار، ثم برزت صورة هيروماسا كينجي في المنتصف.

جاءت سايا وجلست جوارى، وتوجس كلانا قلقًا غير فاهمين سبب ظهوره معنا، حتى ظهرت مذبة حمقاء لها سمت المعجيات البلهاءات المستثارات دومًا لأي شيء يخصنا، وتحدثت بحماس: "والآن أيها السادة، نواصل هذا التحقيق عن حقيقة العلاقة التي تربط عضوتي فريق تسوباسا ببعضهما. نانا وسايا.. لقد تناثرت كثير من الشائعات من قبل عن علاقة حب بينهما، إلا أنهما نفتا الأمر باستمرار مؤكدتين أنهما صديقتي صبا، لكننا الآن نعرض دليلًا قد يقول شيئًا آخر".

وعلى الشاشة برزت صورة أخرى لسايا وهي تقبل نانا على شفقتها، صورة التقطتها تشو لهما في الكرنسماس قبل الماضي على سبيل الدعابة، وعلقوها على تابلوه كبير ممتلئ بصورهم في منتصف صالة منزلهم.. لا مكان لهذه الصورة على شاشات التلفزيون.. كيف إذن؟

صاحت سايا: "أي هراء هذا! نحن نجوم فيجوال كيه! نجوم الفيجوال كيه يفعلون ما هو أفضع على المسرح!"

عادت المذبة إلى الشاشة تقول وكأنها تجيبها: "منذ انتشرت الصورة على الإنترنت صباح اليوم، والبعض يقول إن هذا عادي بالنسبة إلى نجوم الفيجوال كيه، ولكن لدينا مصدر يؤكد وجود علاقة حب بين سايا ونانا، وهذه العلاقة تسببت في أن ترفض نانا عرض زواج من هيروماسا كينجي، نجم فريق Vanity وقائده، رغم أنها واعدته لعدة أشهر".

واختفت المذبة الحمقاء مفسحة المجال لضيف شؤشت القناة صورته، وبذلت نبرات صوته وهو يقول: "لقد حضرنا عيد ميلاد سايا قبل أيام، وتقدم هيروماسا لنانا في تلك الليلة، ولكن قبل أن تجيبه صرخت بها سايا "لا تفعل"، وهكذا رفضته نانا بطريقة باردة دون تردد.. إنهما حبيبتان ولا شك في هذا".

عادت المذبة إلى الشاشة تقول: "هذه الأنباء تعني أن تسوباسا أصبحوا في مشكلة أكبر من التي وقعوا فيها في كوريا، بعد اتهام تاكومي باغتصاب فتاة مراهقة. ومشكلة أكبر من تعاطي سايا للمخدرات بكمية كبيرة في الصين. إن سايا ونانا في علاقة حب طويلة الأمد، ويبدو أنهما عازمتان على استكمالها إلى النهاية،

غير مبالين بمشاعر أحد. لقد أثار هذا غضب معجبات فريق Vanity بشكلٍ عام، ومعجبات قائد الفريق هيروماسا كينجي، بشكلٍ خاص".

نقلت الشاشة مظاهرة لا يستهان بها، قوامها الفتيات المراهقات، أمام شركة كينجي، ومن يرفعن لافتات كبيرة تحمل صورة سايا ونانا وقد تم تشويههما، مع الكثير من عبارات الكراهية، و"أذهبا إلى الجحيم بعيدًا عن كينجي"، و"كيف أمكنكما أن تجرحاه هكذا؟"، ثم صنعن دمى كبيرة لنانا ومزقتها شرممق، وجاء الدور على سايا بدمية أخرى.. توقف جريان الدم في عروقي إذ رأيت هذا.

عادت المذبة الغبية المتحمسة إلى الشاشة مجددًا: "لقد سألت مراسلنا أفراد فريق Vanity عن رأيهم في هذا فامتنعوا عن التعليق، لكن كينجي سان كان له تعليق واحد".

نقلت الشاشة وجه كينجي البارد يقول: "هذا غباء، إن تسوباسا أصدقائي".

وتجاوز جموع المعجبات الصارخات، والمصورين المستميتين، ليغيب داخل شركته وحراسه يحيطون به، عندها عاد الفاصل الإعلان الأول ليعرض مقاطع أغانيها، ثم صورنا.

زمجرت سايا وهي تهب كالإعصار: "اعتقدت لزمي طويل أني لا أبالي بتلك الشائعات، ولكن طفع الكيل، أنا لست سحاقيّة، ولا أقبل أن أتهم بهذا".

كانت تشتعل غضبًا وهي تغادر البيت متجهة إلى كينجي، قادت سيارتها بسرعة تتفوق على سرعتي المتهورة، وسرعة تشو التي يضرب بها الأمثال في الجنون. جلست جوارها أضغط رأسي في ظهر المقعد محاولًا التنفس، وأنا أرى بوابات الأبدية تفتح أمامنا وترحب بنا في السماء.

لكننا وصلنا أحياء لحسن الحظ، وهبطت سايا أمام باب الفيلا فاستقبلها الحارس: "أسف يا سايا سان، لديّ أوامر بمنعك من الدخول".

تجاوزته وضربت أرقام القفل السريّة فانفتحت البوابة، ولمّا حاول منعها ثانية دفعته عنها، وعبرت حديقة كينجي لتضرب بابه بيديها وقدميها معًا.

- "أهذه أفضل وسيلة لتدمير تسوباسا يمكنك التفكير فيها يا هيروماسا كينجي؟ ليس بصنع موسيقى تتفوق علينا، ليس بالتغلب عليّ في تصوير المسلسل،

بل بالشائعات، كالفاشلين الذين يعرقلون سواهم ليشعروا ببعض التفوق. هل أخبرتك من قبل أنك غبي كالصرصور؟"

وطرقت الباب بمجمع قبضتها وركلته مرتين، بقيت تصرخ عدة دقائق، ثم توقفت تلتقط أنفاسها. خلتها تعبت وسترجل، لكنها صرخت: "أنت رجل سيئ، لو كنت قد اخترت هذه الوسيلة لتدميري فأنا لست نادمة على ما فعلت يا كينجي، لست نادمة على شيء لأنك رجل سيئ، لن أندم على إنقاذ صديقي من رجل كهذا. لو أنك فعلت هذا فاعلم أنك مثير للشفقة ولا تستحق أن تكون منافسي.. أنت حقير".

جاء رد كينجي بتشغيل أغنية فريقه الأخيرة بصوت عالٍ جدًا، أينما كان داخل البيت فلن يسمع شيئاً الآن. وقفت أراقب سايا وهي تهال ضرباً وركلاً على الباب دون أن أسمع صوتها، بدت مجنونة لدرجة أنني لم أدر ماذا أفعل. انتظرت حتى نضبت قوتها وتهالكت تستند إلى الباب.

حين عادت كنت جالساً في مقعد القيادة، أمرتني بالابتعاد لكني رفضت: "آسف، لن أموت في ريعان شبابي بسبب رومانسيات هيروماسا كينجي وحماقات تسوباسا نانا".

استسلمت لإصراري، وانطلقتُ بالسيارة على غير هدى، ثم وجدنا أنفسنا في ساحة بيت تسوباسا. كانت نانا هناك، وكذلك تشو ودايكي، وكانت آخر الأنباء السعيدة أن الصورة التي نُشرت في وسائل الإعلام غير موجودة في موضعها على تابلوه صورهم العائلية بالصالة.

قالت تشو واجمة: "لقد أدخلنا بيتنا شخصاً سرقنا، وشهرّ بنا في نوادي معجبينا، وعلى الإنترنت، عالمًا أن التلفزيون سينضم إلى الممعة. من يكرهنا إلى هذا الحد؟"

قلت بتلقائية: "شخص يحب كينجي لدرجة إيذاء من يؤذيه".

نظرت لي نانا غير مرحة بوجودي، ثم قررت أن تتجاهلني. قالت بنفاد صبر: "إنه ليس كينجي على أي حال".

سخرت منها تشو: "يسعدني أنك تدافعين عنه".

نظرت لها بالطريقة غير المرحبة نفسها، وأخذت سايا صَفَّها وقالت: "إنه ليس كينجي، كينجي لن يعلن عن الإذلال الذي تعرض له هنا علناً".

نظرت لها مغتاظاً.. فيم إذن كانت قيادتك الحمقاء، وركلك لباب بيته، وصراخك فيه؟! بأي منطق تفكر النساء!!

تساءل دايمي: "ماذا سنفعل الآن؟"

سألته سايا: "هل اتصل تاكويا سان ليقول أي شيء؟"

- "قال لي ألا نخرج بأي تصريح حتى يبحثوا الأمر".

بعد ساعات من التوتر اتصل بنا مسؤولو الشركة، وكان قرارهم في النهاية أن تُغَرَّد تشو على موقع تويتر تغريدة ساخرة: "سايا ونانا سحاقيتان! كان يجب أن تخبراني مبكراً!".

بينما غرَّد دايمي على صفحته الشخصية: "سحاقيتان! جميل جداً أن أكتشف معلومة كهذه عن فتاتين عشت معهما عشر سنوات".

والترّم باقي أفراد تسوباسا الصمت التام، وبدوري لم أكن أستسيغ تلك الطريقة السخيفة لحل الأمور، كانت فكرة أنهما حبيبتان مضحكة لدرجة تشعرنني بالحماقة لو اضطررت لنفيها.

لكن الجدل تصاعد، وبعد يوم من انطلاق الشائعة، اضطرت الشركة للرد: بأن عقدنا معها يلزمننا بعدم القيام بأي علاقات عاطفية جدية، ولعل هذا سبب رفض نانا لكينجي، إذا ما صحّت أنباء مواعده له، وعرضه الزواج عليها.

وكأنما كان ينتظر هذا التصريح، ضرب الشخص المجهول ضربته الأخيرة، وعلى جميع صفحات نوادي المعجبين نُشرت صورة كينجي وهو يتقدم لنانا، وصور العقود المبدئية المعروضة على تسوباسا من شركات أخرى.

كانت ضربة قاتلة، وبداية نهاية تسوباسا كما نعرفه، وأفطع ما في الأمر أننا لم نعرف قط من يكرهنا إلى هذا الحد؟

كان الأسبوع الأخير من فبراير هو الأسوأ في حياة تسوباسا..

بخلاف ثثرة البرامج الفنية الباحثة عن فضيحة، ولعنات وسباب المعجبين على صفحات الإنترنت، كانت عواقب تسرب العقود الجديدة أفدح مما خطر لنا يوماً، ورغم أننا لم نكن قد وقّعنا تلك العقود بعد، بل لم نبتّ فيها سواء بالقبول أو الرفض، إلا أن الشركة اتخذت ضدنا إجراءات عقابية فورية، فأوقفت جميع بروفاتنا، ومنعت اجتماعاتنا في الإستديوهات المخصصة لنا، وألغت تصوير (وجدتك) مع هيبكي ساما، وأخطرت شركة كيم جونغ جين في كوريا بتأجيل أغنيتنا المشتركة المزمع إطلاقها في العشرين من أبريل المقبل، لتكون آخر أغانيها معها.

وبطبيعة الحال، تم منعنا من الظهور إعلامياً، وأوقفت الشركة تحكمنا في مواقعنا الإلكترونية، وصفحاتنا الرسمية على مواقع التواصل الاجتماعي. وقعنا في حصارٍ محكم القسوة منعنا التواصل مع أي جهة يمكنها توصيل صوتنا للعالم. وكإجراء عقابيٍّ آخر، لم تعلق الشركة مرة أخرى على شائعة سايا ونانا، ما جعل الأمر يبدو وكأنه حقيقة لا سبيل لدحضها.

كان دايجي أكبر المتعرضين للخطر في تلك المحنة؛ فهو همزة الوصل التي تربط تسوباسا بشركات الموسيقى الأخرى، والمحامي القادر على إدارة كل تلك الأعمال الورقية، والشخص الذي سعى منذ البداية للحصول على عقود أفضل للفريق مع شركة مختلفة. أخذ تاكويما سان جانب الشركة التي يعمل لصالحها، رغم كونه مدير أعمالنا في المقام الأول، وولّاه أمر ملزم، وهكذا أخبرنا أن التنكيل سيكون

من نصيب داكي قبل سواه، ولكننا حتمًا - جميعًا - سنتلقى عقابًا يجعلنا عبرة للآخرين.

بدأت سايا تذبل، دمرها الشعور بالذنب نحو داكي، وكان شعورها الفطري بالمسؤولية عمّن حولها تعذيبًا إضافيًا يضاف لما يشغل ذهنها؛ إنها الآن مغلوطة اليدين، غير قادرة على توصيل صوتها للعالم، وقد حوصرت في مربع ضيق مرغمة فيه على تلقي العقاب على ذنب لم ترتكبه.

لم أسمع شيئًا عن نانا، وتساءلت عمّا إذا كانت تشعر بهول ما فعلت، وجرّ علينا كل ما نحن فيه من بلاء.

الشيء الوحيد الذي كانت سايا حرة فيه هو تصوير مسلسلهما، لكنه لم يسلم من التأثير بما يحدث في الخارج، فعرض المخرج عليها وكينجي أن يؤجلا جميع مشاهدتهما إلى النهاية، وهو ما قبله كينجي فورًا ليتجنب التعامل معها لأطول فترة ممكنة، فآثار مزيدًا من الشائعات. كانت أوقاتًا بانسة لسايا، ورغم ما قالته لي عن كينجي، وكل الهراء من نوعية "فليذهب إلى الجحيم"، كان تعاملها معه تعذيبًا، عرفت هذا دون أن نتحدث عن الأمر.

كانت تعود من التصوير بعد منتصف الليل بساعات، واعتدت انجلاء النوم عن عقلي بنعومة مع شعوري وصولها، وكانت أذناي تصغيان تلقائيًا لخطواتها الخفيفة فجّرًا بعد فجر، بعدها أشعر بجسدها يندس جوارى، ثم تنسل يدها لتتخلل شعري، تمشط خصلاته بأصابعها وتفرد لها بلطف على الوسادة، مرة، مرتين، عشر مرات، ثم تنقلب على جانبها الآخر وتسكن. لكنها لا تنام، يغلبني النوم ثم أغالبه، لكن الأرق ما ينفك يلزمها، أعرف هذا من أنفاسها الحادة إذ تنفث عن غليان صدرها وفوران أفكارها في زفرات عميقة. فأتقلب نحوها، أحيانًا لأحتضنها مواصلًا تظاهري بالنوم، وأحيانًا أخرى أقرر قطع نهر أفكارها بحديث خافت.

سألتها ذات ليلة: "هل من جديد مع كينجي؟"

- "لا يزال يتجاهلني. وأظن أن فريق العمل صار واثقًا من صحة الشائعات".

- "ما من عاقل سيصدق هذا".

- "إحدى العاملات تصدق. كانت ترتدي فستانًا لطيفًا أثبتت عليه، فنظرت لي كمن تتعرض للتحرش، وبدأت تتجنّبي".

- "الحمقى لا يعول عليهم. هل أخبرك ماذا وجدت على الإنترنت اليوم؟"

- "ماذا؟"

- "خطر لي البحث باسمي واسمك، فوجدت نواذٍ للمعجبين مخصصة لنا فقط. كثيرون يتوقعون أن نكون ثنائياً رومانسياً، وأكثر منهم يتمنون لو أصبحنا كذلك. لقد صنعوا كثيرًا من الصور والفيديوهات التي تجمعنا، على خلفية من أغنيات الحب. يسمون أنفسهم نادي (تاكوسايا)".

شعرت بقليلٍ من الراحة لما ابتسمت.. استندت إلى وسادة مرتفعة، واحتضنتها، قبلت خدها وأسندت رأسي إلى شعرها..

- "قولي لي يا سايا، بماذا تشعرين وأنتِ تقودين فريقًا موسيقيًا هو الأفضل في اليابان؟"

صمتت فترة طويلة، ثم أجابتي: "بالحسرة".

لففت ذراعي حول بطنها، وعانقت أصابعها، وهي مستلقية أمامي توليني ظهرها..

- "كانت لدي طموحات كثيرة في مراهقتي، ليست الموسيقى من بينها، وكذلك دايمي، أما تشوفكانت تائهة، أحبت الغناء لكنها لم تفكر في استخدام صوتها إلا في تسلية نفسها خلال الاستحمام. وحدها نانا أرادت تكوين فريق موسيقيّ، وحين فكرت في الانتحار قررنا جميعًا أن نتمسك بشيء مشترك يبقينا معًا إلى الأبد، وقد أصبحنا تسوباسا، وظننت أننا سنبقى كذلك حتى نموت".

لم تستجب أصابعها الباردة لعناق أصابعي..

- "وكما بدأ الفريق بسببها، يبدو أن تسوباسا سيتحطم بسببها، إن لم تكن قد تحطمتنا فعلاً. للمرة الأولى في حياتي أشعر أنني أكره نانا، إنني غاضبة عليها لدرجة أنني أريد إشعال النار فيها".

- "هذه لن تكون نهاية تسوباسا، موقفنا القانوني سليم يا سايا، و...".

- "أعرف أبعاد الموقف القانوني أكثر منك يا تاكومي، وئو أننا قاضينا الشركة أعلم أننا سنزيج دون جهد، والشائعات تبقى مجرد شائعات. لا شيء فعليّ يهددنا، لكنني أشعر بالاستنزاف، ولا أريد خوض أي معركة دفاعية لأي سبب. أشعر

بإجهادٍ شديد، وأن شيئاً تحطم في عندما قالت لي نانا إنني السبب في كل ما حدث. لقد جعلتني أكره نفسي، وأكره أنني قطعت لها هذا الوعد الأحمق. فيم كنت أفكر بحق الجحيم عندما وعدتها بأني سأساندها حتى تبلغ حلمها، حتى لو عني هذا تدميري أو تدميرها؟ ما المعنى من بلوغ أي حلم إذا كانت النهاية هي ما أشعر به الآن؟"

وضعت يدي على شعرها، وددتُ لو أنها تبكي بدلاً من هذا الخواء في صوتها..

"الآن فقط أفكر أنه كان حريراً بي التفكير في أحلامي الخاصة، لا خلق حلم أحمق لأضمن بقاءهم معي. أشعر بالغباء كلما فكرت أنني كنت مستميتة لتحويل تسوباسا إلى حقيقة كي لا يتركوني، وكى لا أكون وحيدة، وفي النهاية انتهى بي الأمر وحدي رغم كل شيء. هذا مثير للشفقة، وكأنني أكتشف فتاة أخرى تسكنني، بانسة وغيبية وعديمة المعنى. هذه الفتاة التي أشعر بوجودها داخلي ليست أنا، ليست الشخص الذي ظننتُ أنني عليه."

احتضنتها بقوة، وأسندت خدي فوق رأسها...

"قولي لي ماذا كانت أحلامك الخاصة؟"

"أن أصبح محامية".

"حسناً، دعينا نتخيل سيناريو مختلفاً لحياتك. لقد درست القانون بجدٍ، ونجحت وأصبحت محامية عظيمة، أياً كان المكان الذي ولدت فيه، بعد هذا أردت مواصلة دراستك بالخارج فخضت امتحاناً صعباً، لكنك فشلت فيه، وهكذا توجهت إلى بار وظللت تشرب حتى فقدت رشذك، وطاردت عازف الجيتار لتأخذي منه آتته، وبدأت تعزفين عليها، ورغم جهلك بها عزفت عدة ألحان بشكلٍ صحيح، فقرر أن يتبنى موهبتك ويعلمك العزف، وأنت قررت الاطلاع على جميع أنواع الموسيقى، ثم اخترت الفيجوال كيه، وجئت اليابان، وأصبحت سايا. هذا هو السيناريو الأول".

اهتز صدرها بضحكة، وتكوّر خدها بابتسامة كبيرة..

"أما السيناريو الثاني فهو أنك أصبحت محامية عظيمة، لكنك مللت الشجارات في المحاكم، وماسي المسجونين، فأخذت إجازة طويلة وجئت اليابان، ودعالك أحدهم إلى بارٍ شهير، وهناك قابلت عازفاً بارعاً يقدم فقرة طويلة، ولسبب

ما تعلقت أعينكما ببعض، وفي نهاية السهرة قدّم نفسه لك، وبدأت مواعيدته، وأحببته، وقررت البقاء معه، وبسببه تعلمت الجيتار حتى تفوقت عليه، وهكذا كونتما فريقًا أصبح الأشهر في البلاد.. (تاكوسايا) الذي لا يقهر".

انقلبت على ظهرها لتواجهني، وامتألت عيناها عاطفة وهي تحدّق إلى عيني..

"مهما تعددت السيناريوهات، ومهما كانت الأسباب، كان من المقدر لك أن تأتي إلى اليابان وتصبحي سايا التي أعرفها. أنت أفضل عازفة عملت معها، الموسيقى والكلمات التي تكتبينها لا نظير لها، لقد خلقت لأجلها، وأنت موهوبة دون دخل لنانا أو أحلامها في هذا. حتى لو لم تكن نانا موجودة، كان سينتهي بك الأمر هنا، معي، ولا معنى لأي شيء آخر يلبيك عن هذه الحقيقة".

خفتت ابتسامتها، وتبددت بعض العاطفة في عينيها، راهنت نفسي أنها تفكر الآن في "كان من المقدر في جميع الأحوال أن أقابله"، ولم تكن تفكر في بحال. حاولت التحكم في ألمي.

"هل تفكرين في كينجي؟"

"لا".

"تحدثي معي بصدق يا سايا، إجابتك لن تؤثر عليّ، أنا باقي معك".

"لا يا تاكومي، أنا لا أفكر فيه، فقط أراه، كلما أغمضت عيني رأيت نظرتة الأخيرة قبل أن يخرج ويتركني. ما كان ينبغي أن تنتهي بهذا الشكل".

"لم لا تخبريه إذن؟ أخبره أنك تحبينه".

نظرت لي بلوم..

"لن أخبره بشيء، لأنني لا أحبه، ولا أظني أحببته حقًا وإلا لأخبرته منذ زمني بعيد. أنا لم أفهم شعوري قط نحو كينجي، صحيح أن عالمي كان يتوقف في وجوده، وأن معانقته كانت مختلفة، والحديث معه كان مختلفًا، وكل شيء يخصه يجعل قلبي يخفق، لكنني لم أحبه. إنه نوع من الانتماء، وكأنه ألقى عليّ سحرًا، إنني مصابة به كالسرطان".

خفق قلبي خفقة ألم..

"لماذا لم تمنحني تلك الهدية حتى الآن؟ الهارمونيكا والدفتر التوأم".

"لأن الغرض من منحه إياها انتفى بمجرد إعلانته عن مشاعره لنا، لم تعد تلك الهدية حقًا له إلى الأبد".

"أي غرض؟"

"كنت بصدد إخباره أنني أحبه".

لم أعلق، وصمتت سايا فترة، ثم ابتسمت: "يبدو كلامي متناقضًا، لكنني صادقة في كل حرف. يقولون إن النساء مجنونات، أليس كذلك؟ ها أنت ترى بعينيك".

استمررت في صمتي دون تعليق، لم أخبرها أنها مصابة به حقًا، لكنها أيضًا تحبه.. ماذا عساي أفعل لو أنها انتهت لهذا؟ لو اعترفت لنفسها أنها تحبه حقًا، ولا يمكنها البقاء هكذا إلى الأبد؟ ماذا لو تخلت عني؟

يفترض أن أتقبل هذا، أتقبل ما يجعلها سعيدة، لكن كل ما أشعر به هو الخوف والألم. لا أود أن تهجرني أبدًا لأجل كينجي، أود إبقاءها في حضني هكذا ما حييت، أأسرها بعيدًا عن الجميع. من قال إن التضحية جوهر الحب؟ إن الأنانية هي جوهره الحقيقي.. سايا ملكي أنا، لا يجب أن تكون مع رجل آخر.

كيف أمكنها أن تقاوم هذا الشعور وهو مع نانا؟ لأنها صديقة عمرها؟ حتى لو كان كينجي صديق عمري ما كنت لأقدم له تضحية كذلك. لعلها لم تحبه حقًا.. أمل أنها لم تحبه حقًا.. أمل ألا تحبه أبدًا للدرجة التي تدفعها لتخطي أي شيء، لتبقيه في حضنها كما أود أن أفعل معها.

انتهيت لشدة حضني حولها لما همست لي: "تاكومي، أنا معك، لا تسرف في التفكير في كينجي. أنا أختارك أنت، أريد البقاء معك أنت. هلا وثقت في؟"

كنت غائصًا في شعرها الغزير، أخشى أن أبعد فتقلت مني، أو أبعد لتقرأ أفكاري. ليتك لا تدرين أبدًا بمخاوفي يا سايا، وفي المقابل أود لو أعرف مخاوفك لأحميك منها، لعل تلك الحماية تقنعك أنني ملاذك الأمين، حيث يمكنك الاستراحة من ذلك الاستنزاف الذي يهلكك.

ظل وسواس كينجي يلتهمني أيامًا، وألهاني عن اجتماعاتي مع تسوباسا للتفكير في خطوتنا القادمة ضد الشركة. كان خوفهم الأعظم أن يخسروا بفسخ العقد اسمهم، وكان خوفي الأعظم في بقاء سايا مع كينجي في التصوير ليلاً ونهارًا. لا

يتحدثان، لا يتعاملان بشكل مباشر، لا يطبق رؤيتهما.. حسنًا، ماذا لو أنها قررت فجأة أن...؟

قررت أن أرافقها في التصوير بنفسي، ولمست جفاء كينجي منذ اللحظة الأولى لوجودي.. لقد تجاهلني تمامًا وكأن انتقالي للعيش معها جعلني جزءًا منها، ينطبق عليه ما ينطبق عليها من كراهية. كان صديقي، وتزعجني فكرة خسارته، لكن موقفه هذا أثّلج صدري، ورغم عدم راحة سايا لأجواء عملها، إلا أنني بسرور خفيّ استمتعت باتباعهما. شعرت بالسوء لهذا، وتساءلت: هل جعلتني الغيرة وغدًا يفتقر إلى التعاطف؟ لكنني كلما فكرت في هذا راحت ذاكرتي تسترجع شذرات من حياتي الخاوية قبل سايا، لا، أنا لن أعود إلى هذا الظلام مجددًا بأي ثمن، سأستمسك بها، سأخلص لها طوال حياتي، سأحميها بكل طاقتي، ولن يستطيع كينجي منافستي في هذا حتى وإن كانت تحبه.

تقافز بينهما المخرج بحماس. صاح: "والآن.. أهم مشاهد المسلسل، دعونا نتذكر بوضوح ما حدث حتى الآن. لقد أحببت أكي صديق طفولتها كيزوكي لسنوات، حتى تسببت عائلته في قتل شقيقته يوكي. لم يكن لكيزوكي ذنب فيما حدث، لكن أكي حملته المسؤولية وبدأت في تعقب عائلته حتى قتلهم جميعًا. إنه يحمل ضدها حقًا غير محدود، واليوم ستكون مواجتهما الأخيرة، كلاهما راغبٌ في قتل الآخر، صحيح أن كيزوكي سينتصر في النهاية، لكن سايا تshan أتت باقتراح جديد".

دمدم أحد العاملين: "مرة أخرى!"

قال المخرج: "أكي شخصية بائسة خسرت كل شيء، والنهاية الوحيدة المتوقعة لها هي الموت، وقبل موتها ستخبر كيزوكي بمشاعرها نحوه. كان من المفترض أن يكون المشهد عاطفيًا، وتكون أكي مستسلمة تمامًا للموت على يد الرجل الذي تحب، لكن سايا تshan تقول إن هذا لا يتفق وشخصية أكي، حتى وإن كانت محطمة وبائسة تمامًا فهي لن تستسلم أبدًا".

قال كينجي بسخرية: "من غير سايا تshan يستطيع فهم هذه الشخصيات غير القادرة على الحب؟"

لم تعلق سايا على سخريته. قالت: "شخصية أكي ممثلة بالكراهية، إنها تكره كيزوكي أكثر مما تحبه، وهي تتمنى أن تقتله لتقتل آخر جزء ضعيف في شخصيتها، وتغدو وحشًا لا يعيقه أحد. وما أقترحه هو ألا نظهرها بصورة مختلفة عما كانت

عليه طوال المسلسل. صحيح أننا يجب أن نجعل المشاهدين يكرمونها في الحلقات التسع الأولى، ثم يتعاطفون مع موتها، لكن لا يجب أن ننتقص من كبرياء شخصية آكي في النهاية. أريد أن أؤدي مشهد موتها بكبرياء أكبر، وبمشاعر مؤثرة أكثر من البكاء والضعف".

اعترض كينجي بجفاء: "جوهر نهاية تلك الشخصية هو الانكسار".

قالت بيروود: "لن يتعارض هذا مع ما أقوله، أحيانًا ننكسر في ذروة كبريائنا، ولا يزيدنا تمسكنا بها إلا انكسارًا".

ثم قالت للمخرج: "لن أغير إلا عبارة واحدة في السيناريو، لكن مشاعر آكي وملامحها ستختلفان، وستتحول إلى النقيض تمامًا في بعض العبارات".

سألها كينجي بيروود: "وأنا؟"

- "لن تتغير كلمات نصك نهائيًا، ولكن سيكون عليك مجازاة مشاعر آكي. سيكون من الأفضل لو تقمصت شخصية كيزوكي قبل التصوير بدقائق، وحاولت تخيل ما سيشر به إزاء مشاعر آكي المفاجئة هذه".

ابتسم بسخرية، وهم بقول "هل صرت المخرجة أيضًا؟"، ثم أحجم عن التعليق وتجاهلها. وددت لو أذهب إليه وأقول: "لقد نفيت في وسائل الإعلام وجود خلافات بيننا، وقلت إن تسوياسا أصدقائك، فهلا تصرفت ببعض التعقل أمام الأعين الفضولية التي تترقب فضيحة جديدة؟"

أخيرًا وقفوا يواجه أحدهما الآخر، وببد كل منهما مسدس، ولم يكن كينجي في حاجة لافتعال الكراهية.. مشاعره الحقيقية أصابت العاملين بالقشعريرة، وسمعت همساتهم عن الشائعة إياها.

قلّبت النص بين يديّ، ثم نظرت إليهما...

بدأ التصوير، وخطت سايا نحوه خطوة، وابتسمت ابتسامة خبيثة شريرة تتظاهر باللطف، قالت: "أه! أوسامو كيزوكي، لقد تساءلت متى سأراك ثانية بعدما قذفتني وسط النار قبل سنوات؟"

الزم كينجي بالنص، كانت استجابته صامتة برفع كتفيه، وتراجع خطوة، ورفع مسدسه نحوها، لكن سايا - أو آكي - لم تواجهه بالمثل. كانت ثابتة الجنان موقنة من قدرتها على قتله.

قالت آكي: "أخيرًا يا كيزوكي.. كم استغرقنا من وقتٍ لنصل إلى هذا الحد؟"

- "أحد عشر عامًا، وسبعة قتلى".

- "آخرهم عزيزتك يوميكو.. كان الأمر ممتعًا معها".

قطَّب جبينه، وبدوره لم يعد هيروماسا كينجي، لقد انفصل عن شخصيته الحقيقية هنا...

- "سيكون الأمر أكثر متعة معك اليوم يا آكي".

حدِّثا إلى بعضهما البعض قليلًا، ثم سألهما: "لماذا؟"

كان من المفترض أن تتمهل آكي في الرد، وأن تدعم عيناها ثم تذكره بما حدث لأختها، لكن سايا ابتسمت ابتسامة واسعة لعبوب، وتكلمت بصوتٍ يكاد يكون مرحًا. قالت: "أوووه! لماذا؟ هل يبدو تدمير عائلتي، وقتل شقيقتي، وفقد ثروتي، تفسيرًا مناسبًا لما سيلحق بك؟ أتمنى أن يكون كافيًا لأنني لا أملك سواه".

- "أنا لم أتورط في أيٍّ من هذا، عائلتي فعلت".

- "بتحريضٍ منك، والمحرض بالنسبة إلي لا يختلف عن الجاني الحقيقي".

ورفعت مسدسها في وجهه، ولكن رغم الكراهية الشديدة البادية في عينيه، لم يرفع مسدسه بدوره، حدَّق إليها صامتًا، وانهمر المطر شديدًا فوق رأسيهما فجأة، وخلال لحظات ابتلا حتى عظامهما.

قال كيزوكي: "لقد كنا صديقين".

خلا صوته من المشاعر إذ قال هذا، كأنما يعلن درجة الحرارة أو نتيجة مباراة، وارتعش المسدس في يد آكي، رددت بدورها: "لقد كنا صديقين".

بدأ النص يتغير، كان من المفترض أن تجيبه بعبارة هازئة، لكنها اكتفت بتريد كلمته وصمتت، وفي تحديقها الصامت البارد إليه انبعث ألم شديد خيم على الجميع، كانا ينظران إلى بعضيهما وقد بردت الكراهية المندلعة في أعينهما، لكن كل منهما بدا غارقًا بشكل هائل، وطال صمتهما حتى ظننت أنهما نسيا التمثيل.

- "لقد سرقت شقيقتي".

حقًا، كانت نانا أشبه بشقيقة لها منها بصديقة، وقد سرقها كينجي لفترة، وجعلها تعيش كابوس انفصالها عن الفريق، ولكن في النهاية ابتعدت نانا وحدها قائلة إنها بحاجة إلى بعض الوقت وحدها مع حلمها الخاص، تاركة الاثنين خلفها، سايا وكينجي، كلاهما يغرق وحده، كلاهما عاجز عن الاستغاثة، وربما كلاهما بحاجة إلى الآخر.

ردد كيزوكي من جديد: "لقد كنا صديقين".

النصّ يستمر في التغير، لكن التغير الذي لم يُحسب له حساب هو تلك الدموع التي طفت فجأة على عيني كينجي، ومنحتهما غشاوة لامعة كثيفة لا تنزلق. هل دفعته سايا لهذا؟ أم أنه تجاوب معها بشخصيته الحقيقية؟ أم أنهما اتفقا دون أن أنتبه على الكيفية التي سيسير بها المشهد، فاستجابات سايا لاستجابته بشكلٍ عظيم، وخفضت مسدسها، والألم ينبعث حولها في هالةٍ داكنة سرعان ما احتوتنا وضغطت على صدورنا.

نادته باللم: "كيزوكي...".

أشاح بوجهه لما نادته، وصرت هي على أسنانها تكبح حزنها، ونظرت إليه نظرة كلها حب واشتياق..

- "هل تذكر يوم التقينا للمرة الأولى في شينجوكو؟ يومها كنتُ مع يوميكو ومتعجلة للانصراف، لكنها أبقتني، ما كان يجب أن أبقى في ذلك اليوم، كان يجب أن أذهب، أهرب بعيدًا ما أمكنني، لو أنني فعلت ما حدث كل هذا".

نظر إليها واتسعت عيناه، رأيت فيهما لمحة منه هو، ثم عاد إلى شخصية كيزوكي. تساءلت: هل يقول النصّ إنهما التقيا للمرة الأولى في شينجوكو فعلاً؟ أم أن سايا تذكره بلقائهما الأول الحقيقي؟ لماذا أصبح المشهد يبدو فجأة كما لو أنه منفصل عن المسلسل، كأنما يدور بينهما هما؟

رفعت أكي مسدسها ثانية، تغيرت انفعالاتها تغيرًا حادًا عن النص، كان يجب أن تنفجر في البكاء، لكن عيناها امتلأتا بالدموع، وتلاشت لمحة الحب من منهما.. ارتعش صوتها ألمًا وغبضًا وهي تزمجر: "أتمنى لو أنني لم أرك، لو لم أنظر إليك، أتمنى لو أستر: لحظة لقائنا الأولى لأهرب منك. لقد دمرت كل شيء في حياتي بمجرد وجودك، وكنت سبب كل مكروه أصابني، سلبتني كل من أحب، وكل شيء أنتمي إليه، كل شيء".

سيطرت انفعالاتها الحادة على الجميع، وأولهم كيزوكي الذي ثبت في مكانه غير قادر على الحركة، وعجز عن الرد..

- "كيف استطعت أن تؤلم قلبي إلى هذا الحد؟"

كان هذا صوت سايا المٌحب الذي أعرفه حق المعرفة، لم تعد أي هي المسيطرة الآن، هذه سايا، تردد عليه السؤال الذي لا إجابة له، لتخرج عن النص بالكلمات أيضاً.

اختفت نظرة أوسامو كيزوكي، تبددت شخصيته من كل بوادر كينجي وانفعالاته، وحتى حركة جسده، كفقاعة صابون مترنحة اصطدمت بحاجز صلب. ردد بوجهٍ شاحب: "لقد كنا صديقين".

إنه الآن كينجي الحقيقي، وقد أدرك أن من تواجهه الآن سايا الحقيقية. كانت تحدّق إليه بعينين ممتلئتين غضبًا، وترتعش رعشة حقيقية لا سبيل لاصطناعها، ربما ترتعش ألمًا، أو بردًا، أو حُبًا، لا يهم.. إن كينجي يرى الآن وجهها الحقيقي.

خطت نحوه خطوة، وتفجّر صوتها بالغضب والألم والعجز: "أخبرني بشيء واحد يجعلني أشعر هكذا. قل لي: كيف استطعت أن تؤلم قلبي إلى هذا الحد؟"

وخفضت مسدسها، وسارت نحوه. وخمدَ يُحدّق إليها، حتى صارت على بعد خطوة منه، ثم مدّت يديها وأحاطته، كررت سؤالها بصوتٍ أخفت، وانحدرت الدموع الغزيرة المسجونة في عينيها، ثم اشرأبت على أصابع قدميها مقتربة من وجهه، والتقطت شفته السفلى في قبلة رقيقة لدرجة موجعة، وظل كينجي مفتوح العينين لحظات ثم استسلم.

سقط المسدس من يده.. لقد نسي تفاصيل المشهد، والشخصية التي يتقمصها، وربما نسي أنه يمثل أصلًا. جرفته سايا بمشاعرها التي لم يرها من قبل، فأغمض عينيهِ، ولفّ ذراعيه حولها، وضمّها إليه ضمًّا قويًّا، وغرقا في عناقٍ حارٍ حقيقي.

كان المخرج مشتعلًا بالحماس لما يرى، وتهامست عاملتان بوجهين متوردين لطول القبلة وحميميتها المتزايدة. وفي الخلف وقفت وحدي، سقط النص من يدي وأنا أضغط صدري ألمًا، عاجزًا عن التنفس، عاجزًا عن التفكير، يحرقني شعور مدمر باليأس، وكأنني هُجِرْتُ في جزيرة قصيّة، دون أملٍ في العودة.

انتهى تصوير المسلسل، وازداد وضع تسوباسا سوءاً، صرنا نحيا كابوساً ملموساً لا يفارق يقظتنا، ويقض مضاجعنا إذا نمنا..

استمرت إجراءات الشركة العنيفة ضدنا، وبلغ انقطاع اتصالنا بالإعلام أشده. وبين عشية وضحاها تحول داكي إلى محارب متوحش من العصور الوسطى، حتى لأكاد أبصر درعه الحديدي وسيفه البتار، وهو يصول ويجول في معركة قانونية طاحنة، وكأنما أقسم ألا يخسر الحرب قبل إثنان منافسيه بالجراح. لا أدري كم قضية رفعها ضد الشركة، لكن النظر إلى الأوراق القانونية المعقدة التي يحملق فيها طوال الوقت صار يورثني غثيائاً وصداعاً، وتساءلت كيف يمكن لبعض الناس أن يحبوا الانغماس في هذا الملل؟ لا ريب أن سايا كانت عبقرية حين تمننت تلك الحياة الأخرى، البعيدة عن هويتها الموسيقية التي أعرف.

انشغلنا بالاستماع لإستراتيجية داكي الحربية ضد الشركة عدة أيام، ومجارة غضبه كي لا ينفجر فينا نحن، رغم هذا لم تظهر نانا، ظلت قصبة عنا في عالم لا نعرفه، فقط تتصل بتشو وتقول إنها بخير، وبحاجة إلى بعض المساحة. لم تتصل بسايا قط، ولم تحاول سايا من جانبها الاتصال؛ غرقت في أفكار لم أعرف عنها شيئاً، ولم تعد تمضي الليل جوارى لأنظاها بالنوم مصغياً لأنفاسها. كنت أفيق لأجدها غائبة فأنهض وأبحث عنها، وأجدها على أريكتنا بالبالة أسيرة شاشة الكمبيوتر، تقرأ الأخبار الأخيرة عنا، وتعليقات الجمهور، وترصد ثورة نوادي المعجبين عليها، وتبتسم ببرود وخواء إذ تطالع كل السيناريوهات المنشورة عن مثلث الحب بينها وانا وكيجي. كان لمعجبينا خيال جامع، لكن أحداً منهم ما كان قادراً على تخمين ربع الحقيقة.

هل عرف كينجي تلك الحقيقة؟ لم أعرف قط؛ لم أسمع عنه شيئاً بعد انتهاء تصوير المسلسل، واتصلت به ذات عصرٍ محاولاً التغلب على الغصة التي تنتابني إذ أفكر فيه، لكنه لم يجب اتصالي. هل يعقل أنه أدرك مشاعر سايا واختفى دون قول كلمة؟ أجد التفكير في هذا صعباً! هل أخافه ما أدركه؟ هل شعر بالذنب؟ هل شعر بالاضطراب؟ هل تجاوب معها؟ هل يفكر في طريقة لشق طريقه إليها؟ لا يمكنني الحدس. غرقتُ في ظلام تام، الشيء الوحيد الذي كنت واثقاً منه أنه أدرك مشاعر سايا نحوه.

قالت لي سايا عن ذلك المشهد: "لقد كان تمثيلاً".

لم أستطع تكذيبها، أعرف أنها كانت تمثل حقاً حتى اللحظة الأخيرة، لكنها كانت نفسها لما سألتها "كيف استطعت أن تؤلم قلبي إلى هذا الحد؟"، كانت نفسها، فهل قبَّلته كنفسها أم نيابةً عن الشخصية التي تجسدها؟ لم أسأله؛ خشيت الإجابة كالموت، وتجاهلت التفكير في حقيقة راسخة: النص الأصلي لم تكن به قبلات.

لا أريد أن أعرف الإجابة أبداً، أريد أن أبقى معها هنا في فقاعة أحلامنا، حتى لو لم تكن لدينا أحلام الآن، حتى لو كنا محاطين طوال الوقت بصمتٍ ثقيل تقطعه أحاديث ساذجة مفتعلة، أو نقاشات حول حربنا للاحتفاظ باسم تسوباسا، والانتقال إلى شركة جديدة، وتحمل ضغوط شركة هيبكي ساما التي تنازلت عن جزء من وقته لأجل أغنية يبدو أن ظهورها غير مقدّر بعد.

وحده كيم جونج جين كان الصديق الحقيقي الذي نملكه الآن، جاء إلينا في اليابان لنتعاقد بجدية - شفهيًا - على إنتاج أغنية تحطم السوق في اليابان وكوريا، وبعد عودته شرع في كتابة لحنٍ جديد أعجبتني بدايته، واقترحتُ عليه تعديلاً تقبله بصدر رحب، وشرعنا معاً في إكماله بتناغم تام. كان العمل مع شخصٍ منفصل عنا في بلدٍ آخر، لديه مشاريعه وأعماله، أمراً صعباً، لكنني حقاً استمتعت به.

وكانت الملاك الحارس كيم سون هي، تساند سايا كي لا تنهار تحت وطأة كل تلك الضغوط. وفي جلستها المنعزلة على أريكتنا، راحت سايا تتواصل معها يومياً، فتلتقط هاتفها مرتين أو ثلاث، تتلقى رسالة منها أو ترسل أخرى، وتبتسم.. لم أكن قادراً على جعل سايا تبتسم كما تفعل تعاويذ ميساو السحرية.

ثم غُرض الإعلان الترويجي للمسلسل، ولم يقتصد المخرج في إظهار مدى حرارة قبلة سايا وكينجي فيه، دعاية مثيرة متوقعة، لكنني إذ رأيت المشهد شعرت بأني أسقط في بحيرة باردة لن ينتشلي منها أحد، لم أود رؤية هذا ثانية أبدًا، لم أتحمّله، وحوّلت القناة بشكلٍ غريزي كمن يبعد يده عن النار، ثم تذكرت أن سايا لا يجب أن تدرك شيئًا مما يخالجي من أفكارٍ، فعدتُ إلى القناة مجددًا، لكنها مدت يدها وأغلقت التلفزيون.

غرقنا في الصمت، وأبقيتُ عينيّ على الشاشة السوداء المطفأة متظاهرًا بأني لا أرى نظرة سايا لي، وحين نظرتُ بعيدًا اختلستُ النظر إليها، كان الذنب واضحًا جليًّا في عينيها الشاردتين.

قال لي جزء مني إن عليّ تحمل الأمر ما دمت قد قبلته منذ البداية، وقال لي جزء آخر إن سايا نفسها تحملت ما أشعر به الآن عندما كان شبح ناومي يحكم يديه حول عنقي، ويبقيني أسيرًا له، أفلا أتحمّل المثل لأجلها لفترة؟ أفلا أتحمّل قليلًا فحسب حتى تشفى من هذا السرطان؟

ولكن.. كان قلبي مجروحًا، ونزيف أسود ما يلوثني من الداخل حتى يتعذر عليّ إيجاد طريقي نحو مشاعري الطيبة، وكلما حاولت استجماع إرادتي لتجاهل كل ما يتعلق بكينجي، قفزت إليّ صورة قبْلَهما، وحقيقة أنه تجاوب معها بشخصه. هل أعاقبها الآن لأن مشاعرها حركت في كينجي شيئًا؟

في أي وضع بائس ألقيت نفسي؟

كانت هذه أول عواقب الإعلان الترويجي التي بدأت تطارد سايا كاللعنة. وفي ذروة إغراضها عنها وتظاهري أن كل شيء على ما يرام، نُشرت صورٌ من كواليس التصوير، مع تعليقات عن مدى حرارة المشهد الحقيقية، وتغير النص بين الشخصيات. اشتعلت الدنيا أكثر، وبدأت تعليقات من نوعية أنها تريد الاستيلاء عليه بعدما أفقدته نانا تنطائير. استشعرتُ الخطر، وعلمتُ أن غضب هؤلاء الحمقى سيثير مشكلاتٍ عدة لسايا ويخفض شعبيتها، لكنني لم أتوقع أن تنتقل معجبات كينجي الغيبات إلى خطوة متقدمة.

في اليوم التالي لعرض الإعلان، اتصلت بي سايا، في البداية ترددت في إجابتها كي لا نناقش ما حدث أمس، لكنها أعادت الاتصال، ولمّا سمعت صوتي انفجرت في: "تاكومي أيها الغبي، لماذا لا تجيب؟"

طار صوابي لسماعها تبكي، كانت منهارة على الجانب الآخر، وحولها ضجيج غير محتمل، وبالكاد فهمت منها أنها مُحاصرة في غرفة الساونا في نادٍ صحيٍّ ما، وعشرات المعجبات يطرقن الباب عليها لتحطيمه، وهن يلاحقنها بالسباب وصيحات الغضب. جفَّ حلقي لما سمعت هذا، وتذكرت ما مرّت به ناومي من جيوش معجباتي الحمقاوات.

حاولتُ تهدئتها عبثًا، وبقيتُ أتحدثُ إليها لتصمد وأنا أنطلقُ إليها بأقصى سرعة. سبقتني الشرطة بدقائق، وشرعت في إجلاء الفتيات من المكان بصعوبة، كان عددهن يزيد على المئة.. حاولت تخيل نفسي محاصرًا بين مئة شخص يكرهني إلى هذا الحد، فشعرت بالبرء.

أنقذنا سايا في اللحظات الأخيرة قبل أن تختنق بالبخار في غرفة الساونا، وظلت ترتعش لساعاتٍ بعدها، فاضطرت لأخذها إلى المستشفى لتلقي المساعدة. منحها الأطباء مهدئًا خفيفًا، ورغم هذا بقيت مستيقظة طوال الليل، تجتاحها الرعشة كل حينٍ وآخر، ورأيت في عينيها أنها تستعيد ما أصابها مرة تلو أخرى. حاولتُ احتضانها فأعرضتُ هي عني.

قالت لي: "لا يجب أن تتحمل هذا يا تاكومي، اذهب لو أردت، سأكون بخير".

- "كلنا معرضون لهذا يا سايا!"

- "لا أتحدث عن المعجبات. لقد أخبرتك أن هذا المشهد كان تمثيلًا، لكنك لا تصدقني، وتضغط على نفسك لتتحمل وجودك معي، ربما تشعر بالمسؤولية نحوي وتتساءل عما سيصيبني لو بقيت وحدي. لكنني سأكون بخير. لو أردت تركي اذهب".

- "أنا باقي معك".

- "لماذا؟ أنت لا تصدقني على أي حال".

- "إنني أصدقك، إنني فقط...".

هل أخبرها أنني أشعر بالغيرة من كينجي؟ وأن فكرة انتباهه لمشاعرها وتأثره بها تحرقني بنار سوداء لا تهدأ؟ ماذا لو جعلها هذا تسترد الأمل فيه؟ ماذا لو...؟

قلْتُ بهدوء: "الأمر ليس سهلًا، ولا أعرف كيف تحملته من قبل وأنا أفكر في ناومي".

امتلات عيناها دموغا؛ "لقد أحببتك".

واستسلمت لي لما احتضنتها من جديد، وبشعورٍ صافٍ لطيف ربّت عليها لأهدئها. غسلت كلمتها الأخيرة آثارَ التزيّف الأسود الذي يلوّث صدري، ودون وعودٍ إضافية جعلتني أسترّد مشاعري الأولى، وكأننا في ذلك اليوم السابق للكريسماس، قبل أن أعرف كل شيء.

أصبح تفكيري في كينجي سخيّاً؛ قالت لي سايا بوضوح إنها أحبّتي يوماً، وقالت بوضوح إنها لم تحبه، وإنه "سرطان".

ورغم أنه اختفى من أفكاري جزئياً، إلا أن تأثيره في حياتنا استمر، وتعرضت سايا لهجوم ثانٍ من معجباته بعد يومين من الهجوم الأول، ثم حاصرته في بداية الأسبوع التالي في أحد المتاجر الكبرى، واستطاع دايكي الوصول إليها قبلي لإنقاذها، فتعرض لاعتداء عنيف من إحدى الفتيات، إذ ضربته بعلبة كولا معدنية، فحصل على ست غرز جراحية في جبينه.. كانت إصابة سيئة جداً، ربما تقتضي عملية تجميلية لإخفاء آثارها.

قال لنا وهو يضحك ويشير بعلامة النصر: "لا تقلقوا، بقليل من سحر شعري الطويل أستطيع إخفاء ألف ندبة".

لازم الشعور بالذنب سايا، تمثّل جليّاً في عينيها مهما قالت إنها بخير.. وبهدوء شديد كقطعة حجر تغطس في نهر ازدادت انعزالاً عن الجميع وعني، وحتى رسائل ميساو ما عادت تحرك فيها ساكناً. كانت تجلس على الأريكة تضم ركبتيها لصدرها، والهاتف ملقّي أمام قدميها، تحمّل في الساعات دون أن تمسه.

اتصل بي كيم جونج جين يطمئن علينا، ولما أخبرته بما يجري تهّد يائساً. قال: "لم أكن أتخيل أن داء الساسانغ امتد إلى اليابان أيضاً. نحن نقضي إجازتنا هناك لنهرب منهم".

- "ساسانغ!!"

كنت أعرف ما تعنيه الكلمة، لكنني رددتها متأملاً.

شرح لي كيم جونج جين: "إنها فئة من المعجبات الكوريات المتعصبات، يشكن عصابات لمطاردة نجومهن المفضلين، ويقسمن أنفسهن إلى مجموعات تتعقب الشخص المرغوب من مكان إلى آخر، ويسلمنه من مجموعة إلى أخرى. مضايقاتهن

لا تقتصر على التعقب والتقاط الصور، إنهن خطرات لدرجة التعرض لنا بالضرب والتحرش الجنسي والأذى، ولا تَسَلُّ عن السبب الذي يجعلني أؤدي شخصاً أنا معجب بفنّه! يجدن الأمر مسلماً حين ينجحن في لمسنا أو ضربنا، ويتباهين بقدرتهن على الوصول إلينا، ويتمادين لأن القانون لا يعاقبهن لأنهن مراهمات. الأمر مثير للقرع".

أعرف هذا يا كيم جونج جين، كانت إحداهن سبباً في جنون زوجتي..

"لكن الأمر مع سايا مختلف، إنها تتعرض لهجوم ممنهج غرضه الاعتداء وحسب".

"ليس هذا غريباً على الساسانغ، قد يستهدفون أحياناً منافسي نجمهم المفضل ويحولون حياته جيئماً. ربما على سايا تشان الحصول على حارس خاص".

"إنها ترفض. في الواقع كلنا يكره الفكرة".

"اجبرها إذن، إن حمايتها مسؤوليتك".

عزمتُ على إتباع نصيحته، غير أن هؤلاء المتعصبات لم يمنحنني وقتاً كافياً، وتعرضت سايا لهجوم رابع في الأسبوع نفسه، وحوصرتُ داخل سيارتها في ساحة انتظار مركز تجاري شهير. في هذه المرة لم تتصل بي، ظلت محاصرة دون أن تطلب نجدة. حتى تحطم زجاج سيارتها كاملاً، ونالها كثيرٌ من الضرب، وبعض الجراح الطفيفة بسبب الزجاج. نقلت كاميرات المراقبة المشهد المروّع.

وصلتُ الشرطة وأنقذتها من براثن المتوحشات، وقُبض على بعضهن، ثم نُقلت سايا إلى المستشفى لتلقي العلاج، ولما لحقتُ بها مستجيئاً لاتصال تشو، وجدتها هادئة وكأن شيئاً لم يكن، وأوصى طبييها بمتابعة نفسية.

ثم جاء داكي حاملاً أنباء أولى جلسات قضايانا ضد الشركة، والتي انتهت بخسارتنا اسم تسوباسا بحكم قضائي. قال إن استئناف الحكم سيغير النتائج، لكن سايا لم تمنحه أدناً صاغية. كانت تفكر أن نانا لم تعد موجودة، وأن كينجي ذهب بلا عودة، والآن خسرت اسم الفريق. أصبحت نهاية تسوباسا مسألة وقت بالنسبة إليها، وأخافني ما بدت عليه وهي تفكر في هذا.

منح هذا النصر الأولي مزيداً من القوة لموقف شركتنا، وفي مؤتمر صحفي عُقد للتعليق على نيا الحكم بفسخ العقد، أعلن المتحدث باسمهم: "لا نستطيع نفي شائعة الشذوذ الجنسي بخصوص سايا ونا".

شاهدنا هذا في منزل تسوباسا، وجلَّل الانزعاج وجهي تشو ودايكي مختلطاً بالغضب، أمّا سايا فقالت بهدوء: "هذا غباء. كان يجب أن يتركوا لنا شيئاً نخشى خسارته".

قال دايكي: "أنا لن أستسلم عن متابعة هذه القضية. تسوباسا اسم عائلتنا وسيبقى كذلك".

لم تعلق، كنت قلقاً عليها أكثر من قلقي على تسوباسا، وخشيتي مما سيحمله الغد لفرقي، لعائلتي التي لا استغناء عنها. تمنيت أن أعرف ما تخطط له، لكنها استمسكت بالصمت رغم كل ما قلته لأخفف عنها. عدنا بيتنا فارتمت على الأريكة تحددق إلى السقف. قالت: "أريد سجائر".

لم أعلق، جلست على الناحية الأخرى من الأريكة، ومددت ساقَيَّ أسندهما إلى المنضدة الصغيرة أمامي. قالت سايا: "لقد كنت أدخن كالمجنونة، أردتُ أن أحرق مشاعري نحوه بأي ثمن. أي غباء كنت أفكر فيه؟"

راقبتهما في صمت تفكيرها العميق، وتوجست قلقاً. سألتها: "قولي لي فيم تفكرين؟"

- "في كل هذا الطموح!"

لم أفهم ما أرادت قوله، وكان صوتها ميئاً ومستسلماً.

أفاقت من شرودها فجأة وقالت بصوتٍ حادّ: "كنت محمّاً يا تاكومي، أنا لست نجمة، ظننْتُ طويلاً أنني نجمة تدورُ في فلكٍ مستقر، لكن الحقيقة أنني كُنت شهاباً يزداد لمعاناً كلما اقترب من نهايته".

- "أنت نجمة رغماً عن أي شيء".

- "لا، أنا مجرد شهاب، قطعة حجر بائسة تعبر الكون بلا هدف، حتى تسحبها جاذبية خادعة تقودها إلى الهلاك. كيف لم أر هذا قط من قبل؟"

أمسكت قدميها الباردتين، فردتهما على ساقِي، وفركتهما أبث فيهما بعض الدفء. قلت مصراً: "أنت نجمتي، شمسُ أضاءت حياتي بعد ليلٍ طويل. ومنحتني أسباباً لأتشبث بالحياة".

- "مجرد شهاب".

ولمعت عيناها بالدموع.

استلقيت جوارها وعانقتها، مسن قلبي حزنٌ وخوفٌ لما مالت تشبث بي، وأخفت رأسها في كتفي. ارتعد جسد سايا في حضني، فمررت يدي على رأسها متمنياً عصا سحرية تعيد كل شيء إلى ما كان عليه من قبل. همست: "حتى ولو كنتُ شهاباً، الناس يحبون الشهب أكثر؛ إنها تُلهمنا، تمنحنا وعداً بتحقيق آمانياتٍ نصلي لأجلها. هل من شيء أجمل من الشَّهب؟"

شقت ابتسامة وجوم ملامحها بالكاد، ثم اختفت. اعترفت لي: "أنا خائفة، أود لو أختفي حتى ينتهي كل شيء".

وضعتُ يدي على خدها، كل ما فيها كان كما أعرف، وفي الوقت نفسه كان مختلفاً أشد الاختلاف.. شعلةٌ ما فيها كانت متقدة، وتبدو كذلك في طريقها إلى الانطفاء. رتبتُ شعرها حول وجهها بخفة.

- "اختفي هنا إذن، لا تذهبي إلى أي مكانٍ آخر".

ثم ضممتها إليّ، وأخفيت داخلي خوفاً أعظم مما تشعر به؛ بدت سايا في طريقها إلى الاختفاء، ارتعشت في حضني تحت وطأة أفكار لا أعرفها، وما لبثت تلك الرعشة أن انسحبت ببطء، تاركة خلفها قراراً جنونياً، شعرت بهذا كما لو أنه يدور في عقلي أنا.. شعرت بظلٍ أسود يزحف نحوها، يحتويها، يغرقها، يجرحها لأعماق بعيدة من الجنون، دون أن أدري كنهه، أو أستطيع تخمين ماهيته. تمنيت أكثر من أي وقت مضى لو أقدر على قراءة أفكارها.

وفي عتمة الليل الهادئة، استلقيت وأنا أضيم سايا دون أن أتحرّك، تمزق أطرافي آلام هذا التيبس الجبري. وبعين الخيال رأيت شيخ ناومي يتجسد بالقرب مني، ينظر إليّ نظرة مختلفة، حنون، ومتعاطفة، يهمس لي بالأنا، ويبث في عقلي ذكرى بعيدة. لم تفارقني قط، لكنني لم أتذكرها إلا اليوم. طعنني الألم، وملت برأسي قليلاً نحو سايا، مسست جبينها بقبلة خفيفة. وتمتمتُ لها بأني لا أريد من العالم سواها، رجوتها أن تبقى، وعدتها بالحماية ولو انقلب العالم كله ضدي.

حين استيقظت في الصباح كانت غائبة، وبين ذراعيّ برودة وخواء غير محتملين. انتفضت انتفاضة عظيمة إذ انقض عليّ شبح ناومي، ونظرتُ إلى سقف الغرفة، ثم نهضت أنفقد سقف غرفة النوم، لكنني كنت وحدي. أفلت قلبي خفقاته هَلَعًا، وسقطت جالسًا على الأرض. احتجّت وقتًا طويلاً حتى استرددت أعصابي.

دخلت المطبخ لأشرب فوجدت ملحوظة منها على مائدة الطعام الصغيرة، كتبت لي: "ذهبت للتسجيل"، فطار عقلي شعاعًا؛ كانت معجيات كينجي قد بدأت تعقبها بعد تعرّفهن الإستديو الذي تذهب إليه عادة، واتخذنه نقطة انطلاق للعثور عليها مهما حاولنا حمايتها، فأصبح ذهابها وحدها خطرًا لا يستهان به. أي موسيقى قبلت لأجلها مخاطرة كهذه؟

حاولت الاتصال بها، لكن هاتفها استمر في إحالتي إلى البريد الصوتي، اتصلت بدايكي وتشو، وكل الإستديوهات والأماكن المحتمل وجودها فيها، واتصلت بكينجي لأعرف البار الذي يذهبان إليه وحدهما، لكنه لم يرد. تركتُ له رسالة صوتية، ورسالة مكتوبة، فواصل تجاهلي.

جلستُ مشتّت العقل لا أدري ما أفعل، وجواري شبح ناومي المتخيّل يواسيني بنظراته الحنون. قلت له: "لا أريد أن أعيش هذا ثانية".

في الثالثة عصرًا، نقلت وسائل الإعلام أنباء مؤتمر صحفيّ عاجل تعقده سايا بعد نصف ساعة. اتصل بي دايكي وقد طار عقله غضبًا وخوفًا، لكنني لم أملك إجابة عن أي سؤال. تابعت تحليلات البرامج الساذجة، وتوقعات مذيعيها باعتراف سايا بصحة الشائعات الأخيرة، وأخيرًا ظهرت وهي تجتاز مدخل الفندق الذي سيعقد فيه المؤتمر. انهار خوفي متحوّلًا إلى سحابة دموع أغشت بصري، ونبض في صدري امتنان لا متناهٍ لأنها بخير. بدت وسط الصحفيين كسمكة صغيرة تحيطها أفواه أسماك القرش الجائعة.. لا يجب أن تعرض نفسها لهذا، لا يجب أن تظهر في الإعلام، ولا أن تتحدث عن نانا، ولا كينجي، ولا الشركة.

أطلقت تصرّيحًا وحيدًا وهي تدخل الفندق: "لا أحد يتحمل مسؤولية ما يحدث في تسوباسا الآن غيري".

هذه المجنونة فيم تفكر؟

انطلقت بسيارتي كمجنون، وغشاوة دموع كثيفة تلتهم وضوح رؤيتي، وإلى جواري شبح ناومي. كنت خائفًا، طالما كنت كذلك، كان هذا ما أفكر فيه وأنا أقطع نصف المدينة قاصدًا سايا، شاعرًا بأني قد لا أبلغها أبدًا، أو قد أبلغها وقد دُمر كل شيء بالفعل.

طالما كنت خائفًا، خشيت أسرتي فالتزمت الجامعة عامين، خشيت فقدان شعبيتي فكتمت خبر زواجي، أردت الاحتفاظ بناومي، والاحتفاظ معها بكل شيء آخر.. شهرتي، وحب المعجبين، هوس الجميع بموهبتي. أردت أن أحظى بكل شيء تبلغه يداي، وظننت هذا طموحًا، لم يخطر لي قط كم كنت بائسًا وأنا أفعل. انزقت دمعتي الأولى..

في ليلتنا الأخيرة كانت ناومي تبكي، بكت أشد البكاء وأنا راكع أمامها. حاولت تهدئتها لكنها لم تقبل سماعي، وبقيت تحيط وجهي بيديها، ودموعها لا تتوقف، وتتنظر في عيني نظرة كلها أسى واستجداء، تطلب شيئًا لا أدريه، شيئًا أخاف أن أدريه لأنني أدرك أنني لن أمنحها إياه أبدًا.

سألتني: "من تحب أكثر يا تاكومي؟ أنا أم الجيتار؟"

الحقيقة أنني أحببت نفسي أكثر يا ناومي، أحببتك كأول امرأة في حياتي، وأردت البقاء معك أبدًا، لكنني أردت ظلاً لي، جزءًا مني لا ألتفت إليه إلا حين أحاجه. كنت أنانيًا وأعمى، لم أدرك أنني أخطر بجنونك وأنت تراقبيني أمضي مع الجيتار وقتًا أطول مما أقضيه معك.

- "أتحبني أكثر أم الجيتار؟"

كررت ناومي السؤال، وراحت تهتز بالبكاء. لم أدر أنها تفقد عقلها في كل لحظة تمضي، ولما احتضنتها أبعدتني، ظللت تنظر إلي تلك النظرة المستجدية التي تطلق الأسمى سهاً دقيقة. قاومت إصرارها على إبعادي واحتضنتها بقوة، ولما تبين لها عجزها عن دفعي بعيداً انفجرت في البكاء. وكأنما دمرها حضني ارتمت ذراعاها جانباً، ثم طوقتني، ربما إلى درجة الاختناق.

- "أنا أحبك، أحبك يا تاكومي، أحبك".

في تلك الليلة أخافتني ناومي، الطريقة التي كررت بها الكلمة أشعرتني بالخوف، وبأنني سأفقد شيئاً لا أتحمّل خسارته. تشبثت بها، همست بكثير من

كلمات الحب، وبذلت مزيداً من الوعود التي لا أفي بها أبداً، لكن ناومي كانت مدمرة تماماً، ساكنة، وكأن البكاء انتزع منها كل شيء، ظننته انتزع حزنها، لكنه انتزع روحها ورغبتها في البقاء.

ظلت متمسكة بالنظر في عيني، أذكر تلك النظرة بجلاء وكأنني حدقت إليها قروناً عديدة. وهناك، في تلك الغرفة التي لم أدخلها قط حتى اليوم، في ذلك الفراش الذي شهد كل اللحظات، كل الأحلام المشتركة، توهج العاطفة وسكون الإعصار المجنون الذي دُرنّا في دواماته منذ التقينا، هناك كانت ناومي مستلقية على ظهرها، تمسك بوجهي وتجبرني على النظر في عينيها، ليتني أدركت وقتها ما كانت تعنيه.

- "أنا ما عدت قادرة على التحمل أكثر، حين تزوجتك كنت أريد البقاء معك أنت، لكنني أبقى مع ذلك، وأنا ما عدت قادرة على البقاء أكثر إلى جوار ظلال. أنا ربع حبيبة، وربع زوجة، لكنني أمام العالم زوجة كاملة، عليها أن تتحمل تعذيب معجباتك ومطارداتهن، والإيذاء والاضطهاد من كل من يراني لست أهلاً لك. لِمَ أتحمل تلك المعاناة في رأيك؟"

- "لأنك تحبينني".

- "وأنت لا ترى في هذا العالم بأسره إلا ستة أوتار يا تاكومي، ستة أوتار وصندوقاً خشبياً مفرغاً".

- "ناومي يا حبيبي، سينتهي كل هذا قريباً، امنحيني الفرص...".

- "امنحيني الفرصة حتى أنتهي من حملتي الإعلانية، وبعدها سنذهب في إجازة، وسأعين لك حراسة تمنع عنك المعجبات، ولن يجرؤ شخص على انتقادك فيما بعد. لقد وعدتني الشيء نفسه ست مرات خلال أربعة أشهر دون أي تغيير. فلماذا ستغير الآن يا تاكومي؟"

أخرسني الألم والوجوم...

قبلتها بنعومة لأعتذر، وبأسى حقيقي سألتها: "ماذا أفعل لأسعدك يا ناومي؟ قولي لي أي شيء وسيكون لك".

ارتسم في وجهها تعبير كأس بلورية تلقت ضربة فتتت ذراتها، لكنها احتفظت بتماسكها دون أن تنهار..

- "قلت إنك ستحبني وتحميني، في السراء والضراء، والصحة والمرض، وحتى..."

- "وحتى يفرق الموت بيننا".

- "كان يجب أن نختار صيغة زواج أخرى، كان يجب أن أجعلك تقسم على حمايتي حقًا يا تاكومي".

- "سأحميك يا ناومي، امنحيني فرصة واحدة أخيرة".

- "لا أستطيع تحمل ما تفعله أكثر. إن الشخص الذي يجدر بك حمايتي منه هو أنت".

- "ناومي..."

- "لا أريد أن أعيش مع ظلك بعد اليوم يا تاكومي".

- "سأفعل، أعدك بهذا".

- "أتعلم ماذا يجب أن تفعل إذا أحاق بك ظل تخافه؟"

- "ماذا؟"

- "تغلق الضوء".

ومدت يدها لتغلق الضوء لكنني أمسكت بها، نظرتُ إليّ وسقطت من عينها دموع متتابعات، كانت الكأس البلورية تنهار ببطء الآن...

- "ناومي..."

- "دعني أحبك الليلة كما أريد يا تاكومي، هلا فعلت؟"

تركتها تقبلني وأنا مشدوه، اندمجتُ معها بعسر وقد سلبني تعبيرها عقلي..

راحت الكأس البلورية المتهشمة تتناثر، مع كل قبلة تتناثر ذرة منها، ويطيح بها الهواء إلى حيث لن أراها مجددًا، حتى إذ انتهينا غابت ناومي التي أحببتها عني إلى الأبد.

كنتُ أغالبُ النومَ حين شعرتُ بها تلمس وجهي مجددًا، تطيل النظر إليّ، وفتحتُ عينيّ فرأيت في محيّاها نظرةً خاويةً من كل شعور، باردة، كثقب أسود يقود إلى كوني قصي من الحزن المستسلم.. النظرة التي سيحملها شبحها سنوات

ثلاث ليطاردي بها، يذكركني في كل لحظة أخلو بها إلى نفسي بما حدث، بما اقترفته في حقها.

- "تاكومي، سوف أحبك حتى نلتقي".

- "أحبك يا ناومي، لا تركيني".

لكنها تركتني.. نمتُ واستيقظتُ لأجدها شنقتُ نفسها أمامي، شنقتُ نفسها بأوتار جيتاري.

ضغطتُ كواح السيارة متوقفاً بعنف، واحتجزي الحزام كي لا أطيّر عبر الزجاج. مضتُ لحظات وأنا أرتجف، أحاول تمالك نفسي وقد اقتحمتني الذكرى التي جاهدت لأخفيها إلى الأبد، الذكرى التي ما كان لي أن أنساها، ولا أتذكرها، ما كان لي أن أعيشها.

لقد أخطأت ناومي في أمرٍ واحد يغير كل شيء..

اندفعتُ مغادراً السيارة بتصميم..

في قاعة المؤتمر كانت سايا وحدها، تجلس خلف المائدة العريضة التي تتصدر المكان، وخلفها على الجهتين شاشتين عملاقتين تنقلان وجهها، كانت شاحبة، ونظرتها خاوية باردة، عكست استسلاماً تاماً لا يطاق.

أجابتُ أحد الصحفيين: "لم يتورط دايمي في الاتفاق مع أي شركات أخرى، لقد تلقيتُ عروضاً رأيتُ أن أريها لفريقي. لو كان لأحدٍ أن يُحاسب على هذا فهو أنا، لكنني أؤكد أن موقفنا سليم قانوناً".

جاء سؤال آخر: "ماذا عن صورتك مع نانا؟ إنها صورة شخصية وليست جزءاً من حفل، كيف يمكنك إنكار علاقتك بها بعد هذا؟"

- "أنا لم أنكر علاقتي بنانا".

لم يتركوها تتم عبارتها، تدافعوا من كل اتجاه مقترين من المنصة بأسئلتهم. كرمهم كما لم أكره قط من قبل، وصحت بأعلى صوتي وسط القاعة: "تسواسا سايا، ماذا تظنين نفسك تفعلين؟"

كنت غاضباً حد العمى، فأفسح لي كل من اعترضني الطريق حتى بلغتها، قفزت صاعداً المنصة، وتبدد خواء عينها الميت إلى نظرة خوف وهي تنظر إليّ. كررت: "ماذا تفعلين؟ كيف تسمحين لنفسك باتخاذ خطوة كهذه؟"

كانت مرعوبة حق الرعب، وأدركت أن غضبي فاق الحدود حتى أنني أعجز عن تمالك نفسي. راحت رعشة بغیضة تهز ساقی اليسرى، واستعصبت عليّ الكلمات لبضع ثوانٍ. انهمرت عليّ الأسئلة فتجاهلتها، تقدمت وسحبت سايا من ذراعها، وجرتها لتواجههم من أقرب نقطة ممكنة، ووقفت جوارها وقلت: "كل ما يتعلق بقضية بتعاقدنا مع أي شركة أخرى لا يزال منظورا أمام القضاء، ولا يحق لأحد الإدلاء بأي تصريحات عنه، لاسيما قائدة فريقنا المشهورة بانتحاريتها في تحمل المسؤولية عنا، وليس أدلّ على ذلك مما حدث في الصين".

انطلق سؤال: "ماذا عن علاقتها بنانا؟"

"الصورة المتداولة صورة شخصية سُرقَت من بيت تسوياسا، وتم التقاطها عشية الكريسماس قبل أعوام. كنت حاضرا وقت التقاطها، وأتذكر الدعابة التي سبقتها، وحتى لو لم أكن موجودا، فأنا أعرف أن سايا ليست سحاقية. لقد طالبت تلك الدعابة الغبية وحان وقت الرد عليها".

التفتت واستدارت نحوي، اتسعت عينها ترقبًا وقلقلًا مما أقول، وحذرتاني من شيء لم تدري به بعد، لكني كنت عازما على قطع الطريق حتى النهاية. أخرجت هاتفي المحمول، وألغيت شاشة الحماية، ورفعته أمامهم. لمعت صورتنا معا ونحن نرفع عقد شفتنا، مشيرين بعلامة النصر، بأكبر وأسعد ابتسامات العالم.

"إننا متحابان، وقد انتقلنا لنعيش معا مؤخرا. إن نانا صديقتها الأقرب، ولكن إذا كنتم تبحثون عن حب حياتها فهو أنا".

علا الهرج والمرج، وسطعت الأضواء ودارت الكاميرات بجنون مسعور، أما سايا فسحبت معصمها من يدي، لكني عدت لأمسك بها. كانت تتأرجع على حافة تفصل الغضب عن الذهول. صاحت: "ماذا تفعل؟"

"أوتدريين ماذا يجب أن تفعلي إذا أحاق بك ظل تخافينه؟"

"ماذا!!!"

"يجب أن تشعلي الأضواء كلها".

وجذبتها بقوة نحوي، فتقاطع طريقانا ككل الطرق المُقَدَّرة، والتقينا في قبلة هائلة أمام أعين الجميع.

كان هذا ما يجب على ناومي أن تفعله، كان هذا ما يجب عليّ فعله لناومي. ما
كان يجب أن أخفيها في الظلمة، بل كان عليّ أن أجلبها إلى النور.. إلى منتصف
بقعة الضوء، حيث لن يجرؤ أحد على أن يمسها بسوء.

منذ أمسكت جيتاري أول مرة، آمنت أن الموسيقى ليست مجرد عمل، ولا مهنة
أنخرط فيها بحثًا عن مالٍ وأضواءٍ ومعجيين.. كانت الموسيقى في عينيّ سحرًا
يُخضع القلوب، ومهون مشقة وجودنا.. إنها حياة.

من القادر على نسج حياة من سحبة قوسي على وتر، أو نفخة بوق، أو ضربة
على طبل؟ إنه ساحر يخلق كونًا كاملاً، أوتي القدرة على رؤية ما لا يراه أحد،
واختار أن ينقل السحر القابع خلف حدود أحلامه إلى البشر العاديين، يمنحهم
قبسًا من الجمال الذي يملك، وقد آمنت أن شخصًا كهذا يستحق التقديس كإله،
وأن يكون معبودًا من هؤلاء الذين تُحرك موسيقاه عواطفهم، بل يستحق أن
يرفعوا إليه صلواتهم ليخفف بموسيقاه عنهم.

لقد آمنت أن الموسيقيين سحرة، أكثر مما آمنت بأي شيء آخر على الإطلاق..

لهذا لم أفهم قط كيف يمكن لهؤلاء الذين نبذل سحرنا لأجلهم أن يكرهونا
إلى هذا الحد؟ كانت المشاعر التي يطاردونها بها، وانقلابهم ضدنا إذا ما تعقدت
أمورنا بشكلٍ أو بآخر، صورةً شاذةً من الحب لا أستطيع تقبلها. لقد تصرفوا دومًا
كما لو كنا دُمى يمتلكونها وخُلقت لترفه عنهم، وعلينا أن نلتزم بما يظنون عنا وإلا
نبذونا، ولا تعود لنا قيمة إلا بالأضواء التي يختارون أن يسلطوها علينا، إذا أرادوا.

وفي ذلك اليوم، عندما انتهى مؤتمر سايا الصحفي المبتور، ونظرت في أعينهم
المتحفزة المتوحشة المحيطة بنا، كرهت كل لحظة اخترت فيها أن أعمل لأجلهم،
وأقسمت بغضبٍ ألا أعود إلى هذا ثانية. قررت أني سأعزف لنفسي ولن أحب،
دون إهداء سحري لتلك النسور الجائعة. تُرى هل شعرت سايا بالشيء نفسه؟ هل
مرت الفكرة حتى بخاطرها؟ أم ظلت الموسيقى في بؤرة رؤيتها للعالم، وكل ما

عداها لا قيمة له، حتى طوفان الكراهية الجارف الذي أحاطوها به؟ هؤلاء الذين بذلت كثيرًا جدًا جدًا من سحرها لأجلهم؟

وصل داياكي إلى قاعة المؤتمر بعد دقائق من دخولي، جالبًا عددًا من الحراس. لم ينجحوا في تأمين خروجنا تمامًا من الفندق، وتكدس حولنا مئات ومئات من المعجبين حتى كادوا يسحقوننا. أكانوا من معجبينا أم من معجبي كينجي؟ لا أدري، أعرف فقط أن كراهيتهم كانت مفزعة، وأن كثيرًا من الضرب والإيذاء قد نالنا حتى بلغنا سيارة داياكي الكبيرة، وتكدس ثلاثتنا بالخلف، وشرع أحد الحراس في القيادة للخروج من الزحام الشديد، ومن خلفنا رجلين آخرين أحدهما يقود سيارة سايا، والآخر يقود سيارتي.

كانت سايا جالسة إلى يميني، تتابع صفوف المعجبين التي تشقها السيارة إلى نصفين سرعان ما يلتحما خلفنا في مظاهرة غاضبة، وإلى يساري داياكي يغلي غضبًا. سبحنا في صمت خاوٍ من أي معنى حتى خرجنا إلى الطريق العام، وعلقنا في زحام وسط المدينة، حتى بدأت كتل السيارات المكدسة حولنا في التفكك، وانطلقت بنا السيارة نحو النصف الآخر من طوكيو.

تكلم داياكي أولاً: "فيم كنت تفكرين بحق الجحيم؟"

أجابته سايا فورًا: "إنني أنسحب من تسوباسا".

ردها الهادئ لدرجة الاستفزاز كان آخر ما يجب أن يسمعه داياكي في تلك الحالة، ولم أكن لألومه لو انقض ليطبق على عنقها، لكنه صمت، واحتجب غضبه فجأة خلف وجه هادئ كأن زرًا خفيًا قد ضُغَط. بعد صمتٍ طويل قالت سايا: "لقد سهرت أمس أعد خطة لتعديل موسيقى الفريق، بحيث تعتمد على عازف جيتار كهربائي واحد، لكننا سنلتزم بثيمات أغانينا وطابعها السحري".

تمسك داياكي بصمته ولم يجب، وأخرج هاتفه وشرع في الكتابة.

"إنه الحل المثالي لأزمئتنا؛ تسوباسا لا يمكنه الاستغناء عن الفوكاليسست، ولا عازفة البيز جيتار. ولا قارع الطبول، التعديل الوحيد الممكن هو حذف أحد عازفي الجيتار الكهربائي".

أقترحتُ: "يمكنك التخلص ممن يجلب الشؤم لكل فريق يعمل معه".

كنت أتحدث ونصفٌ مني ساخر وآخر حائق، لكنها أجابت: "كنت لأود هذا، لكنك لست الشخص المكروه الذي يلومه الجميع".

عقلانيتهما كانت مثيرة للجنون، بدأ غضبي المكبوت لما شعرت به من هلع في غيابها يتسرب، ونظرت إلى داكي أرجو عونه، لكنه ظل ينظر إلى الخارج، كما فعلت سايا على الناحية الأخرى. جلست هادئة تمامًا، جسدها مسترخٍ، ونظراتها مسترسلة نحو اللا شيء، كل جزء فيها عبّر عن استسلام غير محتمل ولا مقبول، وعرفت أنها لن تصغي إلى ما قد أقوله الآن، فصمتُ مثلهما؛ حتى لو أشعلت شجارًا معها فلن يؤدي إلى نتيجة.

هممت سايا: "كان يجب أن تدعاني أنني هذا المؤتمر، لو تحمل شخص منّا مسؤولية ما يحدث وانفصل عن الفريق، سيتمكن الباقون من توقيع عقدٍ جيد مع شركة أخرى، وسنحتفظ بأغنيتنا الأخيرة مع هيبكي ساما، وستكون خير دعاية نعود بها ونسترد بها مكانتنا، وسيكون كل شيء على ما يرام".

قلت بيروود: "باستثناء بائس واحد سيكون عليه أن يضحي بمهنته، ويدمر سمعته، دون أن يكون قد ارتكب خطأ يُعاقب عليه".

- "لكن تسوباسا سيبقى مُحلّقًا إلى الأبد، وهذا ما هممي".

صرخ داكي: "هذا لا يهمنا".

ولكم الزجاج بعنفٍ أحدث صوتًا غير مطمئن، ولما انتبه إلى أنه قاب قوسين أو أدنى من فقدان عقله أخفى وجهه بين يديه. قال: "هلا خرسيتِ يا سايا؟ لا تقولي أي شيء الآن".

لم تفقد استسلامها غير المحتمل، لكن الخوف ملأ عينها إذ رأت بادرة العنف غير المتوقعة تلك من صغيرها المدلل اللطيف. نظرت إليّ فحدقت إليها خاويًا من أي شعور جيد، ثم وضعت يدي على رأسها وشدتها إليّ، أسكنتها حضني مبددًا مخاوف الساعات الماضية. همست لها أن نؤجل الحديث إلى حين وصولنا بيتنا.

لكننا لم نبليغ ذلك البيت قط، فبمجرد وصولنا إلى الضاحية الراقية البعيدة رأينا السيارات الإعلامية الضخمة تحيط بالبناية، وبضع سيارات شرطة حولها. لقد بلغت الصحافة بيتنا الجديد، لكنها لم تأت لمطاردتنا، بل لتغطية مظاهرة صغيرة تلعبنا بعشرات اللافتات المحملة بالإهانة والكرهية.

توقفت سيارتنا على مسافة آمنة من البناية. ونظرنا عبر الزجاج المعتم إلى الخارج، تأوهت سايا لما رأت المظاهرة، ثم غاصت في مقعدها مغمضة العينين، وأمر داكي الحارس ليعود أدراجها إلى بيت تسوباسا. ابتعدت بنا السيارة، ولم نرفع أنظارنا عن مدخل بنايتنا، حيث البيت الذي نعود إليه أبداً بعد اليوم، وحين تواری عنّا تساقطت دموع سايا، وانحنى تخفي وجهها في ركبتيها، وعقدت ذراعها فوق رأسها.. بكت بصمتٍ ورعشة ألم تهزها.

لقد أصبحت مُطاردة من معجبينا الغاضبين، الذين يلقون اللوم عليها في أزممتنا مع الشركة، ومعجبات كينجي اللائي يحملن مسؤولية ما فعلته به نانا، واليوم تنضم إلين معجباتي المجنونات اللائي سبق وأفقدن زوجتي عقلها.. صارت سايا محاصرة تماماً، حتى قوقعتنا الأمانة الصغيرة فقدناها.. من فعل كل هذا؟ وأي قدر من الكراهية يحمله نحونا؟ نحوها؟

عدنا إلى بيت تسوباسا، لم أكن أقل بؤساً من ذلك اليوم الذي جنّت فيه أنشد عون أمهم قبل أن أقتل نفسي. كانت تشو تنتظرنا قلقة، ومن خلفها ينقل التلفزيون مقتطفات من المؤتمر الصحفي، وقبيلتنا، والمظاهرة حول بيتنا، لكن الصورة المثيرة التي ينقلها كانت مشوهة وخاطئة بشكل يثير اليأس.. لن نتمكن أبداً من توضيح الحقيقة، ولو فعلنا فلن يصدقنا أحد؛ أحياناً تكون الأكاذيب أكثر منطقية وأجدر بالتصديق.

سبقنا داكي إلى الداخل، ونادته سايا وهو يصعد السلم فلم يرد، وأمام نظرتها المتألمة قالت لها تشو: "سيحاول التفهم عندما يهدأ. اتركه الآن يا سايا، لقد قلقنا كثيراً اليوم".

لم تعلق سايا، رافقته إلى غرفتها، وجلست معها حتى بدا عليها شيء من الهدوء، ولما هممت بالخروج سألتني: "إلى أين؟"
- "أفترض أن غرفتي القديمة سترحب بي".

- "ألايك ما تقوله؟ لا أريد شخصاً صامئاً آخر بعد نانا وداكي.. ليس أنت على الأقل".

استدرت إليها، كانت تبتسم ابتسامة صغيرة لم تصل إلى عينيها اللتين سكتها الخوف. قلت: "إنني غاضب. كيف تعقدين مؤتمراً صحفياً تتحدثين فيه باسمنا دون الرجوع إلينا؟"

- "لا أريد لهذا الفريق أن ينتهي".

- "اللعنة على الفريق. هل تظنين أن تسوباسا مجرد أغنيات يجب أن تسود العالم وحسب؟ هذه ليست الرابطة التي تجمعنا. نحن عائلة. في السراء والضراء، في الشائعات المؤذية وفي النجاح الباهر، ولا يحق لك أبدًا أن تضحي بواحدٍ مِنّا لتتقذّي الآخرين، حتى لو كان هذا الواحد أنت. أنتِ لن تقبلي بهذا لو حاول أحدها فعله، فلماذا تفعلين ما لن نقبله أبدًا وتظنين أن علينا تقبله؟"

- "ستفهم خطي لو أنك استمعت إلي".

- "أنا لن أسمع شيئًا، ولن أغير رأيي بشأن أي خطة تغير ما نحن عليه. نحن في أزمة بالتأكيد، لكن الحل الوحيد أن نتعاون للخروج منها، لا أن نلقي بكبش فداء. لم يرتكب أحدها جرماً يستحق تضحية كهذه".

- "أنا فعلت".

وابتسمت ابتسامة شاحبة ومستهينة، فتوقفت وأنا أشد غضبًا. سألتها: "أأنت غبية بالدرجة الكافية لتلومي نفسك على ما يحدث لنا؟"

هزت كتفيها وزادادت ابتسامتها اتساعًا. أشاحت بوجهها وقالت: "لو أنني وقفت في وجههما منذ البداية، ولو أنني رفضت تلك العلاقة ومنعتهما من استكمالها، لو أنني قلت لكينجي أن يتمسك بالموسيقى كدأبنا وبيتعد عن نانا لأن هيبكي ساما هو الهوس الذي لن تتوقف عن مطاردته حتى تبلغه، لو أنني لم أقرر ملاحقة هيبكي ساما، ولو لم أضعه في طريق نانا وأدفعها لاختياره، ولو لم أسقط على المسرح وأجعل داكي يبحث عن شركة أخرى...".

اقتربت منها والغضب يأكلني، شعرت أنني لا أعرفها، كرهت الضعف والاستسلام المتجلبين في وجهها، والندم العميق في عينيها. سألتها: "أجئنت؟ أتردين كم الهراء الذي تقولين؟"

- "لو أنني لم أفعل شيئًا واحدًا من كل هذا لما وقعنا في هذه الأزمة يا تاكومي، لهذا يقع عبء إنقاذكم علي".

- "أنتِ غبية...".

- "ولو لم أنتقل لأعيش معك، لكان لديك بيتك الجديد الآن...".

- "لا، لا، أنا لن أقبل ببنديك على الانتقال للعيش معي".

وجثوت أمامها وأمسكت كتفها، هزتها بقوة لتنتبه إليّ، ولمّا فعلت هزتها ثانية، فصبوت إليّ نظرة متوجسة تتساءل عما أريد. بقيت أنظر في عينيها، وكلمها هربت من نظرتي هزتها لتعود إليّ. عاودني شعوري بأنّي لا أعرفها، وأنّي أفقد سايا القديمة القوية.. ماذا أفعل لأعيدها إليّ؟

بعد ساعة جاءت نانا..

كان دايمي بعد في غرفته، وتشو تشاركني صنع الشاي، في حين استلقت سايا على أريكة غرفة المعيشة تحمق في السقف. دخلت نانا بهدوء، ثم صفقت الباب معلنة وجودها فأجفلنا. شغ الغضب منها في هالة عظيمة، لكن نظراتها كانت باردة وقاسية كالثلج. رفعت سايا رأسها ونظرت نحوها، ثم جلست، نادتها: "نانا؟"

ازدادت نظرات نانا برودة وغضبًا، وحملت فيها دقيقة أو أكثر قليلًا، ثم تركتنا وصعدت إلى الطابق العلوي. تمتت تشو: "اللعة يا نانا! لا...".

كانت سايا في منتصف طريقها خلف نانا بالفعل، فنظرت إلى تشو وتبعناها، وقبل أن نبلغ غرفة نانا سمعنا سايا: "تحدثي إليّ".

صاحت نانا فيها: "لقد اكتفيت منك، هل تسمعين هذا بوضوح؟ لقد اكتفيت، ولقد انتهيت ها هنا يا سايا، إنني أنسحب من تسوباسا".

كانت تسحب حقيبة الملابس الكبيرة من غرفة ملابسها الجانبية، وألقمتها على الفراش وفتحتها، وشرعت في إلقاء أغراضها فيها دون نظام، وعلى الناحية الأخرى جابهتها سايا بغضب لا يقل عنها اشتعالًا. صاحت: "أنت لا تفهمين شيئًا...".

صرخت نانا: "أوتدريين لماذا؟ لأنك لا تقولين شيئًا، أنت لا تشاركيننا أي شيء وتتصرفين وحدك وكأنك إله لا يخطئ، وعلينا أن نتقبل السيناريو الذي يضعه لحياتنا ونسير عليه. لكنني اكتفيت يا سايا، إنني منسحبة من تسوباسا، فافعلي بفريقك ما شئت".

- "نانا...".

- "كيف تخرجين لمؤتمر صحفي وتحدثين باسمنا دون استشارتنا؟ أتحاولين تحمل مسؤولية الأمر عني؟ إليك الخبر البهيج: أنا المتسببة في كل مشكلات تسوباسا، اصنعي لي معروفًا واطرديني".

صرخت سايا كمجنونة: "كل هذا حدث بسببي أنا".

بادلها نانا الصراخ: "أنتِ لستِ الفتاة التي رفضت كينجي وأذلتته على الملأ".

- "لكنني الفتاة التي جعلتك تفعلين. قولي ما تشائين يا نانا، وليقل العالم ما يشاء، إن المسؤولية تقع على عاتقي أنا".

- "لا تبالغي في تخيل أهميتك يا سايا، الكون لا يدور من حولكِ".

تهدل كتفا سايا إحباطاً، ناشدتها: "نانا، اسمعيني...".

رفعت نانا كفيها باستسلام: "لا، لقد اكتفيت من كل شيء. اكتفيت من اتخاذك القرارات وحدك، وتسلكك وتحكمك في حياتنا، ولن أقبل مزيداً من هذا الجنون.. أنا منسحبة من تسواسا".

- "لا يمكنك الانسحاب، نحن عائلة".

- "إليك الخبر البهيج الثاني: نحن نستطيع الانسحاب من عائلتنا أيضاً، وقد سبق وفعلنا".

تدخلت تشوتنهرهما: "لا مزيد من الجدل وأنتما غاضبتان".

تجاهلتهما سايا كأنها غير موجودة. قالت لنانا: "لقد قلنا إننا سنبقى معاً أبداً، وسنتجاوز كل ما يعيقنا".

- "أنتِ الآن من يعيقني".

واصلت تشو تدخلها: "لا تتجاوزي حدودك يا نانا".

لكن سايا صمتت، وقفت جامدة تتابع نانا وهي تحزم حقيبتها، بدأ حرصها يتحول إلى غضبٍ صريح، وقالت: "أنا الآن أعيقك؟ أنا يا نانا؟ لقد بذلت كل جهدي على مدار سنوات لنبقى معاً، لقد قلنا إن هذا الفريق عائلتنا الوحيدة، وأننا سنفعل كل ما نضطر إليه لنبقى عليه، الآن تقولين إنني أعيقك؟"

- "لقد نضجنا كفاية لننتوقف عن هذا التفكير الرومانسي الغبي، لا أحد يبقى إلى الأبد حتى العائلات الحقيقية، واجهي الواقع، هذا العالم الضيق الصغير الذي يضمنا نحن الأربعة لا يكفي، ولن يكون كافياً أبداً، كوني شجاعة وأطلقني سراحنا".

- "لا تتحدثي وكأنني سَجَّانة ها هنا، لقد كنا معًا في هذا القرار..."

- "لكنك الوحيدة التي تشبَّهت به كمجنونة، ودأبت على سحبنا إلى الخلف كلما حاولنا الابتعاد. أتذكرين ما فعلت حين تلقت تشو عرضًا بالعمل في أكبر دور أزياء كوريا لمدة عام؟"

صاحت سايا: "إنها ليست عارضة، لماذا أوافق على أن تبدد من عمرها عامًا في شيء لن يُصب في صالح موهبتها الحقيقية؟"

- "لأنها كانت سعيدة بالأمر، وكانت ستستمتع به."

نظرت سايا إلى تشو بنظرة استنكار هائلة. وتوقفت نانا تعقد ذراعها وتبتسم باستهزاء. قالت تشو وقد أربكها تحول دفعة الشجار نحوها: "أنا لا أعارض هذا القرار الآن".

صاحت نانا: "توقفي عن الخوف منها، إنها ليست أمنا لنحذر غضبها وخيبة أملها".

نقلت سايا عينها بينهما، تحول استنكارها إلى صدمة أسكتها، لكن نانا تابعت: "وماذا حين ارتبط داكي بتلك العارضة؟ لقد طردته من البيت شهرًا لأنه يهدد استمرار تسوباسا".

- "تعاقدنا مع الشركة كان يقتضي ألا..."

- "العقد لم يكن المبرر الحقيقي يا سايا، إنك تضعين تسوباسا قبلنا دومًا، لقد أصبح حفاظك عليه أهم من الحفاظ علينا".

صرخت سايا: "نحن تسوباسا".

بادلها نانا الصراخ: "كان الأمر كذلك حتى أصبح الفريق كينونة أخرى تفوقنا أهمية، أنت قلقة على حفلاتنا وصورتنا أمام الجمهور ونجاحنا أكثر من اهتمامك بمشاعرنا وما نريده حقًا. أتعلمين لماذا؟ لأنك تشبَّهت بهذا الفريق حتى صار كل شيء في حياتك، من دون تسوباسا ستكونين وحيدة كيتيم شريد".

- "نانا..."

- "هل صدمتك؟ واجهي الحقيقة إذن يا سايا، بدون تسوباسا لا معنى لوجودك ولا أهمية لك، أهذا ما تخشين مواجهته؟ ألهذا تحاولين إبقاءنا قربك كي

لا تدريكي إلى أي مدى أنتِ وحدك؟ مرحي يا سايا.. لقد أبقيتنا معكِ فترة أطول مما أردنا، وصنعتِ من تسوباسا عائلةً كتلك التي اخترنا الهرب منها".

- "احذري ما تقولين، أنتِ تقطعين الآن خطأً لا رجعة عنه يا نانا".

- "لو كان هذا سيجعلك تنضجين قليلاً فأنا أقبل بالمخاطرة".

جابهت سايا نظرة التحدي في عينيها بغضبٍ عظيم، ثم دخل دايمي الغرفة، ووقف بينهما ناظرًا إلى نانا. قال: "هذا يكفي، لقد تجاوزتِ كل الحدود يا نانا".

أحكمت غلق حقيبتها، وأنزلتها أرضاً. قالت: "كُف أنت عن نفاقك يا دايمي، لقد قلت إنها تُبقينا معها كعصافير الزينة لأنها خائفة من مواجهة الحياة وحدها".

- "ماذا فعل بكِ البقاء مع ذلك الطاووس المتباهي؟ لقد فقدتِ عقلكِ".

صرخت فيه: "لقد قلت هذا، ألم تقل؟"

صرخ بدوره: "ليس بهذا الشكل".

- "لكنك قلت، لأن هذه هي الحقيقة. أنتم لا تواجهون الواقع: لا يمكن أن يظل تسوباسا الحياة الوحيدة التي نعرفها، إذا أردتم البقاء على ما أنتم عليه فافعلوا، لكنني لن أكون موجودة بعد الآن، لن أحارب لأجل قضية خاسرة أكثر من هذا، كيف لا يمكنكم إدراك أن تسوباسا مجرد مرحلة وحن وقت انتهائها".

ونظرت إلى سايا، كانت تقف هادئة وساكنة، بوجهٍ خاوي من أي تعبير وكأن كل ما قيل لا يعنيتها في قليل أو كثير، وشجّع غياب مشاعرها نانا على حسم أمرها وسحب حقيبتها لتغادر، وقبل أن تخرج من الغرفة سألتها سايا بهدوء: "أتذكرين يوم فاتنا القطار؟"

- "قطار؟"

- "نعم، كان هذا بعدما تعارفنا بعامٍ تقريباً، وكنا مسافرتين، وكان وقتنا ضيقاً فألححت عليك طويلاً لتتعجلي، لكنك أصررت على الاستحمام، وتصفيف شعرك الطويل، والعناية به بكل المستحضرات التي تملكين، وفي النهاية وصلنا المحطة والقطار يغادر أمام أعيننا، لقد تأخرنا بضع ثوانٍ فقط لكنها كلفتنا ليلة طويلة في انتظار القطار التالي، وأنا كنت غاضبة حتى أنني بكيت في أثناء انتظارنا، وأنتِ

تجنبتي الحديث إليّ، وانتهى الأمر بأنك غضبتِ مني لأنني غاضبة منك، واضطرتُّ للاعتذار رغم أنك المخطئة".

طرقت نانا بعينها في عدم فهم، وابتسمت سايا ببرود..

- "بعد فترة سألتك: لماذا أتأثر بك ولا تتأثرين بي؟ لماذا أتعجل أموري حين تطلبين مني هذا، لكنك لا تفعلين المثل قط إذا ما طلبت منك الشيء نفسه؟ فأخبرتني أن مشاعري باردة ومحايدة، وأنت لا تفهمين ما أفكر فيه، ولا بأي شيء أشعر، لأنني أضع سورًا عاليًا حول مشاعري لا يستطيع أحد تسلقه ورؤية ما خلفه. قلت لي إنني لو أظهرت بعض مشاعري واهتمامي فسيمكنك أن تكوني أفضل معي، ستأثرين بي، ولن أبقى تمثالًا ثلجيًا تعجزين عن فهم ما يدور بعقله، ولن تحذري مني في تعاملك معي، ولقد فعلت يا نانا لأعوامٍ وأعوام، لكن من الواضح أن هذا كان غير ذي جدوى".

قال دايمي برفق: "لا أحد منّا...".

لم تبال سايا بما سيقول، وتجاهلته..

- "لقد أطلقتُ لمشاعري العنان كما قلت لي، وسمحتُ لنفسي بالاهتمام والحرص على أن نكون معًا، وحميتُ هذا الفريق بكل طاقتي، وأمنت أننا عائلة وسنبقى كذلك أبدًا. أنت تقولين أن لا أحد يبقى إلى الأبد، لكن هذا اختياري نانا وليس قدرًا، وأنا اخترت أن تكونوا عائلتي، فإذا لم تختاري المثل، ولم تلتزمي بما تعاهدنا عليه، لا تلقي اللوم عليّ أنا".

- "لا تحاولي قلب المنضدة فوق رأسي يا سايا".

- "أتذكرين لماذا جئنا اليابان؟ لماذا بدأنا أصلًا؟ لقد كان هذا لأجلك، كنتِ تعيننا لدرجة أننا تركنا كل ما نحب، وركزنا على الشيء الوحيد القادر على إنقاذك من تفكيرك الغيبي في الانتحار، وهكذا ولد تسوباسا. أترين أنه دون تسوباسا لن يكون لي وجود؟ حسنًا، ولكن تذكرني أنه لولا تسوباسا لما كان لك الآن وجود، أنا صنعت تسوباسا يا نانا، لكن تسوباسا صنعك".

وقفت نانا صامتة، وغضبها البارد يتحول ببطء إلى جنون مستعر. سألتها:
"من منّا الآن تقطع ما بيننا؟"

أجابتها بتحدٍ: "أنا لا أقطع شيئًا، إنها الحقيقة، تقبلها بشجاعة وانضحي".

سحبت نانا حقيبتها وغادرت الغرفة، وتبعها سايا بخطواتٍ متمهلة، ونحن خلفهما، وقبل خروجها من البيت وقفت وسألت سايا بسخرية دون أن تستدير: "ألن تتمسكي بي على الإطلاق؟"

"بلى".

"أنتِ تكرهيني الآن، أليس كذلك؟"

"نعم، لقد كرهتك كثيرًا يوم فاتنا القطار، ولا أظنني كرهتُ أحدًا كما كرهتك يومها، ولكن اليوم... لا يا نانا، لا أظنك تستحقين حتى عناء الكراهية".

"بما أننا نقطع كل ما بيننا الآن، دعيني أخبرك أنك أسوأ...".

"أسوأ صديقة قد يحظى بها المرء، وأنتِ نادمة على كل لحظة اعتبرتني فيها صديقتك. أعرف، لقد أخبرني كينجي بهذا من قبل. اذهبي".

لم تعقب نانا، ولم تنظر إليها، ولا إلى أحد منّا، غادرت البيت وأغلقت الباب خلفها، وبعد دقيقة من الصمت غير المصدق لما حدث، ركض داكي وتشو خلفها، وإذا خلا البيت إلا منّا ناديث سايا، وراقبت بقلقٍ وقفها الجامدة قرب الباب. هبطت السلم ببطء واقتربت منها، وضعتُ يدي على كتفها فقالت: "لقد ذهبت".

وقفت أمامها وأمسكت ذراعها، ورفعت ذقنها فتلاقت أعيننا. قالت: "لقد انتهت تسوياسا.. لقد غدوت الآن حرة".

وابتسمت ابتسامة كبيرة عكست سعادة من نوع خاص أثار حزني، ورغم بريق ابتسامتها امتلأت عينها دموعًا. كررت: "إنني الآن حرة".

كدت أشدها لأحتضنها لكنها تملصت مني، تركتني صاعدة إلى غرفتها، ووقفتُ حائزًا ومشتتًا أتذكر يوم رحل كينجي، والألم الذي عانته وأبقاها راقدة في فراشها يومين تتقلب في كوابيس. أنقذتني سايا كثيرًا من قبل، لكنني الآن غارق تمامًا، وعاجز عن إنقاذها، ولا أدري ماذا يمكنني قوله لأخفف عنها؟ ماذا أستطيع أن أفعل لأنقذها كما أنقذتني يومًا؟ لقد أغرقنتي بالعمل لتشتتي، ولكن اليوم ما عاد لدينا عمل.. لقد انتهت تسوياسا.

لحقت بها إلى غرفتها.. رقدت سايا بسكون تام وقد اختفت ابتسامتها ولمعة الدموع في عينيها، فجلست قريبا أنظر إليها، وبسبابتي أزحت غرة شعرها عن عينيها فنظرت لي، لبثت صامته لحظات ثم التقطت هاتفها.

"ميساو، مساء الخير. أعرف أنك مشغولة الآن، لكنني أود لو تتفرغي ساعتين من أجلي في أقرب وقت ممكن، سأكون عندك في كوريا في الوقت الذي يناسبك. لقد تركت نانا البيت وانسحبت من تسوبا سا، وقد انسحبتُ أنا أيضًا، لكن هذا ليس ما أريد التحدث معك فيه، لديّ اعتراف أخبرك به، وأريدك أن تكوني قاسية معي. اتصلي بي حين تتفرغي".

وأنت رسالتها الصوتية وألقت الهاتف بعيدًا، وتهدت وأغمضت عينيها. سألتها: "هل ستخبرنيها بأمر كينجي؟"

"نعم".

"لماذا هذا القرار فجأة؟"

"لأنني أريد أن أكون حرة من كل شيء، لو أن ميساو أخبرتني أنني لم أكن نانا بمشاعري نحوه، فسألني بكل شيء خلفي إلى الأبد. وسينتهيان من حياتي كأن لم يكونا".

"أنتِ لم تخونيني".

"جزء مني لا يقتنع بهذا، ولا أستطيع الاعتماد على رأي أحد غير ميساو؛ إن معاييرها الأخلاقية عالية، وهي الوحيدة القادرة على مصارحتي بالخطأ والصواب دون أن تهاب شيئًا".

"ألا تريدان التحدث عمّا حدث مع نانا؟"

ابتسمت بلطفٍ: "لا يوجد ما أتحدث عنه يا تاكومي، أنا بخير".

"لكنها نانا، إنها صديقتك المقربة، كيف تكونين بخير وأنتِ تعرفين أنها قد لا تكون هنا من أجلك مجددًا؟"

"إنها لم تكن موجودة لأجلي منذ البداية، لم تكن موجودة "بنفسها" التي أعرفها، كانت هي ولم تكن هي في الوقت نفسه، وقد عشت شهورًا ووجودها في حد ذاته هو أشد ما يؤلمني، وكان هذا أسوأ وأكثر تدميرًا بكثير من رحيلها الآن. صدقتي.. أنا لم أكن قط أفضل من اليوم".

ازددت قلقًا عليها، واحتضنت يدها أخفف عنها ما ترفض الاعتراف به لنفسها..

تجنبْتُ الحديث مجدداً عن نانا، وكذا فعل داكي وتشو لما اجتمعنا حول مائدة العشاء. وتجنبنا الخوض في مزحات سايا عن انتهاء رحلتنا الطويلة كتسوبا، ولم أسمح لنفسي بالتفكير في الأمر، ليس قبل أن تعلن سايا عن مشاعرها الحقيقية. توقعت أن يدوم إنكار مشاعرها أياماً، وعزمت على تركها حتى تتحدث عن الأمر وحدها، لكنني أفسدت كل شيء في المساء.

لم تكن الساعة قد بلغت الحادية عشر حين داهمني النعاس، وتركت نفسي لأمواج أحلام ما قبل النوم تتقاذفني، وشذرات من يومنا الطويل تعبر عقلي بشكلٍ مشوش. شعرت بأصابع سايا تنزلق على صدري، ثم بقبلاها تغرقني بشكلٍ مغرٍ. أفقت من نعاسي واحتجت ثوانٍ حتى استوعبت أنها تقبلني حقاً، وضعت يدي على رأسها وهممتُ: "هذا ليس وقتاً مناسباً يا سايا".

ضحكت وقبّلت شفتي، وأغررتي بهمسةٍ حارة: "حقاً؟ ألن تندم لو أضعت تلك الفرصة؟"

"لا، لأن لدينا آلاف الليالي نقضيها معاً، ولكن أتريدين معرفة من سيندم حقاً؟ إنه الشخص الذي يغرق مشاعره في ممارسة الحب حتى يخسر كل شيء".

انحدرت بقبلاها على عنقي، ومن بينها همست: "ما أمتعها من خسارة!"

أمسكت يديها المستندتين حولي، ودفعتهما حتى رفعتها بعيداً عني. وحدّقت سايا إليّ بغضبٍ حقيقي. صاحت: "توقف عن هذا".

"توقفي أنتِ عن الهرب والمراوغة، أنتِ ترتكبين كل الأخطاء التي فعلتها ولا تتعلمين شيئاً. أتريدين أن نمارس الحب؟ سنفعل، ولكن أخبريني أولاً بخمسة أشياء ستفتقدونها حول نانا".

"هل تمزح؟"

"لا".

لبرهة تبادلنا النظرات، ثم دفعت يدي عنها، ومالت عليّ مجدداً، قبلتني بقوة كأنها تريد خنقي، وقالت: "أول شيء: إنها تطبخ لي لتدلّني".

وقبلتني قبلة أخرى أشد قوة، كانت عنيفة وكأنها تعاقبني، ورغم أنني عزمت على تلقي الغضب الذي ستصبه فوق رأسي إلا أنني لم أتحمل. صاحت: "ثاني شيء: إنها تبقى جوارى وأنا مريضة".

ومالت لتقبلني قبلة ثالثة، لكنها لم تفعل، توقفت وعضت شفقتها غضباً، قالت: "وثالث شيء: إنها تشتري كتبتي المفضلة قبل حتى أن تُطرح في الأسواق".

وتركتني، ابتعدت لتجلس عند حافة الفراش، ورتبت شعرها بحركاتٍ عصبية. قالت: "شكراً لإفسادك ليلتي، أتمنى لو تتركوني أعالج أموري على طريقي".

توقفت مدرّكاً ما فعلت، أردتُ الاعتذار، لكنها أبعدت نفسها عني حين مددت يدي لأمسها. رن هاتفها فلم تستجب له حتى سكت. ناديتها: "سايا...".

التقطت هاتفها عندما عاود رنينه المنخفض المنغم، وسمعت صوت كيم سون هي تصيح بها: "سايا، ماذا حدث؟"

هبت سايا واقفة، وابتعدت صوب الشرفة. صاحت: "ميساو".

راقبت البهجة العارمة في حركتها، وإشراقة وجهها غير المتوقعة، ولعنت حماقتي وغبائي، ثم تبذدت فرحتها خلال لحظات واستحالت دموعاً غزيرة، وانتحبت: "لقد ذهبت يا ميساو".

وجلست على طرف مقعدها الهزاز، راحت تمسح دموعها، وأومأت برأسها بشكل متقطع ردّاً على ما تقوله سون هي عبر الهاتف، ثم قالت: "قالت لي ما قاله كينجي وذهبت، وهذا الوجد فوق طاقتي. أنا بحاجة إليك...".

لا أعرف ما قالته سون هي لتغرق سايا في هذا البكاء الحاد، وفي لحظاتٍ أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الانهيار، نهضتُ إليها فوقفت وألقت نفسها في حضني، حاولتُ تهدئتها بربتات على رأسها، وحين بلغ قلقي أقصاه ضحكمت فجأة، ولم أعد أدري ماذا أفعل غير الوقوف قربها.

- "إنني أحبك حقاً يا صديقتي، لم تكوني قط على مقربة، لكنك بقيت موجودة دوماً. طالما شعرتُ بالاستياء لأنك لا تجيبي مكالماتي وتكتفين بالرسائل، لكنني الآن ممتنة لذلك. أنا ممتنة لأنك أبقيتني على مسافة لا تجعلك تؤذي، وممتنة لكل رسالة منحني بها القوة، وكل كلمة منك جاءت كتعويذة سحرية تبدد كل يأس

تعثرت فيه. لقد كنتِ ملهمتي، وجنيتي الساحرة التي تحميني حتى من ظلام نفسي. أنا ممتنة لدرجة تجعلني عاجزة عن الكلام. ميساو، شكراً لك".

سمعت عبارة غير مفهومة من سون هي، وأجابتها سايا: "سأكون عندك في أسرع وقت".

وأنت مكالمتها وأعلنت لي بدموع متدفقة: "لقد وصلت اليابان حالاً، أتصدق هذا؟ لقد تركت كل شيء وجاءت إليّ في أول طائرة".

مسحت دموعها، واعتذرتُ بصدقٍ: "أنا آسف".

أمسكت يدي المستقرة على خدها، وأومأت لي بابتسامة صغيرة متفهمة، ثم ابتعدت وبدلت ملابسها على عجل. سألتها: "هل ستقابليني الآن؟"

"نعم، لو كان بيدي أن أكون حرّة الليلة قبل غداً، فسأفعل".

"أتحبين أن أرافقك؟"

"لا يا تاكومي، أنت مرمق وبحاجة للنوم".

"وأنتِ سيئة في القيادة".

وبختني بتقطيعة مرعبة فتراجعت عما أقول، صمْتُ حتى انتهت. وعادت إليّ وقالت: "لن أتأخر، وحين أعود أريد أن أتحدث معك".

أحطتها بذراعي كأقوى ما يكون، واستنشقت رائحة شعرها حتى تخللتني كُلّي. تنهدت وقلت: "أنا خائف عليك، في البداية خسرت كينجي والآن نانا، ولقد أحببتكما بما يكفي لتتألمي وتهاري، لكنك لا تفعلين شيئاً سوى الهرب. لا أريدك أن تهربي وتفريقي لتجدي أن الخسارة أعظم من أن تتحملها. اغضبي مني كما شئت، لكنني سأحميك من ارتكاب الحماقات التي سبقتك إليها. آه يا سايا! أتمنى لو تدركين ما أشعر به نحوك".

لان غضبها في دفء عطوف، وتمتمت: "أعرف".

"إنني أنتمي إليك...".

أكملت: "وكأنني جزء منك انفصل عنك قبل ألف سنة، ثم عثرت عليه الآن. أعرف هذا يا تاكومي، لأني أشعر نحوك بالشيء نفسه. أريد البقاء معك إلى الأبد،

أريد أن أحبك وحدك إلى الأبد، وأريد أن أكبر وأنا إلى جوارك، وأن نكون عجوزين يتشاركان العزف بأنامل مرتعشة، وأن نتبنى عشرات العازفين الشباب لنعلمهم، وتكون لنا شركتنا الخاصة. أريد أن نساfer حول العالم، وأن أجرب كل شيء معك، من الطعام التايلاندي وحتى القفز بالمظلات. إنني أحب كل شيء فيك، أنت أجمل رجال العالم، وأطفهم، وأكثرهم دفئًا. أحب تلك النظرة في عينيك بعدما تقبلي، أحب دفء جسدك، وأحب الصوت الذي همس به بعدما نمارس الحب وأستلقي فوق صدرك.. يمكنني أن أقضي الأبدية أستمع إلى ذلك الصوت".

- "سايا..."

عاجلتني بقبلة حنون، وأمسكت يدي وألصقتها بصدرها، شعرت بخفقات قلبها تغني بين جنبها...

- "ولا تظن أنني لا أعرف ما يجول بعقلك، أعرف أنك لا تزال تفكر في كينجي، لكنه حتى لو قال إنه يتفهمني، حتى لو استرددت صداقته، وحتى لو أحبني، أنا أريدك أنت.. أريدك بكل جزء مني يا تاكومي، بكل نبضة في قلبي، ولا يجب عليك أن تشعر بالتهديد من أي رجل في العالم لأنك تملكني. لقد شعرت نحوك بكل هذا منذ أيامك الأولى معنا، وتمنيت حبك كما لم أتمن شيئًا قط. سأذهب لميساو وأتحدث معها، وعندها سأتححر من كل شيء، ومهما فقدت من أشخاص فأنا سأتمسك بك حتى آخر أيامي".

وقبّلتني ثانية، ذابت في حضني ذوبانًا، حتى إذا توقفنا تهدجت أنفاسها. لمعت عينها ثانية بتلك النظرة العاشقة الصادقة، ولمست وجهي بحب، ووعدتني: "نم قليلًا.. أريدك منتبها لي حين أعود".

وتراجعت بخطوات خفيفة وهي تمسك بيدي، ثم تركتها. رأيها كما لو كانت بالحركة البطيئة، وهي تدور على أصابع قدميها، وفستانها يرفرف رفرقة حلوة حولها، ثم تغادر الغرفة، وتقفز درجات السلم بخفة، وقيل أن تدور لتكمل هبوطها وقفت ورفعت عينها نحوي، وابتمت وفي عينها وعود وعود، ثم غابت عن عيني.

خرجت سايا ولم تعد قط..

في تلك الليلة ذهبت إلى ميساو، طوق النجاة الأخير القادر على بث الحياة فيها، لكن ما حدث أنها ذهبت في لمح البصر إلى شفق أحلام بعيد، اجتذبتها لتسكنه إلى الأبد.

بعد أيامٍ من فقدانها، رأيْتُ الفيديو الذي التقطته إدارة كاميرات المرور للحادث، وانتشر حين شاع الخبر وعرف العالم أنه وقع لها. رأيَها تنطلق بسيارتها بسرعة عالية صاعدة أحد الكباري، ومن خلفها تطير سيارة أصغر تلاحقها، ثم تجاوزتها وسبقتها بكثير، ثم دارت وتوقفت بعرض الطريق لتغلّقه، ومن خلفها ضغطت سايا فراملها، واندلعت شرارات متطايرة من عجلات سيارتها إذ تدور حول نفسها تقاوم الانقلاب. نجحت سايا في إيقاف سيارتها قبل الاصطدام بمعجزة، ومرت ثواني من الهدوء ثم اندفعت شاحنة عظيمة لتكتسحها، وأطاحت بها من أعلى نقطة فوق الجسر لتسقط في النهر أسفله.

وفي الواحدة صباحًا، انتفضتُ من نومي على صرخات فزع، كانت تشو في غرفة المعيشة تمسك بذراعيّ داكي وتهزّه، وتصرخ بكلمات غير مترابطة، لم أفهم ما تقول، لكن كل خلجاتها جعلتني غير راغب في معرفة ما أفزعها إلى هذا الحد. ولما نظرتُ لي داكي بأعين واسعة، مفزوعة وعاجزة، عرفت أن الأمر يتعلق بسايا. شعرتُ بالدوار، وأمسكتُ درابزين السلم وجلستُ، أغمضتُ عيني، لكنني عجزت عن كبح الخوف الذي تسلل إلى صدري كالثلج.

وصلنا المستشفى بعد ساعة، لم نفهم ما يحدث، فقط عرفنا بأمر الحادث الرهيب، وأن سايا في حالة خطيرة، وتجرى لها جراحات عدة لإنقاذها. أخبرنا أحد الأطباء أنها مصابة بكسور شديدة في ضلوعها وحوضها وساقها، لكن أشد ما يقلقهم هو إصابة دماغها.. فجلسنا مشتين بين الهلع والحزن.

مر علينا فجر ثقيل، وفي السادسة صباحًا خرجت سايا من غرفة الجراحة. رأيَها في العناية المركزة مكبلة بالجبائر، ورأسها ملفوف بضمادات سميكة، وتحت عينيها سواد كثيف، ومن فمها يخرج أنبوب تنفس. سقطتُ جالسًا جوار باب غرفتها، ولم أجرؤ على النظر إلى الداخل ثانية، وارتى داكي جوارتي يتنفس بعسر، وللحظة تبادلنا النظرات، ثم نظر كل منا بعيدًا عن الآخر، كل منا خشي رؤية اليأس في عيني رفيقه.

وصلت نانا بعد ساعة أخرى محمرة الأنف والعينين، وانضمت إلى صمتنا اليائس.. انهمرت دموع، وترددت صلوات، وحلّقت عشرات الأمنيات، لكن أحدنا لم ينبس بكلمة. كنْتُ راغبًا في سماع أي شيء، حتى ولو كان كذبًا، لأطمئن، لكن

أحدهم لم يتكلم، وأنا لم أجرو، ولم أجد ما أقول ولو جرؤت. انكشيتُ على نفسي، واستولت عليّ رعشة.

همس دايمي: "سايا قوية، ستنجو وتبقى معنا".

هممتُ أن أصرخ فيه ليسكت، لكن صوتي ارتعش: "أنا خائف".

- "إنها قوية، وستنجو".

زادتني نبرة صوته المهزوزة خوفاً؛ لم يكن واثقاً مما يقول، ولا مؤمناً به حق الإيمان ليطمئنني، ولكن... في أعماق قلبي عرفت أن لا شيء لديّ يطمئنني، وتأكدت من هذا عندما جاء رئيس الأطباء يدعوننا إلى غرفته، فأدركت أنه لا يجب عليّ أن أذهب، ولا أن أسمع ما سيقول.

جلسنا وكل منا لا ينظر إلى الآخر، حتى قال الطبيب: "أنا أسف لليلة العصبية التي تمرّون بها".

فتحت فمي لأقول شيئاً تبخر في اللحظة ذاتها، وانتظر الطبيب ما سأقول، ثم تابع كلامه إذ تبين له تشتت أفكاري. قال: "لقد تعرضت سايا سان لحادث هائل، وفي ظروف أخرى كنا لنعتبرها محظوظة لنجاتها منه. لقد أصلحنا كسورها، وسيطرنا على النزف، و...".

نظر لي دايمي، وفكرنا معاً في شيء واحد، فبدأت أنفاسه تهدج، أما أنا فتملكني هدوء غير طبيعي. قاطعتُ الطبيب: "لماذا لا نعتبرها محظوظة؟"

ألقي إجابته مباشرةً وصرخة: "لأنها أُخرجت من الماء بعد وقتٍ طويل، أطول من قدرة مخها على تحمل نقص الأكسجين. أنا أسف".

أمسكتُ تشويدي..

- "أنا أسف، وأقدر ما تمرّون به، لكننا نخشى أن سايا سان في حالة موت دماغي. سنخضعها لمراقبة دقيقة خلال الساعات القادمة، لكننا لا نظن أنها ستكون قادرة على الاستيقاظ مجدداً".

ساد صمتٌ عظيم..

كيف توجّعنا إلى هذا الحد من الصمتِ التالي لتلك العبارة؟ وكيف تحول العالم إلى قاعة واسعة تُردد صداها، مُخلفة كل هذا الفراغ المدمر؟

مر بنا صمت أثقل من الجبال، كأنه ألف سنة، وشعرت أنني استحللت تمثالاً من حجر، لولا الوجد المهل الذي اكتسحني وأنباني أنني لا أزال حيًا. فتحت فمي لأقول شيئًا، لأصرخ، لكني ابتسمت، واجتاحتني سخرية غير مُحتملة جعلتني أضحك ملء شدي. سألته: "إذن فهي نائمة؟ نائمة إلى الأبد ولن تستيقظ أبدًا، أليس كذلك؟"

- "لولم يتغير شيء خلال الساعات المقبلة، أخشى أن هذا ما سيكون".

- "ولن نستطيع عمل شيء لأجلها، ولن نقدر على استردادها أبدًا، أهذا ما تعنيه؟"

- "أنا أسف، ولكن يجب أن تتأهبوا لأي احتمالات".

شعوري بالسخرية أعجزني عن فتح فمي، أعجزني حتى عن التفكير، وراحت لمحات من ذكرياتي معها تعبر أمامي كشريط رسوم مصورة سريع. أغمضت عيني على دموع كثيفة طفرت فجأة، وضحكْتُ، ضحكْتُ من هول وفداحة السخرية غير القابلة للتصديق التي تدخرها لنا الحياة.

كنت غارقًا في محيط ألمي البارد، حين سمعت نانا تتكلم، صوتها عصبي حاد قاطع كسكين مشحودة: "لكنها قد تفيق، سايا قوية للغاية، ونحن سنساندها، سنشعر بنا وتعود. إنها لا تملك عائلة سوانا".

أردت إخبارها أن سايا ستفضل البقاء هكذا إلى الأبد لو سمعت ما تقوله الآن. جعلني صوتها المفعم بثقةٍ بغیضة أفهم قدر الألم الذي مرّت به سايا، وثقل الرابطة التي جمعتها بها. أردتُ تدمير تلك الثقة المرفقة من صوت نانا وقلبي إلى الأبد؛ ما كان هذا ليحدث لو لم تتصرف دومًا بيقين كامل أن سايا ستبقى جوارها مهما فعلت، ومهما بلغت حماقتها، فقط لأنها عائلتها الأولى. كانت سايا الأكثر إدراكًا لهذا، ولعل ثقها في عجزها عن الابتعاد عن نانا هي السبب في تمنيا أن تنام أبدًا.. لم يكن حبها المؤلم لكينجي هو اللعنة الوحيدة التي طاردتها.

قال الطبيب: "أنا أسف يا نانا سان، نحن نخشى أن خلايا مخها بلغت مرحلة من التلف لن يمكن علاجها، ولولم يتغير شيء ستبقى هكذا حتى النهاية، أو حتى تقرر عائلتها وضع حد لآلامها".

- "نحن عائلتها الوحيدة".

ارتعش صوتها في اقترابه من حافة الانهيار، لكنني لم أشفق عليها، لم أستطع، ولم أرغب؛ أردت أن أكرهها من كل قلبي ولا أغفر لها أبداً.

قال الطبيب: "سننتظر ما ستسفر عنه الساعات المقبلة، ثم نناقش ما لدينا من اختيارات".

قلتُ بهدوء تام: "لقد ماتت سايا".

ونظرتُ إليها فنظرتُ إليّ، وبخلاف صوتها المرتعش كانت ملامحها صليبة، وبين حاجبها تقطعية ثابتة تُسيطر بها على مشاعرها. لم يعكس وجهها شعوراً معيناً نحوي، رغم ثقتي أنها رأت في عيني وعداً أبدياً بعدم الغفران. غادرت نانا المكان، وعرفت أنها ستذهب لتبكي وحدها، وتصاب بالجنون وحدها، كما كانت سايا المتكبرة تفعل.. ليتها تتألم حتى تتمنى لنفسها الشيء نفسه.

كان انصرافها اعترافاً بموافقتها على ما قلت، فكررتُ: "لقد ماتت سايا، لقد نامت ولن تستيقظ أبداً، لن تعزف معنا ثانية أبداً، لن...".

صرخ دايمي: "اخرس، اخرس الآن، هل تفهم؟ اخرس وحسب".

ونفض كالعاصفة ليجتاح المسافة الفاصلة بيننا وينزعني من مكاني، تنبأْتُ بضربته فأمسكت قبضته بين يدي. كررتُ وأنا أنظر في عينيه: "لقد ماتت يا دايمي، انتهى الأمر".

- "اخرس، لا تقل هذا، سايا لا تموت...".

أحالي اليأس وحشاً كاسراً. صحت: "إنها ميتة، لقد ماتت، كل ما تفعله بلا جدوى. صراخك وألمك لن يحركا فيها ساكناً، لا شيء سيعيدها مهما فعلت، هل تفهم؟"

- "لا".

لم أتنبأ بضربته الثانية، وسقطت أرضاً بفكٍ كادت تتحطم. انتزعني دايمي مرة أخرى ليواصل ضربي، لكن يده كانت مهتزة، ارتعش من رأسه حتى قدميه. زمجر: "سايا غير قابلة للموت، لقد وعدتني.. وعدتني...".

وسقطت يده جواره، حدّق إلى عيني والغضب ينسحب من ملامحه، رأيت انعكاس دموعي المحبوسة في عينيه. قلت: "لقد وعدتني أنا أيضاً".

عبث بي حزن قاتل لما قلت هذا، وشدة داكي لحظة ثم سقطت أولى دموعه، فاجأته حرارتها وكأنه لم يبك قط من قبل، تراجع خطوة وشق بغير تصديق، وفرد كفيه مستغرباً سيل الدموع الذي أغرقها، ثم رفعهما وأخفى وجهه بهما.. بدا أشبه ما يكون بسايا في تلك اللحظة لدرجة حطمت قلبي. انتحب داكي واهتز ببكاءٍ حار. وراقبت التواء الحزن في شفتيه المطبقتين وأنا أشعر بالهزيمة؛ لشد ما تمنيت لو أصر على ما يقول، لو ضربني آلاف المرات، وحطم فكي آلاف أخرى في سبيل ألا يتركني أقتنع بما اعترفت به بلساني.. كيف لي أن أكون أول من يعلن موتها؟

أغمضت عيني، انقضت علي موجة سوداء عالية، وهمست: "أيتها الغبي داكي، أيتها الغبي، لماذا تستسلم لكلماتي بهذه السهولة؟ لماذا لا تقاوم أكثر؟ لماذا أنت بهذا الغباء؟"

شعرت بتشو تحيط بي، ارتمى رأسها على كتفي وهي تنتحب، بكت: "سايا يا تاكومي.. سايا..".

نعم، سايا..

لقد ذهبت سايا، لا أعرف ما الذنب العظيم الذي ارتكبته لأفقدتها، لكن عذابي لرؤيتها على حافة الموت لا يقارن بالعذاب الأفدح الذي تمنته لهم وتجاهلت أني لن أنجو منه.. اليأس.

كنت يائساً من استردادها، وأحرقني اليأس بنار سوداء لا سبيل لإطفائها.

لقد ذهبت، نامت ولن يقدر شيء على إيقاظها، الحب والوجع والتمسك بها، وكل الذكريات المشتركة والمشاعر المتقدمة، لن يقدر أي من هذا على استردادها أبداً. لن أرى عينها اللامعتين العاشقتين تنظران لي مجدداً أبداً، لن تبتسم لي ثانية أبداً، ولن تحبني وحدي إلى الأبد كما وعدت.

لقد أوشكت على الموت من قبل وأنقذناها، لكن اليوم ما من معجزات تعيدها إليّ، في هذه المرة ستستكمل طريقها ولن تعود.

وأنا سأظل كما أنا، مكبلاً تماماً، ضائعاً تماماً، عاجزاً بلا نهاية.

تشو.. سايا.. تاكومي.. نانا.. داياي..

انفجرت الأسماء الخمسة في سماء المسرح، تشكلها ألعاب نارية مختلفة الألوان، وفي المركز تشكّل اسمنا الأول.. تسوباسا.

علا صراخ الجمهور فرجً المكان رجًا، ينافس ارتفاعه صوت موسيقانا. كنتُ أسابق سايا في لحننا المشترك، ونانا تضرب أوتار البيز بخفة، وداياي يقودنا إلى أسرع نقطة للإيقاع. وحلّق صوت تشو إلى آفاق الكمال الذي لا نقص بعده، حتى ضرب داياي النغمة الأخيرة، وتوقفنا معًا.

ومض اسم تسوباسا في السماء بضوء مثير، وخبا ثم تألق مجددًا. نبض بإيقاع ثابت لاحقه الجمهور بصياح موسيقي منتظم. وأيديهم مرفوعة في وضعية قبضة موسيقي الروك..

تسو.. با.. سا..

تسو.. با.. سا..

تسو.. با.. سا..

انطفأت أضواء المسرح تدريجيًا، ولوّحنا لهم بالتحية، ثم ارتكزت خمس بقع من الضوء علينا. رفع داياي عصويه وطرقهما فوق رأسه، وانطلقا الضوء الأخضر القادم من خلفه. وعلى المنصة المنخفضة أمامه أرسلت تشو قبلايتها في الهواء، ثم انطلقا الضوء الأحمر فوقها. وعلى المنصة المنخفضة التي تليها غمزت نانا بضحكة كبيرة، ثم انطلقا الضوء الأصفر فوقها. بقيتُ مع سايا تحت أضواء المسرح الأخيرة، كل منا في ناحية، تبادلنا نظرة سريعة وضحكنا، ثم ضحكنا للجمهور. لوحّت لهم

ثم انطفأت بقعة الضوء الأزرق الشاحب المسلطة عليّ، وبقيت سايا تحت بقعة الضوء البنفسجي الكبيرة، تألّقت كنجمة، بوجهٍ متورد في كمال جماله، ونظرة لامعة بالحب، وابتسامة من يملك العالم.

ضغطت زر الإيقاف، فثبتت صورتها على الشاشة..

ألقيتُ الريموت من يدي وانقلبْتُ غائصًا بين الوسائد الناعمة، تأهبت لنوم ثقيل آخر في فراشي فظيع البرودة والاتساع، لكن الستائر الداكنة لم تكن محكمة الإغلاق، فتسلل شعاع نور سميكٍ منتهكًا الظلمة المتجانسة. نظرتُ إلى الساعة الفسفورية فأنبأتني أن الشمس قد قطعت شوطًا كبيرًا في السماء الآن. إنه الضحى.

حدقتُ إلى شعاع النور متمنيًا لو يختفي وحده، ويعيد إليّ ظِلّمتي مريحة الهدوء، لكنه ازداد توغلًا في الغرفة. شرعتُ في مراقبته وهو يخترق المكان أفقيًا كشعاع بندقية قنّاص، مشكلاً من حوله هالة خافتة تسبح فيها ذرات غبار، وربما مخلوقات ضئيلة ليس بوسعي التحقق منها، لكنها تتقلب حوله مستمتعة بالدفع. استمر الشعاع السخيف في التوغل، واستمررت في محاولة تجاهله حتى ارتفع محاولاً بلوغ السقف. كان مداه يقصر وقطره يتضاءل كلما ارتفع، حتى إذا بلغ أعلى نقطة في الغرفة كان بسُمكٍ خيطٍ موشك على الانقطاع، وقبل لحظة من تبدده التام قفزتُ وفتحْتُ الستائر عن آخرها. ضربتُ الشمسُ عينيّ وشلّت حركتي.

وسط ذرات الغبار السابحة عدت أدراجي، دُسْتُ بعض ملابسي وكثيرًا من الأوراق على الأرض، ثم ارتميتُ على فراشي أتُنفس بثقلٍ محدّدًا إلى السقف، ثم نظرتُ إلى وجه سايا الثابت على الشاشة، ثم نظرتُ إلى الساعة. إنها الظهيرة، لكن النوم لم يغلبني بعد، وذرات الغبار المتراقصة تدعوني لمراقبتها وقتًا أطول.

أمسكْتُ هاتفِي وفتحتُه، تتابعت نغمات الرسائل تعلن عدم استسلام عدة مزعجين عن مطاردتي. استمعتُ إلى البريد الصوتي الخالي من أي معنى، ثم نهضتُ ارتدي ملابسي. غادرت شقتي إلى الشقة المجاورة، طرقت الباب مرتين ثم استعملت المفتاح الاحتياطي ودخلت.

في كوني آخر من الفوضى والظلمة المتجانسة، تناثرت بعض زجاجات التاكيل، وانسابت (قبل أن تلتقي) لتبدد الصمت إلى فوران هادئ من المشاعر.. ميراث سايا الأخير الذي تركته للعالم.

خرج دايفي من غرفة النوم متذمراً، كان يرتدي سراويله وجوربه، ويرفع ذراعيه ليرتدي قميصاً قطنياً خفيفاً. وبخني: "أخبرتكَ ألا تدخل هكذا، امنحني الفرصة لأفتح الباب بنفسي".

- "إلى أين تذهب؟"

- "لقد عدت حالاً. هل تأكل معي؟"

- "نعم".

تبعته إلى المطبخ، وجلسْتُ أتأمل حركته هنا وهناك. بالكاد أصبح طبيعياً، لكن عيناه لا تزال ضيّقتين، وقد استقر احتقان أجفانه على حاله دون تحسن. هل سيظل إلى الأبد بهاتين العينين المتورمتين؟ بدا التخيل هزلياً، ومنعت نفسي بقوة عظيمة من الانفجار ضاحكاً.

وضع أمامي طبق أرز صغيراً، وبعض حساء الميسو، واستأثر بقليل من حساء المأكولات البحرية. طعام بسيط مُعد على عجل ودون اهتمام.. صار طهي دايفي غاية في الرداءة، مجرد مكونات مخلوطة يلوكها ليبقى حياً.

جلس أمامي وتقاسمنا الصمت، نبتلع كُتل الطعام دون شهية بعد حركات مضغ ميكانيكية. قال: "لقد تم تحويل التعويضات الخاصة بقضيتك إلى حسابك اليوم".

- "جيد".

- "هل اتصل بك مسؤولو (ساكورا ميوزيك كومباني)؟ قالوا إن لديهم عرضاً مغرباً سيقنعك بالتوقيع معهم".

- "هل أفنَعوك أنت؟"

ابتسم بتكلف، وتبددت ابتسامته في لمح البصر. عدنا لتقاسم الصمت الطويل، ثم قال فجأة: "المستشفى كرر عرضه اليوم".

توقفتُ، وكل مرة شعرت بقلبي يتحجر، وبكتلة الحزن الملتوية فيه تنتفض محاولاً الانفلات.

- "وماذا تظن؟"

"أظن أنه يجب أن تكون ممتنًا لي يا تاكومي؛ إنني أرفع عن كاهلك عبء اتخاذ قرار مستحيل".

"شكرًا".

كان يحاول المزاح، لكنني إذ شكرته خفض وجهه نحو طبقه، غطى الشعر ملامحه، وتوقف عن الأكل. ستزداد عيناه احمرارًا خلال لحظات.

تنفس نَفْسًا خَشَنًا خنقته الدموع، ثم استعاد شيئًا من طبيعية صوته. قال: "إن ميساوجونغي هناك الآن".

"ربما يجدر بي الذهاب ورؤية فتاتي الميتة إذن".

"آه، وفكر فيما تحدثنا عنه بالأمس".

"حسنًا. ما رأيك في بيتزا للعشاء؟"

"جيدة".

خرجتُ وتركت الحزن يواصل تدمير عينيهِ. كان بيننا اتفاق غير منطوق بآلا يواسي أحدهنا الآخر، ولا يحاول التخفيف عنه، فقط نبقى معًا، في نوبات البكاء أو الغضب أو الهلع، أو حتى الحملقة في الفراغ، والسُّكْر حتى الإغماء.. مهما كان ما يحدث لأحدهنا، فعلى الآخر أن يجلس بصمت أو يرحل. كلانا كان عاجزًا عن اتخاذ خطوة إلى الأمام، وعاجزًا عن استيعاب اللحظة الحالية، تشاركنا عجزًا عميقًا مثيرًا للشفقة، لكننا لحسن الحظ لم نعجز عن إدراك مدى احتياج أحدهنا إلى الآخر، ويا لها من مزحة كونية! لقد انتهى بي الأمر عالمًا مع دايمي!

كان قد وضع في سيارتي الأسطوانة الجديدة لنانا. أطلقت قبل شهر ألبومًا كاملاً منفردًا لها، أنجزت فيه ست مقطوعات بالبيز جيتار، جاء تنوعها باهراً، وخلقت فيها مشاعر عميقة جعلتها معبودة مجتمع الموسيقى الياباني بلا منازع. قَلَبَتْ علية الأسطوانة الفاخرة ذات الغلاف الأصفر، وعليها صورتها مطبوعة بأسلوب الجرافيتي، وهي ترفع جيتارها لأعلى ورأسها مائل إلى الخلف، والألم والنشوة يمتزجان في تقطيعه حاجبها وانفراجة شفقتها. وعلى الظهر طُبع إهداء بخط يدها: "إلى سايا، ووعدتها الصادق".. أرخص تعبير عن المشاعر قراءته في حياتي.

ألقيت أسطوانتها في المقعد الخلفي، ونظرت لأسطوانة سايا التي تضم (قبل أن نلتقي) و(عندما التقينا)، والتي سَنُطلق في الأسواق صباح بعد غد. ستحلّق مقطوعاتها الأثيرتان أخيرًا لتجوبا العالم، لتخلّد الأولى أوقات حزنها العظيم، وتخلّد الثانية الحب المدمر الذي كنّته لكيّني.

عندما سمعتُ (عندما التقينا)، تلوّن العالم بالبهجة، وأشرق بقدر من الحب لا يتسع قلب لتحمله. كان بوسعي الشعور بدفء الشمس فيها، ورقة ضوء القمر، ورفرفة الروح إذ تعثر على نصفها الآخر، ثم انقلب الحال، وغرقت الموسيقى في أعماق من الألم سحيقة، حتى بدت سحبة القوس على الأوتار كسلخ روح حيّة. عزفتُ سايا في آخر مقطوعتها عذابًا خالصًا، وأنهاها نهاية ما من أحزن منها.. لقد أحبّت ذلك الرجل حبًّا لو أنني حظيت بربعه لامتلكته العالم.

لكنني لن أملك العالم، إنني مجرد رجل واحد من مليارات يملؤون الأرض، تُهدر مشاعرهم آلاف المرات في حيوات بائسة، ثم تنتهي إلى لا شيء، رغم ما كانت عليه من رسوخ، وقدرتها على تغيير مصائرهم. في النهاية ذهبت سايا، ولم يعرف كيّني قط بعمق ما كانت تضمّره له من شعور، لم يعرف أي شخص بهذا إلا أنا، وكنتُ آخر من ينبغي له أن يفعل.

سأضحى بأي شيء أملكه، وبكل سعادة، لو أنني قادر على استرجاع هذا، سأضحى بكل شيء أملكه لو أمكنني استرداد ليلة الكرنسماس تلك، لن أتبعها وهي تبحث عن كيّني ونانا، ولن أعرف مشاعرنا نحوه، وسأسمح لها بالتظاهر بأنها بخير، لتقاتل وتكون فعلاً بخير. ربما لو لم أعلم لظلت تواصل التظاهر بالقوة أمامي، وما أسلمت نفسها إلى ذلك الضعف القاتل الذي سحقها.

لم أسألها قط لماذا بحثت عنهما؟ رغم أنها علمت بالتأكيد أنهما في مكان ما يتبادلان القبلات احتفالاً، هل أرادت تعذيب نفسها؟ هل أرادت رؤية برهان حبّنا لنانا كي تتوقف عن "الإصابة بسرطانها"؟

لقد انطلقت أغنية (وجدتك) منذ أسبوعين، وباعت أكثر من خمسة ملايين نسخة في أول أيام توزيعها، وعلم العالم أجمع أن سايا كتبت كلماتها لأجلي، واشتعلت البرامج والمواقع بمئات التعليقات، وشهدت بوسّرات الأغنية الخاصة بنا انتشارًا لم يسبق له مثيل. البعض رأي محظوظًا وحسني، وآخرون قالوا إنني

بأنس لأنني فقدت هذا الحب إلى الأبد. وحدي مضغت مرارة إدراكي الحب الحقيقي
لسايا.

لم تعد لي علاقة بـ(وجدتك) بعد تسجيلها؛ كانت الكلمات مكتوبة لأجلي، لكن
نانا طوّرت لحنها، ثم شارك هيبكي ساما في غنائها، فخرجت أغنيتي مشوهة بيد
الصديقة التي دمرت سايا تدميرًا، والطاووس المتباهي الذي كان محور الوعد
الذي ارتبطت به.

ما عادت تلك أغنيتي، وانتهى تسوباسا بالنسبة إليّ.

لكن سايا سجّلت شيئًا آخر لأجلي، سلمني إياه دايمي دون أن يطلع عليه. قالت
لي في بداية الأسطوانة بصوتٍ باسم: "هذه المقطوعة لك يا تاكومي، وقد أسميتها
باسمك. لا شريك لك فيّ يا تسوباسا تاكومي، وإني أحبك".

وسحبت القوس على أوتار كمانها، فسمعت أجمل ما في حياتي من ألحان،
وأنبثق في قلبي الحب، الاشتياق، الشغف، التوق، الافتتان، السعادة. بمجرد
الاستماع، كان بوسعي تخيلنا معًا في الثمانين أو التسعين من العمر، جالسين في
مرجٍ تعبره الرياح، فيصنع تراقص الأعشاب نغمة عذبة. كان بوسعي رؤيتها معي،
نائمة في حضني بشعرٍ فضيٍّ، تنبعث منه الرائحة العطرة التي أعرفها، ويدها
المجعدة راقدة على صدري. جعلتني تلك المقطوعة أرى كل الاحتمالات التي كان لنا
أن نعيشها.

لم أتحمل سماعها مرة أخرى، ولم أجد عسرًا في التخلص منها إلى الأبد.

وصلت المستشفى المتخصص في رعاية حالات الغيبوبة الطويلة، ولمحت
اللافتات التي وضعها معجبوها بطول السور الداخلي. تقلص وجهي كرهًا
واحترقًا؛ ما عدت أتحمل وجود هؤلاء القتلة على قيد الحياة.. لماذا لم يموتوا
جميعًا ويخفوا كأن لم يكونوا؟

رفعت عيني صوب غرفة سايا، لم يخف بعد الثقل الذي أشعر به عند زيارتها،
ولم أعتد بعد رؤيتها هكذا. كان دايمي وصيها القانوني، والمتحكم في إصدار أي
قرارات تخصها نيابة عنها. وعندما أعلنوا موتها، رفض فصل الأجهزة عنها، قال إن
سايا المتكبرة كانت لتتمسك بالحياة حتى الرmq الأخير، ولن تقبل الموت بإرادتها
أبدًا، وقال إنه سيمنحها رعاية استثنائية ويصلي من أجل معجزة تعيدها.

أحيانًا يدفعنا الأمل لاتخاذ أكثر التدابير يأسًا، وأقدرها على تدميرنا تدميرًا تامًا، وهذا ما فعله دايمي. لم تكن سايا معنا، لكننا كنت نموت موتًا بطيئًا، ونعيش احتضارًا طويلًا مريضًا جوارها على أمل أن تعود.

في غرفتها كان كل شيء كما هو..

لا تزال نائمة كما تركتها أمس، لم تتحرك قيد أنملة ولم يتغير شيء حولها. كان نصف فراشها مرتفعًا بعض الشيء، وأنبوب التنفس يلتوي خارجًا من فمها، سارقًا أنفاسها كوحش. والشاشات المضيئة خلف فراشها تبث أرقامًا وخطوطًا متعرجة لا معنى لها.. إيقاع السكون الرتيب لا يزال راسخًا لم يحركه شيء.

إلى يمين فراشها جلس كيم جونغ جين ممسكًا بيدها مؤازرًا، وجواره كيم سون هي تنظر إليها بصمت. وعلى الناحية الأخرى جلس كينجي، يمس جوار أذنها، ويمسك يدها، ويده الأخرى تمسح على شعرها، ويبتسم كأنه يحكي لها قصة خيالية. شعرتُ بغليان الوجد في صدري.

لمحي بالخارج فهض، قَبْلَ جبين سايا، ثم حيًا جونغ جين وسون هي.

لحق بي قبل أن أختفي في أقرب ممر، ناداني مرارًا رغم تجاهلي إياه، ثم سبقني واعترض طريقي، وفي عينيه إصرار لن يقبل مزيدًا من الهروب. كنت أبغضه بغضًا صريحًا لا مواربة فيها، وكانت كلماتي تتدفق كشلال مقت إذا تحدثنا، فرغعت بيننا حاجزًا أبدئيًا باطنه الكراهية من جهتي، والاضطراب من جهته.

قال: "أعرف أنك لا تريد رؤيتي، لكن نانا أخبرتني أنك تأتي مساءً".

تفاديتَه لأبتعد، فاعترض طريقي مرة أخرى. توسل إلي: "لقد مرت أشهر يا تاكومي، ألن نتحدث إلى الأبد؟"

لم أجد طاقة حتى للنظر إليه. تابع: "ربما سيغضبك هذا، لكنني أيضًا أتألم".

لم يغضبني فحسب، بل كاد يطيح بعقلي، نظرت إليه أتمنى أكثر من ذي قبل لو لم يكن موجودًا على الإطلاق. هممت بتركه لكنه واصل منعي، أمسك كتفي يجبرني على النظر في عينيه.. كانتا مملوءتين بخوفٍ صارخٍ ورجاء.

استسلمتُ، وبيروود سألتَه: "ماذا تريد؟"

"ذلك المشهد من المسلسل، هل كان تمثيلًا؟"

الزمت الصمت وأنا أنظر في عينيه، وانتفضت كتلة الحزن في قلبي، ارتعشت، وانقلبت رأسًا على عقب، كانت تحاول التحرر بإصرار.

بتهمك بارد سألته: "ألم تكونا أمام الكاميرا؟"

- "أرجوك لا تسخر مني".

كان يتألم فأحببت مواصلة اللهو به، وابتسمت ابتسامة كبيرة. قلت: "أنت تسخر من نفسك. أترى أن المشهد لم يكن تمثيلًا؟"

- "أتراه أنت كذلك؟"

هزئت كتفي ونخرت ساخرًا: "العالم كله يراه كذلك".

- "تاكومي...".

تبددت السخريّة من وجهي. سألته: "هل كنت أنت تمثل يومها يا كينجي؟"

أبعد يديه عن كتفي، وتراجع حتى فصلت بيننا مسافة سمحت لكيلنا بمراقبة الآخر. نخرت ساخرًا مرة أخرى، وابتسمت ابتسامة أكبر؛ كان يفرق أمام عيني في بحرٍ من الندم غير المحتمل، والحزن العاجز عن إصلاح شيء. شعوره بأنه ملعون بذنبٍ غير موعود بالغفران منحني متعةً وجدلاً لا يقدران بثمن، وبثًا في السعادة لأول مرة منذ ماتت سايا.

قلت بهدوء: "أتعلم لماذا لا أريد رؤيتك؟ لأنني كلما نظرت إليك رأيت وجوه معجباتك اللاتي قتلنها.. مجرد وجودك على قيد الحياة يثير غضبي يا هيروماسا كينجي، ولا أرجو شيئًا قدر رؤيتك راقدًا هناك بدلًا منها".

نظر بعيدًا عني، وفي وجهه ألم من تندلح فيه النيران، لم تكن ألامه مواساة كافية قادرة على التخفيف عني، لكن شعوري الوحشي بأنه يتقاسم معي التعاسة جعلني أنتشي. وقفت أراقبه باستمتاع.

- "تاكومي، لقد كانت أعز صديقة لي في الحياة، ولقد فقدتها قبل أن أصلح الأمور بيننا، وكان آخر ما سمعته مني أنني سأحطمها، هل تظن أنك قادر على كراهيتي أكثر مما أكره نفسي؟"

- "نعم".

ومررت بجواره فلم يعترضني، فقط سألتني: "هل كانت تمثل يا تاكومي؟"

وقفتُ جواره، وكل منّا يحدق إلى الآخر..

اعترفت له أخيرًا: "لقد قالت هذا".

كان يعرف ما سأقوله، ولعله كان واثقًا منه وإن انتظر سماعه صراحة، ورغم هذا اندلع في وجهه أعظم ألم تمنيته له يومًا، حلق في وجهي بعينين متسعيتين، ثم تأوه: "اللعنة يا سايا".

وغزت صوته حشجة شوّمت نبراته فتبينت قوله بصعوبة.

مضت لحظات صمت وكينجي يتنفس بعسر، كأنما يغرق، ثم سار بخطوات مية إلى أقرب مقعد وجلس، وبعد أنفاس عسيرة أخرى أغمض عيني، كان بوسعي رؤية عالمه يدور من حوله وينقلب رأسًا على عقب، ولشد ما أرضاني هذا. أكملت اعترافي: "قالت إنها كانت تمثل، وقالت إنها ستحبني وحدي إلى الأبد. لولا معجباتك الغبيّات اللاتي قطعن عليها الطريق لكانت بيننا الآن تخبرك هذا بنفسها، فشكرًا لوجودك في الحياة".

كان هذا أكثر مما تمنيت أن أقوله يومًا، لكنني إذ انتهيت من انتقامي الضئيل والوحيد هذا، شعرت أن سبيلي إلى ترك كينجي قد اختفى، هممت بالذهاب، أردت أن أرحل، لكن حبلاً من الوجد اتصل بيننا وقيدني في وقفي. لم أستطع الابتعاد عنه، ولشدة الدهشة تأملت لأنني ألمته إلى هذا الحد، وبدت لي كلماتي كسكين جززت بها عنقه.

للحظة كدت أشفق عليه، لكنني تذكرت اللقطة التي أعدت تكرارها آلاف المرات لفيديو الحادث.. عندما اكتسحت الشاحنة سيارة سايا، كانت في وضع يؤهلها لتفادي الاصطدام، أو تغيير اتجاهها لتقاوم السقوط عن الجسر، مرت نحو خمس عشرة ثانية قبل أن تصبح في خطر حقيقي، لكن سايا لم تفعل شيئًا.. كانت واعية، وقادرة على القيادة والمراوغة، لكنها لم تفعل شيئًا.. لم تمرلية دون أن ينغرس هذا الإدراك في قلبي ويسحقني.

تمتمتُ: "أتمنى لو كان أنت".

كان يتمم بكلماتٍ مبهمة، مستميتًا في محاولة توصيل صوته لي، غير أن الألم أبقي نبراته في أدنى حدودها، اقتربت منه خطوات وسمعت: "أنا أسف".

ابتسمت هازناً، اكتنفت رؤيتي غشاوة الدمع العنيدة لثوانٍ، ووقفت وبني قلق عليه وألم، وكراهية تفوق الحد، حتى استرد أنفاسه وجلس ثابتاً يحملق في الجدار الفارغ أمامه، ثم نهض وتحاشى النظر إليّ. قال: "منذ الغد سآي لزيارتها في العاشرة صباحاً، لن يكون عليك أن تقلق من مقابلي بعد اليوم".

هممت بالرد، لكنه ولأول مرة منذ أشهر تركني بنفسه، ابتعد عني، وبقدر ما تمنيت تلك اللحظة من قبل، شعرت أنها أخذت مني جزءاً آخر من عالمي القديم ليختفي.

عدتُ أدراجي إلى الغرفة التي لا يتسرب الزمن إليها..

كان جونج جين بعد يمسك يد سايا، وإلى يسارها جلست سون هي ترتب شعرها، فانتظمت خصلاته المنثورة على كتفها اليسرى بأناقة. ثم أمسكت منشفة صغيرة مررتها على جبينها وعنقها بربطات خفيفة، وعدلت ثوب المستشفى كي لا يضايق عنقها.

لم تشعر بدخولي، كانت في كون آخر وهي تعتني بسايا بتلك اللمسات اللطيفة، وعندما انتهت أمسكت يدها بين يديها، وشدت مقعدها لتتقرب منها، همست: "المسافات لا تعني شيئاً يا صديقتي، أنا مؤمنة بك، أعلم أنك هنا. وأنتك ستعودين مجدداً، أنا متمسكة بك مهما قالوا. كل شيء سيكون على ما يرام يا سايا، كل شيء".

كررتُ عبارتها الأخيرة كثيراً، استماتت في ترديدها وكأنها تعويذة سحرية ستنتثر منها النجمات اللامعات، كعصا جنية سندريللا، فتعود سايا فوراً.

برغم ياسي المطلق، شيء ما أشرق في قلبي إزاء هذا الإصرار الواثق..

- "أنا أحبك يا صديقتي، كنتُ الأفضل دائماً بالنسبة إليّ، كنتُ الأقرب رغم اتساع المسافات وطول الزمن. أنتُ الأفضل يا سايا، والأقوى، أنا مؤمنة بك يا صديقتي، وأنا على يقين أنك لن تخذلي إيماني، طالما كنتُ بطلي الخاصة المهمة. كل شيء سيكون على ما يرام يا سايا، كل شيء، أنا أعدك بهذا. أنا أحبك يا صديقتي، أحبك كثيراً جداً".

مرة أخرى كررت تعويذتها السحرية كثيراً، كانت حرارتها كفيلة بتحريك الكوكب عوضاً عن قوى الجاذبية وقوانين الفضاء، كفيلة بإذابة الجليد وإغراق

العالم في فيضانات، لكنها لم تكن كافية لمحو صلوات سايا التي كُتبت في مكان ما في السماء، ووُعدت بالتحقق، وتحققت. ظلت سايا نائمة، حتى حب ميساو العزيزة ظل عاجزاً عن الوصول إليها وإيقاظها.

قلت بجفاء: "كل هذا بلا جدوى".

انتبها لي فارتبكا، أحنى لي جونج جين رأسه بالتحية فانحنيتُ له، وابتسمت لي فانتني الكورية ابتسامة بَراقة لم تؤثر فيَّ..

- "لا شيء يضيع في الكون يا تاكومي سان، لقد بلغتُ مشاعري عندما فرقنا مسافات وسنوات، ولن تعجز عن بلوغها الآن وأنا معها".

- "مشاعرك لن تغير شيئاً، لقد تمننت سايا أكثر من أي شيء آخر أن تنام ولا تستيقظ أبداً، ولن تتراجع عن أمنيتها، وحتى لو فعلت فهي بالتأكيد لم تعد المتحكمة في الأمر".

- "أنت لم تعرف سايا بما يكفي إذن".

وأشرقت ابتسامتها كالشمس ورفعت يدها الممسكة بيد سايا. قالت: "أترى؟ لقد حركت أصابعها اليوم قليلاً لتقبض على يدي، إنها تشعر بي وسوف تستجيب لي دون شك يا تاكومي سان، وقريباً جداً، أنا أثق في سايا".

لم يكن ثمة تغيير في يد سايا، كانت مسترخية بالشكل الذي اعتدته منذ سبعة وتسعين يوماً وأربع ساعات، كل شيء كما هو.

ابتسمتُ بسخرية وأومأتُ برأسي. أردتُ أن أخبرها أنها تتوهم، وتختلق ما ليس له وجود لتهرب من الحقيقة التي تُصلي قلبي ليلاً ونهاراً، ثم أشفقتُ عليها من ألم اليقين فقررت الصمت. تلوّت كتلة الحزن في قلبي فانفلتت قليلاً، وشعرت أنني لا أتحمل تعاويذها السحرية المحبّة، كانت كقطرات من السم تصب في حلقي حتى اختنقت.

قرب جونج جين مقعده من سايا، واحتضن يدها بيديه معاً. همس: "لقد كتبنا الأغنية التي سنؤدّيها معاً يا سايا تشان، أعرف أنك ستحبّينا".

ووضع يده على جبينها. قال بابتسامة: "أسميتها (حياة للأحلام)، أليس اسماً رائعاً؟ إنني بارع في اختيار أسماء تخطف قلبك. اسمعي جيداً".

دندن جملة موسيقية طويلة بصوت عميق غليظ، ثم لان صوته ورق،
وانساب في أرق وأعمق طبقة صوتية ممكنة:

"لا أزال أتذكر أنك المرأة الوحيدة التي أحببتها..

لا أزال أتذكرك وحدك..

صوت أنفاسك الدافئ..

وكأنك بعد في حضني..

ربما كان هذا حلمًا..

أنتِ غير موجودة.. وكأنك في عالمٍ آخر..

برغم أنكِ إلى جوارِي، لكنك لستِ معي حقًا..

لا يمكنني البقاء أكثر في عالم لا يضمك..

ولا أستطيع أن أجدك مهما فعلت..

أنتِ كل شيء بالنسبة إليّ..

دونك، أحيا بغير حياة.."

انفلتت كتلة الحزن تجتاح قلبي، وأطلقت الضعف الكريه الذي خشيت
تحكمه بي، واليأس التام الذي خشيت تمكنه مني، كل شيء تمكن مني في تلك
اللحظة، ولم يعد ثمة مهرب لي. جلست مستسلمًا، وضمت يديّ على صدري،
وارتعشت ألمًا، وخرجت مني آهات خفيفة، واستعصت عليّ أنفاسي وكأنني
سأختنق. حاولا تهدئتي، لكنني أردت أن أترك وحدي إلى الأبد، أبكي كما أشاء،
أموت كما أشاء، ولا أعود إلى هذا العالم أبدًا.

قالت لي سون هي: "أنا أفهم ما تمر به...".

زجرتها مبعدًا يدها عني: "لا أحد يفهم شيئًا، اصمتا واتركاني وحدي".

صمتا لكنهما لم يتركاني.. ربتت سون هي على ذراعي، ووضع جونغ جين يده على
كتفي مهنوًا عني، أو محاولًا أن يفعل.

انهمرت كلماتي ببطء: "لا أحد يفهم شيئاً. الآن فقط أدرك ما كانت تشعر به وهي تصلي لأجل أمنيته. إنني عاجز عن الاستمرار في مراقبتها هكذا عالمًا أنها لن تفيق أبدًا، وعاجز عن الانتحار، وعاجز عن تقبل هذا الوضع، لا أستطيع فعل شيء، ولن يحدث ما يغير هذا القدر، وأنا لا أتحمل هذا. ليتني رافقتها في رحلتها الأخيرة تلك لئننتي معًا، ليتني منعتها حتى ولو أحوالت حياتي جحيماً، أو حتى خسرتها، أما هذا الوضع... هذا الوضع أنا لا أتحملة، ولن أتحملة أبدًا".

قال جونج جين بتصميم: "هذا الوضع لن يستمر لو أمنت بهذا، صل لأجل انتهائه وأمن أنه سينتهي. دون إيمان نحن مجرد موتى".

- "حاول أن تتخيل نفسك مكاني، بأي شيء كنت ستشعر؟"

ونظرت إليه، كنت متوحشًا وأتأهب للانفجار لو أجابني بتلك الإجابات البراقة التي تريدني أُلماً، لكنه اهتز، لم يجرؤ على الكذب. أجابني بوضوح: "كنت سأود لو أنام إلى الأبد ولا أستيقظ ثانية".

لماذا لا يكدبون أبدًا حين أرجو هذا؟

ألمني صدق إجابته أكثر من الكذب الذي تأهبت للثورة عليه، كسرتني، شعرت باحتراق في عيني العاجزين عن البكاء أكثر، وفكرت أن داكي الأحمق محظوظ بأبار دموعه التي لا تنضب. ضحكت فجأة بشكلٍ بلبلَ ذهنيهما، أغرقت في الضحك ثم تنفست وأطلقت زفيرًا عادت بعده جهامتي غير منقوصة. صدقت على قوله: "هذا ما أوده الآن".

هزت سون هي ذراعي وهزرتني: "لا تقل هذا أبدًا، أبدًا، أرجوك".

ثم شدتني لأنظر إليها وقالت: "سيكون كل شيء على ما يرام لو أمنت بهذا، دون إيمان أنت ميت".

- "لم تعد بي القوة الكافية للإيمان يا ميساو سان، لم تعد بي القوة لأي شيء في الواقع، تقبل الأمر، أو إنكاره، أو تحمله، أو الصلاة لأجل انتهائه، لم أعد قادرًا على هذا. الشيء الوحيد الذي أوده حقًا...".

- "لا تقل هذا أرجوك، أرجوك".

ابتلعت ربي وصمت، ولأول مرة شابت صوتها نبرة بكاء وهي تقول: "فكر في مشاعرها لو أصابك مكروه، أنتحمل أن تجعلها تمر بما تمر أنت به الآن؟"

سخرت منها بمرارة: "ولماذا لم تفكر هي بي في هذا الوضع؟ أو بدايكي؟ أو تشو؟ أو بك؟ هي لم تفكر بأحد سوى نفسها".

"-لا تلمها، أنت تفهم مشاعرها الآن أيما فهم".

تنهني لتناقض مشاعري جعلني أهدأ قليلاً، تنفست بعمق، وعندما تمالكت نفسي قلت: "سأترك لك عبء الإيمان يا ميساو سان، فبعد أي شيء كانت سايا تؤمن بك، وتؤمن بإيمانك أكثر من إيمانها بأي شيء آخر".

لمعت عينها بالدمع، ورغم هذا كانت ابتسامتها صادقة..

"-سأجهد كي لا أخذل إيمانها إذن، أنا واثقة أنها ستكون فخور بي عندما تعرف أن ثقتي بها لم تترجح رغم يأس الجميع".

ابتسمت بسمه شاحبة..

أمسك جونج جين يدها وأنهضها، وبصوت لطيف قال: "سنتركك قليلاً معها".
وقالت سون هي: "نحن باقيان حتى الغروب، لكننا سنسافر ليلاً لأن ميناه مريضة".

"-ميناه؟!"

أجابني جونج جين بنفس اللطف: "طفلتنا".

"-آه، أرجو أن تشفى سريعاً".

قالت سون هي: "عندما تشفى سنعود لأجل سايا، وحتى هذا الحين سنصلي لأجلها، ولن نفقد إيماننا بقوتها أبداً".

هز جونج جين رأسه مؤكداً، ثم أحنيا رأسيهما بتحية رددتها بانحناء عميقة، وعندما خرجا رفعت رأسي ببطء، اختلست النظر بطرف عيني لفراش سايا، ثم عدت أنظر بعيداً..

"دون إيمان أنت ميت"

رنت الكلمة في رأسي كالصدى، وانتهى بي الأمر إلى ترديدها دون توقف.

نهضتُ، وبخطواتٍ بطيئةٍ سرْتُ إلى فراشها وأنا لا أحول عينيَّ عنها، جلستُ جوارها وأمسكتُ يديها المضمومتين قليلاً، والمستقرتين فوق بطنها، احتضنتهما وكأنَّ الفرصة لن تسنح لي ثانية. كانتا باردتين، وكانت تلك البرودة المألوفة هي الأمانة الأخيرة على أن تلك الفتاة الراقدة أمامي، الذابلة، الشاحبة، المستسلمة، النائمة إلى الأبد، هي سايا التي أعرفها..

الشهاب الذي قطع سماء عالمي في ليلةٍ حالكة، ثم انطفأ.

نظرتُ إلى يديها، ثم إلى وجهها، ومن مكان ما في الكون الواسع تسرب سلام ساكن إلى قلبي، فوددت لو يتوقف الزمن الآن، في تلك اللحظة التي أتأمل فيها وجهها، مفكراً في الإيمان القادر على إعادتها لي. تُرى، ما قدر الأمل والألم للذين يجب أن أعانيهما لأنال ذلك الإيمان السحري؟

قبضتُ على يديها أثبت فيهما شيئاً من الدفء.

يدالك لا تزالان مضمومتين على بعض الأحلام يا سايا، أحلامك، تلك التي تنازلت عن بعضها مقابل العائلة، وبعضها لأجل سعادة من أحببت، لكن بعضها لا يزُل موجوداً. إذا كنت لا أستحق أن تنماسكي لأجلي، وإذا كانوا يستحقون المعاناة، فأحلامك أهم منا جميعاً، يجب أن تعودني لأجلها، يجب أن تحققها، لقد قلت إنها أهم من حياتك نفسها، ألم تقولي؟

تحرك الزمن مجدداً، وانتهت لحظة السلام عائدة من حيث أتت، وسحقتني ألم جعلني أود لو أموت فوراً ليتوقف. أخذت نفساً عميقاً حاولت مزجه بأوجاعي وزفره بعيداً، لكنه زادني ألماً وكأنه ينقل النار من قلبي إلى خلاياي. لقد عدت وحدي، ويتعاضم شعوري بالوحدة كلما جئت لأراها.. لم أستشعر قط طيف وجودها الشاحب الباهت كما حدث في غيبوبتها السابقة، وشدة يأسي حاولت خلقه بنفسي، لكنه ظلَّ يشحب ويشف يوماً بعد يوم، وببطء شديد غاصت سايا بعيداً بعيداً، وسحبها الظلمة حتى أخفتها عني إلى الأبد. والآن، في غرفتها الواسعة تلك، لم يكن أحد غيري، وصوت أفكاري، وصوت الأجهزة الخافت، البرهان الأخير على حياتها الهشة، والتي استحالت كابوساً أعيشه دون أمل في الخلاص.

أمسكتُ يدها المضمومة على بعض الأحلام التي لا أعرفها، شبكت أصابعي بأصابعها وناديتها، مراراً ناديتها وانتظرت، لكن انتظاري لم يسفر عن شيء.. لم تفتح سايا عينيها، ولم تشعر حتى بوجودي. تأكدت أكثر من ذي قبل أنها في ظلامها

الخاص الخالي من الحب والوجع، وعلى الأرجح ستبقى فيه إلى النهاية، وسأظل أنا هكذا، وحدي في ظلامي الخاص المفعم بالألم، أراقبها عاجزاً حتى عن معرفة أي حلم يعبر بعقلها في تلك اللحظة، جاهلاً إذا ما كانت بشكل ما تشعر بي أو تأسف عليّ.

قالت إنها ترى وجه كينجي كلما أغمضت عينها، فهل يرافقها وجهه وحده في نومها الأبديّ هذا؟ وأنا؟ ماذا عنيّ أنا؟

لو لم يكن كينجي حب حياتها الحقيقيّ، ما تحققت صلواتها بأن تنام هكذا، لكانت عادت إليّ وبقينا معاً..

انحدرت دموعي لترطم بيديّ ويديها، تخللت أصابعنا حتى اختلطت براحتينا، سألتها: "أحقاً لا تشعرين بي؟ أحقاً لا أعنيك إلى هذا الحد يا سايا؟"

لم تجبني، حاولت تخيل الوجع التي جعلها ترجو بلوغ هذا السكون الميت مهما كان ما ستعانيه أو يعانیه سواها، فكادت الفكرة تصيبني بالجنون، ودوى الألم في رأسي في صرخات غير منقطعة.

لا أستطيع رؤية أي خير فيما يحدث لك يا سايا، حتى ميساو قالتها "أنتِ عانيتِ كفاية لتستحي حياة رائعة"، لكنك لم تحظي بأي شيء رائع حقاً.. أصدقاء أغبياء، وأحمق عاجز مثلي، وأقدار لا تمنحك السعادة التي تستحقين. كيف كنتِ قادرة على الابتسام والادعاء بكل ثقة أن مستقبلك رائع لدرجة تهر الناظرين؟ أكنت تكذبن في هذا أيضاً كما كذبت بشأن عائلتك وحبك وأحلامك؟ أم خُذعت؟

هذه الحياة خادعة ومخادعة يا سايا، لقد استدراجتك لتمرّ بكل دروب المعاناة التي قطعتي، وفي النهاية انتهى بك الأمر نصف ميتة، المستقبل الرائع لم تنالي منه شيئاً إلا فراشاً فخماً في مستشفى، وزيارات معدودة ممن اعتبرتهم يوماً عائلتك، وبمرور الوقت ستكونين وحدك حقاً، وستموتين وحدك، أي روعة تلك التي أقسمت أن مستقبلك يخبئها لك بحق السماء؟!

هذه الحياة غادرة وقاتلة يا سايا، في كل يوم تحدث آلاف الأشياء عديمة الجدوى في عالمنا المختل.. ما معنى المشاعر إذا كانت تلك نهايتها؟ وما غاية الحب إذا انتهى بنا الأمر مُدمرين هكذا؟ وأي أهمية تشكلها عائلة تهتم بك بقدر استفادتها منك، ثم يتوارى أفرادها مبتعدين؟ ما المعنى من فقدك هيروماسا

كينجي وفقدي لك، في حين ينعم ملايين بالحب دون أن يملكوا القدر الذي نملك من الإخلاص والاستعداد للتضحية؟

ما المعنى من فوزنا بآلاف الأشياء التافهة عديمة المعنى، في حين تبقى أمنياتنا الأعلى بعيدة كالنجوم؟ أو تكون في متناول أيدينا دون أن نملك الحق في لمسها؟ هذه الحياة لا تطاق يا سايا، حقًا.

لا أفهم لم تحررنا أشياء بسيطة قد تجلب لنا كل السعادة؟ ما الحكمة من بقاء الإنسان على سطح هذا الكوكب يعاني في كل لحظة دون نهاية؟ السعادة رخيصة للغاية بالنسبة إلى القدر، وهين عليه منحنا إياها، لكنه يبخل بها، يؤخرها إلى أجال غير معلومة.

ولا أفهم حكمته في تأخيرها، أضناني التفكير ولم أصل إلى إجابة سؤالي.. أخبرني يا سايا، ماذا سيضير القدر، والبشرية، والكوكب كله، إذا ما فتحت عينيك الآن وابتسمت لي؟

[تَمَّت]

هيرميتا

3 نوفمبر 2015

عن الكاتبة

آية عبد الرحمن.. كاتبة ومترجمة ومحركة صحفية مصرية. تخرجت في كلية الآداب بجامعة القاهرة، قسم اللغة الإسبانية، كما درست اللغة اليابانية وأدائها بمؤسسة اليابان مكتب القاهرة.

فازت روايتها الأولى "أيامٌ برائحة عطرك" بجائزة الشارقة للإبداع العربي 2014، كما فازت بجائزة "أفضل نقد" للملحمة الشعبية الكورية "تشون هيانغ"، بكلية الألسن جامعة عين شمس 2013.

حصلت مؤخرًا على جائزة "أفضل مقال صحفي" بموقع "إضاءات" لعام 2017.

نُشرت لها قصص قصيرة بجريدة "أخبار الأدب" المصرية، بجانب مقالات متنوعة بجريدة "التحرير" وموقع "دوت مصر" و"اليوم الجديد" و"نون"، وغيرها، وتشارك حاليًا بتقارير صحفية في موقع "رصيف22".

للتواصل مع الكاتبة

Facebook: Bariq.Hermita

E-mail: aya.rahman03@gmail.com

